المنهج التربوي للسيرة النبوية
١١

التربية السياسية

د. منير الغضبان

الجزء الثاني

دار الوفاء

الطبعة الثالثة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM

المنهج التربوي للسيرة النبوية

(١١)

التربية السياسية

الجزء الثاني

منير الغضبان

بسم الله الرحمن الرحيم

ولاة رسول الله ﷺ

الوالى الأول : باذان الفارسى

الرسول ﷺ يبعث بعد الحديبية الرسل إلى ملوك الأرض، فقد اعترفت مكة بدولته وأقامت بينه وبينها هدنة لعشر سنين توضع فيها الحرب ، ويأمن فيها الناس .

(وفيها بعث رسول الله ﷺ الرسل :

فبعث فى ذى الحجة ستة نفر ؛ ثلاثة مصطحبين ؛ حاطب بن أبى بلتعة .. إلى المقوقس .

وشجاع بن وهب ـ من بنى أسد بن خزيمة . . . إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى.

ودحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر .

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى .

وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى) (١) .

(وفيها كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى . وبعث الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمى فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله. فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

فلما قرأه مزقه وقال : يكتب إلى هذا وهو عبدى) (٢) .

هذه هى نظرة كسرى ملك الفرس ، هم عبيده . وقد اعتاد على أن يأتيه زعماؤهم يقدمون له الولاء والطاعة ، ويعلنون له العبودية فيتحفهم بالهدايا . ويطلب منهم حماية قوافله من لصوص الأعراب . فهو لا ند له إلا قيصر إمبراطور الروم ، وهما يقتسمان العالم آنذاك .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٣٢ .

فأن يأتى عربى من يثرب ، يكتب له هذا الكتاب . ويقدم اسمه على اسمه . فهذا ما لا يطيقه عقله ودون أن يفقه ما فى داخل الكتاب . جنَّ جنونه ومزّق الكتاب؛ لأنه مخالف للأعراف الدبلوماسية التى يعهدها ، أن يقدم العبد اسمه على اسم ملك الملوك ابن الشمس . وقال بعد أن مزقه :

يكتب إلىَّ هذا وهو عبدى !

ولم ينس كسرى أن ملكه فى اليمن يناطح السحاب . وأن نائبه باذان هناك فلم لا يوكل إليه أسر محمد أو قتله ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال . يرد سؤال قبله . كيف ملك كسرى بلاد اليمن؟ لنفقه من خلال هذا السؤال تصرف كسرى ملك فارس مع رسول الله ﷺ .

كانت الحبشة تحكم اليمن. وكان آخر عهد الناس بها غزو الكعبة والبيت الحرام منهم وكيف أهلك الله تعالى أصحاب الفيل: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤** ﴾ [الفيل] .

وكان هذا فى عهد أبرهة الأشرم الذى هلك مع قومه .

(فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة . فلما هلك يكسوم ملك اليمن اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة .

فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى ، وكان يكنى بأبى مرة حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ، ويبعث إليه من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن . فلم يشكه [(١)] ، ولم يجد عنده شيئًا مما يريد فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة ، وما يليها من أرض العراق . فشكا إليه أمر الحبشة . فقال له النعمان :

إن لى على كسرى وفادة فى كل عام . فأقم حتى يكون ذلك . ففعل .

ثم خرج معه فأدخله على كسرى .

وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه . وكان تاجه مثل القنقل[(٢)]

---

(١) لم يشكه : لم يهتم بشكواه .

(٢) القنقل العظيم : المكيال ، وقيل :هو مكيال يسع ثلاثة وثلاثين منًا. والمن : وزن رطلين تقريبًا .

العظيم - فيما يزعمون - يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقًا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه . فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له . فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك . . ثم قال له :

أيها الملك ، غلبتنا على بلادنا الأغربة (١) ؛ فقال له كسرى : أى الأغربة ، الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة ، فجئتك لتنصرنى ، ويكون ملك بلادى لك . قال : بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورّط جيشًا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك) (٢) .

هذه هى النفسية العربية بعزتها وجبروتها قبل الإنسان ترفض طاغية لتقيم طاغية آخر مكانه فتدين له . فقد كره اليمنيون الأحباش . فاستنجدوا بالروم فلم ينجدوهم . فاستنجدوا بكسرى ملك الفرس . فلابد من ملك يخضعون له . ملك الروم أو ملك الفرس . وكان الأباطرة زاهدين بملك اليمن . فليس بها من الخيرات ما يستحق توجيه جيش لها . وخسارة جنود فيها .

واكتفى كسرى بأن يجيز سيفًا بصفته أحد سادات العرب بعشرة آلاف درهم :

(ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ ، وكساه كسوة حسنة . فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر ذلك الورِق على الناس . فبلغ ذلك الملك ، فقال : إن لهذا لشأنًا ، ثم بعث إليه ، فقال : عمدت إلى حِباء (٣) الملك تنثره للناس ؟! قال :

وما أصنع بهذا ، ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة - يرغب فيها .

فجمع كسرى مرازبته (٤) ، فقال لهم : ماذا ترون فى أمر هذا الرجل ؟ وما جاء له ؟

فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه ، فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكًا ازددته .

---

(١) الأغربة : مفردها غراب والمقصود أنهم سود مثل الغربان .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٣/١/١ .

(٣) حِباء الملك : عطاؤه وإكرامه ، والورِق : الفضة .

(٤) مرازبته : جمع مرزبان وهم الوزراء .

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائة رجل) [1] .

لقد بلغ من استخفاف كسرى بالعرب ألا يبعث مع سيد اليمن جيشًا من جيوشه، ولا فصيلاً من هذا الجيش . بل بعث المجرمين عنده الذين أعدهم للقتل ، وعلى الغالب هم طلاب ملك يخشى خطرهم على نفسه . فبعث هؤلاء السجناء معه ، وهو رابح على الحالين . فإن قُتِلوا فهو الذى يريد ،وإن انتصروا فهو الذى يريد ، يضيف ملكًا جديداً إلى ملكه .

وماذا يفعل ثمانمائة رجل فى حرب فى اليمن فيها عشرات الآلاف من الرجال الأشداء المقاتلين لكن قوتهم المعنوية بأنهم من جيش كسرى ملك الملوك فهم يمثلون جيش الإمبراطور الأعظم ،فقوتهم معنوية ترهب العرب وتخيفهم ، وترهب الأحباش المحتلين .

(واستعمل عليهم رجلاً منهم يقال له وَهرِز .وكان ذا سن فيهم ، وأفضلهم حسبًا وبيتًا فخرجوا فى ثمانى سفائن ، فغرقت سفينتان ، ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له : رجلى مع رجلك حتى نموت جميعًا أو أن نظفر جميعًا قال له وهرز : أنصفت .

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جنده . فأرسل إليهم وهرز ابنًا له ليقاتلهم ويختبر قتالهم ، فقتل ابن وِهرز . فزاده ذلك حنقًا عليهم . فلما تواف الناس على مصافهم قال وهرز : أرونى ملكهم ، فقالوا له :

أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال: نعم . قالوا : ذلك ملكهم . فقال : اتركوه . فوقفوا طويلاً ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول إلى الفرس ؛ قال : اتركوه . فوقفوا طويلاً ، ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحوَّل إلى البغلة . قال وِهرز : بنت الحمار ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا ، فاثبتوا حتى أؤذنكم ، فإنى قد أخطأت الرجل . وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاثوا [2] به . فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم . ثم وتر قوسه ، وكانوا فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها . وأمر بحاجبيه فعُصِّبا له ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه . فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس ، وانهزموا ، فقتلوا

---

(١) المصدر السابق ، تتمة ١/١/ ٥٣ .

(٢) لاثوا به : اجتمعوا حوله .

وهربوا فى كل وجه . وأقبل وَهرِز ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال :

لا تدخل رايتى منكسة أبداً . اهدموا الباب .

فهدم ، ثم دخلها ناصبًا رايته . فقال سيف بن ذى يزن :

يظن النـــاس بالملكين　　أنهمـا قـد التأمـــا [(١)]
ومـن يسـمع بلأمـهمـا　　فإن الخطب قـد فُقِمـا [(٢)]
قتلنا القيْــل [(٣)] مسروقًا　　وروّينـا الـكـثيب دمـا
وإن القيْـل قيـل النـاس　　وَهـرِز مقسـم قسـما
يذوق مشـعشـعًا [(٤)] حتى　　يفىء [(٥)] السبى والنعما [(٦)]

وهكذا طويت صفحة الحبشة باليمن ، حيث ذاقوا الهزيمة الأولى عام الفيل حين قرروا غزو الكعبة وكانت هذه هزيمتهم الثانية ، وفتحت صفحة جديدة ، هى صفحة استيلاء الفرس على اليمن وانضمامها لملكتهم .

(قال ابن إسحاق : فأقام وَهرِز باليمن . فمن بقية ذلك الجيش من الفرس ، الأبناءُ الذين هم باليمن اليوم . قال ابن هشام : ثم مات وهرِز ، فأمّر كسرى ابنه المرزبان ابن وهرز على اليمن، ثم مات المرزبان فأمّر كسرى ابنه التينّجان بن المرزُبان على اليمن ، ثم مات التينجان . فأمّر كسرى ابن التينجان على اليمن ، ثم عزله وأمّر باذان . فلم يزل باذان عليها حتى بعث الله محمداً النبى ﷺ) .

وهنا نعود للإجابة على السؤال الأول الذى طرحناه .

فلم لا يوكل كسرى إلى باذان أمر محمد يأسره أو يقتله ؟

وهذا الذى كان بالفعل . وذلك بعد أن مزق كتاب النبى ﷺ إليه .

(قال ابن إسحاق : فبلغنى عن الزهرى أنه قال : كتب كسرى إلى باذان ، أنه قد بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب ، وإلا

---

(١) التأما : قد اصطلحا واتفقا .
(٢) فقم : عظم.
(٣) القيْل : الملك .
(٤) المشعشع : الشراب الممزوج بالماء .
(٥) يفىء : يغنم .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٥٤ .

فابعث إلى برأسه) (١) .

هذه هي الصورة التي يتعامل بها إمبراطور الفرس مع العرب قبل الإسلام . فرجلان يكفيان لتنفيذ أمره ، فلا يحتاج إلى جيش عرمرم لتأديب من يخرج عليه . فإما أن يأتيه طائعًا . وإما أن يلقى رأسه عند رجليه ، تمامًا مثل ما تعامل مع سيف بن ذى يزن . فاستكثر فصيلا من جيشه لفتح اليمن ، واكتفى بالسجناء والمجرمين عنده ليقوموا بذلك .

وما هو الجديد بعد أن أكرم الله الأرض بنبوة محمد ﷺ ؟

فعن يزيد بن حبيب قال : ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمن ، أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فيأتيانى به . فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه ـ وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس ـ وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: خُرَّ خُسرة . وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى . وقال لبابويه : ائت بلد هذا الرجل ، وكلِّمْهُ وائتنى بخبره .

فخرجا حتى قدما الطائف ، فوجدا رجالاً من قريش ينحب من أرض الطائف فسألاهم عنه ، فقالوا : هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد نَصَبَ له كسرى ملك الملوك ، كُفيتم الرجل) (٢) .

وهذه مكة برجالها الأشداء التى حاربت محمدًا ﷺ عشرين عامًا ، وعجزت عن القضاء عليه واستئصاله ، واضطرت مرغمة إلى مهادنته . كانت تحلم بأن تُكفى محمداً من عدو خارجى .

وفرحت فرحًا عظيمًا يوم اتجه إلى خيبر، على أمل أن تكون نهايته على يد اليهود. وتراهنوا على ذلك . يقول حويطب بن عبد العزى : فقدم عباس بن مرداس السلمى ، فخبرنا أن محمداً سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت له الجموع ، فمحمد لا يفلت.

وعندما خاب فأل الملأ فى مكة . وهزمت خيبر . وصار رسول الله ﷺ زوجًا على بنت ملكهم . جاءهم الأصل الثانى . والذى لم يختلف عليه أحد . فهذا كسرى ملك الملوك قد جعله من شأنه . وهذه نهايته على يديه :

(أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كُفيتم الرجل).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١/٥٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٢/ ١٣٣ .

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلَّمه بابويه . فقال :

(إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان ، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى . فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك، ويكفه عنك وإن أبيت فهو من علمت ، فإنه مهلكك ومهلك قومك ، ومخرّب بلادك .

ودخلا على رسول الله ﷺ ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما . فقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا ـ يعنيان كسرى .

فقال رسول الله ﷺ : « لكن ربى قد أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى » .

ثم قال لهما : « ارجعا حتى تأتيانى غداً » أتى رسول الله الخبر من السماء أن رسول الله ﷺ قد سلط على كسرى ابنه شيرويه . فقتله فى شهر كذا وكذا ليلة كذا من الليل ، بعد ما مضى من الليل ؛ سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

قال الواقدى : قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى من سنة سبعٍ لست ساعات مضت منها .

فدعاهما فأخبرهما فقالا :

هل تدرى ما تقول ؟! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا . أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك ؟!

قال : « نعم . أخبراه ذلك عنى وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء » .

ثم أعطى خُرَّ خُسرَةَ منطقة فيها من ذهب وفضة كان أهداها له أحد الملوك .

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان . فأخبراه الخبر فقال :

والله ما هذا بكلام ملك . وإنى لأرى الرجل نبيًا ، ولننظرن ما قد قال . فلئن كان هذا حقًا ما فيه كلام ؛ إنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه :

أما بعد ، فقد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم. فإذا جاءك كتابى هذا . فخذ لى الطاعة ممن قبلك .

وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تُهجهُ حتى يأتيك أمرى فيه) [1] .

كان من الممكن أن تتكرر تجربة حرب الفيل . وإذا كان الله تعالى قد أكرم نبيه فى سنة مولده . فصد الحبشة عن بيته . فلا عجب أن يكرمه وهو النبى المرسل ، وتأتى الحملة الظالمة من الفرس بعد حملة الحبشة . ويهلك الله تعالى هذه الحملة بطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . وينتصر محمد ﷺ ، ويبادر الفرس . لكن العقيدة لا تنتصر ، ولا يدخل الفرس فيها . ويكونون مقدمة أمتهم إلى الإسلام. الله تعالى شاء غير ذلك . وشاء أن يكون باذان أول المسلمين ، وأول الأمراء عند رسول الله ﷺ وفى دولته .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية. فلم يئن الأوان بعد ليواجه رسول الله ﷺ أباطرة الفرس الذين يملكون مقود الدنيا . فكل إمكاناته هو مواجهة بضعة مئات أو بضعة آلاف من قريش أو من يهود خيبر وقد فعل ذلك ، وحارب المسلمون واستشهدوا وانتصروا بالإمكانات البشرية المكافئة أما أن يواجه إمبراطورية دوخت الدنيا ، وهو لا يملك سلطانًا حقيقيًا إلا سلطان المدينة . فهذا ما لم يئن أوانه بعد . إنما أوانه بعد عشرة أعوام حين كانت جيوش المسلمين تدق أبواب فارس وتقتحم القادسية ، وتقتحم إيوان كسرى فى السنة السادسة عشرة للهجرة .

فكيف كان التأييد الربانى ؟

كان كما قال عليه الصلاة والسلام لرسولى باذان (فجاءاه من الغد فقال لهما : أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها . . وأن الله سلّط عليه ابنه شيرويه فقتله) .

كان التأييد الربانى بأن يهيئ الله انقلابًا عالميًا فى إمبراطورية الفرس، فيقتل شيرويه أباه وينتهى هذا الانقلاب إلى الكف عن ملاحقة محمد ﷺ وحربه .

(وانظر الرجل الذى كسرى كتب فيه إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه) .

إنها هدنة جديدة بين كسرى الفرس ومحمد ﷺ ، اختارها الإمبراطور الجديد تضاف إلى هدنة الحديبية .

ونعود إلى الملك باذان الذى كان ينتظر بفارغ الصبر وصول محمد إليه مع كبيرى

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٠ .

دولته باذون وخرخسرة . وها هو الآن ينتظر رسالة من كسرى يحدد من خلالها نبوة محمد : فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه :

(أما بعد فإنى قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم ، وتجميرهم فى ثغورهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة من قبلك ، وانظر الرجل الذى كتب لك كسرى فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه .

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل رسول . فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن) (١) .

إننا لسنا أمام دخول قبيلة بالإسلام . بل أمام دخول أمة حاكمة فى هذا الدين . لقد كان ملكًا على قومه الفرس بعد أن أسلم وأسلموا معه . أما بعد أن دخل أهل اليمن فى الإسلام . فقد صار ملكًا على العرب والفرس معًا .

(وكان رسول الله ﷺ ـ جمع فيما بلغنا ـ لباذام حين أسلم وأسلمت اليمن عمل اليمن كلها ، وأمَّرَه على جميع مخالفيها . فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته . فلم يعزله عنها ، ولا عن شىء منها ، ولا أشرك معه فيها شريكًا حتى مات باذام ، فلما مات فرّق عملها بين جماعة من أصحابه) (٢) .

بقى أن نعلم أن باذام عندما توفى ﷺ جاء مكانه عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ ليقوموا بحكم اليمن كلها ، فقد كان وحده مقام العشرة ، وإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على ثقة رسول الله ﷺ بهذا الوالى القائد العبقرى وقد وعده ووفى له بذلك (إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء) .

وسنعود إلى هؤلاء الأمراء العشرة الذين كانوا خلائف باذان . فيما بعد .

لقد صارت اليمن تدين لرسول الله ﷺ . منذ السنة السابقة . ولم يكن سلطانه عليه الصلاة والسلام قد تجاوز المدينة . وذلك من خلال هذا الوالى العظيم .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٣٣، ١٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٤٧.

الوالى الثانى : النجاشى ملك الحبشة

لقد مضى أبرهة الأشرم مع من قُضى عليه عام الفيل . عام ولادة محمد ﷺ ، وتبدلت الأحوال ، وملك الحبشة ملكًا عادلاً لا يظلم عنده أحد . وبعث رسول الله ﷺ حزب الله إليه ليقيم عنده . ونجح جعفر رضي الله عنه فى إدخاله فى الإسلام . وكان هذا فى العام السادس للبعثة بعد ستة وأربعين عامًا من عام الفيل .

وهذه المرحلة الجديدة فى العام السادس للهجرة ومطلع السابع حيث توجهت رسل النبى ﷺ إلى ملوك الأرض . وكان هذا بعد قرابة ستين عامًا من عام الفيل .

(حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنا ابن إسحاق قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وكتب معه كتابًا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ، سِلمٌ أنت فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى. فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا ، ونفرًا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقِرَّهُم ، ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلَّغْتُ ونصحت . فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى) (١) .

كان عمرو بن أمية الضمرى رسول محمد ﷺ من الشباب الفتاك فى الجاهلية ، واختاره رسول الله ﷺ ليكون رسوله إلى النجاشى لأكثر من سبب .

هذه الأسباب مجتمعة نشهدها فى ترجمة عمرو رضي الله عنه عند ابن الأثير :

(عمرو بن أمية بن . . . بن نعمرة . . . بن الكنانى الضمرى يكنى أبا أمية ، بعثه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٢/ ١٣٣ .

النبى ﷺ عينًا وحده إلى قريش ، فحمل خبيب بن عدى من الخشبة التى صلب عليها ، وأرسله إلى النجاشى وكيلاً فعقد له على أم حبيبة بنت أبى سفيان . . . وأول مشاهده بئر معونة قاله أبو نعيم . وقال أبو عمرو : إن عمرو شهد بدرًا وأحدًا مع المشركين ، وأسلم حين انصرف المشركون من أحد. وكان رسول الله ﷺ يبعثه فى أموره . وكان من أنجاد العرب ورجالها نجدة وجراة . . . وأرسله رسول الله ﷺ سنة ست إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام ، وكتب على يده كتابًا فأسلم النجاشى وأمره أن يزوجه أم حبيبة ويرسلها ، ويرسل من عنده من المسلمين) (١) .

فلعمرو بن أمية الضمرى إذن ثلاث مهمات :

الأولى : تبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى النجاشى ، ودعوته إلى الإسلام .

الثانية : إن أسلم أن يقوم النجاشى بتزويج أم حبيبة رضي الله عنها ، والمقيمة فى الحبشة لرسول الله ﷺ .

الثالثة : أن يرسل من عنده من المسلمين إلى المدينة وهم جعفر وأصحابه رضي الله عنهم من مهاجرة الحبشة . فقد انتهت مهمتهم هناك ، وعلى الملك إن أسلم أن يكون هو ممثل رسول الله ﷺ فى الحبشة ، وأمير المسلمين فيها ، تمامًا مثل باذان الوالى الأول .

(فخرج ستة نفر فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم ، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ ، عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وكتب إليه كتابين ، يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، ويتلو عليه القرآن . فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعًا . ثم أسلم ، وشهد شهادة الحق وقال :

لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته . وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدى جعفر بن أبى طالب لله رب العالمين ، وفى الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب . وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدى فتنصر هناك ومات . وأمره رسول الله ﷺ فى الكتاب أن يبعث إليه بمن قِبَلهُ من أصحابه ويحملهم ، ففعل .

فزوَّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى ، ودعا بحُقٍ من

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٨٦/٤.

عاج، فجعل فيه كتابى رسول الله ﷺ وقال :

لا تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها) (١) .

ولنشهد أكبر حدثين هامين فى دولة الإسلام الجديدة التى على رأسها المسلم العظيم النجاشى الأصحم بن أبجر :

الحدث الأول :

محاولة قتل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى .

وكانت المحاولة من أكبر أعداء الإسلام فى الحبشة عمرو بن العاص ، والذى لجأ إلى الحبشة بعد صلح الحديبية مع مجموعة من قومه. وندع الحديث للعدو اللدود رضي الله عنه والذى أسلم عقب هذه المحاولة .

يقول عمرو : فوالله إنا لعند النجاشى إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه إليه يزوجه أم حبيبة ابنة أبى سفيان فدخل عليه ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية ، ولو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه فأعطانيه فأضرب عنقه . فإذا فعلت سُرَّت قريش . وكنت أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

قال : فدخلت على النجاشى فسجدت له كما كنت أصنع فقال :

مرحبًا بصديقى ، أهديت لى من بلادك شيئًا ؟

قلت : نعم أيها الملك ، أهديتُ إليك أدمًا (٢) كثيرًا ، ثم قربته إليه فأعجبه ، وفرَّق منه أشياء بين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل فى موضع ، وأمر أن يكتب ويحتفظ به .

فلما رأيت طيب نفسه قلت : أيها الملك إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوٍ لنا ، قد وترنا ، وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطينيه أقتله . . .) .

كان هذا الموقف من عمرو هو آخر عهدنا بعمرو الجاهلى العدو اللدود للإسلام ، يود قتل رسول محمد ﷺ إلى النجاشى . لنشهده بعد هذه اللحظات إنسانًا جديدًا هو المؤمن عمرو بن العاص :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) الأدم : الجلود .

(فأعطينيه فأقتله .

فرفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره ، وابتدر منخارى ، فجعلت أتلقى الدم فى ثيابى ، وأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقًا (١) منه ثم قلت له :أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك) .

وهذه لحظات المخاض الجديد للإنسان الجديد .

(قال : واستحيا وقال : يا عمرو تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله ، من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله ؟!

(قال عمرو : وغيَّر الله قلبى عمَّا كنت عليه ، وقلت فى نفسى عرف هذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت) .

قلتُ : أتشهد أيها الملك بهذا ؟ قال :

نعم أشهد به عند الله يا عمرو . فأطعنى واتَّبِعه ، والله إنه لعلى الحق ، وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أفتبايعنى على الإسلام ؟

قال : نعم .

فبسط يده ، ثم بايعته على الإسلام .

ودعا لى بطست فغسل عنى الدم ، وكسانى ثيابًا . وكانت ثيابى قد امتلأت بالدم فألقيتها ، ثم خرجت إلى أصحابى . فلما رأوا كسوة الملك سُروا بذلك . وقالوا : هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ فقلت لهم :

كرهت أن أكلمه فى أول مرة، وقلت أعود إليه. قالوا: الرأى ما رأيت)(٢) .

كل علم أصحابه أنه دخل ليأخذ إذن النجاشى بقتل عمرو بن أمية الضمرى رسول محمد ﷺ . ورأوا كسوة الملك عليه ، فلم يشكوا أبدًا أنه قد أخذ الإذن ، ولم يدر بخلدهم أن زعيمهم عمرو بن العاص . صار جنديًا فى جيش محمد ﷺ . وبايع النجاشى على الإسلام .

---

(١) فرقًا : خوفًا .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤١ ـ ٧٤٤.

وحديثنا عن النجاشى الحاكم المسلم ـ والوالى الإسلامى الثانى الذى كسر أنف من تسوّل له نفسه النيل من رسول محمد ﷺ ، ثم الداعية النجاشى المسلم الذى استطاع ببلاغته وصبره وتفرسه بالرجال أن يضم إلى الإسلام أكبر أعدائه الألداء .

هذا هو الحدث الأول ، والذى تصرف النجاشى رضي الله عنه فيه وكيلاً عن محمد ﷺ ويبايع عمراً على الإسلام عنه .

فماذا عن الحدث الثانى ، والوكالة الثانية :

إنه زواج أم حبيبة رضي الله عنها والتى تحدثنا عنه قائلة :

(ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشى ـ جارية يقال لها أبرهة ـ كانت تقوم على دهنه وثيابه ـ فاستأذنت علىَّ فأذنت لها فقالت :

إن الملك يقول لك ـ إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوّجكيه ، فقلت : بشَّرك الله بالخير .

قالت : يقول لك الملك ، وكّلِى من يزوجك .

قالت : فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص (١) ، فوكلته ، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة ، وخدمتين (٢) من فضة ، كانتا علىَّ ، وخواتيم من فضة فى كل أصابع رجلى ، سروراً بما بشَّرتنِى به . فلما أن كان من العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ، ومن كان هناك من المسلمين أن يحضروا ، وخطب النجاشى وقال :

الحمد لله الملك القدوس المؤمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنه الذى بشَّر به عيسى ابن مريم . أما بعد :

فإن رسول الله ﷺ طلب منى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد :

---

(١) لأنه أقرب الناس إليها فهو من بنى أمية .

(٢) الخدمتان : قطعتان توضعان فى الرجلين .

فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان . فبارك الله لرسول الله ﷺ .

ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد بن سعيد ، فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا ، فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج . فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا) (١) .

فالنجاشى رضي الله عنه هنا هو وكيل رسول الله ﷺ فى طلب الزواج من أم حبيبة رضي الله عنها وهو الذى قدم مهرها لابن عمها خالد بن سعيد ، وهو الذى قام بحفل الزواج المبارك ، ودعا المسلمين إليه ، لقد اختار رسول الله ﷺ النجاشى الملك المسلم ليكون وكيله رغم وجود ابن عمه جعفر رضي الله عنه وهو أحب الناس إليه .

وذلك إشعاراً لهذا الوالى الجديد بثقة رسول الله ﷺ به . وليقوم بممارسة الحكم الإسلامى فى ولايته .

وها هو الوالى العظيم يكرم زوجة نبيه الحبيب ﷺ بأغلى ما عنده من عطور . تقول أم حبيبة رضي الله عنها :

(فلما وصل إلىّ : المال أرسلتُ إلى أبرهة التى بشرتنى فقلت لها : إنى كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذ ولا مال بيدى . فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعينى بها . فأبت وأخرجت حُقًا كان فيه كل ما أعطيتها فردته علىّ وقالت :

عزم على الملك ألا أرزؤك شيئًا ، وأنا الذى أقوم على ثيابه ودهنه . وقد اتبعت دين رسول الله ﷺ وأسلمت لله ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر . قالت :

فلما كان الغد جاءتنى بعود وورس وعنبر وزبادٍ كثير . فقدمت بذلك كله على النبى ﷺ، فكان يراه علىّ وعندى فلا ينكره، ثم قالت : فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه .

قالت : ثم لطفت بى،وكانت هى التى جهزتنى . فكانت كلما دخلت علىّ تقول : لا تنسى حاجتى إليك .

فلما قدمت على النبى ﷺ . أخبرته كيف كانت الخطبة ، وما فعلت بى أبرهة .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٦٢، ١٦٣.

فتبسم رسول الله ﷺ ، وأقرأته منها السلام فقال :

وعليها السلام ورحمة الله وبركاته) (١) .

* * *

وبعد التنفيذ الكامل للتعليمات النبوية ، أرسل إلى رسول الله ﷺ الكتاب التالى جوابًا على كتابه :

(فكتب النجاشى إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله ، من النجاشى الأصحم بن أبجر .

سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذى لا إله إلا هو ، الذى هدانى إلى الإسلام ، أما بعد :

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقا ، إنه كما قلت . وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

وقد بعثت لك بابنى أرها بن الأصحم بن الأبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله . فإنى أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله) (٢) .

إنه إعلان الانضمام إلى دولة الإسلام . وقد نقل هذا الإعلان ابنه أرها بن الأصحم.

(قال ابن إسحاق: وذكر لى أن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة. فإذا كانوا فى وسط من البحر ، غرقت بهم سفينتهم ، فهلكوا) (٣) .

ويؤكد هذا الانضمام وإعلان الانفصال عن دولة الروم ، المحادثات التى تمت بعد أكثر من سنة بين عمرو بن العاص الذى انضم إلى الحظيرة الإسلامية وبين أحد ملكى عمان . عبد بن الجلندى .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٦٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٢/ ١٣٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٣٢.

(قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف فعل أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة .

قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، وددت أنه كان أسلم وصدَّق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام .

قال : فمتى تبعته ؟

قلت : قريبًا .

فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشى .

وأخبرته أن النجاشى قد أسلم . قال : وكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه .

قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم .

قال: انظر يا عمرو ما تقول : إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب.

قلت : ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا . . .) .

فعقل ابن الجلندى لم يستوعب ما قاله عمرو أن يعلن ملك خروجه على دينه ويتبعه قومه .

ويتبعه الأساقفة والرهبان عنده . ويخرج من ملك قيصر إلى ملك محمد ؛ ولهذا اعتبر الكلام أقرب إلى الكذب منه إلى الصدق . وأمام جواب عمرو بهت :

(ما كذبت وما نستحله فى ديننا .

ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى .

قلت : بلى .

قال : فبأى شىء علمت ذلك ؟

قلت : كان النجاشى يخرج له خرجًا . فلما أسلم وصدَّق بمحمد قال :

لا والله لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته .

فبلغ هرقل قوله . فقال له النياق أخوه ، أتدع عبدك لا يخرج لك خرْجًا ، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا ؟ قال هرقل :

رجل رغب فى دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى

لصنعت كما صنع . . .) (١) .

واستمرت دولة الإسلام ستين ونيف . حيث مات النجاشى رضي الله عنه ، وبلغ ذلك النبى ﷺ ، فنعاه إلى المسلمين .

(وقال النبى ﷺ : « استغفروا لأخيكم » . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر له وقد مات بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) ﴾ [آل عمران] (٢) .

ولم تعرف صلاة الغائب فى الإسلام إلا عند وفاة النجاشى رحمه الله .

لقد خرجت دولة اليمن على امبراطورية الفرس ، وانضمت إلى دولة الإسلام الناشئة فى المدينة وخرجت دولة الحبشة على امبراطورية الروم ، وانضمت إلى دولة الإسلام الناشئة فى المدينة ، وكان هذا فى السنة السابعة للهجرة أو فى أوائلها .

بينما ينضم الوالى الثالث والرابع بعد سنتين وذلك فى نهاية السنة الثامنة للهجرة . وهما اللذين سنستعرضهما فيما يلى . بينما اختار ملوك الأرض الثلاثة الآخرون الهدنة مع رسول الله ﷺ وهما قيصر الروم ، ومقوقس مصر ، وكسرى الفرس شيرويه . والذى أعلن الحرب هو ملك بصرى بقتل رسول رسول الله ﷺ والتى كانت على أعقابها غزوة مؤتة .

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى وقال فيه : رجاله ثقات .

الوالى الثالث : عتّاب بن أسيد

هذه مكة التى أخرجت رسول الله ﷺ وحاربته عشرين عامًا أو تزيد . ها هى تلقى قيادها لرسول الله ﷺ :

ثم دعا براحلته القصواء فأدنيت إلى باب قبته ، ودعا للبس السلاح ، والمِغفَر على رأسه وقد صفّ له الناس، فركب راحلته، والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون . ومر رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه يسير يحادثه . فمرّ بينات أبى أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبى أحيحة ، وقد نشرن رؤوسهن ، يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر . فنظر رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فتبسم، وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظل خيولنا متمطرات ... يلطمهن بالخمُر النساء

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ، ومعه المسلمون ، تقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره ، فرجّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيرا حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا . والمشركون فوق الجبال ينظرون. ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته ، آخذ بزمامها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ثلاثمائة صنم، وستون صنمًا ، مرصصة بالرصاص ، وكان هُبَلُ أعظمها. وهو وُجاه الكعبة على بابها وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح . فجعل رسول الله ﷺ كلما مرّ بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء] . فيقع الصنم . . ما يزيد رسول الله ﷺ أن يشير بالقضيب إلى الصنم فيقع لوجهه ، فطاف رسول الله ﷺ سبعًا على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه فى كل طواف . فلما فرغ من سبعه نزل عن راحلته . ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو يومئذ لاصق بالكعبة . والدرع عليه والمِغفر ، وعمامته بين كتفيه . فصلى ركعتين . ثم انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها وقال :

« لولا أن يُغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً. فنزع له العباس بن عبد المطلب دلواً فشرب منه. ويقال الذى نزع الدلو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. وأمر بهُبَل فكسر وهو واقف عليه فقال الزبير بن العوام لأبى سفيان بن حرب: يا أبا سفيان، قد كُسِر هُبَل . أما إنك كنت منه يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعَم. فقال أبو سفيان :

دع عنك هذا يا بن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

قالوا : ثم انصرف رسول الله ﷺ فجلس ناحية من المسجد والناس حوله . ثم أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة . . . فأخذه عثمان فأتى رسول الله ﷺ فناوله إياه . . .) (١) .

وعن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ الكعبة ، فرأى فيها صوراً . فأمرنى أن آتيه فى الدلو بماء ، فيبل الثوب ، ويضرب به الصور ويقول : قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون .

قالوا : وأمر رسول الله ﷺ بالكعبة فغلّقت عليه ، ومعه أسامة بن زيد . وبلال ابن رباح وعثمان بن طلحة فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث . . ووقف خالد بن الوليد على الباب يذب الناس حتى خرج رسول الله ﷺ . . . فلما أشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة فهم جلوس قال : « الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ماذا تقولون وماذا تظنون ؟» .

قالوا : نقول خيراً ، ونظن خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف] ، الا إن كل ربًا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة ، فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . . . إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتكبرها بآبائها ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله ، لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من النهار ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضاها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . . . » .

قال: ثم نزل رسول الله ﷺ ومعه المفتاح . فلما جلس قال : « ادعوا لى عثمان » . فأعطاه المفتاح . . .

وجاءت الظهر فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة يومئذ ، وقريش فوق رؤوس الجبال ، وقد فرَّ وجوههم ، وتغيبوا خوفًا أن يقتلوا ، فمنهم من يطلب الأمان ، ومنهم من أومن ، فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون ، فلما بلغ : أشهد أن محمداً رسول الله .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣١ ـ ٨٣٣ مقتطفات .

تقول جويرية بنت أبي جهل : قد لعمرى رفع لك ذكرك ، أما الصلاة فسنصلى ، والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً ، ولقد جاء أبي الذى جاء محمداً من النبوة ، فردّها ولم يرد خلاف قومه .

وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذى أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم .

وقال الحارث بن هشام : واثكلاه ، ليتنى مت قبل هذا اليوم ، أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة .

وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله الحديث العظيم ، أن يصبح عبد بنى جمح على بنية أبي طلحة .

وقال سهيل بن عمرو : إن كان هذا سخط الله فسيغيره ، وإن كان رضاء الله فسيقره .

وقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئاً . لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم (١) .

* * *

لقد استسلمت مكة أخيراً لرسول الله ﷺ وهى مثخنة بالجراح ، مفعمة بالأسى وتحقق موعود الله فيها :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾

[محمد]

ولكن رسول الله ﷺ هو الذى آسى جراحها ، ورقأ دموعها ، وقال لأهلها : ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهو الذى واسى قياداتها الذين شاركوا معه فى حنين ، أو مكثوا فى مكة ، فأعطاهم من غنائم حنين ما يتوازى مع شرفهم .

(قال ابن إسحاق : وأعطى رسول الله ﷺ للمؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٣٤ ـ ٨٤٦ مختارات .

فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير .

هؤلاء هم العشرة الأول ، وأعطى من دونهم من القيادات خمسين بعيرًا أو أكثر وهم :

(وأعطى دون المائة رجالاً من قريش منهم ، مخرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وهب الجمحى وهشام بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى . . وأعطى سعيد بن يربوع ابن . . مخزوم خمسين من الإبل وأعطى السهمى خمسين من الإبل ، وطليق بن سفيان ابن أمية ، وخالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية ، ومن بنى عبد الدار : شيبة بن عثمان بن أبى طلحة . . وأبو السنابل بن بعكك، وعكرمة بن عامر. ومن بنى مخزوم: زهير بن أبى أمية ، وهشام بن الوليد بن المغيرة ، وسفيان بن عبد الأسد ، وخالد بن هشام بن المغيرة ، والسائب بن أبى السائب ، ومن بنى جمح : أحيحة بن أمية بن خلف ، ومن بنى سهم عدى بن قيس بن حذافة).

هذه القيادات الكبرى فى مكة هى التى تألف النبى ﷺ قلوبها عقب فتح مكة ، وغزوة حنين ، وفى هؤلاء النيف والعشرين زعيمًا . كان خالد بن أسيد بن أبى العيص أحد قيادات الدرجة الثانية . قد تألف النبى ﷺ قلبه فى خمسين من الإبل .

أما فتانا الذى جاء كل هذا الحديث توطئة له . وهو عتاب بن أسيد الأخ الأصغر لخالد بن أسيد والذى ناهز العشرين سنة بقليل . لم يكن ليذكر من قريب أو بعيد بين هذه القيادات الكبرى التى تمثل زعامات قبائل قريش ، والأصل أن يكون أبو سفيان هو الزعيم الأول لقريش واليًا لمكة) (1) .

كما شهدنا النجاشى الذى بقى على زعامة الحبشة ، وباذان الذى بقى على زعامة اليمن ، بعد أن أعلنا إسلامهما ، وكان أبو سفيان قد أعلن إسلامه ﷺ . وبجواره قادة جيشه الكبار عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، والذين دخلوا فى الإسلام فيما بعد . أما أبو سفيان . فهو الذى دفع صك الاستسلام

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤/١٠٧ ـ ١٠٩ مقتطفات .

لرسول الله ﷺ . وانضم إلى الإسلام قبل دخول مكة ، ودعة زوجته هند بنت عتبة إلى قتله من أجل ذلك .

نحن أمام خطة جديدة اختطها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة . وهى اختيار القيادات الشابة الفتية التى لا تحمل فى صفحتها حربًا لله ولا لرسوله ، ولا تحمل فى قلوبها ضغائن على الإسلام والمسلمين ، وكان المرشح لهذا المنصب فتانا الشاب عتاب بن أسيد الذى اختلفت الروايات فى سنه من الثامنة عشرة إلى الثالثة والعشرين .

فما هى المواصفات التى تم على أساسها اختياره لهذا الموقع الحساس العريق والخطير. الذى يطلب منه أن يقود أعتى الرجال من كل أنحاء مكة . الذين قد يثورون فى كل لحظة عليه . لقد كان ابتداءً من بنى أمية حكام مكة ، ومن أقرب الناس إلى أبى سفيان رضي الله عنه فهو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية . وأبو سفيان بن حرب بن أمية . فهو أقرب ما يكون ابن أخٍ له .

ومن جهة ثانية : فزوجته بنت أبى جهل زعيم بنى مخزوم وأخت عكرمة القائد المخزومى الإسلامى العظيم ، إنها الحنفاء بنت أبى جهل .

(فقد ذكر مصعب الزبيرى أن النبى ﷺ لما أراد أن عليًا لا يتزوج بنت أبى جهل على فاطمة بادر عتاب فتزوجها ـ وكان ذلك قبل إسلامه ـ فولدت له ولده عبد الرحمن) (١) .

وهكذا سيقف الحيان الكبيران أمية ومخزوم بجواره .

ومن جهة ثالثة : فهو فتى لم تنل عقد الجاهلية وزعامتها شيئًا من قلبه . لقد تفتح قلبه للإسلام مع العبيق النبوى للفتح ، فأسلم بعد فتح مكة ، ولم يكن متطلعًا أبدًا لهذه الزعامة أو هذه القيادة . فأخوه خالد بن أسيد يمثل فرع أبى العيص بن أمية بين زعامات مكة .

ومن جهة رابعة : فهو يحمل مقومات القيادة والزعامة فهو من بنى أمية السادة الأذواد الأمجاد .

ومن جهة خامسة : فقد تفرس رسول الله ﷺ فيه الخير ، فكان شديدًا فى الحق لا يخاف لومة لائم .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤٥١.

ولم يلق هذا الاختيار ابتداء رضًا في صف قريش . وأبدوا اعتراضهم على ذلك .

(فعن أنس رضي الله عنه أن النبي استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمنين وكان يقول :

والله لا أعلم متخلفًا عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق . فقال أهل مكة :

يا رسول الله ، استعملت على أهل الله أعرابيًا جافيًا ، فقال :

« إني رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقعقعها حتى فتح له ودخل ») (١) .

والحديث يشير إلى معنًى سادس لم يكن يدر بخلدنا لولاه .

إن الحديث يشير إلى أن رسول الله ﷺ قد رآه في نومه يقعقع في حلقة الباب فيفتح له فيدخلها ، ورؤيا النبي حق . فهو إذن من الشباب المؤمن المتقد إيمانًا وحيوية يسعى جاهدًا لإعلاء كلمة الله لا يخاف في ذلك لومة لائم ، وهو لين في ذات الله على المؤمنين ، فكان كما وصف الله تعالى جند محمد ﷺ وصحبه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وكما وصفهم الله تعالى في موقع آخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

إنه يمثل الطليعة المجاهدة للجيل الإسلامي الجديد الذي أوكل إليه قيادة أمنع موقع إسلامي وأكبر وأخطر موقع إسلامي هو مكة المكرمة معقل الكفر وموطنه لمدة عشرين عامًا .

والمعنى السابع الذي كان وراء استخلاف عتاب على مكة رضي الله عنه هو الذي ذكره رسول الله ﷺ ، والذي يعتبر حقيقة المعنى الأول ، وهو خيريته رضي الله عنه ، يقول ابن الأثير في ترجمة عتاب :

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٤٥١ .

(عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية القرشى الأموى ،يكنى أبا عبد الرحمن وقيل:أبو محمد وأمه زينب بنت عمرو بن أمية بن عبد شمس ،أسلم يوم الفتح مكة ، واستعمله النبى ﷺ على مكة بعد الفتح لما سار إلى حنين ، وقيل : إن النبى ﷺ ترك معاذ بن جبل بمكة يفقه أهلها ، واستعمل عتابًا بعد عوده من حصن الطائف، وقال له رسول الله ﷺ :

« يا عتاب تدرى على من استعملتك ؟؟ استعملتك على أهل الله عز وجل، ولو أعلم لهم خيرًا منك استعملته عليهم»،وكان عمره لما استعمله نيفًا وعشرين سنة) (١) .

لله أنت يا عتاب . فأنت خير من يحكم أهل الله ، وجيرانه فى بيته وحماه ، أهل الحرم .أهل الله بشهادة رسول الله ﷺ : « ولو أعلم لهم خيرًا منك استعملته عليهم».

وليهنك ثقة سيد الخلق بك ، وأنت فى ربيع عمرك ، ومطلع شبابك .

لقد كانت أول مسؤولية أنيطت به والتى قام بها بعد شهر من مغادرة رسول الله ﷺ مكة هى الحج بالناس، ولأول مرة يقود الحج مسلم هو نائب رسول الله ﷺ فيها.

(فأقام للناس الحج وهى سنة ثمان ، وحج المشركون على ما كانوا) .

فالفترة أقل من شهر . وشاركه معاذ بن جبل رضي الله عنه الذى تركه رسول الله ﷺ فى مكة يفقه الناس فى دينهم . فكان الأمير الإدارى عتاب بن أسيد ، وكان الأمير الشرعى معاذ بن جبل يتعلم الناس أحكام دينهم منه .

* * *

لم تكن ولاية عتاب رضي الله عنه جبرًا لخاطره ، وخاطر بنى أمية من ورائه ، لقد كانت ولايته ولاية كفء عبقرى عادلٍ قوام على الحق . ومن أجل هذا استمرت ولايته فى حياة النبى ﷺ ولم يول غيره ، وتوفى رسول الله ﷺ وهو والٍ عليها . ولئن تزلزلت المدينة يوم وفاة النبى ﷺ ، فلا غرو أن تتزلزل مكة . وليس فيها أبو بكر الصديق شيخ المسلمين وصاحب رسول الله ﷺ فى الغار ، إنما فيها الشاب القوى العظيم عتاب بن أسيد . ولكنه كيف يواجه مردة مكة وعتاتها بعد الوفاة فقد (ارتجت مكة لما رأت قريش من ارتداد العرب ، واختفى عتاب بن أسيد الأموى أمير مكة للنبى ﷺ فقام سهيل بن عمرو خطيبًا وقال :

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣٥٨/٣.

يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم ، وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين ليمتدن امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما . . في كلام طويل مثل كلام أبي بكر في ذكر وفاة النبي ﷺ،وأحضر عتاب بن أسيد وثبتت قريش على الإسلام»(١).

وجاءت خلافة الصديق . وعرف وضع مكة ، ولم يغير ولم يبدل شيئًا فيها . فقد بقي عتاب ؓ أمير مكة في عهد الصديق .

ومن هنا تختلف الروايات بعد ذلك . فبعضها يشير إلى أن عتابًا ؓ توفي يوم وفاة الصديق :

(ولم يزل عتاب على مكة إلى أن توفي رسول الله ﷺ،وأقره أبو بكر عليها إلى أن مات، وتوفي عتاب في قول الواقدي يوم مات أبو بكر . . وقال محمد بن سلام وغيره جاء نعي أبي بكر إلى مكة يوم دفن عتاب.وكان عتاب رجلاً خيرًا صالحًا فاضلاً) (٢) .

أما الرواية الثانية ، فتمتد بعمره عشر سنوات أخرى إلى نهاية خلافة عمر ؓ ، وهو ما أثبته ابن حجر في الإصابة :

(ومقتضاه أن يكون عتاب عاش بعد أبي بكر ؓ ، ويؤيد ذلك أن الطبري ذكره في عمال عمر في سني خلافته كلها إلى سنة اثنتين وعشرين . ثم ذكر أن عامل عمر على مكة سنة ثلاث وعشرين كان نافع بن عبد الحارث ، فهذا يشعر أن عتابًا مات في آخر خلافة عمر) (٣) .

وهذا يعني أنه أمضى عمره أميرًا منذ أن استعمله رسول الله ﷺ ،وهذا يعني أنه غدا من أثرياء عصره وهو أمير مكة. فلنستمع إليه ؓ وهو في ريعان شبابه ، ومقتبل عمره ، وإقباله على الدنيا ، ما هي ثروته ، وما هي ممتلكاته التي خلفها بعد وفاته .

يقول ؓ :(والله ما أصبت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله ﷺ إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان فلا يقولن أحدكم أخذ مني عتاب كذا . فقد رزقني رسول الله ﷺ كل يوم درهمين ، فلا أشبع الله بطنًا لا يشبعه كل يوم درهمان) (٤) . وإسناده حسن .

أما رواية ابن هشام : وقد بلغني عن زيد بن أسلم أنه قال :

لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا ،فقام فخطب

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٣٧٢. (٢) المصدر السابق ٣/ ٣٥٨.
(٣، ٤) المصدر السابق ٣/ ٣٥٩.

الناس فقال :(أيها الناس ،أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فلقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهمًا فليست بى حاجة إلى أحد)[١] .

فتانا الذى غادر عالم الإمرة فى عهد رسول الله ﷺ وعهد أبى بكر وعهد عمر رضي الله عنهما إلى الآخرة عن عمر لا يصل إلى الأربعين فى أبعد تقدير ، والذى كان خير مؤهل لحكم أهل الله فى مكة تحدثنا بعض روايات التفسير عنه أنه استجابة لدعوة رسول الله ﷺ ، وحُلُمٌ من أحلام النبى ﷺ حين غادر مكة مهاجراً ملاحقًا ودعا ربه قائلاً : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] . تحدثنا هذه الرواية أنه السلطان النصير لرسول الله ﷺ فقد (أورد العقيلى فى ترجمة هشام بن محمد بن السائب الكلبى بسنده عن أبيه عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ هو عتاب بن أسيد ، وأورد الثعلبى فى تفسير هذه الآية هذا الكلام)[٢] .

تحدثنا الكتب عن هذا السلطان النصير بعد وفاة رسول الله ﷺ ، أما قبل وفاته فلم يجرؤ أحد على الخروج على الإسلام ووالى السلام فى مكة . وشهدنا كيف تمكن سهيل بن عمرو رضي الله عنه فى تثبيت الإسلام فى مكة ، وإعادة سلطان عتاب إليها ، لكن عتاب رضي الله عنه وهو يتابع بدأب أوضاع المسلمين بلغه أن هناك مجموعة كبيرة من المرتدين تجمعت على جندب بن سلمى وأعلنت كفرها البواح ، وكان ذلك فى المواطن النائية من ولايته فى تهامة ، فكتب إلى خليفة المسلمين الصديق يطلب منه أمره فيهم ، فكتب إليه الصديق رضي الله عنه أن يتصدى لمواجهتهم بالجند المسلمين الذين تحت إمرته ، وكان هذا أول كتاب يوجهه خليفة رسول الله ﷺ إلى ولاته .

(فكان أول من كتب إليه عتاب بن أسيد ، كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام . . فبعث خالد بن أسيد إلى أهل تهامة ، وقد تجمعت بها جُمَّاعٌ[٣] من مدلج ، وتأشب[٤] إليهم شذاذ من خزاعة وأفناء[٥] كِنانة عليهم جندب ابن سُلمى ، أحد بنى شنوق من بنى مدلج ، ولم يكن فى عمل عتاب جمع غيره فالتقوا بالأبارق[٦] ، ففرقهم وقتلهم ، واستحر القتل[٧] فى بنى شنوق فما زالوا أذلاء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١١٣ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤٥١ .
(٣) جماع : مجموعات متفرقة .
(٤) تأشب : انضم .
(٥) أفناء : ذوو النسب البعيد .
(٦) الأبارق : اسم مكان .
(٧) استحر القتل : ازداد القتل فيهم زيادة عظيمة .

قليلاً ، وبرئت عمالة عتاب ، وأفلت جندب ، فقال :

ندمت وأيقنت الغداة بأنني ... أتيت التي يبقى على المرء عارها

شهدت بأن الله لا شيء غيره ... بني مدلج فالله ربي وجارها)[1]

لقد كانت معركة حاسمة أنهت الردة إلى الأبد في ولاية مكة . وبرئت عمالة عتاب. غير أن القائد جندب فرَّ . وكان من الممكن أن يعود ليعمل على جمع ثانٍ يواجه به المسلمين . ولكن الله تعالى غلبه . وفتح قلبه للإسلام ، وأدخله الله في رحمته. فندم على ما فعل ، وأيقن أن الله تعالى رب العالمين وليس رب مدلج فقط .

لم يكن بين هؤلاء المتجمعين من شذاذ العرب قرشي واحد ، إنما كانوا من إخوانهم من بني كنانة . وليست كنانة كلها ، إنما شذاذ منها من بني مدلج ، ومن بني خزاعة ، ومن أفناء كنانة . ولا يغيب عن ذهننا أن هؤلاء البداة كانوا في الجاهلية من صعاليك العرب وفتاكها . وأن لها تجربة مع رسول الله ﷺ من خلال سراقة بن مالك المدلجي الذي خرج ليفتك برسول الله ﷺ وهو في طريق هجرته إلى يثرب مقابل مائة ناقة وضعتها قريش لقاتل محمد ﷺ .

وكما خلَّد جندب إسلامه بهاتين البيتين ، فقد خلد سراقة مغامرته تلك بالأبيات التي بعثها إلى أبي جهل [2] :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

عليك بكف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طراً يسالمه

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٩٤ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٢٦٦.

الوالى الرابع : مالك بن عوف

ساقته الأقدار وهو فى عنفوان شبابه ليكون سيد بنى النضير من هوازن . وترامت إلى أسماعه أنباء فتح مكة . فلم تعد الأرض تسعه أمام هذا السيد الجديد الذى أصبح قريبًا منه وتناهت إلى سمعه أبيات كعب بن مالك :

(قضينا من تهامة [١] كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا [٢] السيوفا

نخيرها [٣] ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوسًا أو ثقيفًا

فلست لحاضن [٤] إن لم تروها ... بساحة داركم منها ألوفا

وتنتزع العروش ببطن وجٍ [٥] ... وتصبح دوركم منكم خلوفًا [٦]) [٧]

وهذا يعنى أن هوازن وبنو أخيها ثقيف ستكون الكرة عليهم بعد مكة .

قال ابن إسحاق : (ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ ، وما فتح الله عليه فى مكة . جمعها مالك بن عوف النصرى . فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها . واجتمعت نصر وجُشَم كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء . وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له اسم . وفى بنى جُشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن بمعرفته ، وبرأيه بالحرب ، وكان شيخًا مجربًا ، وفى ثقيف سيدان لهم ؛ فى الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود ، وفى بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث بن مالك وأخوه أحمر بن الحارث . وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى) .

ولم يكن مالك ليخشى سيدى ثقيف . فهما لا ينازعانه السيادة ؛ لأن هوازن هى الأصل . وفى ديارها ستقوم المعركة . إنما الذى يخشاه هو دريد بن الصمة سيد بنى

---

(١) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز .
(٢) أجممنا : أرحنا .
(٣) نخيرها : نعطيها ولو نطقت لقالت أن تحارب دوسًا أو ثقيفًا .
(٤) لحاضن : المرأة التى تحضن ولدها .
(٥) بطن وجٍ : واد بالطائف .
(٦) خلوف : دور تغيب عنها أهلها .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٦/٤ .

جُشم ، صحيح أنه شيخ كبير همّ لم يعد يؤبه به كثيرًا لكن خبرته العريقة بالحرب التى سلخ بها عمره أكثر من ستين عامًا وهو يقود المعارك ، ويجيش الجيوش . حتى تجاوزت سمعته آفاق الجزيرة . هذا الشيخ المجرب هو الذى يخشاه مالك أن يفسد عليه خطته ، أو ينتقد مخططاته ، وكان خوفه فى محله .

(فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ، حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة فى شجار (١) له يقاربه . فلما نزل ، قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل لا حَزْنٌ ضِرْس (٢) ، ولا سهل دهس (٣) . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟ قالوا :

ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مَالك ، ودُعِى له . فقال :

يا مالك، إنكَ قد أصبحت رئيس قومك. وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام. مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟

قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .قال : ولم ذاك ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ، ليقاتل عنهم .

قال : (فانقضّ به) ثم قال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك) .

وكان هذا الكلام أنفذ من طعنة بسيف فى جسد مالك بن عوف ، فهل هو إلا راعى ضأن ؟! أهذه قيمته عند دريد . لقد تحرك حقده كله نحو هذا الشيخ الخرف الذى يتهمه بالجهالة فى علم الحرب وكاد أن يرد عليه. لولا أن دريداً تابع حديثه بقوله:

ما فعلت كعب وكلاب (٤) ؟

---

(١) فى شجار : شبه الهودج لكنه مكشوف من الأعلى .

(٢) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس :الذى فيه حجارة .

(٣) الدهس : اللين الكثير التراب .

(٤) كعب وكلاب : هما أعز فروع بنى عامر واللذين ذكرهما الشاعر بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

قالوا : لم يشهدها منهم أحد .

قال : غاب الحد والجد ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب . ووددتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب . فمن شهدها منكم ؟

قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر .

قال : ذانك الجذعان (١) من عامر لا ينفعان ولا يضران .

يا مالك ، إن لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن (٢) ـ إلى نحور الخيل شيئًا ، ارفعهم إلى متمنع بلادهم، وعُليا قومهم، ثم الق الصباء (٣) على متون الخيل. فإن كانت لك لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك).

إن مالكًا ولو اقتنع فى أعماقه بصحة رأى دريد ـ مع استبعاد ذلك ـ لا يمكن أن يأخذ به، فيعيد قومُه النصرَ لدريد لا له . وإن انهزم فالعار عليه وحده لأنه قائد الجيش . وحيث إنه فى شرخ شبابه وعنفوان صباه ، لن يصغى لصوت العقل الكبير المجرب . حتى لا يكون المجد لدريد لا له . إنه عاشق مجد . وطامح سيادة ، يأمل لو انتصر فى هذه المعركة على محمد ﷺ أن تدين له العرب قاطبة، فمحمد أضحى فى جزيرة العرب، القوة التى لا تقهر ، ومن أجل هذا حشد كل ما يملك للمواجهة حتى النساء والأنعام . منطلقًا من نظريته: أن يدافع العربى عن مقدساته التى بين يديه حتى لا يمسها أحد ، وهى أغلى ما عنده ، ثروته وماله وعِرضه .

(قال : والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك . والله لتطيعننى يا معشر هوازن . أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

ـ وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأى .

فقالوا : أطعناك .

فقال دريد بن الصمة :

يا ليتنى فيها جذع (٤) أخب فيها وأضع (٥)

---

(١) الجذعان : يريد أنهما ضعيفان فى الحرب .
(٢) بيضة هوازن : جماعتهم .
(٣) الصباء : جمع صابئ وهم المسلمون .
(٤) الجذع : الشاب .
(٥) الخب والوضع : ضربان من السير .

أقود وطفاء [1] الزمع [2] كأنها شاة صدع) [3]

وانتهى الحوار برفض رأى دريد ، حتى لا يقتل مالك نفسه من غيظه . واختاروا إمرة مالك ؛ لأن خبرة دريد وتجربته لا تكفيانه ليقود الحرب وهو يحمل فى شجار . ووضع مالك خُطته لهوازن .

(قال ابن إسحاق : ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم. ثم شدوا شدة رجل واحد) [4] .

وجاء مالك إنذار جديد بعد هزة دريد له كما روى ابن إسحاق : أن مالك بن عوف بعث عيونًا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم،ما شأنكم ؟ فقالوا :

رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق . فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .

فوالله ما ردَّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد) [5] .

أما الجيش الذى يواجهه فهو الجيش الإسلامى الذى فتح مكة ، ومعه ألفان من قريش :

(ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفًا ،واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد . . . بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرًا على من تخلف عنه من الناس . ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد هوازن) [6] .

وكانت الجولة الأولى لمالك كما حدَّث جابر رضي الله عنه فيما رواه ابن إسحاق :

(لما استقبلنا وادى حنين ، انحدرنا فى وادٍ من أودية تهامة [7] ، أجوف [8] ، حطوط [9] ، إنما تنحدر فيه انحدارًا ، وفى عماية [10] الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا . فالله ،ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد . وانشمر

---

(١) الوطفاء : طويلة الشعر .

(٢) الزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة. والشاة هنا :الوعل ، أى يتمنى أن يكون شابًا يقود فرسًا شابة ليقود المعركة .

(٣ ـ ٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ٦٥ .

(٧) تهامة : ما انخفض من الحجاز .

(٨) أجوف : متسع .

(٩) حطوط : منحدر .

(١٠) عماية الصبح : ظلام قبل أن يتبين .

الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد) (١) .

لكن الحرب لم تنته . وكانت الجولة الثانية على مالك ، ووقع ما حذَّر منه دريد . ومالك لم يعرف من يقاتل .

(وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : « أين أيها الناس ؟ هلموا إلىَّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض . فانطلق الناس إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته، على بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابنه ، والفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن بن عبيد ، قتل يومئذ) (٢) .

ويصف لنا العباس رضي الله عنه تلك اللحظات العصيبة من المعركة قال :

(إنى لمع رسول الله ﷺ آخذ بِحكَمَة بغلته البيضاء قد شجرتها بها . وكنت امرءاً جسيمًا شديد الصوت ، قال : ورسول الله ﷺ يقول ـ حين رأى ما رأى من الناس :

« أين أيها الناس؟ » فلم أر الناس يلوون على شيء . فقال :

« يا عباس ، اصرخ فى الناس : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة » . قال : فأجابوا لبيك ، لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس ، فاقتتلوا . وكانت الدعوى أول ما كانت يا للأنصار ، ثم خلصت أخيراً : يا للخزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب .

فأشرف رسول الله ﷺ فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون . فقال: « الآن حمى الوطيس» .

واجتلد الناس . فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ) (٣) .

هذا مالك بن عوف . ينهار جيشه فى الجولة الثانية . ويستميت فى الثبات دون

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤/ ٦٧ .

(٢ ، ٣) المصدر السابق ٢/ ٤/ ٦٧ ـ ٦٩.

جدوى . ها هو يقول وهو يرى هذه الهزيمة الفاجعة يخاطب فرسه الذى يقاتل عليه :

أقدم محاج (١) إنه يومٌ نُكُر(٢) ... مثلى على مثلك يحمى ويكر
إذا أضيع الصف يومًا والدبر ... ثم احزألت (٣) زمرٌ بعد زمر
كتائب يكل فيهن البصر ... قد أطعن الطعنة تقذى بالسبُر (٤)
حين يذم المستكين المنجحر(٥) ... وأطعن النجلاء تعوى وتهر
قد نفذَ الضرس وقد طال العمر ... قد علم البيض(٦) الطويلات الخمر
أنى فى أمثالها غير غَمِر(٧) ... إن تُخرجُ الحاصن(٨) من تحت الستر

(واستمر القتل من بنى نصر ـ قبيلة مالك ـ فى بنى رئاب . فزعموا أن عبد الله ابن قيس ـ وهو أحد بنى رئاب ـ قال : يا رسول الله ، هلكت بنو رئاب . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اجبر مصيبتهم » .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه ، على ثنية من الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ، وتلحق أخراكم ، فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس،قال ابن هشام : وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟

فقالوا : نرى قومًا واضعى رماحهم بين آذان خيلهم ، طويلة بوادهم ، فقال : هؤلاء بنو سليم ، ولا بأس عليكم منهم ، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه :ماذا ترون ؟

قالوا : نرى قومًا عارضى رماحهم أغفالاً على خيلهم ؛ فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى الثنية سلكوا طريق بنى سليم، ثم طلع فارس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارسًا طويل الباد ، واضعًا رمحه على عاتقه ، عاصبًا رأسه بملاءة حمراء . فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم ، فصمد لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها) (٩) .

---

(١) محاج : اسم فرس مالك بن عوف .
(٢) يومٌ نُكُر : يوم منكر صعب .
(٣) احزألت : ارتفعت .
(٤) السبر : جمع سبار وهو القتيل يسير به الجرح .
(٥) المنجحر : المستتر فى جحره والخائف .
(٦) البيض : النساء .
(٧) الغمر : قليل التجربة .
(٨) الحاصن : المرأة العفيفة .
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ٧٦، ٧٧.

إنه القائد الجريح الذى لم ترض له كرامته أن يترك الضعفاء من جيشه ليكونوا نهبة للموت أو القتل أو الأسر فبقى مع كتيبته يحرس هؤلاء الضعفاء ليصلوا إلى مأمنهم. ويلحق المتخلفون بهم .

وهو القائد المجرب . فقد عرف بنى سُلَيم من أوضاع رماحهم ، وطول أجسامهم، ورأى من خلال خبرته بالحرب أنهم لن يتعرضوا لكتيبته على رأس الثنية . وعرف الأوس والخزرج من أوضاع رماحهم ، وعرف أنهم لن يشعلوا حربًا معه . بينما عرف الزبير بن العوام ، فارس رسول الله ﷺ من وضع رمحه ومن ضخامة هامته . فأقسم باللات ليخالطنهم . وصدق حدس مالك ، فلم يتمكن هو وكتيبته من الصمود أمام فارس الهيجا الزبير ، واضطرهم إلى مغادرة الثنية ، ليكون هذا آخر الذل الذى تجرعه على يد المسلمين .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف . وعسكر بعضهم بأوطاس (وهم قوم دريد بن الصمة) ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف ، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا) (١) .

ها هو يودع مجده كله ، وقد مضى إلى ثقيف فاراً من الموت . يجر أذيال أعظم هزيمة نزلت به . وقد ترك نساءه سبايا بيدى محمد ﷺ ، فما نزل بهوازن ذل مثل هذا الذل ، لقد افتضحت الأعراض ، وهلكت الأموال ، وقتل الرجال ، ولعل الانتحار هو السبيل الوحيد الذى يملكه ليخلص من هذا العار الذى تجلله وجلل به قومه ، وهو يعلم أن رأسه مطلوبة من محمد ﷺ بأى ثمن ويتحرك فى صدره فحيح ضعيف . فيما يعلم ويسمع عن خلق محمد ، وما سمع عن تعامل محمد مع قومه الذين أخرجوه يتساءل: هل يمكن أن يناله عفو محمد ؟ ثم يطرد هذا الفحيح ليعيش مع الواقع . واقع الموت الذى يتربص به .

عندما جاء وفد هوازن إلى رسول الله ﷺ . جاء لينقذ شرف هوازن وأموالها (فقد كان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء مالا يُدرى عدته .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤ / ٧٢.

قال ابن إسحاق : فحدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا :

يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة (١) ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك . قال ، وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صرد ، فقال : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك (٢) اللاتى كُنَّ يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (٣) للحارث بن أبى شمر ، والنعمان ابن المنذر . ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته (٤) علينا ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحبُ إليكم أم أموالكم ؟ » فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا فقال لهم :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به . فقال رسول الله ﷺ : أما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى . فله بكل إنسان

---

(١) إشارة إلى رضاع النبى ﷺ فى سعد بن بكر إحدى قبائل هوازن .
(٢) حواضنك : اللاتى أرضعن النبى ﷺ . (٣) ملحنا : أرضعنا .
(٤) عائدته : فضله .

ست فرائض (١) من أول سبى أصيبه » فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم) (٢) .

* * *

كان قلب سيد ولد آدم مشفقًا على ألد أعدائه مالك بن عوف الذى قاد جيوش الكفر لحرب الإسلام . ورسول الله ﷺ هو الرحمة المهداة للبشرية كافة لأعدائه وأتباعه. فكان عليه الصلاة والسلام يريد لهذا القائد الشاب الجريح . أن يمس قلبه نور الإيمان . فينضم إلى قافلة المهتدين . ومن أجل ذلك حيث لم تجرؤ هوازن ولم يجرؤ وفدها على ذكر مالك بن عوف خوفًا من غضب محمد ﷺ ، واكتفوا برد سباياهم . كان رسول الله ﷺ هو الذى يسأل ، وهو الذى يريد أن يحطم الران الذى أحاط بقلب الشاب القائد . ويوصل شعاعًا من النور إليه .

(وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن ، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ :

« أخبروا مالكًا أنه إن أتانى مسلمًا رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل» . وهل فى الوجود كله مثل عظمة هذا القلب الشريف ؟

إنها ليست لحظة عابرة ، وخاطرًا سريعًا مر فى ذهنه ﷺ . بل هو قرار عميق قائم على خبرة بهذه النفوس البشرية . ولتنفيذ هذا القرار . كان رسول الله ﷺ قد أمر بإبقاء أموال مالك مستقلة دون أن تدخل فى الغنائم . فهو يريد هذه الأموال أن تكون عونًا لمالك القائد المسلم بعد أن كانت عونًا وفخرًا ورياءً للقائد المشرك .

(فأتى مالك بذلك . . .) .

جاء الخبر إلى مالك اليائس المحبط المحطم الذى يخشى أن يغادر حصن ثقيف حتى لا تتناوشه السيوف المسلمة أو يأخذوه أسيرًا ذليلاً صاغرًا بين يدى عدوه محمد بن عبد الله .

فى هذا الوضع النفسى البائس اليائس ، جاء العرض النبوى العظيم .

(وإن جاءنى مسلمًا رددت عليه ماله وأهله وأعطيته مائة من الإبل) .

فرسول الله ﷺ هو صاحب العرض .

---

(١) ست فرائض : ست جمال .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١٠٤ .

ولقد أسلم مالك فى قلبه لحظة وصوله الخبر . فقد كان هذا العرض النبوى بمثابة وابل من المطر هبط على أرض ظمأى فتك بها العطش وهى جنة رائعة قابلة للخصب والنماء .أدرك مالك أنه ليس أمام قائد محارب ، أو زعيم طاغية . أدرك أنه أمام رسول الله حقًا. فهو رسول الله إليه يدعوه إلى الإسلام، ولو قاد الحرب ضده ، ونكل بأصحابه، وهزم جيشه .

هذا عند البشر . أما عند الرسل ، فهدفهم ضم هذه القلوب إلى الدين ، وأوبتها إلى الله ، واستسلامها برفق إليه ، ليس الإسلام مقابل النجاة فقط ، لا . بل مع النجاة المال والأهل والمائة من الإبل الذى يناسب عطاء الأنبياء . لقد سمع بكرامٍ فى الدنيا ، وسمع بشجعان فى الدنيا ، لكن ما رآه وبلغه من رسول الله ﷺ فوق كل تصور وفوق كل تخيل .

(فخرج إليه من الطائف . وقد كان مالك خاف ثقيفًا على نفسه . أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه . فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له فأُتى به إلى الطائف فخرج ليلاً . فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها . فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة . فردَّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه) .

لكنه رضي الله عنه صاغ قلبه فى أبيات من الشعر تحاول أن تصف العظمة النبوية التى بهرته وأسرت لبه .

(فقال مالك بن عوف حين أسلم :

مـــــا إن رأيت ولا ســـمعت بمثله ... فى النـــــاس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل [١] إذا اجتُدى [٢] ... ومتى تشأ يخبرك عمـــا فى غد

وإذا الكتيبة عــرَّدت أنيابهـــــا [٣] ... بالسمهرى[٤] وضرب كل مهنـــد [٥]

فكأنه ليث على أشـــــباله ... وسط الهباءة[٦] خادر [٧] فى مرصد) [٨]

---

(١) الجزيل : الكثير .
(٢) إذا اجتدى : إذا طلب .
(٣) عردت أنيابها : قويت واشتدت .
(٤) السمهرى : الرمح .
(٥) المهند : السيف .
(٦) الهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب .
(٧) الخادر : الأسد فى عرينه ، وهو حينئذ أشد ما يكون بأسًا لخوفه على أشباله .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٦/٤.

وصدق مالك فما رؤى ولا سمع بمثله قط فى الناس كلهم .

وإذا كانت الشجاعة والكرم هما قوام وقمة فضائل العرب . فما رأى مالك ولا سمع بمثل جوده ، وقد خبره عيانًا حين أعاد إليه أهله وماله ، ومائة من الإبل . وهو عدوه اللدود ، ولم يشأ أن يذله على الأقل بحز ناصيته .

وما رأى مالك ولا سمع بمثل شجاعته .

فمن هو الذى حوَّل الحرب من هزيمة ساحقة ، حيث لم يبق حوله إلا قرابة العشرة إلى نصر مظفر ، استعاد قوى جيشه ، وأنهى الحرب بهوازن كلها أسرى وسبايا بين يديه اى أسد خادر فى مرصده انقضى فى اللحظة المناسبة فقلب ميزان المعركة ؟

ومالك يحس ويدرك أنه أعجز من أن يصف عظمة النبوة فى هذه الأبيات .

* * *

مالك القائد الشاب المسلم

هل انتهت مهمة مالك فى هذه الحياة ، ومضى ليتنعم بهذه الثروات الطائلة بين يديه . ويكتفى بالصلاة والصيام والشكر على هذا العطاء الربانى ؟

لا . فرسول الله ﷺ يُعِدُّ الرجال العظام للمهمات العظام .

لقد أسلم الحجاز كله لرسول الله ﷺ، وبقيت ثقِيف وحدها متمنعة فى حصونها. لقد حاصرها رسول الله ﷺ بضعة وعشرين يومًا ، ومضى عنها دون أن يفتحها .

ومالك بن عوف هو الذى قاد ثقيفًا إلى حرب محمد ﷺ فى هوازن ، وهو الذى احتمى بحصونها ولجأ إليها عندما أدركه الخطر ، وهو القائد المجرب الذى يعرف بادية ثقيف كلها وأرضها وقراها ، وهو المخوَّل بأن يقود حرب العصابات ضد ثقيف حتى ينهكها . فلا يمكن للطائف أن تسقط فى حرب نظامية . وهى قادرة على أن تصمد للحصار سنة كاملة ، والمنجنيق الذى استعمله رسول الله ضد حصونها تحطم أمام وابل من النبل المتساقط كالمطر والذى نال العديد من المسلمين وأدى إلى استشهادهم . وكانت كما وصفها نوفل بن معاوية الديلى لرسول الله ﷺ :

(يا رسول الله، ثعلب فى جُحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك) (١) .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ١٧٢ .

(حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها . فرمتهم ثقيف بالنبل .. واستشهد بالطائف اثنا عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالرحيل) (١) .

لقد ظنت ثقيف أنها فى منعتها قادرة على أن تتحدى الله ورسوله ، بعد أن انتهى الحصار ، ومضى رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفتحت حصونها ، وخرجت إلى كرومها وزروعها ، فما راعها إلا الغارة عليها من كل جانب . من هؤلاء ؟ لا تدرى . فقتل من قتل ، وفر من فر .

وجن جنون ثقيف. ألم يغادر محمد إلى المدينة، فمن هؤلاء الذين يغيرون عليها ؟

واعتبرتها حالة طارئة . فخرج فى اليوم الثانى ركب منهم بعضهم إلى قافلته . وبعضهم إلى زراعته وبعضهم إلى حاجته . وما أن غادروا الحصن ، حتى انقضَّ عليهم الهجوم الصاعق ، يقتل ويأسر ويسلب ، فعادوا مذعورين إلى حصونهم ، وقال بعضهم : إنه رأى مالك بن عوف النصرى على رأس المغيرين ، مالك الذى قادهم لحرب رسول الله ﷺ ، واختبأ عندهم خوفًا منه يغير عليهم ؟!! لماذا . عرفوا فيما بعد أنه أسلم ، وصار من جنود محمد ﷺ .

وأنه لن يدع لهم ركبًا يأمن . إنها دولة الإسلام الثانية بعد دولة أبى بصير . فأبو بصير هو الذى أقضَّ مضجع أهل مكة حتى رجوا رسول الله ﷺ أن يؤديه وأصحابه . وهذا مالك بن عوف ، يقود القبائل المجاورة لثقيف . حتى لا تنعم لهم عين ، ولا يهدأ لهم بال ، ولا يقوم لهم قرار ، إنها لو كانت حربًا نظامية لأمكن مواجهة هذه القبائل ، ولكنها حرب عصابات .

وإغارات تقوم على الكر والفر ، ولا تنتهى إلا بالمصالحة ، والمصالحة لن تكون إلا مع محمد ﷺ ، صبروا وتمنعوا ، وفقدوا صوابهم من هذه المعارك حتى قال شاعرهم وفارسهم أبو محجن الثقفى :

(هابت الأعداء جانبنـــا ... ثم تغزونا بنـــو سَلِمهْ

وأتانا مـــالك بِهمُ ... ناقضًا للعهد والحُرُمَـــةْ

وأتونا فى منازلنـــا ... ولقد كنا أولى نِقِمَهْ) (٢)

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ١٧٢، ١٧٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤/ ١٠٦ .

لقد كانت هوازن هى بادية ثقيف . وعاد مالك سيدًا لها ولجيرانها من بنى ثُمالة وسَلِمة ومنهم.

(فاستعمله رسول الله ﷺ - أى مالك - على من أسلم من قومه . فكان يقاتل بهم ثقيفًا لا يخرج لهم سَرْحٌ إلا أغار عليه . حتى ضيَّق عليهم) (١) .

وحدث فى ثقيف حدث داخلى غير إغارات مالك هز كيانهم كذلك . هذا الحدث هو إسلام سيدهم عروة بن مسعود الثقفى .

(وكان من حديثهم أن رسول الله لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة . فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ :

« إنهم قاتلوك » .

وعَرَفَ رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم، فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم من أبكارهم .

وكان فيهم محبيًا مطاعًا . فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم فلما أشرف لهم على عِلية له وقد دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى فى دمك ؟ قال :

كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم. . .) (٢) .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا . ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا . . . وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سِرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتُطع ، وائتمروا بينهم ، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وكان سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك فأبى أن يفعل ، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال :

لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً . فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٤١.

ابن معتب وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن ناب أبى العاص .. وأوس بن عوف .. ونمير بن خرشة . فخرج بهم عبد ياليل ، وهو القوم وصاحب أمرهم ، ولم يُخرج بهم إلا خشية من مثل ما صُنع بعروة بن مسعود ، لكى يشغل كل رجلٍ منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه) (١) .

سبحان الله ، لقد جاء جبريل ﷺ قبل عشر سنين إلى رسول الله ﷺ وهو ملاحق مطرود من الطائف (فقال له : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى مَلَك الجبال فسلَّم علىّ ثم قال : يا محمد .. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت . فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا ») (٢) .

فلقد كانت آمال رسول الله ﷺ بعد الرد العنيف من عتاتهم وكبرائهم فى الجيل الذى فى أرحام نسائهم وأصلابهم . أما هم . فلا . وكيف يأمل فيهم وقد قال له سادة ثقيف الإخوة الثلاثة ، عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو ما قالوه .

وكان مما قاله عبد ياليل : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .

وها هو عبد ياليل اليوم يقود ركب قومه إلى المدينة ليدخل فى دين الله عز وجل . إنه الجيل نفسه الذى كذب وآذى وشتم . هو هو نفسه يستسلم أمام المد الإسلامى الذى أحاط بهم من كل جانب ، وأمام الغارات التى لم تنقطع عنهم منذ قرابة عام ، فلم تدع لهم سِربًا يأمن ، ولا يخرج أحد منهم إلا اقتطع .

إننا أمام سلسلة من الأعداء الكبار . ينضمون واحدًا تلو الآخر إلى ركب النبوة.

فهذا مالك بن عوف قائد هوازن وثقيف فى حنين يغدو الوالى الذى يقض مضجع ثقيف ليضطرها للانضمام إلى ركب الإيمان ، وهو الشاب بينهم . وهذا عروة بن مسعود الثقفى أدهى العرب الذى كان مبعوث قريش فى الحديبية ليهدد الرسول ﷺ قائلاً : جمعت أوشاب العرب لتفض بهم بيضتك . وإنى لأرى وجوهًا أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا عنك . ها هو يغدو أول شهيد فى قومه . ويغدو كصاحب ياسين فى قومه ، وهذا نظيره عبد ياليل الذى شهدنا موقفه اللئيم يوم الطائف ضد محمد ، يقود ركب سادة قومه إلى محمد ﷺ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١٤٢ .

(٢) البخارى (ح ٣٢٣١)، ومسلم (ح ١٧٩٥).

الوالى الخامس : عثمان بن أبى العاص

لابد لنا من متابعة الحديث كاملا عن وفد ثقيف حتى نتعرف على الوالى الخامس ، وأمير رسول الله ﷺ على قومه .

(فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألفوا بها المغيرة بن شعبة ، فاشتد ليبشر بهم النبى ﷺ ، فلقيه أبو بكر فقال : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه . فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ ، فأخبره بقدومهم . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروَّح الظهر معهم ، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ فأبوا إلا تحية الجاهلية ، ولما قدموا على رسول الله ﷺ ، ضرب لهم قبة فى ناحية المسجد لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا) (١) .

يحدثنا أحد أعضاء الوفد عن لحظة وصولهم عند باب رسول الله ﷺ كما روى الطبرانى برجال ثقات عن عثمان بن أبى العاص قال :

قدمت فى وفد ثقيف حين قدموا على رسول الله ﷺ ، فلما حللنا بباب النبى ﷺ قالوا : من يمسك رواحلنا ؟ فكل القوم أحب الدخول على رسول الله ﷺ وكره التخلف عنه . وكنت أصغرهم ، فقلت :

إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد الله لتمسكُنَّ لى إذا خرجتم ، قالوا : ذلك لك) (٢) . وندع عثمان مع رواحل وفد ثقيف . وتمضى مع الوفد إلى رسول الله ﷺ .

إن هذا الوفد يتصور أنه قادم إلى عقد هدنة عسكرية مع رسول الله يأمن فيها هجوم مالك بن عوف القائد الشاب المسلم بالمسلمين عليهم ، وإيقاف الحرب وانتهى الأمر ، وليسوا قادمين ليعلنوا إسلامهم ودخولهم فى دين الله .

(فقال كنانة بن عبد ياليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا ؟

قال : « نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم ، وإلا فلا قضية ولا صلح بينى

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٥٢ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١٤٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٥٣ .

وبينكم » .

وأمام هذا الموقف النبوى الحازم أرادوا قبل الإقرار بالإسلام استثناء بعض أمور الإسلام الخاصة بهم؛ لأنهم يعلمون أن معنى الإسلام هو هجر كل أمور الجاهلية ، والاستسلام لله تعالى فى كل شىء .

(قالوا : أفرأيت الزنا ؟ فإنا قوم نغترب لابد لنا منه .

قال : « هو عليكم حرام إن الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء] » .

قالوا : أفرأيت الربا فإنه أموالنا كلها ؟

قال : « لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ [البقرة] » .

قالوا : أفرأيت الخمر فإنه لابد لنا منها ؟

قال : إن الله تعالى قد حرَّمها » وقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة]) (١) .

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يأكلون طعامًا يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا ، وكان فيما سألوا أن يدع لهم الطاغية ، وهى اللاتُ لا يهدمها ثلاث سنين حتى سألوه شهرًا فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . فأبى رسول الله ﷺ . فأبى إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدمها ، وقد كانوا سألوه أن يُعفيهم من الصلاة ، وألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . فقال رسول الله ﷺ : « أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه») (٢) .

لقد كانت هذه المباحثات الطويلة المستعصية قبل دخولهم الإسلام . وفشلت

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٥٥، وهو عند الواقدى فى المغازى ٣/ ٩٦٧.

(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٥٢.

الطلبات جميعًا ؛إسقاط الصلاة ، إحلال الربا ، إحلال الزنا ، إحلال الخمر ، إبقاء الآلهة (اللات) ، ولم يوافق إلا على طلب واحد فقط :

« أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه » .

ما بال المسلمين اليوم لا يرون تعارضًا بين الإسلام ،وبين ترك الصلاة وارتكاب فاحشة الزنا ، واستحلال الربا ، ومعاقرة الخمر ، ولا يجدون ما يمس إسلامهم بذلك بينما كان هؤلاء المشركون العتاة أفقه منهم فى دين الله ، وأعرف منهم فى ذات الله ، فهم لم يسلموا ثم تقدموا بطلباتهم هذه . بل تقدموا بهذه الطلبات جميعًا قبل أن يسلموا ؛ لأنهم يعرفون أن الإسلام استسلام لله عز وجل كامل فى كل ما أمر ،وانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر . وكانوا بين خيارين . إما أن يُصروا على هذه الطلبات ، ويختاروا الحرب مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يختاروا الإسلام والتنازل عن هذه الاعتراضات كلها ؛لأنها قد أعلن الإسلام فيها حكمه ، وما قصة الأعشى عنا ببعيدة ، والتى جاء قاصداً رسول الله ﷺ بالمدينة من أقاصى نجد ، من المنفوحة ليسلم . وعندما قيل له :إن محمداً يحرم الخمر ، قال :(أما هذه ففى النفس منها علالات. إنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم ، فانصرف فمات فى عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله ﷺ) (١) .

إنهم سادة قومهم وأصحاب القرار فيهم ، ويعرفون إمكانات المواجهة والحرب لمحمد ﷺ ، ومن أجل هذا وبعد تشاور طويل بينهم انتهوا إلى قبول الإسلام والدخول فيه وقد غاب عن مشاوراتهم هذه أحد الستة عثمان بن أبى العاص الذى كلف بإمساك الرواحل عليهم والإشراف عليها فى غيابه ، ولم يجدوا حرجًا من اتخاذ قرار الإسلام فى غيابه فهو أصغرهم سنًا ولن يكون حجر عثرة أمامهم حين يرى أن خمستهم قد أجمعوا على ذلك ، إنه خيار صعب اختاروه ولعل قلوبهم لم تكن على مستوىً واحدٍ من قبول الإسلام ؛ لكنهم ـ على الأقل ـ قبلوه جميعًا فى ظاهر الأمر .

(فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا ، أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص، وكان من أحدثهم سنًا ، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢/ ٢٣ .

ولكن أنى له ذلك ، وهو لم يختلط بالمسلمين ، وبقى فى حراسة الرواحل ؟!

(فدخلوا عليه ثم خرجوا فقالوا: انطلق بنا. قلت : إلى أين ؟ قالوا : إلى أهلك.

فقلت : ضربت من أهلى حتى إذا حللت بباب رسول الله أأرجع ولا أدخل عليه؟ وقد أعطيتمونى ما علمتم) .

لقد أعطوه العهد والميثاق أن يمسكوا الرواحل ، ويهيئوا له فرصة اللقاء مع رسول رب السموات والأرض ؛ ليستمع منه إلى حديث الله وكتابه ، فكيف يتجاهلون الأمر وكأن لم يكن بينه وبينهم عهد ولا ميثاق على شىء .

قالوا : فأعجل فإنا قد كفيناك له ، لم ندع شيئًا إلا سألناه) .

وفعلاً لم يدعوا شيئًا إلا سألوه ، سألوه الإعفاء من الصلاة والإذن بالزنا وشرب الخمر والربا ، فماذا سيسأل عنه بعد ذلك ؟!

ومع هذا فقد أعطوه قسمة محدودة . ينتظرونه ليلقى سيد الخلق محمد ﷺ (فدخلت فقلت : يا رسول الله، ادع الله لى أن يفقهنى فى الدين ، ويعلمنى .

قال : أى رسول الله : « ماذا قلت ؟ » فأعدت عليه القول . فقال :

« لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد من أصحابك » .

وسعد عثمان بإقبال رسول الله ﷺ ، وراح يعب من النور النبوى ، ويعيش فى العبق المحمدى ، ويود لو يبقى بين يديه طيلة عمره . ولم يكن يدرى أنه سيدخل عليه طالب علم ، وناشد نور ليخرج من عنده أميرًا على قومه كلهم ، وعلى الكبار الخمسة الذين معه .

« اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تَقْدَمُ عليه من قومك » (١) . وفى رواية : (فسألته مصحفًا فأعطانيه) (٢) .

(وذكر فى وفد ثقيف زيادة على ما هنا قال :

وكانوا يغدون على رسول الله ﷺ فى كل يوم ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص على رحالهم ؛ لأنه أصغرهم ، فلما رجعوا عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الدين ، واستقرأه القرآن حتى فقه فى الدين وعلم ، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وأحبه .

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٤٥٢، وقال فيه : رواه الطبرانى برجال ثقات .

فمكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا) (١) .

وفي رواية : (وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لما علم من حرصه على الإسلام ، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج لما سألوه أن يؤمر عليهم) (٢) .

ولن ندع عثمان أميرنا الشاب الجديد إلا ونسأله عن كل شيء جرى بينه وبين الرسول الحبيب صلوات الله عليه ، ولا ندرى هل يقص علينا هذه المعلومات فى هذا اللقاء . أم أقر الله تعالى عينه بلقاء رسول الله ﷺ مرة أخرى فأعطاه زاداً لا ينفد ، ولكزة أجهزت على شيطانه بالضربة القاضية .

قال عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طاغيتهم ، وقال عثمان : إنما استعملنى رسول الله ﷺ لأنى كنت قرأت سورة البقرة. فقلت : يا رسول الله ، إن القرآن ينفلت منى .

فوضع يده على صدرى وقال : « يا شيطان أخرج من صدر عثمان » .

فما نسيت شيئًا بعده أريد حفظه) (٣) .

وفى صحيح مسلم : قلت : يا رسول الله ، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى . فقال : « ذاك شيطان يقال له: خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثًا » (٤) .قال : ففعلت فأذهبه الله عنى) .

ونتابعه رضي الله عنه حتى نعلم آخر وصاة رسول الله ﷺ لأميره الشاب فعن مطرف بن عبيد الله الشخير عن عثمان بن أبى العاص قال :

كان من آخر ما أوصانى به رسول الله ﷺ حين بعثنى إلى ثقيف قال :

« يا عثمان، تجوَّز فى الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم؛ فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة والصغير » (٥) .

* * *

غادر عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه المدينة مع الوفد إلى الطائف أميرًا للوفد ، وأميرًا

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٤٥٥.

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٤٥٧ ، وهو عند أبى داود .

(٤) صحيح مسلم (ح ٢٢٠٣).

(٥) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٣٧٣ .

للطائف . وشهد بعد حين قدوم المغيرة بن شعبة الذى قام فى هدم اللات . وسر من موقف المغيرة أثناء الهدم ، والذى حطم أسطورتها فى نفوس عابديها كما تذكر السيرة عن وفد ثقيف :

(وقد تركنا من هدم الربة ، وأبيا أن نهدمها وقال : « أبعثُ من يهدمها » وهو يبعث من يهدمها ،قال : يقول شيخ من ثقيف قد بقى فى قلبه من الشرك بعد بقيته :

فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه ، إن قدر على هدمها فهو محق ونحن مبطلون . وإن امتنعت ففى النفس من هذا بعد شىء) (١) .

ومن الذى يملك الغيرة الكبرى على دين الله مثل عثمان الذى أشرق قلبه بالنور . وملأ كل ذرات كيانه ؟

(فقال عثمان بن أبى العاص: منَّتكَ نفسك الباطل ، وغرتك الغرور ، وما الربَّة ؟ وما تدرى الربة من عبدها ومن لم يعبدها ؟

كما كانت العزى ما تدرى من عبدها ومن لم يعبدها ؟ جاءها خالد بن الوليد فهدمها ؛ وكذا إساف ونائلة ، وهبل ومناة ، خرج إليها رجل واحد فهدَّمها ، وسواع خرج إليه رجل واحد فهدمه فهل امتنع شىء منهم ؟ قال الثقفى :

إن الربة لا تشبه شيئًا مما ذكرت . قال عثمان : سترى .

وأقام أبو سفيان والمغيرة بن شعبة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجا لهدم الربة . فلما دنوا من الطائف قال لأبى سفيان : تقدم فادخل لأمر النبى ﷺ . فقال أبو سفيان : بل تقدَّم أنت على قومك فتقدم المغيرة . ودخل فى بضعة عشر يهدمون الرَّبة . فلما نزلوا بالطائف نزلوا عشاء فباتوا ، ثم غدوا على الربة يهدمونها ، فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه: لأضحكنكم اليوم من ثقيف . فأخذ المعول ، واستوى على رأس الربة ومعه المعول . وقام وقام معه بنو معتب دونه معهم السلاح مخافة أن يصاب كما فُعِل بعمه عروة بن مسعود وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال :

كلا ، زعمت تُقدمُنى أنت إلى الطاغية ، ترانى لو قمت أهدمها كانت بنو معتب تقوم دونى ؟ وقد خرج نساء ثقيف حسَّرًا يبكين على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون والأبكار خرجن) (٢) .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٧١ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٩٧٢، ٩٧٣.

يكاد هذا الموقف يعيد لنا صورة موسى والسحرة : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ ﴾ [طه] . ولم يكن موقف الشيخ الثقفى الذى احتد فى النقاش مع عثمان رضي الله عنه موقفًا فرديًا،إنما كان ظاهرة أرادت به ثقيف أن تعرف الحق من الباطل، ومثَّل المغيرة رضي الله عنه دور السحرة ودور موسى عليه الصلاة والسلام .

(فلما ضرب المغيرة ضربة بالمِعول سقط مغشيًا عليه يرتكض فصاح أهل الطائف صيحة واحدة .

كلا ، زعمتم أن الربة لا تمتنع ؛ بلى والله لتمتنعن .

وأقام المغيرة مليًا وهو على حاله تلك . ثم استوى جالسًا فقال :

يا معشر ثقيف ، كانت العرب تقول:ما من حيٍ من أحياء العرب أعقل من ثقيف، وما من حى من أحياء العرب أحمق منكم ؛ ويحكم، وما اللات والعزى ؟ وما الربة ؟ حجر مثل هذا الحجر . لا يدرى من عبده ممن لم يعبده . ويحكم ، أتسمع اللات أو تبصر ، أو تنفع أو تضر ؟!

ثم هدمها وهدم الناس معه . فجعل السادن يقول ـ وكان سدنة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عتاب بن مالك ـ يقول :

سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأساس غضبًا يخسف بهم .

فلما سمع بذلك المغيرة ، ولى حفر الأساس حتى بلغ نصف قامة . وانتهى إلى الغبغب خزانتها وانتزعوا حليتها وكسوتها وما فيها من طيب ومن ذهب ومن فضة . قال: تقول عجوز منهم : أسلمها الرضاع ، وتركوا المِصاع .

وأعطى رسول الله ﷺ مما وُجِد فيها أبا مليح ، وقارب ،وناسًا ، وجعل فى سبيل الله وفى السلاح منها . . .) (١) .

قال الله تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾

[إبراهيم]

فذكرهم موسى بأعظم يوم من أيام الله ، يوم أغرق قوم فرعون ، ونصر موسى وجنده: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٧٢ .

﴿ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) ﴾

[إبراهيم]

وكان يوم إيمان السحرة من أيام الله التى قال الله تعالى فيها : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾ [الأعراف] .

وكان هذا يوم من أيام الله ، يوم أخزى الله الشرك ، وأهله ، وكان عرسًا من أعراس الإسلام يوم هدمت الربة من جزيرة العرب ، واجتثت الطاغية من جذورها ، وأنفقت كنوزها فى سبيل الله . هذه الربة التى بلغ من تعظيم العرب لها أن يجعلوها ندًا لله ، فلا يشاركون من آلهتهم القسم مع الله إلا بها وبالعزى ،فكان العربى يسوى بالقسم بين يمينه: والله، ويمينه: واللات والعزى،وهى مقدمة دائمًا على العزى فى القسم، وكان العرب يحججون إليها من كل مكان كما قال أمية بن أبى الصلت الثقفى للراهب:

وفينا أهل بيت تحجه العرب

كان آخر عهد عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه برسول الله ﷺ فى حجة الوداع . (وتوفى رسول الله وعلى مكة وأرضها عتاب بن أسيد والطاهر بن أبى هالة ؛ عتاب على بنى كنانة ، والطاهر على عك . وذلك أن النبى ﷺ قال : «اجعلوا عمالة عك فى بنى أبيها معد بن عدنان » (١) .

وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبى العاص ، ومالك بن عوف النصرى ؛ عثمان على أهل المدر ، ومالك على أهل الوبر أعجاز هوازن) (٢) .

لكن وفاة النبى ﷺ هزّت العرب قاطبة ، وشهدنا كيف أن قريشًا همت بالردة والخروج على عاملها الشاب عتاب بن أسيد رضي الله عنه لكن ثبات سهيل بن عمرو وموقفه العظيم وحمايته لعتاب . صرف أهل مكة عن الردة .

أما عثمان بن أبى العاص الوالى الشاب فى الطائف . فقد اعتمد بعد الله تعالى على نفسه فى مواجهة الردة ، ورأى بعض الرؤوس تريد أن تتحرك وتثور .

(فوقف فيهم خطيبًا فقال: كنتم آخر الناس إسلامًا فلا تكونوا أولهم ارتدادًا) (٣) .

---

(١) كانت عك تعتبر من عرب الجنوب ، ومن اليمن. فصحح رسول الله ﷺ نسبتها للعرب العدنانيين ، وجعل عليها الطاهر بن أبى هالة ابن زوجته خديجة رضي الله عنها .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ٢٩٣ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة للعسقلانى ٢/ ٤٦٠ .

وأنذر باستعمال القوة لو أقدم أى ثقفى على الارتداد .

فثبت الله قلوبهم بخطبته ، وشرح صدورهم بالإسلام ، حتى قال عنهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

فلا أعلم قومًا من العرب بنى أبٍ ولا قبيلة كانوا أصح إسلامًا ولا أبعد من أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم) (١) .

لقد حافظ هؤلاء الشبان الثلاثة والولاة الجدد عتاب بن أسيد ، وعثمان بن أبى العاص ، ومالك بن عوف على الإسلام غضًا طريًا فى أكبر مدن الحجاز مكة والطائف. بينما كانت المدينة عاصمة دولة الإسلام ودار الإسلام فى الأرض .

وإذا كان عتاب رضي الله عنه قد استمر واليًا حتى وفاته فى مكة والبيت الحرام . فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لعثمان رضي الله عنه (أسلم فى وفد ثقيف فاستعمله النبى ﷺ على الطائف ، وأقره أبو بكر ثم عمر ، ثم استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة) (٢) .

* * *

يقول اللواء محمود شيت خطاب رحمه الله : (بقى عثمان على عمله أميرًا على الطائف فى عهد أبى بكر ، كما بقى على عمله هذا سنتين فى خلافة عمر بن الخطاب ، وكان المسلمون حينذاك يسيرون من نصر إلى نصر فى العراق وفى بلاد الشام ، وكان الخليفة بحاجة شديدة إلى رجال ذوى عقول وأحلام وكفاءة لقيادة الجيوش خارج الجزيرة العربية؛لذلك أشار عليه الناس باستعمال عثمان على البحرين وعمان؛ ليقوم بإدارة تلك المنطقة الحيوية التى أصبحت القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامى باتجاه أرض الفرس ، وليتحمل قسطه من الفتح الإسلامى ، ولكن عمر تحرج من عزل عثمان ، فأشار عليه الناس أن يطلب إلى عثمان أن يستخلف هو على عمله بالطائف ، ويذهب إلى عمله الجديد . فاستخلف عثمان على الطائف أخاه الحكم بن أبى العاص ، وفى رواية أنه استخلف خالاً له من ثقيف ، وأنه وجَّه أخاه الحكم إلى البحرين وسار هو إلى عمان ، وهذا ما نرجحه ؛ لأن الحكم فتح كثيرًا من البلاد والفارسية وابتدأ بالفتح بعد تولى أخيه عثمان عُمان والبحرين مما يدل على أن عثمان استصحب أخاه الحكم بعد مغادرة الطائف إلى منصبه الجديد مباشرة) (٣) .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٤.   (٢) الإصابة ٢/ ٤٦٠.

(٣) قادة فتح بلاد فارس ص٢٦٥ للواء الركن محمود شيت خطاب .

الفاتح

(وجه عياض بن غنم الفهرى عثمان إلى أرمينية الرابعة وذلك فى سنة تسع عشر للهجرة . فكان عندها شىء من قتال أصيب به صفوان بن المعطل السلمى شهيداً . ثم صالح عثمان أهلها على الجزية على أهل كل بيت دينار) (١) .

لقد كان عثمان رضي الله عنه عظيمًا فى عينى عمر رضوان الله عليه . وكان مؤهلاً لمسؤوليات أضخم من هذه المهمات الجانبية . ومن أجل ذلك عندما عقد أمير المؤمنين الألوية لتمضى فى فتح بلاد فارس ، والاستقرار فيها لم يغب عثمان عن ذهن أمير المؤمنين.

(وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى حليف بنى عبد الأشهل . فقدِم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس ، ولواء أردشير خُرَّة وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمى ، ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى ، ولواء فسا ودارا بجرد إلى سارية بن زنيم الكنانى ، ولواء كرمان مع سهيل بن عدى ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو ـ وكان عاصم من الصحابة ـ ولواء مُكران إلى الحكم بن عمير التغلبى) (٢) .

فتح إصطخر

(وقصد عثمان بن أبى العاص لإصطخر . فالتقى هو وأهل إصطخر بجور فاقتتلوا ما شاء الله ثم إن الله فتح لهم جور . وفتح المسلمون إصطخر . فقتلوا ما شاء الله وأصابوا ما شاؤوا . وفر من فر . ثم إن عثمان دعا الناس إلى الجزاء والذمة . فراسلوه وراسلهم . فأجابه الهربِذ . وكل من هرب أو تنحى . فتراجعوا وباحوا بالجزاء) (٣) .

لقد كان عثمان رضي الله عنه داعية قبل أن يكون فاتحًا. فالهزيمة التى حلت بأهل إصطخر وتشريدهم وسبى نسائهم لن تولد إلا الضغينة فى قلوبهم . وستقف سداً منيعًا أمام الإسلام الذى كان مصدر تشردهم وسبيهم وفقدانهم أرضهم . وإذا كان الهدف فتح الأرض فقد تحدد الهدف .

---

(١) قادة فتح بلاد فارس ص ٢٦٥ للواء الركن محمود شيت خطاب .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٥٠٥ . (٣) المصدر السابق ٢/ ٥٥٢ .

لكن إذا كان الهدف فتح القلوب . فلم يتحقق بعد . ولا سبيل له إلا بتآلف هذه القلوب كما فعل ﷺ يوم ترك فتح الطائف. فجاءته مستسلمة بعد ذلك. ومن أجل هذا اتصل بأكابر قادة إصطخر، وعرض عليهم الجزية على أن يعودوا إلى بلادهم، ويستقروا فى أرضهم ، وبذلك يتم تعاملهم مع المسلمين ، وتعرفهم على أخلاقهم وعلى دينهم ، فتتفتح قلوبهم لدين الله، وينضموا إليه راضين طائعين. ونجح عثمان رضي الله عنه فى مهمته، وأعاد الأمن إلى ربوع إصطخر وأخذ الجزية منهم .

(ثم إن عثمان دعا الناس إلى الجزاء والذمة ، فراسلوه وراسلهم . فأجابه الهربذ وكل من هرب أو تنحى فتراجعوا وباحوا بالجزاء) .

كان على عثمان رضي الله عنه مهمة جليلة بعد فتح إصطخر ؛ فالغنائم التى ظفر بها الجيش الإسلامى لابد أن توزع . حيث يمضى الخمس إلى أمير المؤمنين فى المدينة ، وتبقى الأخماس الأربعة فتوزع على المجاهدين المقاتلين . وكان عثمان ينظر فى هؤلاء المجاهدين بنور الله . هل عفوا عن الغنائم أم لا ؟ فأثلج صدره أمانتهم وعفتهم عن المغنم حتى يأخذ كل مجاهد حقه تنفيذاً لحديث رسول الله ﷺ :

« أدوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول عار ونار وشنار على صاحبه يوم القيامة ».

(وقسم أربعة أخماس المغنم فى الناس ، وعفَّت الجند عن النهاب (١) ، وأدوا الأمانة واستدقوا الدنيا (٢) فجمعهم عثمان ثم قام فيهم وقال :

إن هذا الأمر لا يزال مقبلاً ، ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغُلُّوا . فإذا غلُّوا رأوا ما ينكرون ولم يسُدَّ الكثير مسد القليل اليوم .

إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفَّهُم ، ووفر أمانتهم، فاحفظوها ، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة . فإذا فقدتموها جُدِّد لكم فى كل يوم فقدان شىء من أموركم) .

إنه عبق النبوة الذى تلقاه عثمان رضي الله عنه فى المدينة ينتشر اليوم فى أجواء المجاهدين. ويؤكد أنهم على العهد ولو بَعُد العهد بهم عشرين عامًا ، فلا تزال العفة سمتهم ومن حق عثمان الأمير الشاب رضي الله عنه أن يحمد الله على استمرار هذا النهج . وأن يحذر فقدان الأمانة ، فلو فُقِدت ابتدأت الخسارة تصل إلى كل شىء ثم تطير البركة من بين أيديهم . فلا يغنى الكثير ولا يسد مسد القليل .

---

(١) النهاب : الأخذ من الغنيمة دون علم القائد . (٢) استدقت الدنيا : صغرت فى أعينهم .

نقض جديد .. وملحمة جديدة

لا يزال كسرى حيًا يريد أن ينقض الأرض بالمسلمين ، ويستعيد فارس منهم . فبعث أحد قواده المدعو شهرك. وراح يتصل بالفرس ليثوروا على المسلمين، وينقضوا عهودهم وذمتهم (ثم إن شهرك خلع فى آخر إمارة عمر وأول إمارة عثمان، ونشَّط أهل فارس ، ودعاهم إلى النقض . فَوُجِّهَ إليه عثمان بن أبى العاص ثانية ، وبُعث معه جنود أُمِدَّ بهم فالتقوا بفارس . فقال شهرك لابنه وهو فى المعركة :

(يا بنى ، أين يكون غداؤنا ؟ ها هنا أو ريشهر ـ وكان بينهم وبين ريشهر ثلاثة فراسخ وبينهم وبين قرارهم اثنا عشر فرسخًا .

فقال : يا أبت، إن تركونا فلا يكون غداؤنا ها هنا ولا ريشهر ، ولا يكوننَّ إلا فى المنزل ولكن والله ما أراهم يتركونا .

فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون القتال ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، قُتِل فيه شهرك وابنه ، وقتل الله عز وجل منهم مقتلة عظيمة ، وولى قتل شهرك الحكم بن أبى العاص بن بشر بن دهمان أخو عثمان) [1] .

وينقل لنا شاهد عيان صورة من هذه المعركة . علنا نتمكن من رؤيتها من خلال هذه الصورة على لسان الحكم بن أبى العاص أخى عثمان ، والمكلف من أخيه بقيادة المعركة ميدانيًا .

(قال الحكم : فصعد إلىَّ فى الجنود ـ أى شهرك ـ فهبطوا من عقبة ، عليهم الحديد ، فخشيت أن تغشو أبصار الناس ، فأمرت مناديًا ؛ أن من عليه عمامة فليلفها على عينيه ، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره) [2] .

فهو يخشى أن تتحطم معنويات المسلمين أمام هذه الجنود الهائلة المقنعة بالحديد ، فأصدر أمره بلف العمامة ، أو إغماض البصر . ثم أمرهم أن ينزلوا عن دوابهم ليشغلهم بذلك عن اختلاس النظر إلى العدو القادم كموج البحر وهو ينحط من الثنية .

(فلما رأى شهرك ذلك حطَّ أيضًا (عن دوابه) ثم ناديت أن اركبوا، فصففنا لهم وركبوا فجعلت الجارود العبدى على الميمنة ، وأبا صفرة على الميسرة ـ وكلاهما

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ٥٥٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٥٢، ٥٥٣ .

صحابيان ـ فحملوا ـ أى المشركين ـ على المسلمين فهزموهم، حتى ما أسمع لهم صوتًا. فقال لى الجارود : أيها الأمير ، ذهب الجند . فقلت : إنك سترى أمرك .

فلما لبثت أن رجعت خيولهم ليس عليها فرسانها ، والمسلمون يتبعونهم فيقتلونهم. فنثرت الرؤوس بين يدىَّ. ومعِى بعض ملوكهم يقال له: المكعبر، فارق كسرى ولحق بى. فأُتيت برأس ضخم ، فقال المكعبر : هذا رأس الأزدهاق ـ يعنى شهرك) [1] .

ولم يكن عثمان ﷺ ليدع أخاه الحكم وحده ، فلحق به ليتابع أنباء معركته عن كثب.

(وكان عثمان بن أبى العاص لحق بالحكم . وقد هزم شهرك . فكتب إلى عمر :

إن بينى وبين الكوفة فرجة أخاف أن يأتينى العدو منها . وكتب صاحب الكوفة بمثل ذلك فاتفق عنده الكتابان . فبعث أبا موسى فى سبعمائة فأنزلهم البصرة) [2]

(وسار أبو موسى الأشعرى بأمر عمر بن الخطاب من البصرة ، وانضم إلى عثمان ابن أبى العاص فى هذه المرحلة من قتال الفرس . ففتح معه أرجان صلحًا على الجزية والخراج ، ثم فتحا (شيراز) صلحًا وفتحًا . وفتحا (سينيز) من إقليم أردشير . وصالح عثمان مدينة (فسا) ومدينة سابور ،بل إن عثمان كان أول من حاول فتح السند من قادة المسلمين . ثم لم تزل السند تغزى إلى زمن الحجاج بن يوسف الذى افتتح باقى السند) [3] .

وحين يعرّف ابن حزم رحمه الله بعثمان بن أبى العاص يقول عنه :

(وعثمان منهم من خيار الصحابة ، ولاه رسول الله ﷺ الطائف . وغزا فارسًا وثلاثة من بلاد الهند ، وله فتوح ، وإليه ينسب شط عثمان بالبصرة ، وكانت أمه صفية بنت أمية بن عبد شمس ، وكانت تحت عثمان بن أبى العاص ريحانة بنت أبى العاص ابن أمية) [4] .

فتح إصطخر ثانية

بعد عام ثلاث وعشرين للهجرة تغيب عنا أخبار عثمان ﷺ . والظاهر أنه فى عهد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ٥٥٢، ٥٥٣.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٥٣.

(٣) قادة فتح فارس للواء خطاب ص ٢٦٦، ٢٦٧ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٢٦٦ .

عثمان أمير المؤمنين . جاء واستقر بالبصرة داعية يفقه الناس فى دين الله ،تاركًا الفتوح للعناصر الشابة الجديدة حتى كان عام ثمانٍ وعشرين ، وتناهت الأخبار إلى المسلمين أن فارس قد جاشت وانتفضت بعبيد الله بن معمر واليها .

(فاجتمعوا له بإصطخر ، فالتقوا على باب إصطخر فقُتِل عبيد الله وهزم جنده . فبلغ الخبر عبد الله بن عامر . فاستنفر أهل البصرة . وخرج معه الناس ، وعلى مقدمته عثمان بن أبى العاص . فالتقوا هم وهم بإصطخر . وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يزالوا منها فى ذل ،وكتب بذلك إلى عثمان أمير المؤمنين) [١] .

عثمان فى التاريخ

كان عثمان إضافة إلى تاريخه العسكرى والإدارى العظيم من الصحابة الرواة . فقد روى تسعة وعشرين حديثًا عن رسول الله ﷺ ، كما كان فقيهًا فى الدين ومن أصحاب الفتيا من الصحابة. وتوفى رضي الله عنه فى خلافة معاوية بن أبى سفيان سنة خمس وخمسين، وكان كما قال عنه اللواء خطاب : (إن عثمان بن أبى العاص مفخرة من مفاخر التاريخ العربى الإسلامى .

رضى الله عن الصحابى الجليل ، الإدارى ، الحازم ، القائد الفاتح عثمان بن أبى العاص الثقفى) [٢] .

ويكفى أن عمر رضي الله عنه خبير عظماء الرجال حين طلب رجلا ذا عقل وقوام وكفاية دُلَّ عليه . فاختاره وولاه [٣] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٦٠٥.

(٢) قادة فتح فارس ص٢٦٩ .

(٣) جوامع السيرة لابن حزم ص٣٤٩ .

الواليان السادس والسابع : ابنا الجلندى

ليس لدينا أية معلومات عن هذين الواليين، إنما معلوماتنا عن عمرو بن العاص رضي الله عنه الذى كان سفير النبى إليه ، والذى استطاع بعبقريته وبلاغته أن يدخله فى الإسلام.

ونعيد إلى الذاكرة يوم كان عمرو فى صف المشركين ، وبعثته قريش لاستعادة جعفر ابن أبى طالب رضي الله عنه من الحبشة. وكيف نجح جعفر فى كسب إيمان الملك النجاشى بينما فشل عمرو . ونقول : إن عمرو اليوم هو تلميذ جعفر بعد أن دخل فى دين الله ، وها هو ينجح فى كسب إيمان ملك عمان بعد أن تخرج من مدرسة خصمه اللدود سابقًا . وأخيه فى الله جعفر اليوم .

ولن يكون لنا أكثر من دور العرض للحادث الذى ينتهى بنا مع إسلام جيفر وعبد ملكى عمان (كتب النبى ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبدٍ ابنى الجلندى ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدٍ ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد :

فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما . فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ، ويحق القول على الكافرين . فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام ، فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتى ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه قال عمرو :

فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ـ وكان أحلم الرجلين ـ وأسهلهما خلقًا فقلت :

إنى رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك .

قال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك .

ثم قال : وما تدعو إليه ؟

قلت : أدعو إلى الله وحده لا شريك له . وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن

محمداً عبده ورسوله .

قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة .

قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدّق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام .

قال : فمتى تبعته ؟

قال : قريبًا . فسألنى أين كان إسلامك ؟

قلت : عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى أسلم .

قال : وكيف صنع قومه بملكه ؟

فقلت : أقروه واتبعوه .

قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟!

قلت : نعم .

قال: انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب.

قلت : ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا .

ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى .

قلت : بلى .

قال : فبأى شيء علمت ذلك ؟

قلت : كان النجاشى يخرج له خرجًا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله : فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا ؟

قال هرقل : رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع .

قال : انظر يا عمرو ما تقول .

قال : والله صدقتك .

قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا والخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب .

(لا ندرى من المتكلم جعفر أم عمرو ، فبهذا العرض الساحر كسب جعفر قلب النجاشى ضد عمرو الكافر .

وبهذا العرض الساحر يكسب عمرو المسلم قلب عبد نائب ملك عمان . فعمرو خريج المدرسة الجعفرية) .

قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدّق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ، ويصير ذنبًا .

لقد قال عمرو للنجاشى حين أراد أن يستأصل شأفة المسلمين : (فبعثنا قومنا إليك لتنذرك فساد ملكك) . وذلك طمعًا أن يقضى عليهم قبل أن يفسدوا ملكه ، ولمعرفته بنفسية الحاكمين .

ها هو هنا يطمئن عبدًا وجيفر ابنى الجلندى . أن ملكهم لن يمس حين يدخلوا فى دين الله .

قلت : إن أسلم ملّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم ، فيردها على فقيرهم .

قال : إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟

فأخبرته : بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل .

قال : يا عمرو ، وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟

فقلت : نعم .

فقال : والله ، ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

فمكثت ببابه أيامًا ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى .

ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه ـ أى جيفر ـ فأخذ أعوانه بضبعى .

فقال : دعوه .

فأرسلتُ . فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه .

فقال : تكلم بحاجتك .

فدفعت إليه الكتاب مختومًا ، ففضَّ خاتمه ، وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرقَّ منه .

قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟

فقلت : تبعوه ، إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف .

قال : ومن معه ؟

قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام ، واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الخرجة .

(وكان لابد لعمرو ﷺ أن يستعمل كل عبقريته ودهائه فى الحرب النفسية ضد الملك حتى يدعه يستسلم . فقد أخبره أن الناس جميعًا دخلوا فى دين الله إلا هو ، ولن يتركه رسول الله دون أن يغزوه إن أصر على كفره) .

وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تواطئك الخيل والرجال .

قال : دعنى يومى هذا ، وارجع إلىَّ غدًا .

فرجعت إلى أخيه .

فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يُسلم إن لم يضنّ بملكه .

حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى . فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه .

(لقد غزا الإسلام قلب عبدٍ ، وغمره ، لكنه يتصرف بمنتهى الحكمة بحيث يظهر أن أخاه هو الذى اتخذ الموقف . وغدا المستشار المؤتمن لعمرو ، يدله على أنفذ صيغة إلى قلب أخيه . لقد صار عمرو وعبد يحملان هدفًا واحدًا ؛هو كسر أقفال قلب جيفر ليدخل إليها الإسلام ، واستطاع عبد أن يكسر الأقفال المادية ، ويفتح الطريق الموصد أمام عمرو؛ليقوم بكسر الأقفال المعنوية الغالّة لقلبه . إنه الخوف على السلطان والملك ، والداعية اللبيب هو الذى يزيح هذا الخوف ويطمئن الحاكم الصادق أنه لن يخسر ملكه بإسلامه ، ولكنه قد يخسره بكفره ، وذلك عكس ما يشيعه المتهورون من الدعاة فى صفوف الحاكمين) .

فأوصلنى إليه .

فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكْتُ رجلاً ما فى يدى، وهو لا تبلغ خيله ها هنا ، وإن بلغت خيله لقاتلت قتالاً ليس كقتال من لاقى.

قلت : إنى خارج غداً .

(إن عمرو يهدد بالخروج . لكنه ترك أخاه مثل مؤمن آل فرعون الذى يكتم إيمانه، يقوم بالمهمة الأساسية فى اللحظات الحاسمة ، مهمة إقناع أخيه بالإسلام) .

فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه .

فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه أجابه .

(وهكذا قال مؤمن آل فرعون : ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٢٩) ﴾ [غافر] .

أما فرعون هنا . فقد استسلم لأخيه المؤمن الكاتم لإيمانه) .

فأصبح فارسل إلىّ ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا ، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا عونًا لى على من خالفنى .

فلم أزل مقيمًا فيهم حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ .

لقد كان جيفر وعبد شابين فى عرامة الشباب . وبعد أن أسلما أدخلا عَمراً رضي الله عنه على أبيهما الجلندى الذى تنازل عن الملك لهما ، وانشرح صدر الأب للإسلام كذلك . وراح يفخر بانتمائه للإسلام قائلاً :

(لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا ويكون أول آخذ به . ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يَغلِبُ فلا يبطر ، ويُغلَبُ فلا يهجر ، وأنه يفِى بالعهد ، وينجز الوعد . وأشهد أنه نبى ثم أنشد :

أتانى عمرو بالتى ليس بعـــدها ... مـن الحـق شىء والنصيح نـصيح
فقلت له : ما زدت أن جئت بالذى ... جُلندى عمـانٍ فى عُمـانَ يصبح
فيـا عـمرو قـد أسلمتُ لك جـهرة ... ينادى بها فى الواديين فصيح) (١)

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١/ ٢٧٥ (ت ١٢٦٢) .

ومثَّل عمرو ﷺ بعد إسلام الملكين الشابين مهمة الداعية ، ومهمة الفقيه الحاكم الذى يقيم الزكاة كما أمر بها الله سبحانه . ولإسلام جيفر وأخيه بدأت الأفواج من أهل عمان تنضم إلى حظيرة الإسلام . فقد (روى عبد الله بإسناد صحيح إلى الزهرى عن عبد الرحمن بن القارى أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى أميرى عمان ، فمضى عمرو إليهما فأسلموا وأسلم معهما بشر كثير ، ووضع الجزية على من لم يسلم) [1] .

أمضى عمرو قرابة السنة وهو ماضٍ فى الدعوة إلى الله ، والحكم بالإسلام ، وما راعه إلا كتاب يأتيه من أبى بكر الصديق وليس من رسول الله ﷺ وفيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك . أما بعد ، فإن الله عز وجل بعث نبيه حيث شاء ، ثم أحياه حيث شاء، ثم توفاه حيث شاء . وقد قال فى كتابه الصادق : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر] ، وإن المسلمين قلدونى أمر هذه الأمة على غير إرادة منى ولا حجة فأسأل الله العون والتوفيق. فإذا أتاك كتابى هذا ، فلا تحلل عقالاً عقله رسول الله ﷺ ، ولا تعقل عقالاً حله رسول الله ﷺ والسلام) .

وكانت دموعه تنهمر غزاراً وهو يقرأ الخبر . فهو حق لا مرية فيه ، وهذا الصديق يعزيه فيه ووضع الكتاب بجواره ، واستسلم لبكاء طويل استعاد به تاريخ حياته كله .

يقول ﷺ : (فبكيت بكاء طويلاً ، ثم خرجت فبكوا وعزونى) أى الأساقفة والرهبان ورأى ألا خيار له من العودة إلى المدينة ، يتعرف منها على أوضاع المسلمين هناك . لكن عز على الأميرين الشابين أن يغادرهما عمرو وقد محضاه كل الحب والود. هم وأهل عمان جميعًا ، وأحسوا بأن الدنيا تظلم بعده . فقد كان يفقههم فى دين الله، ويرجعان إليه فى كل صغيرة وكبيرة ، وأمام إصراره على المضى إلى خليفة رسول الله ﷺ . قال له شاعرهم مجفية بن النعمان العتكى شاعر الأزد :

يا عمرو إن كان النبى محمداً	قـــد أتى به الأمـــر الذى لا يدفـع
فقلوبنا قـرحى ومــاء دموعنا	جـــــارٍ وأعناق الـبرية تخضـع

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٥٠٩/١٣ .

يا عمـرو إن حيـــاته ووفاته فينــــــا ونتظر ما يقول ونسمع
فأقم فإنك لا تخاف رجوعنا يا عمرو ذاك هو الأعز الأمنع) (١)

وقرّت عين عمروٍ ﷺ بهذه العواطف الجياشة والإيمان المتوقد عند الشاعر الأزدى العمانى غير أن بصيرته النافذة وخبرته فى الحياة ، توحى له بملامح الفتنة على الأفق فشكر له ولأميرى عمان حسن وفائهما . وعندما رأيا إصراره على المضى ودعوه بعيون ودموع حرَّى عبَّر عنها شاعرهم عقبة بن النعمان العتكى . ولعله أخو مجفية :

وفينا وفينا يفيض الـوفاء وفينــــا يفرِّخ أفراخه
كذاك الوفاء يزين الرجال كما زيَّن الصدق شمراخه
وفيْنا لعمـــروٍ وقلنا له وقـد نفخ الـرأى نفـاخه

وقال كذلك :

وفينا لعمرو يـــوم عمرو كـأنه طـــــــريد نفته مذجح والسكاسك
رسول رسـول الله أعظِمْ بحقه علينا ومـن لا يعرف الحق هــــالك
ونحن أناس يأمن الجار وسطنا إذا كان يوم كاسف الشمس حالك) (٢)

ولم يكتف جيفر وعبد ﷺ بهذا الوداع الحار . بل جنَّد له جيفر سبعين فارسًا ليرافقوه فى رحلته إلى المدينة ، إذ عليه أن يقطع الجزيرة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، من مشرقها لمغربها وسط هذا البحر المتلاطم من الردة .

بعد مغادرة عمروٍ ﷺ لعمان. أدرك ابنى الجلندى أنهما صاحبا المسؤولية المباشرة عن قيادة الإسلام فى قومهما ، وعليهما أن يعتمدا على أنفسهما . وينظران بعيون فاحصة ما تخبئ الأقدار لعمان . بعد أن بدأت روائح الارتداد تلوح فى الأفق (٣) .

ردة مربعة ، وخطر داهم ، ثم نصر حاسم

لعل مغادرة عمرو بن العاص ﷺ لعمان هيأت لدعاة الفتنة أن يغادروا جحورهم ويعلنوا حربهم على دولة الإسلام فى عُمان .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/٤٥ (ت ٧٧٢٦) .
(٢) المصدر السابق ٣/٥/١١ (ت ٦٤٣٥) .
(٣) المصدر السابق (ت ٦٤٣٤).

فـ (نبغ بعُمان ذو التاج؛ لقيط بن مالك الأزدى ، وكان يسامى فى الجاهلية الجُلندى . وادعى بمثل ما ادعى به من كان نبيًا ، وغلب على عمان مرتدًا) .

وكانت حركته تمضى كالنار فى الهشيم . ونظر جيفر وعبد فإذا النار تقترب منهما لتأكلهما فهما رأس الدولة وهما المطلوبان رقم (١) من لقيط بن مالك الأزدى قائد جيوش الردة ، ورأى أن قدرتهما على مواجهة الهجوم الشرس ضعيفة . فانتفضت الأرض حولهما .

(وألجأ ذو التاج جيفرًا وعبادًا إلى الأجبال والبحر. فبعث جيفر إلى أبى بكر يخبره بذلك ويستجيشه عليه . فبعث أبو بكر الصديق حذيفة بن محصن الغُلفانى من حمير . وعرفجة البارِقى من الأزد ؛ حذيفة إلى عُمان ، وعرفجة إلى مهرة . وأمرهما إذا اتفقا أن يجتمعا إلى من بعثا إليه . فخرجا متساندين ، وأمرهما أن يجدا السير حتى يقدمان عُمان . فإذا كانا منهما قريبًا كاتبا جيفرًا وعبادًا . وعملا برأيهما . فمضيا لما أمرا به .

ووجَّه أبو بكر كتابًا ثانيًا إلى عكرمة بن أبى جهل :

لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء . والحق بعُمان حتى تقاتل أهل عمان . وتعين حذيفة وعرفجة) .

فالأمور تمضى إلى صدام مباشر ، ومعركة شرسة يُفنى الفريقُ الآخر .

(فمضى عكرمة فى أثر عرفجة وهرثمة فيمن كان معه حتى لحق بهما قبل أن ينتهيا إلى عمان . فلما تلاحقوا وكانوا قريبًا من عمان بمكانٍ يدعى رجام . راسلوا جيفرًا وعبادًا ، وبلغ لقيطًا مجىء الجيش فجمع جموعه وعسكر بدبا) .

لقد استعمل جيفر منتهى الحكمة ، ولم يواجه لقيطًا إلا بعد أن جاء الجيش الإسلامى العظيم المدينة وعلى رأسه القادة الثلاثة . وبقى وأخاه فى مكمنهما السرى حتى جاءتهم الرسائل بوصول الجيش إلى أرضهم ، (وخرج جيفر وعباد من موضعهما الذى كانا فيه،فعسكرا بصحار ، وبعثا إلى حذيفة وعرفجة وعكرمة فى القدوم عليهما ، فقدموا عليهما بصحار) .

وكانت الخطة التالية لجيفر ﷺ هى محاولة استمالة بعض قيادات المرتد ذى التاج لقيط (فبدأ بسيد بنى جُديد ، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضوا عنه) . وتعبأت كتائب الإسلام من عمان والمدينة بقيادات فذة عظيمة .

ونهدوا إلى لقيط فالتقوا على دُبا .

كانت خطة لقيط مثل خطة مالك بن عوف النصرى فى حنين . فقد جاء بالنساء إلى الحرب ؛ ليستحث دافع الشرف عند قومه ؛ ليذبوا عن حريمهم ويدافعوا عنهم (وقد جمع لقيط العيالات . فجعلهم وراء صفوفهم ليجربهم ، وليحافظوا على حُرُمهم) .

وابتدأ القتال وكل فريق يتلمظ شوقًا لدم صاحبه . فهذا يوم له ما بعده . فإما أن يكون يومًا من أيام الإسلام ، أو يكون ميتمًا من مياتم الإسلام .

(فاقتتلوا بَدَبا قتالاً شديداً. وكاد لقيط يستعلى على الناس) .

وعادت صورة غزوة حنين من جديد . فقد بدأت كفة المرتدين ترجح وما هى إلا لحظة والمسلمون أسارى بيد المرتدين . إلى أن جاء المدد الإلهى فى اللحظة المناسبة ، ولم يكن ملائكة كما كان فى حنين ، ولكنه كان أسُودًا مُسلمة وصلت لتوها لتنصر المسلمين فى عُمان . كما خطط الصديق رضي الله عنه لذلك .

(وقد رأى المسلمون الخلل،ورأى المشركون الظفر. جاءت المسلمين موادُّهُمُ العظمى من بنى ناجية وعليهم الخريت بن راشد،ومن عبد القيس، وعليهم سيمان بن صوحان، وشواذب عمان من بنى ناجية وعبد القيس.فقوّى الله بهم أهل الإسلام،ووهَّن الله بهم أهل الشرك فولَّى المشركون الأدبار.فقتلوا منهم فى المعركة عشرة آلاف).

إنها يمامة ثانية . فتلك قادها خالد ، وهذه قادها عكرمة ابن عمه ، رفيقى الجهاد فى الشرك والإسلام .

(فقتلوا منهم فى المعركة عشرة آلاف ، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم ، وسبوا الذرارى، وقسموا الأموال على المسلمين . وبعثوا بالخمس إلى أبكر مع عرفجة . ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعُمان حتى يوطئْ الأمور ويسكّن الناس ، فأقام حذيفة لذلك . ودعا القبائل حول عمان إلى سكون ما أفاء الله على المسلمين .. وقال فى ذلك عبَّاد الناجى :

لعمرى لقد لاقى لقيط بـن مالك ... من الشر ما أخزى وجوه الثعالب
وبادى أبو بكـر ومـن هلَّ فارتمى ... خليجان من تيـــــاره المتراكب
ولم تنهه الأولى ولـم ينكأ العدى ... فألوت عليه خيله بالجنائب) (١)

بعد هذه المعركة الفاصلة من معارك الإسلام . وبعد أن عاد الإسلام فألقى بجرانه

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٩١، ٢٩٢ وكل ما بين الأقواس هو النص .

فى الأرض . عاد جيفر وعباد إلى مملكتهما بعمان فى ظل هذا الدين . ودانت الأرض بالإسلام من جديد . ولولا جيفر وعباد بعد الله عز وجل لضاعت معالم عمان الإسلامية أمام الطواغيت . ولكن صبرهما ، واتصالهما بالصديق مثلا نقطة الارتكاز فى عمان . ومثلا ثورة عمان الإسلامية ضد المرتدين . والتى تأيدت بحذيفة وعرفجة وعكرمة . ومن معهم لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

الوالى الثامن : المنذر بن ساوى

تشير الروايات إلى أن إرسال عمرو بن العاص إلى ملكى عمان ، وإرسال العلاء ابن الحضرمى إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى العبدى إنما كان بعد فتح مكة .

(قالوا: وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمانٍ إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى وهما من الأزد، والملك منهما جيفر يدعوهما إلى الإسلام. . .)(١).

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتابًا . . .) (٢) .

ولقد نجح العلاء رضي الله عنه فى مهمته كما نجح عمرو فى مهمته .

(قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى :

أما بعد ، فإن رسلى قد حمدوك ، وإنك مهما تُصلِحْ أُصلِحْ إليك . وأُثبك على عملك ، وتنصحْ لله ولرسوله والسلام عليك .

وبعث به مع العلاء بن الحضرمى) (٣) .

ولكن أصالة محتد المنذر وطيب معدنه ، لم يحتج إلى ذلك الحوار الشديد والجهد العظيم الذى بذله عمرو مع ابنى الجلندى . إنما كانت الحجب والأغلال على قلبه غشاءً أكثر منه رانًا . فمن أجل ذلك ما أن لامست مسامعه كلمات النبوة ، إلا ووجدت نفاذاً إلى أعماقه ،فأعلن إسلامه ثم مضى إلى قومه فقرأ عليهم كتاب رسول الله . وحضهم على الإسلام ، فاستجاب بعضهم ورفض بعضهم الآخر ، وحيث لم يأت الأمر إليه بأن يجبر أحدًا على الإسلام .

(فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه ، وإنى قد قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه .

وبأرضى مجوس ويهود فأحدِثْ إلىَّ فى ذلك أمرك) (٤) .

وهكذا انتقلت هجر والبحرين لتكون مناراً للإسلام وتقوم فيها دولة العقيدة مع

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٦٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٦ .
(٤) المصدر السابق ١ / ٢٦٣.

تنوع العقائد فيها بين المجوسية واليهودية والإسلام ، وجاءت تعليمات النبى ﷺ إليه بما يلى :

(فكتب إليه رسول الله ﷺ : إنك مهما تُصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية . وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبَوْا أُخذت منهم الجزية ، وبألا تنكح نساؤهم ، ولا تؤكل ذبائحهم) (١) .

وتمت ترجمة الإسلام إلى واقع عملى . بعد (أن كتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال . فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم) (٢) .

أما الصدقات والزكوات فقد وزعت على فقراء المسلمين . وأما جزية اليهود والمجوس .

فقد أصدر رسول الله ﷺ أوامره لواليه المنذر بن ساوى أن يبعث إليه فيها (وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى كتابًا آخر :

أما بعد ، فإنى بعثت إليك قدامة وأبا هريرة ، فادفع إليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك والسلام . وكتب أُبَيّ) (٣) .

(وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمى :

أما بعد ، فإنى قد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقبض ما اجتمع عنده من الجزية فعجله بها، وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور والسلام - وكتب أُبَيٌّ)(٤).

وظاهر الأمر أن المنذر رضي الله عنه ترك للعلاء بن حضرمى أمور الزكاة وما زاد منها عن الفقراء والمتعلقة بالمسلمين؛ ليقوم هو بجبايتها وتوزيعها كما وزعها الله تعالى فى كتابه، بينما كان الحاكم الفعلى هو المنذر بن ساوى وهو الذى يعترف على حاكميته اليهود والمجوس . ولذلك أوكل إليه لحكمته وحصافته أن يقوم هو بأخذ الجزية من مواطنيه من اليهود والمجوس ؛حتى لا تتحرك النعرة البحرينية عندهم على دخول حاكم جديد من غير قبيلتهم ينفرهم من الإسلام أكثر وأكثر .

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٣.

(٣، ٤) المصدر السابق ١/ ٢٧٦.

هذا ولم يكتف المنذر بن ساوى رضي الله عنه بشرف ولايته لرسول الله ﷺ ، إنما كان يريد شرفًا أكبر ، ومجدًا أعظم ، وهو أكبر ما يحلم به فى حياته رضي الله عنه أن تكتحل عيناه برؤية رسول الله ﷺ سيد البشرية ، وكان له ما أراد ، ومن فضل الله علينا أنه ينقل لنا أهم مرافقيه مولاه نافع أبو سليمان نتفًا من هذه الزيارة .

عن سليمان بن نافع العبدى سمع منه بحلب قال : قال أبى : وفد المنذر بن ساوى من البحرين حتى أتى مدينة رسول الله ﷺ ، ووضع المنذر سلاحه ، ولبس ثيابًا كانت معه ، ومسح لحيته ، وأتى النبى ﷺ فسلَّم عليه وأنا مع الجمال،قال المنذر : قال النبى ﷺ :

« رأيت منك ما لم أر من أصحابك » .

قال : وما رأيت منى يا نبى الله ؟

قال : « وضعت سلاحك ولبست ثيابك وتدهنت » .

قلت : يا نبى الله ، أشىء جُبلت عليه أم شىء أُحدثته ؟

قال : « لا ، بل شىء جُبلت عليه » .

هذه المظاهر العظيمة من المنذر لم تكن تأنفًا ولا تزلفًا ،بل كانت جبلة فيه مغروسة فى كيانه .

ثم جاءت البشارة الكبرى من رسول الله ﷺ للمنذر مفتاح الإسلام إلى قومه (« لا بل شىء جُبلت عليه »، فسلموا على النبى ﷺ . فقال النبى ﷺ :« أسلمت عبد القيس طوعًا ، وأسلم الناس كرهًا فبارك الله فى عبد القيس ، وموالى عبد القيس ».

قال سليمان بن نافع ، قال لى أبى : نظرت إلى رسول الله ﷺ كما أنى أنظر إليك ولكنى لم أعقل . ومات أبى وهو ابن عشرين ومائة سنة) .

لم يطل المقام كثيرًا بأمير البحرين المنذر بن ساوى رضي الله عنه . بعد أن عاد إلى المدينة . فما هى إلا أقل من ثلاثة أشهر حتى جاءه خبر نعى النبى ﷺ .

(أخبرنا سيف قال : خرج العلاء بن الحضرمى نحو البحرين . وكان من حديث البحرين أنِ النبى ﷺ والمنذر بن ساوى اشتكيا فى شهر واحد . ثم مات المنذر بعد النبى ﷺ بقليل ، وارتد بعده أهل البحرين . . .) (١) .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥/٩.

فإذن لم يجرؤ أهل البحرين على الارتداد فى حياة المنذر رضي الله عنه . وعندما كان عمرو بن العاص رضي الله عنه عائدًا من عُمان إلى المدينة . وبلغه نبأ مرض المنذر بن ساوى عرَّج عليه يزوره ، ووجده فى الرمق الأخير من حياته .

(قال المنذر : كم جعل النبى ﷺ للميت من ماله عند الموت ؟

قال عمرو : الثلث .

قال : فما ترى أن أصنع بثُلثى ؟

قال : إن شئت قسمته فى سبيل الخير ، وإن شئت جعلته تجرى غلته على من شئت بعدك، قال : ما أحب أن أجعل شيئًا من مالى كالسائبة ، ولكنى أقسمه) (١) .

وما ندرى لعل عَمْرًا رضي الله عنه شيَّعَهُ إلى مثواه الأخير . أو تركه مودعًا إلى المدينة .

فالعلاء بن الحضرمى رضي الله عنه هو شريك المنذر فى الحكم ، وهو من السابقين الأولين.

وحفظ لنا تاريخ الحديث النبوى (أن رسول الله ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوى : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذاكم المسلم » أخرجه ابن منده وأبو نعيم) (٢) .

ورضى الله عن المنذر بن ساوى فى عليين .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/١٣٩ (ت ٨٢١٢).

(٢) المصدر السابق ٤/٤١٧.

الوالى التاسع : أبو موسى الأشعرى

كان دون العشرين من عمره يوم أشرق قلبه بالإسلام فى مكة . فوجهه رسول الله ﷺ إلى اليمن ؛ ليكون داعية للإسلام فى قومه . فمكة لا تقبل إسلام الغرباء ولا تحميهم وكان دوره دور الرواد الأوائل فى هذا الدين من غير قريش .

فالطفيل بن عمرو الدوسى فى دوس ، وأبو ذر الغفارى فى غفار ، وأبو موسى - عبد الله بن قيس - الأشعرى فى اليمن ، وجعفر بن أبى طالب فى مهاجرة الحبشة ، كل واحد من هؤلاء يؤسس فرعًا لحزب الله عنده ويجاهد فى قومه داعيًا إلى الله . ثم يأتى بهم عندما يسمع بظهور الرسول ﷺ وانتصاره .

(كان أسلم بمكة قديمًا . ثم رجع إلى بلاد قومه . فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ ، فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر وأصحابه من أرض الحبشة) (١) .

ويحدثنا عبد الله رضي الله عنه الداعية العظيم عن آثار دعوته فى قومه خلال هذه السنين فيقول : (هاجرنا من اليمن فى بضعة وخمسين رجلاً من قومى ونحن ثلاثة إخوة : أبو موسى وأبو رُهم وأبو بردة ، فأخرجتهم سفينتهم إلى النجاشى وعنده جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فأقبلوا جميعًا فى سفينة إلى النبى ﷺ حين افتتح خيبر، فما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه إلا أصحاب السفينة؛ جعفر وأصحابه قسم لهم معهم، وقال: « لكم الهجرة مرتين، هاجرتم إلى النجاشى وهاجرتم إلىّ ») (٢) .

أما الذى بشر بقدومهم قبل وصولهم فرسول الله ﷺ : « يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبًا » ، فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعرى ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون :

غدًا نلقى الأحبة ... محمدًا وحزبه) (٣)

وصل أبو موسى المدينة رضي الله عنه وهو فى السادسة والعشرين من عمره . ليبدأ صفحة جديدة من حياته . يتفقه فى دين الله ، ويتبحر فى العلم ، ويتلقى كتاب الله، يريد أن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٠٥ . (٢، ٣) المصدر السابق ٤/ ١٠٦ .

يعوض كل ما فاته من عمره . وكان من أسعد الناس فى هذه الحياة الجديدة .

فقد كانت معه زوجه ، وهو بين أهله وعشيرته ، واجتمعت الدنيا والآخرة عنده ، فهذه زوجه تحمل فتضع غلامًا يحدثنا عنه فيقول : (وولد لى غلام فأتيت به رسول الله ﷺ . فسماه إبراهيم ، وحنَّكه بتمرة . قال : وكان أكبر ولد أبى موسى) (١) .

الفتى القرآنى

عشق أبو موسى كتاب الله عز وجل ، وراح يتلوه ويتدبره ليل نهار، ويتعمق فى معانيه ولا يكتفى بذلك فى نفسه ، إنما كان يتدارس كتاب الله مع قومه الأشعريين حيث قادهم جميعًا إلى هذا الاهتمام ، وأصبحت لهم مجالس قرآنية متميزة ، شدت أنظار المسلمين إليهم وأقرت عين رسول الله ﷺ بهم .

(فعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ، ومنهم حكيم إذا لقى الخيل ـ أو قال العدو ـ قال لهم : إن أصحابى يأمرونكم أن تنظروهم ») (٢) .

وكما وصف رسول الله ﷺ المؤمن الذى يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب. فكذلك وصف الأشعريين فى الناس فقال : « الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك » (٣) .

لكن هؤلاء الأشعريين . قد بذهم أبو موسى رضي الله عنه بمسك المسك . فصار مهض قلوب المؤمنين .

فبم لفت أبو موسى رضي الله عنه أنظار الناس ولفت قلوبهم ؟

بجمال صوته فى القرآن .

وذات ليلة ، والليل مرخٍ سدوله . والناس هُجَّعٌ فى مضاجعهم انتصب أبو موسى فى مسجد رسول الله ﷺ يصلى ، ويناجى ربه العزيز بكلامه العزيز وقام رسول الله ﷺ للمسجد ففوجئ بذلك الصوت الشجى بكتاب الله . وأقرت عينه أن يكون فى أمته

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٧/٤ .
(٢) مسلم (ح ٢٤٩٩) ص ١٠١٤ ،والبخارى (٤٢٣٣) .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤١٦/٦ .

مثل هذا المزمار .

(فعن أبى هريرة ﷺ قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، فسمع قراءة رجل . فقال : « من هذا ؟ » قيل : عبد الله بن قيس . فقال : « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود ») (١) .

إنه داود عليه الصلاة والسلام الذى يسبح فتتماوج الجبال معه بتسبيحه فتسبح معه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] .

والحمد لله ، فقد ورث عبد الله بن قيس داود ، وأكد رسول الله ﷺ أن واحداً من أمته قد أوتى من مزامير داود عليه الصلاة والسلام ، وها هى عائشة ﷺ تروى لنا ذلك (فعن عائشة قالت : سمع النبى ﷺ قراءة أبى موسى فقال : « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود ») (٢) .

والصوت العذب لابد أن تعشقه كل أذن ، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا .

فعن أنس بن مالك: أن أبا موسى الأشعرى قام ليلة يصلى. فسمع أزواج النبى ﷺ صوته ، وكان حلو الصوت ، فقمن يستمعن . فلما أصبح قيل له :

إن النساء كن يستمعن .

فقال : لو علمت لحبرتكن تحبيرا أو لشوقتكن تشويقا (٣) .

أما أبو عثمان فيقسم :

كان أبو موسى الأشعرى يصلى بنا فلو قلت إنى لم أسمع صوت صنج قط لا بربط قط كان أحسن منه (٤) .

كانت الرعاية النبوية تتعهد أبا موسى لتفجر طاقاته الشبابية المذخورة فقد أتيح له عام كامل بعد وصوله المدينة ليزداد علمًا من رسول الله ﷺ وصحبه ، وبدأ يبرز بين المسلمين بسعة علمه وحدة ذكائه .

إنها رواية بريدة فتحدثنا عن جانب آخر من شخصيته وهو جانب القيادة وتأتى الشهادة له من رسول الله ﷺ فى ذلك .

(فعن ابن بريدة ﷺ قال : خرج بريدة عشاء فلقيه النبى ﷺ فأخذ بيده فأدخله

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/١٠٧. (٣ ، ٤) المصدر السابق ٤/١٠٨.

المسجد ، فإذا صوت رجل يقرأ فقال النبى ﷺ :

« تراه يرائى ؟ » فأسكِت بريدة ، فلما كان من القابلة خرج بريدة عشاء فلقيه النبى ﷺ فأخذ بيده فأدخله المسجد، فإذا صوت الرجل يقرأ، فقال النبى ﷺ: « تراه يرائى؟» . فقال بريدة :

أتقول هو مراءٍ يا رسول الله ؟

فقال النبى ﷺ : « لا ، بل مؤمن منيب ، لا ، بل مؤمن منيب » .

فإذا الأشعرى يقرأ بصوت له فى جانب المسجد . فقال النبى ﷺ : « إن الأشعرى (أو) عبد الله بن قيس أعطى مزماراً من مزامير داود ». فقلت : ألا أخبره يا رسول الله؟ قال : « بلى فأخبره » .

فأخبرته فقال : أنت لى صديق ، أخبرتنى عن رسول الله ﷺ بحديث) (١) .

ورواية محجن بن الأدرع تقدم مأثرة جديدة حين سمع النبى ﷺ صوته فقال : «إنه لأواه حليم ». قلت : يا رسول الله ، ألا أخبره ؟ فقال : « حذر لا تُسمِعْه فتهلكه » (٢) .

الفتى المجاهد

عندما سار رسول الله ﷺ لفتح مكة. كان أبو موسى رضي الله عنه فى الثامنة والعشرين من عمره. وحيث لم يكن فى فتح مكة قتال يذكر . فقد كان ذلك فى غزوة حنين حيث ضاقت الأرض بما رحبت على المسلمين . وكان سيد الأشعريين وكبيرهم عمه أبو عامر الأشعرى . فأوكل إليه رسول الله ﷺ قيادة سرية ؛لتواجه بطل هوازن الذى لا يشق له غبار دريد بن الصمة . وصحيح أن دريداً قد صار عجوزاً لا قدرة له على الحرب . لكن رأيه وتجربته تقابل ألف سيف من سيوف الشباب المقاتلين ،ولو أطاعه مالك بن عوف . لما خسر تلك المعركة .

(روى الجماعة عن أبى موسى الأشعرى ، وابن إسحاق عن سلمة بن الأكوع : أن هوازن لما انهزموا يوم حنين ذهبت فرقة منهم فيهم رئيسهم مالك بن عوف النصرى

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى وقال فيه : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ٣٥٨/٩.

(٢) المصدر السابق ٣٥٨/٩ وقال فيه : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير رجاء وقد وثقه ابن حبان.

فلجؤوا إلى الطائف فتحصنوا ، وصارت طائفة فعسكروا بمكان يقال له أوطاس . فبعث رسول الله ﷺ سرية وأمَّر عليها أبا عامر الأشعرى .

قال أبو موسى : بعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعرى على جيش إلى أوطاس فلقى دريد بن الصمة . فقُتِل دريد وهزم الله أصحابه . . . وبعثنى رسول الله ﷺ مع أبى عامر .

ويحدثنا سلمة بن الأكوع عن جانب من المعركة فيقول : نزلت هوازن وعسكروا بأوطاس عسكرًا عظيمًا ، وقد تفرَّق منهم من تفرَّق ، وقُتِل من قُتِل وانتهينا إلى عسكرهم فإذا هم ممتنعون فبرز رجل معلم يبحث للقتال فبرز له أبو عامر) (١) .

وعند ابن هشام أنهم عشرة إذ يقول :

(إن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين . فحمل عليه أحدهم . فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ، ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك، حتى قَتَل تسعة وبقى العاشر، فحمل على أبى عامر ، وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ،فقال الرجل : اللهم لا تشهد على ، فكف عنه أبو عامر فأفلت . ثم أسلم بعد فحسن إسلامه . فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال :« هذا شريد أبى عامر » .

ورمى أبا عامر أخوان؛ العلاء وأوفى ابنا الحارث من بنى جشم بن معاوية فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه . وولىَ الناسَ أبا موسى الأشعرى فحمل عليهما فقتلهما) (٢) .

وندع لأبى موسى رضي الله عنه يحدثنا عن قصة قتله كما فى صحيح مسلم :

قال : (فرمى أبو عامر فى ركبته . رماه رجل من بنى جشم بسهم ، فأثبته فى ركبته . فانتهيت إليه ،فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار أبو عامر إلى أبى موسى فقال : إن ذاك قاتلى ، تراه ذلك الذى رمانى .

قال أبو موسى : فقصدت إليه فاعتمدته فلحقته . فلما رآنى ولَّى عنى ذاهبًا فاتبعته وجعلت أقول له :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣١٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ٧٨.

ألا تستحى ؟ ألست عربيًا ؟ ألا تثبت ؟

فكف . فالتقيت أنا وهو . فاختلفنا أنا وهو ضربتين . فضربتُه بالسيف فقتلتُه ثم رجعت إلى أبى عامر فقلت :إن الله قتل صاحبك . قال: فانزع هذا السهم. فنزعته فنزا منه الماء. فقال : يا بن أخى ، انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه منى السلام وقل له : استغفر لى . قال : واستعملنى أبو عامر على الناس) (١) .

لقد قدَّم أبو موسى رضي الله عنه عربون الإمرة حين اتبع قاتل عمه وبارزه وقتله . وثأر له وهو فى الرمق الأخير . وها هو يرى نفسه أميرًا على السرية التى كان عمه أميرًا عليها. وقد انتهت الحرب . وهو يحمل أمانة خاصة من عمه أبى عامر إلى رسول الله ﷺ أن يستغفر له . ومشاعره تصطرع بين ألمه لمصابه بفقدان عمه سيد الأشعريين وكبيرهم . وبين سعادته أن يكون سفير عمه إلى رسول الله ﷺ فى إبلاغه كل ما فعلته السرية حتى كلل جهدها بالنجاح ، وفى طلب الاستغفار لعمه من رسول الله ﷺ .

وندع له المجال ليتابع الحديث بعد أن قطعناه عليه .

(ومكث يسيراً ثم إنه مات . فلما رجعت إلى النبى ﷺ دخلت عليه وهو فى بيت على سرير مرفل وعليه فراش . وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر ، وقلت له: قال : قل له يستغفر لى .

فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ثم رفع يديه ثم قال :

« اللهم اغفر لعُبيد أبى عامر » حتى رأيت بياض إبطيه . ثم قال :

« اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك ، أو من الناس » .

وكانت المشاعر تحتدم فى قلب أبى موسى رضي الله عنه ، ورسول الله ﷺ يتجه بقلبه إلى ربه يدعو لعمه . ولم يتمالك أن قال : ولى يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ: « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا » (٢) .

* * *

آب أبو موسى بسعادة غامرة لا تكاد الأرض تحمله . فقد دعا له رسول الله ﷺ بمغفرة ذنبه ، وأن يدخل مدخلاً كريمًا ،أى:الجنة، وبقى بجوار رسول الله ﷺ ، وشهد

(١ ، ٢) صحيح مسلم ص ١٠١٣ ،(ح ٢٤٩٨) ، والبخارى (٢٨٨٤).

توزيع غنائم حنين فى الجعرانة . ولم يكن يعنيه من أمرها شيء . فقد غدا أغنى الناس بهذا الدعاء النبوى المبارك . ولم يكن يعرف أن الأقدار تخبئ له حظًا سعيداً ثانيًا ظفر به من خلال إصراره على أن يكون بجوار النبى ﷺ وقريبًا منه وهو حديث نترك له رضي الله عنه نقله . فهو يحمل حرارة قلبه ، ونبضات فؤاده :

(عن أبى موسى قال : كنت عند النبى ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فأتى رسول الله ﷺ رجلٌ أعرابى فقال :

ألا تنجز لى يا محمد ما وعدتنى ؟

فقال له رسول الله ﷺ : « أبشر » .

فقال له الأعرابى : أكثرت على من (أبشر) .

فأقبل رسول الله ﷺ على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : « إن هذا قد ردَّ البشرى فاقبلا أنتما » .

فقالا : قبلنا يا رسول الله .

ثم دعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء . فغسل يديه ووجهه فيه ومجَّ فيه ثم قال : « اشربا منه وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا » .

أحس أبو موسى كأنه قبض على القمر . فهذه خاصية نالها مع بلال وحدهما من خلال لؤم الأعرابى الذى ردَّ على رسول الله ﷺ بشارته . فكانت البشارة لهما ؛ بلال وعبد الله بن قيس . فهما حول النبى ﷺ . وسارعا كمن أوتى كنزاً من الذهب قبل أن يشاركهما أحد فيه إلى الاقتتال على الشرب والاغتسال فيه .

غير أن صوتًا من وراء الستار ، وقلبًا كان يخفق لهذا الماء الذى باركه رسول الله ﷺ بريقه الشريف . ومج فيه ، وتوضأ فيه . يحمل المعاناة نفسها التى يحملها هذان الصاحبان بلال وأبو موسى . كان هذا القلب وهذا الصوت . لأم سلمة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ .

(فأخذا القدح ، ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ . فنادتهما أم سلمة من وراء الستر . أفضلا لأمكما مما فى إنائكما . فأفضلا لها منه طائفة) (١) .

لا شيء أسعد منه فى هذا الوجود . فقد اختلط ريق رسول الله ﷺ بريقه ،

---

(١) صحيح مسلم ص١٠١٣، (ح ٢٤٩٧) ، وعند البخارى (ح ٤٣٢٨).

ودخل إلى جوفه .

عاد أبو موسى ﷺ مع رسول الله ﷺ والمسلمون ميمونى الطائر . سعداء بنصر الله تعالى لهم، وفتح مكة، وهزيمة هوازن، ودخول كثير منها فى الإسلام، وتابع تلقيه العلم ، فقد كان مجاوراً لرسول الله ﷺ لا يكاد يغادره يسمع منه ، ويحفظ ، ويكتنز ولا يعى على ولد ولا أهل . فقد شغله العلم عن كل شيء ، ورافق رسول الله ﷺ إلى تبوك . لكن لمرافقته قصة طريفة لن ندعها تفلت منا . وهو الذى حدثنا عنها ﷺ (قال : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحُملان ، إذ هم معه فى جيش العسرة (وهى غزوة تبوك) فقلت :

يا نبى الله ، إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم . فقال :

« والله لا أحملكم على شيء » .

ووافقته وهو غضبان ولا أشعر .

فرجعت حزينًا من منع رسول الله ﷺ ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد فى نفسه على) .

حالة كئيبة لم يشعر أبو موسى بمثلها قط ، لقد كلَّم رسول الله ﷺ وهو فى حالة غضب،وتلقى جوابًا قاسيًا منه ﷺ أن لن يحمل الأشعريين على شيء ،وهذا يعنى أنهم سيقطعون هذه الفيافى والقفار تحت حر القيظ ، وشدة الهاجرة على أرجلهم حيث اللهب يشتعل بالرمل فكيف بالأقدام ، وعاد مغمومًا إلى قومه . ونقل لهم جواب رسول الله ﷺ لهم. فنزلت الكآبة بهم جميعًا . ترى هل أذنبوا ذنبًا فغضب رسول الله ﷺ منهم ؟ وراح أبو موسى يستعيد غضب النبى ﷺ من ذلك الأعرابى الجلف الذى رد البشارة النبوية ، ترى هل فعلوا اليوم مثل ما فعل ذلك الأعرابى . فنزل بهم غضب رسول الله ﷺ ؟ وعهدهم به يثنى عليهم وعلى مجالسهم ، وعلى أهلهم ، ومرت عليهم لحظات أثقل من الأيام والشهور . يكاد كل واحد منهم يعتصر من الألم والهم. كيف تحلو الحياة بعد اليوم مع غضب رسول الله ﷺ ؟ أفلا يمضون إلى رسول الله ﷺ فيعتذرون منه عله يصفح عنهم ويمسح خطاياهم ويستغفر لهم ، وبينا هم فى هذه الحالة الحزينة الكئيبة . إذ جاءهم الفرج .

(فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بالذى قال رسول الله ﷺ . فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى : أى عبد الله بن قيس . فأجبته . فقال: أجب،رسول الله ﷺ

يدعوك) .

أحس فى قلبه أن فرجًا سيقع مع أنه لا يدرى لم دعاه رسول الله ﷺ . واستبشر ببلال فهو صديقه فى حنين ، وفى تلقى البشارة النبوية آنذاك .

(فلما أتيت رسول الله ﷺ قال :

« خذ هذين القرينين ، وهذين القرينين ، وهذين القرينين (لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد) فانطلق بهن إلى أصحابك ، فقل إن الله (أو قل إن رسول الله) يحملكم على هؤلاء فاركبوهن » قال أبو موسى : فانطلقت إلى أصحابى بهن . فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء) (١) .

انقلب الغم والهم إلى سعادة غامرة ، وفرح شديد ، فقد رضى رسول الله ﷺ عنهم ويعث لهم ستة أبعرة يتدبرون بها أمورهم ليرافقوا رسول الله ﷺ فى مسيره الطويل إلى حدود الشام . (فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيدًا ومفازًا ، واستقبل عدوًا كثيرًا ، فجلا للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم . فأخبرهم بوجههم الذى يريد) (٢) . (وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة غزاها إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة) (٣) أى تبوك .

وراحوا يتجهزون لهذا السفر ، ويعدون له كل ما يحتاجه من زاد ومال ومتاع . فى روح أخوية واحدة . لكن صاحبنا أبا موسى لم تكتمل سعادته ، مع أنه جاء بالأبعرة لصحبه وأهله .

فكيف يقسم رسول الله ﷺ الا يحملهم ، ثم يحملهم . وسيتطرق الشك إلى قلوب أحبابه أنه أخطأ فى نقل ما جرى بينه ،وبين رسول الله ﷺ . وهو ليس ولد الساعة التى يفكر بها ، إنه ابن القيمة العظيمة الذى يجب ألا تمس .

قال لأصحابه (فقلت : إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء . ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ، ومنعه أول مرة ثم إعطاؤه إياى بعد ذلك ، لا تظنوا أنى حدثتكم شيئًا لم يقله) (٤) .

وكان موطن ثقة أحبابه وصحبه .

---

(١) صحيح مسلم ص ٦٧٦ (ح ١٦٤٩).

(٢، ٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١٣٧.

(٤) صحيح مسلم ص ٦٧٦ (ح ١٦٤٩).

(فقالوا : والله إنك عندنا لمصدق ، ولنفعلن ما أحببت . فانطلق أبو موسى بنفر منهم فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء) (١) .

ولن ندع فرصة نرافق بها أبا موسى الشاب إلا ورافقناه فيها . والمرافقة هذه تعطينا صورة أجلى عن ذلك اللقاء . لقد خشى الشاب المؤمن أبو موسى والفتيان معه أن يكونوا غدروا برسول الله ﷺ . وأخذوا الأبعرة بعد أن أقسم رسول الله ﷺ الا يحملهم عليها . ومستوى إيمانهم يفرض عليهم أن يذكروا رسول الله ﷺ بذلك.

(فلما انطلقنا قال بعضنا لبعض : أغفلنا رسول الله ﷺ يمينه ، لا يباركُ لنا فرجعنا إليه فقلنا :

يا رسول الله ، إنا أتيناك نستحملك ، وإنك حلفت ألا تحملنا ثم حملتنا . أفنسيت يا رسول الله ؟

قال :«إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير، وتحللتها فانطلقوا ، فإنما حملكم الله عز وجل») (٢) .

مضوا سعداء فى هذه الرحلة المباركة بعد أن أعلموا رسول الله ﷺ بقسمه . وأعطاهم رسول الله ﷺ سؤلهم . وكانوا لا يدعون بعضهم خلال هذه الرحلة الطويلة التى بلغت قرابة شهرين فى الذهاب والإياب ، ويحرصون مع أبى موسى رضي الله عنه سيدهم أن يكونوا دائمًا قريبين من رسول الله ﷺ . لكن الذى يغمرهم بالسعادة أن رسول الله ﷺ كان يتفقدهم ويسألهم حاجتهم ـ وقد خف عندهم الزاد والمتاع ـ وعرض عليهم العون . فقالوا لرسول الله ﷺ: إنهم يتقاسمون ما معهم بالسوية .

ولم يكونوا يعلمون بهذا الجواب مدى سرور رسول الله ﷺ لهذه المواساة بينهم ، وهذه الاشتراكية فى كل ما يملكونه ، حتى سمعوا رسول الله ﷺ يتحدث عنهم على ملأ من المسلمين قائلاً :

« إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية . فهم منى وأنا منهم » (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ١٣٧ .

(٢) صحيح مسلم ص ٦٧٧ (ح ١٦٤٩) ، وعند البخارى (ح ٢١٣٣).

(٣) مسلم ص ١٠١٤ (ح ٢٥٠٠) ، والبخارى (ح ٢٤٨٦) .

لم يكن يدور بخلدهم أن يبلغ عملهم ومواساتهم فى بينهم هذا المستوى من الثناء. حتى ليكونوا النموذج المحتذى من بين جميع المسلمين ، وأهنأ ما سعدوا به من قول حبيبهم المصطفى ﷺ: « فهم منى وأنا منهم » .

فهذا الانتساب للنبى المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يكن يخطر على بال أحد منهم أن ينال عشر معشاره .

ولا ندع الأشعريين بعد هذا الثناء العطر عليهم إلا بختامة المسك . وهو ما رواه شعبة عن سماك قال : سمعت عياضًا الأشعرى فى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

قال : قال النبى ﷺ : « هم قوم هذا » يعنى أبا موسى [١] .

فهنيئًا لهم بمسك الختام أن تمثلت بهم هذه الآية العظيمة ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة] .

الأمير الشاب

لقد كانت اليمن كلها تحت إمرة باذان رضي الله عنه الذى تحدثنا آنفًا عنه بصفته الوالى الأول . لكن لابد لليمن فى اتساعها من إيصال الإسلام إلى أهلها فى حملات عسكرية وحملات دعوية ، كما تم ذلك على يدى خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وخالد بن سعيد ، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم جميعًا . إنما المفاجأة أن يختار رسول الله ﷺ شابين فى مقتبل العمر ؛ ليكونا واليين على اليمن تحت إمرة باذان . أو أن باذان قد توفى فمضيا بديلا عنه والأرجح أن ذلك كان فى حياته . ومن بين المسلمين جميعًا وقع اختيار النبى ﷺ على الشابين العظيمين أبى موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل ليكونا أميرين على اليمن نستمع إلى هذا الاختيار من أبى موسى رضي الله عنه قال :

(أقبلت إلى رسول الله ﷺ ، ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٧/٤.

والآخر عن شمالى كلاهما يسأل العمل ، والنبى ﷺ يستاك .

فقال : « ما تقول يا أبا موسى ؟ ـ أو قال : يا عبد الله بن قيس ؟ » .

فقلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى نفسيهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل . .) فهو إذن لم يأت وسيطًا أو شفيعًا عند النبى ﷺ لهذين الشابين كى يوليهما إمرة أو صدقة أو مهمة رسمية ، ولم يكن يعرف ما يدور بخلديهما حين رافقهما إلى النبى ﷺ .

وأرسى الرسول القائد قاعدة مهمة من أحوال الحكم الإسلامى :

(. . فكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفتيه وقد قلصت قال : « لن يستعمل على عملنا من يريده ») .

وتلقى أبو موسى هذه القاعدة . ورسخت فى ذهنه ، وهو يود أن يعود إلى قومه وأهله ليعلمهم هذا الحكم الجديد الذى سمعه . لكن المفاجأة الكبرى له كانت فى تتمة الكلام النبوى الشريف :« . . ولكن اذهب أنت يا أبا موسى » ـ أو قال :« يا عبد الله ابن قيس ».

فبعثنى رسول الله ﷺ ومعاذًا إلى اليمن).

وينقطع كلام أبى موسى هنا ليدخل ابنه أبو بردة راوى الحديث ، شارحًا وموضحًا هذا الأمر النبوى فقال : (واليمن مخلافان ، وكانت جهة معاذ العليا ، وجهة أبى موسى السفلى) .

وينسحب أبو بردة بن أبى موسى بعد هذا التعريف بالقرار النبوى تاركًا الحديث لأبيه، فقال رسول الله ﷺ :

« ادعُوَا الناس ، وبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .
إنه يمضى مع رفيقه معاذ إلى اليمن ، ومعه فى هذا كتاب التعيين ـ بالمصطلح الحديث ـ والمهمات المطلوبة منهما ، والتى تحددت بأربع تعليمات جامعة مانعة :

١ ـ ادعُوَا الناس .

٢ ـ وبشرا ولا تنفرا .

٣ ـ ويسرا ولا تعسرا .

٤ ـ وتطاوعا ولا تختلفا .

هذا هو خطاب التكليف النبوى العظيم . فالمهمة دعوية . وقد حُدِّدت أسس هذه الدعوة بالتبشير والتيسير والتطاوع. وليس هذا هو المطلوب فقط. إنما هناك منهيات لا بد أن تجتنب ، ومحظورات لا بد أن تمنع وهى ثلاثة بالمقابل كذلك .

يحظر التنفير والتعسير والاختلاف .

بأعظم بلاغة وبأوجز عبارة . ينتقل أبو موسى الأشعرى من الجندى المقيم فى المسجد والمتفرغ للدعوة والجهاد إلى أمير على نصف اليمن على الأقل . تحت ظل باذان الحاكم العام لليمن، والدعاة فى الأرض جميعًا مدعوون لتعلم أسس الدعوة الكبرى وقواعدها العظمى فى هذه الرسالة :

ثلاث منجيات : التبشير والتيسير والتطاوع .

وثلاث مهلكات : التنفير والتعسير والاختلاف .

وكما يقول الشاعر :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرسل حكيمًا ولا توصه

فالمعهد العالى للدعاة فى المسجد النبوى ، والمعهد العالى للدبلوماسية فى المسجد النبوى ، والمعهد العالى للعلوم السياسية فى المسجد النبوى ، والمعهد العالى للعلوم الإدارية فى المسجد النبوى . ورسول الله ﷺ نور البشرية كلها . ينتشر نوره فى كل مكان ، ويعم عبيره كل أرجاء الدنيا ، فتستضىء بنوره ، وتستنشق من عبيره ، وتتفيأ ظلاله ، وليست الرحلة بالطائرة بالدرجة الأولى بصفته أول مبعوث رسمى وأمير يبعث خصيصًا لليمن . إنما عليهما أن يقطعا هذه الفيافى كلها على راحلة الصحراء وسفينتها على الناقة الذلول إن وجدت .

لكن هناك بعض الاستفسارات . كانت تشغل بال أميرنا الجديد ، لم يتوان لحظة فى السؤال عنهما (قال أبو موسى : يا رسول الله ، أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما فى اليمن. . .).

فهو ابن اليمن العريق ، وسليل أمجادها العظيمة ، والخبير بهذين الشرابين اللذين أولع أهل اليمن بهما ، فهما مثل القات الذى يعيش أهل اليمن عليه . يكاد يكون منتشرًا فى كل بيت .

وجاء الوصف الدقيق للشرابين .

قال : البتع : وهو من العسل ينبذ ثم يشتد . والمزر : وهو من الذرة والشعير ينبذ ثم يشتد .

قال : وكان رسول الله ﷺ قد أعطى جوامع الكلم وخواتمه .

قال : « أنهى عن كل مسكر أسكر على الصلاة » وفى رواية قال : « كل مسكر حرام » .

وسرعان ما ينتقل المشهد من المدينة إلى اليمن دون أن نعرف شيئًا عن هذه الرحلة الشاقة الطويلة الأمد ، الصعبة المهلكة ، إنما لخص الأمر كله بقوله :

(فقدمنا اليمن . وكان لكل واحد منا قبة نزلها على حده) .

ويتدخل أبو بردة ثانية لإيضاح بعض مخططات العمل الإدارى هناك يقول : (فانطلق كل واحد منهما إلى عمله ، وكان كل واحد منهما إذا سار فى أرضه ـ وكان قريبًا من صاحبه ـ أحدث به عهداً فسلّم) .

فهما مكلفان بمهمة فردية وجماعية فى وقت واحد . فعليهما أن يتشاورا ، ويتدارسا نتائج دعوتهما . ومدى تقلدهم بالتعليمات الصارمة فى الدعوة . بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ، ثمار هذه الدعوة . فكانت لقاءاتهما منظمة. وهذه صورة من صور هذا التشاور يتابع أبو بردة بن أبى موسى رضي الله عنه نقلها لنا.

(فسار معاذ فى أرضه قريبًا من صاحبه أبى موسى ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه فإذا هو جالس ، وقد اجتمع إليه الناس ، وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه .

فقال له معاذ : يا عبد الله بن قيس، أيَّمَ [1] هذا ؟

قال : هذا يهودى كفر بعد إسلامه .

انزل (وألقى إليه وسادة) .

فقال : لا أنزل حتى يُقتل .

قال : إنما جىء به لذلك ، فانزل .

قال : ما أنزل حتى يقتل .

فأمِر به فقتل . ثم نزل) .

فهما أميران وداعيتان فى وقت واحد ، ينفذان شريعة الله ، ويطبقان الحدود ،

---

(١) أيّم : أصلها أيما ، وهى استفهامية ، وما : بمعنى شىء ، وحذفت الألف تخفيفًا .

ويقومان بالدعوة إلى الله عز وجل . أما الحديث الذى شغل لب معاذ وأبى موسى فهو الذى بين أيدينا من رواية أبى بردة رضي الله عنه .

(ثم نزل فقال : يا عبد الله ، كيف تقرأ القرآن ؟

قال : أتفوقه (١) تفوقًا .

قال : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟

قال : أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لى ، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى) (٢) .

وكلا الرجلين قرآنيان . وإن اختلفت مدرسة مدارسة كتاب الله عندهما . لكن الهدف واحد ، وهو الصلة المستمرة بكتاب الله .

---

(١) أتفوقه : اى أقرأه شيئًا بعد شيء فى آناء الليل والنهار ، أى : أفرق قراءته. مأخوذ من فواق الناقة .

(٢) النص هو الموزع بين الأقواس ، صحيح البخارى .

الوالى العاشر : معاذ بن جبل

لم نتابع المسير مع الشاب الأمير أبى موسى ﷺ . إنما انتقلنا إلى شاب آخر أصغر سنًا من أبى موسى وهو شريكه فى الإمرة ؛ لأن مصيرهما بعد تسلسل الأحداث واحد. فلنمض مع معاذ منذ أن كان يافعًا حتى صار أميراً مع عبد الله بن قيس .

كان فى السادسة عشرة من عمره يوم انبلج النور فى قلبه بالإسلام مع ولدان مثله من قومه . فقد كان قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد من بنى سلمة أحد الستة الذين بايعوا فى العقبة الأولى . وأول من أشرق قلبهم بالأرض من المدينة بالإسلام ، وهو من قوم معاذ بن جبل . وكان عقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام أحد الرجال الاثنى عشر الذين شهدوا العقبة الأولى وقطبة كذلك معه .

وكان عقبة وقطبة هما اللذان بدآ بالحركة السرية فى بنى سلمة يدعوان شبابهما إلى الإسلام .

وانضم من سادة بنى سلمة الكبار البراء بن معرور وكعب بن مالك .

وانضم إلى الشابين الرائدين عقبة وقطبة ،معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل الذى كان فى السادسة عشرة من عمره كما ذكرنا .

أما عندما كانت بيعة العقبة الكبرى ـ والتى دعيت ببيعة الحرب ـ كان أول رجالاتها البراء بن معرور ، وكعب بن مالك . والتى نقل لنا أحداثها كعب ﷺ . ننقل بعض المقتطفات منها حتى تنجلى لنا بيئة هذا المراهق النابه الذى انضم إلى الإسلام .

يقول كعب ﷺ : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا فلما وجهنا لسفرنا ، وخرجنا من المدينة قال البراء لنا :

يا هؤلاء ، قد رأيت رأيًا ، فوالله ما أدرى توافقونى عليه أم لا ؟

قلنا : وما ذاك ؟

قال : قد رأيت ألا أدع هذه البنيَّة (١) منى بظهر وأن أصلى إليها .

---

(١) البنيَّة : الكعبة ، وكان المسلمون يصلون إلى الشام بالمشرق .

فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه .

فقال : إنى لمصلٍ إليها .

فقلنا له : لكنا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة .

فلما قدمنا مكة قال لى : يا بن أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله عما صنعت فى سفرى هذا . . فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ ، قال: هل تعرفانه؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمَّه ؟ قلنا : نعم . وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

قال : فدخلنا المسجد ، فإذا العباس جالس ، ورسول الله ﷺ جالس معه . فسلمنا ثم جلسنا إليه . فقال رسول الله ﷺ للعباس :

« وهل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » .

قال : نعم . هذا البراء بن معرور سيد قومه . وهذا كعب بن مالك .

قال كعب : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » .

قال : نعم .

فقال له البراء بن معرور : يا نبى الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للإسلام . فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليت إليها ، وخالفنى أصحابى فى ذلك . . فماذا ترى يا رسول الله ؟ فقال رسول الله : « قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ».

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ ، وصلى معنا إلى الشام .

ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق . قال : فلما فرغنا من الحج. وكانت الليلة التى واعدنا فيها رسول الله ﷺ لها. ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حرام أبو جابر . سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا . فكلمناه وقلنا له :

يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما

أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا ، ثم دعوناه إلى الإسلام فأسلم .

وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة . قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا .فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى ، إحدى نساء بنى سلمة ، وهى أم منيع) (١) .

لقد ذكر كعب رضي الله عنه النساء الاثنين . وإحداهما من بنى سلمة قومه ، لكنه لم يذكر الشابين اليافعين الاثنين اللذين اندسا فى الوفد وهما دون العشرين من العمر . فلم يذكر معاذ بن جبل الذى كان فى الثامنة عشر من عمره ، ولم يذكر جابر بن عبد الله الذى كان فى الثانية عشر من عمره .

وقد شرفا بيعة النبى ﷺ البيعة الكبرى بيعة الحرب. ولاشك أن رسول الله ﷺ قد قُرَّت عينه بهؤلاء اليافعين المتحمسين ، والذين يبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . وقُرَّت عينه بالفدائيتين المسلمتين ؛ أم عمارة ، وأم منيع اللتين بايعتا على الحرب كذلك .

ولقد أسعد معاذًا فتانا الناشئ تلك الكلمة العظيمة التى قالها سيد بنى سلمة ، البراء بن معرور بعد أن طلب رسول الله ﷺ البيعة من المسلمين. هذه البيعة السرية التى غيرت وجه التاريخ (قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله، ورغَّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال :

نعم والذى بعثك بالحق نبيًا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (٢) . فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلْقة ، ورثناها كابراً عن كابر) (٣) .

وأسعده أنه كان أول المتحمسين والمعلنين بيعتهم لرسول الله ﷺ وعاد مع الوفد برعاية الله إلى يثرب .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢/٦١ ـ ٦٣ .

(٢) أزرنا : نساءنا .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢/٦٣، ٦٤.

صنم عمرو بن الجموح

كان معاذ بن عمرو بن الجموح من أصدقائه الخلص ، وكان يكبره بسنتين تقريبًا ، ولم يعد يستسغ بعد وصوله المدينة هذا العمى الذى يعيشه عمرو بن الجموح فى تعظيمه الصنم الذى فى بيته . وعمرو من سادات بنى سلمة ووجهائهم . وكثيراً ما راح يتناقش مع معاذ بن عمرو حول هذا التعظيم للصنم ، والذى يقف حجر عثرة أمام انتشار الإسلام فى بنى سلمة رغم أن المبايعين من قومه كانوا تسعة وعشرين رجلاً يقتربون من نصف المبايعين فى العقبة .

وأوسع معاذ بن عمرو ومعاذ بن جبل الدائرة إلى بقية الشباب الذين بايعوا فى العقبة ، واتفقوا على خطة لتحطيم هذا الصنم معنويًا فى نفس عمرو بن الجموح . يحدثنا عنها ابن إسحاق بقوله :

(فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخٍ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام . . وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة ، وبايع رسول الله ﷺ بها ، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة ، وشريفًا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب يقال له : مناة كما كانت الأشراف يصنعون . تتخذه إلهًا تعظمه وتطهره فلما أسلم فتيان بنى سلمة : معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة كانوا يدلجون فى الليل على صنم عمرو بذلك) . فيحملونه ، فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة ، وفيها عِذر الناس (١) منكسًا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال :

ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

قال : ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه . ثم قال :

أما والله لو أعلم من فعل ذلك بك لأخزينه .

فإذا أمسى ونام عمرو ، عَدَوْا عليه ، ففعلوا به مثل ذلك . فلما أكثروا عليه . استخرجه من حيث ألقوه يومًا . فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إنى والله ما أعلم ما يصنع بك ما ترى. فإن كان فيك خير فامتنع. فهذا السيف معك.

---

(١) عِذَرُ الناس : فضلاتهم .

فلما أمسى ونام عمرو عَدَوْا عليه . فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عِذر من عِذَر الناس .

ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به .

فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكوسًا مقرونًا بكلب ميت . فلما رآه وأبصر شأنه وكلّمه من أسلم من رجال قومه فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف ، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لــو كنت إلهًا لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن

أف لملقاك إلهًا مستدن ... الآن فتشناك عن ســوء الغبن

الحمـد لله العلى ذى المنن ... الـواهب الـرزاق ديان الـدين

هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمـة قبـر مرتـهن

بأحمـــد المهدى النبى المرتهن

وبإسلام عمرو بن الجموح ﷺ جرف التيار الإسلامى كل بقايا الوثنية والشرك فى بنى سلمة. بفضل حماس شباب بنى سلمة الذين كان معاذ أصغرهم وأحدهم ذكاءً وفطنة.

الشهادات العليا التى نالها فى دراسته

المدينة فى أبهى أعيادها ، فقد وصل رسول الله ﷺ إليها ، وأقيم المسجد الذى يعلن إسلامية الدولة . وصارت أوقات الصلوات هى أوقات الصِّلات بالمصطفى الحبيب ﷺ يعظهم ويعلمهم ، ويفقههم فى الدين ، وكان معاذ بن جبل تلك الأرض الظمأى للمطر ، فهو لا يكاد يغادر المسجد يتعلم ويتفقه، ويرى رسول الله ﷺ اجتهاده فى العلم وفى حفظ كتاب الله ، فتقر عينه به أكثر من غيره ، ويعطيه عناية خاصة .

وسنقدم مجموع الشهادات التى حازها فى الجامعة النبوية خلال السنين التسع التى أمضاها مع رسول الله ﷺ :

١ ـ لقد أصبح واحداً من أربعة هم المرجع الأساسى فى كتاب الله :

« خذوا القرآن من أربعة ، من ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وسالم مولى أبى حذيفة » (١) .

٢ ـ أعلم الأمة بالحلال والحرام :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ـ وذكر الحديث ـ وقال: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » (٢) .

٣ ـ إمام العلماء :

قال النبى ﷺ : « يأتى معاذ إمام العلماء يوم القيامة برتوة أو رتوتين » (٣) .

٤ ـ حب رسول الله ﷺ له :

« يا معاذ ، والله إنى لأحبك : أوصيك يا معاذ لا تدعَنَّ فى دبر كل صلاة تقول: اللهم . . . » (٤) .

٥ ـ من خير أهل رسول الله ﷺ :

عن ابن أبى نجيح قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن وبعث إليهم معاذاً : «إنى قد بعثت عليكم من خير أهلى، والىَ علمهم والىَ دينهم » (٥) .

٦ ـ حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ :

(وشهد معاذ بدراً وهو ابن عشرين أو إحدى وعشرين سنة ، وشهد أيضًا معاذ أحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . . وخرج إلى اليمن بعد أن غزا مع رسول الله ﷺ تبوكًا وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة) (٦) .

٧ ـ صدق معاذ :

(عن سلمة بن وردان قال : سمعت أنس بن مالك قال : أتانى معاذ بن جبل من عند رسول الله ﷺ فقال : «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا بها قلبه دخل الجنة » . فذهبت إلى النبى ﷺ . فقلت : يا رسول الله ، حدثنى معاذ أنك قلت: « من شهد أن لا إلـه إلا الله مخلصًا بها قلبه دخل الجنة » . قال : « صدق معاذ ، صدق معاذ ،

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٣٧٦.
(٢) أحمد ١/ ١٨٤.
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٤٢٧.
(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
(٥) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٣٧٦.
(٦) المسند الجامع ١/ ٢٢٦.

صدق معاذ ») [1] .

٨ ـ أحد المفتين الستة على عهد رسول الله ﷺ :

(عن سهل بن خيثمة عن أبيه قال : كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ من المهاجرين عمر ، وعثمان وعلى وثلاثة من الأنصار أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت) [2] .

٩ ـ كان أمة قانتًا لله حنيفًا :

قال فروة الأشجعى: عن ابن مسعود أن معاذ بن جبل كان أمةً قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين . فقلت : إنما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] . فأعاد قوله : إن معاذًا كان أمة قانتًا لله ،وقال : ما الأمة ؟ وما القانت ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال: الأمة الذى يعلم الناس الخير ويؤتم به ، والقانت : المطيع لله عز وجل ، وكذلك كان معاذ بن جبل معلمًا للخير مطيعًا لله عز وجل ولرسوله .

١٠ ـ مرشح للخلافة العظمى :

قال عمر بن الخطاب : لو أدركت معاذ بن جبل فاستخلفته فسألنى ربى عنه لقلت: يا رب سمعت نبيك يقول : « إن العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة حجر » .

هذه الشهادات العشر تكفى واحدة منها لترشيحه للإمرة فى اليمن ، لكن مع ذلك فلم يكن الترشيح سببه هذه الشهادات . إنما معالجة كرمه الشديد الذى ملأه ديونًا عند الناس .

الوالى الشاب

كان فى الثامنة والعشرين من عمره بعد غزوة تبوك . وندع وصفه لصديقه الصغير جابر بن عبد الله ، والذى شهد معه بيعة العقبة .

قال : كان معاذ بن جبل ـ رحمه الله ـ من أحسن الناس وجهًا ، وأحسنهم خُلقًا، وأسمحهم كفًا ، فادَّان دينًا كثيرًا فلزمه غرماؤه .

---

(١) أسد الغابة ٤ / ٣٧٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٧٨.

ها هو يلاحق قضائيًا ، والغرماء يطالبونه بديونهم مما اضطره أن يختفى فى البيت حياءً من مواجهتهم ، وعلم رسول الله ﷺ بذلك فكان الوسيط بينه وبين غرمائه .

(فلزمه غرماؤه حتى تغيب عنهم أيامًا فى بيته حتى استأدى غرماؤه رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله إلى معاذ يدعوه فجاءه ومعه غرماؤه) .

وها هو عند قاضى التحقيق ، سيد الخلق محمد ﷺ :

(فقالوا : يا رسول الله ، خذ لنا حقنا منه .

فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله من تصدق عليه » .

فتصدق عليه ناس وأبى آخرون) .

وتعقدت القضية ، ولم تنجح المصالحة الكاملة ، فلا يزال هناك من يريد ماله .

فقال رسول الله : « اصبر لهم يا معاذ » .

وصدر الحكم القضائى عليه بتجريده من ماله ، وإعلان إفلاسه .

قال : فخلعه رسول الله ﷺ من ماله فدفعه إلى غرمائه .

فاقتسموه بينهم .

فأصابهم خمسة سباع حقوقهم .

قالوا : يا رسول الله ، بعه لنا .

فقال : « خلوا عنه فليس لكم إليه سبيل » .

فانصرف معاذ إلى بنى سلمة فقال له قائل: يا أبا عبد الرحمن، لو سألت رسول الله ﷺ ، فقد أصبحت اليوم مهدمًا .

قال : ما كنت لأسأله .

لقد كان يومًا من أصعب الأيام عليه ، فقد خسر كل ماله ؛ لأنه كان يؤمن أن المال للإنفاق لا للحبس . ولم يكن يدر ما تُعِدُّ له الأيام بعد إعلان إفلاسه .

إنه همٌّ لم يمر عليه أشد منه ولا أصعب منه ، وبقى وحيداً فى بيته لا يرقأ له جفن وجاءه فى اليوم الثانى منادى رسول الله ﷺ .

ترى هل جاءه يوبخه على سوء تصرفه بماله ؟ لا يدرى ، فهو يستحق ذلك .

(فمكث يومًا ثم دعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى اليمن،وقال: « لعل الله يجبرك، ويؤدى عنك دينك»، فخرج إلى اليمن فلم يزل بها حتى توفى رسول الله ﷺ).

فمعاذ عند رسول الله ﷺ المعدم المفلس أهل للولاية والقيادة ، وأهل لأن يخلفه فى أكبر أقطار الجزيرة ؛فى اليمن . التى كانت تهم رسول الله ﷺ لنقل الإسلام وفقهه إليها، ولم يجد خيرًا من هذين الشابين لذلك؛ أبى موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل.

لقد سبق وذكرنا آنفًا المؤهلات العليا التى كان قد حازها فتانا العظيم ، وقبل أن يغادر إلى اليمن ، أجرى له رسول الله ﷺ اختبارًا تأهيليًا ، رغم ثقته به . فعن الحارث بن عمرو الثقفى ابن أخى المغيرة قال : أخبرنا أصحابنا عن معاذ بن جبل قال : لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن .

قال لى : « بم تقضى إن عرض لك قضاء ؟» .

قلت : أقضى بما فى كتاب الله .

قال : «فإن لم يكن فى كتاب الله ؟» .

قلت : أقضى بما قضى به الرسول ﷺ .

قال : «فإن لم يكن فيما قضى به الرسول ؟».

قلت : أجتهد رأيى ولا آلو .

قال : فضرب صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يُرضى رسول الله » .

وبعد هذا الامتحان الذى سر رسول الله ﷺ بنجاحه فيه ، أعطاه درسًا بليغًا فى أصول الدعوة :

فعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتى قومًا أهل كتاب ، فإذا جئتهم ، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

فإن هم أطاعوك بذلك، فأخبرهم أن الله عز وجل قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة .

فإن هم أطاعوا لك بذاك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم .

واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »(١) .

إنه منهج الدعوة العظيم فى التدرج فى الدعوة . فالصلاة لا تبنى إلا على الشهادتين ، فبعد الإقرار بهما يمكن الحديث عن الصلوات الخمس وفروضهن ، وبعد الصلوات الخمس والإقرار بهن .والقيام بهن . يكون الحديث عن الزكاة المفروضة على الأغنياء لتعطى إلى الفقراء.

وحذَّر رسول الله ﷺ واليه من أخطر قضيتين تمسان كل حاكم :

القضية الأولى : مصادرة الأموال واغتصابها : « إياك وكرائم أموالهم » ، وذلك بعد أخذ حق الله فيها ، فالمال عديل الروح .

القضية الثانية : دعوة المظلوم ، فلا شيء أخطر على الحاكم من الظلم ، وهو يجعل خصمه الله فى ذلك ، فالله نصير المظلومين ، وليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب ، إنها نافذة مباشرة إلى رب العزة دون عوائق أو سدود ، والله تعالى يقسم بذاته الشريفة : «وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ».

وها هو رسول الله ﷺ يودعه وهو أعز أهله عليه، وأحبهم إليه فى مهمة خطيرة، لم يسبق أن حمَّلها لأحد غيره مع أخيه أبى موسى ، ويحدثنا معاذ عن لحظاته الأخيرة مع رسول الله ﷺ من دون أن يدرى أنها لحظاته الأخيرة .

فعن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل قال : كان آخر ما أوصانا به رسول الله ﷺ حين جعلت رجلى فى الغرز أن: « أحسن خُلُقَكَ مع الناس » .

ولقد أحب الناس فى اليمن معاذًا وقلدوه فى كل شيء ، فعن بُشير بن يسار قال:

(لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن معلمًا ، قال : وكان رجلاً أعرج ، فصلى بالناس فى اليمن ، فبسط رجله فبسط القوم أرجلهم ، فلما صلى قال :

قد أحسنتم، ولكن لا تعودوا ، فإنى إنما بسطت رجلى فى الصلاة لأنى اشتكيتها).

فهو الداعية المتخرج من مدرسة النبوة ، فلم يؤنبهم فقط لبسط رجلهم ، إنما أثنى ابتداء على رغبتهم الصادقة فى الاقتداء به قائلاً : قد أحسنتم ولكن لا تعودوا ، ثم مبديًا لهم عذره فى بسط رجله حتى تزول الشبهات فى نفوسهم .

---

(١) متفق عليه .

وفاة باذام والتغيرات فى اليمن

بقى أبو موسى رضي الله عنه ،ومعاذ بن جبل ، كل فى مخلافه ، يدعو إلى الله تعالى ، ويحكم بين الناس بشريعة الله عز وجل باليمن، إلى أن كان التطور الكبير ، وهو وفاة باذام رضي الله عنه .

يقول أبو جعفر الطبرى : (كان رسول الله ﷺ جَمَع ـ فيما بلغنا ـ لباذام حين أسلم وأسلمت اليمن عمل اليمن كلها ، وأمره على جميع مخاليفها . فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته فلم يعزله عنها . ولا عن شىء منها ، ولا أشرك معه فيها شريكًا حتى مات باذام ، فلما مات فرَّق عملها بين جماعة من أصحابه) .

إنه الوالى الأول الذى تحدثنا عنه ، وها هو بعد وفاته رضي الله عنه ، يعقبه عشرة أمراء ولا يسدون مسده .

فعن عبيد الله بن صخر بن لوذان الأنصارى السلمى ـ وكان فيمن بعث النبى ﷺ مع عمال اليمن فى سنة عشر بعد ما حج حجة التمام ـ وقد مات باذام فلذلك فرَّق عملها بين شهر بن باذام ، وعامر بن شهر الهمدانى ، وعبد الله بن قيس ؛أبى موسى الأشعرى ، وخالد بن سعيد بن العاص ، والطاهر بن أبى هالة ، ويعلى بن أمية ، وعمرو بن حزم ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضى ، وعكاشة بن ثور ، وعلى السكاسك والسكون معاوية بن كندة .

وبعث معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين اليمن وحضرموت .

فنحن أمام تغير فى الولاة ، فبعد أن كان معاذ بن جبل على المخلاف الأعلى ، وعبد الله بن قيس؛ أبو موسى الأشعرى على المخلاف الأسفل ، وكلاهما تحت إمرة باذام رضي الله عنه . لكن الصورة كلها تغيرت بعد وفاته فقد صار لأبى موسى شركاء تسعة مسؤولون عن حكم أقاليم اليمن كاملة. وغدا هو مسؤولاً عن ولاية واحدة هى مأرب. أما معاذ بن جبل فقد ترك العمل الإدارى والحكم . وأوكل له تعليم الأمة كلها فى اليمن دين الله ، فهو وحده مثل باذام ينتقل بين جميع الولايات معلمًا لأهل البلدين؛ اليمن وحضرموت .

فعن قرص الليثى أن النبى ﷺ رجع إلى المدينة بعد ما قضى حجة الإسلام ، وقد وجَّه إمارة اليمن وفرقها بين رجال ، وأفرد كل رجل بحيزه ، ووجه إمارة حضرموت

وفرّقها بين ثلاثة ،وأفرد كل واحد منهما بحيزه ، واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء ابن باذام ، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى مأرب أبو موسى الأشعرى، وعلى الجند يعلى بن أمية ، وكان معاذ معلمًا يتنقل بين عمالة كل عامل باليمن وحضرموت، واستعمل على أعمال حضرموت ؛ على السكاسك والسكون عكاشة بن ثور ، وعلى بنى معاوية بن كندة عبد الله ـ أو المهاجر . فاشتكى فلم يذهب حتى وجهه أبو بكر ، وعلى حضر موت زياد بن لبيد البياضى ، وكان زياد يقوم على عمل المهاجر، فمات رسول الله ﷺ وهؤلاء عماله على اليمن وحضرموت) .

الزلزال الأول

فى هذه الأشهر الثلاثة محرم وصفر وربيع ارتجت اليمن كلها ، وارتج الولاة العشرة بردِّة الأسود العنسى الذى انطلق كالسيل لا يقوم له شىء ، ونبحث عن شابينا فى هذا الزلزال . أين استقرت بهما الأمور وهما أبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل .

(عن عبيد بن صخر قال : فبينا نحن بالجند قد أقمناهم على ما ينبغى (وعلى الجند يعلى بن أمية) وكتبنا بيننا وبينهم الكتب إذ جاءنا كتاب من الأسود :

أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه ، فقلنا للرسول : من أين جئت ؟ قال : من كهف خبان .

ثم كان وجهه إلى نجران حتى أخذها فى عشر لمخرجه، وطابقه عوام مذجح (وعلى نجران عمرو بن حزم) . فبينا نحن ننظر فى أمرنا ، ونجمع جمعنا إذ أتينا فقيل : هذا الأسود بشعوب ، وقد خرج إليه شهر بن باذام وذلك لعشرين ليلة من منجمه . فبينا نحن ننظر الخبر على من تكون الدَّبرة إذ جاءنا أنه قتل شهرًا (والى صنعاء) وهزم الأبناء وغَلَب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من منجمه،وخرج معاذ هاربًا بأبى موسى وهو بمأرب فاقتحما حضرموت .

فأما معاذ فنزل فى السكون .

وأما أبو موسى فإنه نزل فى السكاسك) .

فهما المطلوبان رقم واحد فى ردة الأسود العنسى ، والتجأ كل واحد منهما إلى

قبيلة تحميه .

ولم يكتف معاذ رضي الله عنه باللجوء السياسى ، بل صاهر السكون ، وتزوج امرأة منهم (وجعل يستطير استطارة الحريق ، وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر إلا عمراً وخالداً فإنهما رجعا إلى المدينة ، والطاهر يومئذ فى وسط بلاد عكٍ بجبال صنعاء .

فلما أثخن فى الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه (قواده) وتزوج امرأة شهر وهى ابنة عم فيروز . فبينا نحن كذلك بحضرموت ، ولا نأمن أن يسير إلينا الأسود ، أو يبعث إلينا جيشًا ، أو يخرج بحضرموت خارج يدعى بمثل ما ادعى به الأسود فنحن على ظهر ، تزوج معاذ إلى بنى بكرة ـ حى من السكون ـ امرأة أخوالها بنو زنكبيل يقال لها: رملة . فحدِبوا لصهره علينا ، وكان معاذ بها معجبًا . فإن كان ليقول فيما يدعو الله به: اللهم ابعثنى يوم القيامة مع السكون. ويقول أحيانًا: اللهم اغفر للسكون . إذ جاءتنا كتب النبى ﷺ يأمرنا أن نبعث الرجال لمصاولته ، ونبلغ كل من رحا عنده شيئًا من ذلك عن النبى ﷺ. فقام معاذ فى ذلك بالذى أُمِر به. فعرفنا القوة ووثقنا بالنصر) .

الزلزال الثانى

لقد تم قتل الأسود العنسى بجهود إسلامية عظيمة . وفرت رجالاته خارج صنعاء بعد مقتله ، وعادت ـ الله أكبر ـ تملأ دنيا اليمن (وأعز الله الإسلام وأهله ، وتنافسْنا الإمارة ، وتراجع أصحاب النبى إلى أعمالهم . فاصطلحنا على معاذ بن جبل ، وكان يصلى بنا .

وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، وذلك فى حياة النبى ﷺ فأتاه الخبر من ليلته ، وقدمت رسُلنا . وقد مات النبى ﷺ صبيحة تلك الليلة ، فأجابنا أبو بكر رضي الله عنه) [1] .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « إن الله قتل الأسود الكذاب العنسى ، قتله بيد رجل من إخوانكم ، وقومٍ أسملوا وصدقوا » . فكنا كأنا على الأمر الذى كان قبل قدوم الأسود علينا ، وأمن الأمراء وتراجعوا ، واعتذر الناس وكانوا حديثى عهد بجاهلية) [2] .

(وعن عبيد بن صخر قال: كان أول أمره « الأسود » إلى آخره ثلاثة أشهر) [3] .

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٠.

(٢، ٣) المصدر السابق ٢/ ٢٥٢.

وعادت اليمن فانتقضت ثانية بعد موت النبى ﷺ .

(فلما بلغهم موت النبى ﷺ انتقضت اليمن والبلدان . وقد كانت تذبذبت خيول العنسى فيما بين نجران إلى صنعاء فى عرض ذلك البحر ، وممن ارتد ثانية قيس بن عبد يغوث وكان عمرو بن معد يكرب بإزاء فروة بن مسيك فى طاعة العنسى) (١) .

وخاض المسلمون حربًا أعنف وأشد هولاً من الأولى فى مواجهة الردة الثانية .

وجاء بعض القادة المسلمين مددًا من خارج اليمن مع قواتهم المسلمة . منهم عكرمة ابن أبى جهل والطاهر بن أبى هالة والمهاجر بن أبى أمية . وانتهت الردة بتوزيع جديد للأمراء والقادة (فكانت اليمن على أميرين ؛ فيروز والمهاجر ، وكانت حضرموت على أميرين؛ عبيدة بن سعد على كندة والسكاسك ، وزيادة بن لبيد على حضرموت) (٢) .

بينما غادر بقية الأمراء إلى المدينة، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف خليفة رسول الله ﷺ . وكان فيمن غادر اليمن أميرانا الشابان أبو موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل (وبقى أبو موسى عاملاً على (زبيد) و(رمع) و(عدن) و(الساحل) طيلة أيام أبى بكر ، ولكنه آثر الجهاد فى عنفوان موجة الفتح الإسلامى ، فكان مع عياض بن غنم فى فتح الجزيرة حيث أرسله لفتح نصيبين فشهد فتحها ، والتحق أبو موسى بأبى عبيدة ابن الجراح بأرض الشام بعد فتح الجزيرة . فشهد بعض فتوحات الشام تحت لواء أبى عبيدة ، وبقى مع أبى عبيدة حتى مات بالطاعون فشهد أبو موسى موته) (٣) .

لعل الله أن يجبرك

تركنا معاذ وآخر عهده برسول الله ﷺ وقد تقاسم غرماؤه ماله ، ولم يعد يملك شروى نقير ، بعثه رسول الله ﷺ قائدًا وأميرًا وداعية إلى الله .

وانتهى أمره فى مجال الدعوة يفقه الناس فى دينهم ، وترك الحكم والسياسة ، وكانت مهمته الثانية أحب إلى قلبه . وبعد أن انتهت الردة الأولى والثانية فى اليمن ، واستقر الإسلام فيها وضرب جذوره ، غادر اليمن متجهًا إلى المدينة ، لكنه آثر أن يؤدى مناسك الحج أولاً شكرًا لله ، ثم ينطلق بعدها إلى المدينة .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٩٣.   (٢) المصدر السابق٢ / ٣٠٥.

(٣) قادة فتح بلاد فارس. للواء محمود شيت خطاب ص١٨١.

وقد جبره الله تعالى بعد ذلك ، وندع الحديث للراوى يصف لنا معاذًا بعد عودته إلى اليمن . وحجته تحت إمرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(فقال له قائل : يا أبا عبد الرحمن (كنية معاذ) لو سألت رسول الله ﷺ فقد أصبحت اليوم معدمًا . قال : ما كنتُ لأسأله .

قال : فمكث يومًا ثم دعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى اليمن وقال :

«لعل الله يجبرك، ويؤدى عنك دَيْنك». فخرج معاذ إلى اليمن ، فلم يزل بها حتى توفى رسول الله ﷺ ، ووافى السنة التى حج فيها عمر بن الخطاب ،واستعمله أبو بكر على الحج (سنة اثنتى عشرة للهجرة) فالتقيا يوم التروية بمنى ، فاعتنقا ، وعزَّى كل واحد منهما صاحبه برسول الله ﷺ ، ثم أخلدا إلى الأرض يتحدثان ، فرأى عمر عند معاذ غلمانًا ،فقال : ما هؤلاء يا أبا عبد الرحمن ؟

قال : أصبتهم فى وجهى هذا .

قال عمر : من أى وجه ؟

قال معاذ : أهدوا لى وأُكرمت بهم .

فقال عمر : اذكرهم لأبى بكر .

فقال معاذ : ما ذكرى هذا لأبى بكر .

وفى رواية قال عمر : أطعنى وارسل بهم إلى أبى بكر ،فإن طيبهم لك فهم لك .

قال : ما كنت لأطيعك فى هذا . شيء أهدى إلى أرسِلُ بهم إلى أبى بكر . فبات ليلته ثم أصبح فقال :

يا بن الخطاب ، ما أرانى إلا مطيعك ، إنى رأيت الليلة فى المنام كأنى أجر (أو أقاد) إلى النار وأنت آخذ بحجزتى . فانطلق بهم إلى أبى بكر . فقال : أنت أحق بهم.

فقال أبو بكر : هم لك . فانطلق بهم إلى أهله ، فصفوا خلفه يصلون ، فلما انصرف قال : لمن تصلون ؟

قالوا : لله تبارك وتعالى .

قال : فانطلقوا فأنتم له) (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٨٥ .

لقد طيبهم أبو بكر ، وقال :هم لك ، ومضى سعيدًا بهم ، وراح يصلى بهم إمامًا ورآهم خلفه، وأن يأتى معاذ المعدم إلى المدينة. ووراءه بضعة عشر غلامًا . بعد رحلته الميمونة إلى اليمن هو مجال زهو وفخر له ، إذ نعود إلى روايتنا السابقة .

(فقدم معاذ فذكرهم لأبى بكر . فسوَّغه أبو بكر ذلك ، وقضى بقية غرمائه وقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لعل الله يجبرك ») (١) .

فجبره الله ووفى غرماءه . وصاروا حلالا زلالاً له ، يتنقلون وراءه ، ويتسابقون لخدمته . ويتباهى بهم بين صحبه فهو لا يزال فى عنفوان شبابه ، ويريد أن يبنى مستقبلاً زاهرًا مشرقًا فى حياته كما يريد شبابنا اليوم . إنه فى سن الثلاثين أو الثانية والثلاثين ، والمستقبل طويل أمامه ، ومبتسم أمامه كذلك . وقد أمضى فى اليمن سنتين عامرتين بالحكم والسياسة والدعوة . وهو محبوب الجميع . واختاره رسول الله ﷺ فقيه اليمن كلها يتنقل بين مخاليفها ، وبإمكانه العودة إليه . وهؤلاء الغلمان لا يملك مثلهم الكثير من الأثرياء فى المدينة ، ونبحث عن المستقبل العريض الذى يريد أن يبنيه ، والمجد والمال الأمثل الذى يريد أن يحصل عليه ، فلو باع بعضهم لأثرى مثلهم أو أشد.

لكننا أمام نموذج يبحث عن مستقبله فى الجنة ، لا عن مستقبله على الأرض ، وخاف أن تفتنه الدنيا أو تعجبه نفسه أو يزهو بغلمانه ، أو يقبل الدنيا عروسًا عن الآخرة. فقد جاءته بكامل زينتها . لكنه لما رأى آيات ربه انصرف عنها كما فعل يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

[يوسف]

قال : لمن تصلون ؟

قالوا : لله تبارك وتعالى .

قال : فانطلقوا فأنتم له .

أعتقهم جميعًا دفعة واحدة . كما فعل أبو بكر رضي الله عنه وشهد له ربه ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ [الليل] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٨٨ .

فهذا أبو بكر الأنصار يعتق مواليه جميعًا له . أو ليس هو السمح الكريم الذى لا يُمسك مالاً بيده ؟ وكما وصفه (من أحسن الناس وجهًا ، وأحسنه خُلُقًا ، وأسمحه كفًا) .

وطالما أنهم يصلون لله ، فلابد أن يعتقوا لله الذى يصلون له . ولعمرى إن هذا هو المجد المبين .

معاذ الداعية من اليمن إلى الشام

لقد خُلِق معاذ رضي الله عنه معلمًا قبل أن يكون حاكمًا أو أميراً . ومن أجل ذلك عندما تتعارض الإمرة والدعوة عند شابنا العظيم تكون الدعوة هى المقدَّمة . فقد توزع اليمن ابتداءً مع أبى موسى رضي الله عنهما كل واحد منهما بمخلاف . فاليمن العليا لمعاذ والسفلى لأبى موسى ،لكن عندما توزع الأمراء العشرة حكم اليمن . لم يوجد العَالِم الذى يسد ثغرة الأمة فى تفقيهها غيره ، ولذلك أوكل رسول الله ﷺ له أمر تفقيه الناس فى اليمن كلها وتعليمهم دينهم ، وها هو يتجه إلى الشام بأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ويتنقل بين مدنها يدعو إلى الله ، ويفقه الناس فى دينهم ، ونُقِل لنا من هذا التطواف صورتان أو ثلاثة تبرز شخصية معاذ رضي الله عنه من خلالها ، حيث كان قد تجاوز الثلاثين من عمره بسنة أو أكثر . وهو حيثما يجلس يعرف ، وأوسمته النبوية أينما حل معه .

هذا أبو إدريس الخولانى ينقل لنا لقاءً له مع معاذ فى مسجد دمشق يقول :

(دخلت مسجد دمشق ، فإذا فتًى براق الثنايا ، وإذا ناس معه إذا اختلفوا فى شيء أسندوه إليه ، وصدروا عن رأيه فسألت عنه فقالوا : هذا معاذ بن جبل .

فلما كان من الغد هجَّرت فوجدته قد سبقنى بالتهجير، فوجدته يصلى ، فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قِبَل وجهه ، فسلمت عليه وقلت له :

والله إنى لأحبك فى الله) .

لقد فوجئ معاذ بهذه المعرفة من إنسان لم ير وجهه قبل اليوم ، وهو منهمك فى خلوته مع ربه ، وقلبه خاشع لله مخبت له ، وصوت جهورى ، ما راعه إلا هذا الفتى يقول له : والله إنى لأحبك فى الله .

قال : الله ؟ الله ؟ الله ؟

فأخذ بحُبوة ردائى فجبذنى إليه) .

ولم يدرك الخولانى سِرَّ هذه الجذبة حتى أقر معاذ عينه بما وراءها .

(قال: أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تبارك وتعالى : وجبت رحمتى للمتحابين فىَّ ، والمتجالسين فىَّ ، والمتباذلين فىَّ ، والمتزاورين فىَّ » (١) .

وهذه صورة له فى مسجد حمص ينقلها لنا شهر بن حوشب عن رجل :

(أنه دخل مسجد حمص فإذا بحلقة فيهم رجل آدم جميل ، وضاح الثنايا ، وفى القوم من هو أسنُّ منه ، وهم مقبلون عليه يستمعون حديثه قال : فسألته : من أنت ؟

قال : أنا معاذ بن جبل) (٢) .

وهذه الصورة الثالثة التى نلتقطها له فى حمص عن أبى مسلم الخولانى ، وإن كانت الأولى عن أبى إدريس الخولانى فى دمشق .

يقول أبو مسلم : (ودخلت مسجد حمص فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبى ﷺ وإذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ، ساكت لا يتكلم ، فإذا امترى القوم فى شىء أقبلوا عليه فسألوه ، فقلت لجليس لى : من هذا ؟

قال : معاذ بن جبل) (٣) .

فصحابة رسول الله ﷺ الفحول الكهول هم مصابيح الدجى لهذه الأمة ، وعنهم تتلقى الأمة دينها وهم يتدارسون العلم بينهم ، ويعلمون الناس . لكن البدر فيهم هو ذلك الشاب الجميل أكحل العينين ، براق الثنايا ، أبيض ، يتحلقون حوله ، ويصدرون عن رأيه ولا يتجاوزون فتواه وهو أصغرهم سنًا ، فهو ربيب رسول الله ﷺ .

وقرة عينه الذى نهل منه وغرف . حتى أصبح فى أمة الإسلام فى الأرض ، أحد المفتين الكبار .

وقد دخل دار الإفتاء فى عهد النبى ﷺ ، وكان واحدًا من ستة فقط هم الذين تخرجوا فى عهد النبى ﷺ ، وكان واحدًا من المفتين السبعة بعد وفاته ﷺ ويمتد مجده مخترقًا الآباد والقرون . لا ليكون على مستوى عصره فقط ، إنما على مستوى الأمة كلها بلا استثناء .

«وأعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل » .

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٨٧ . (٣) المصدر السابق ٣/ ٥٩٠ .

وقُلِّد هذه القلادة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، فكيف وهو يدلف نحو الواحدة والثلاثين . إنه علم الأمة وعالمها، وصحابة رسول الله ﷺ يصدرون عن رأيه .

هذا الجانب البارز من حياة معاذ رضي الله عنه يقودنا إلى الجانب المخفى من حياته ، جانب عبادته وطاعته . فلقد كان جاداً فى طاعة الله كما كان جاداً فى تلقى علمه عن رسول الله ﷺ يصل إلينا شعاع منها ينقله ثور بن زيد ـ رحمه الله ـ فينقل لنا مقولته فى تهجده . يقول :

(كان معاذ إذا تهجد من الليل قال :

اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ،وأنت حى قيوم ، اللهم طلبى الجنة بطىء ، وهربى من النار ضعيف ، اللهم اجعل لى عندك هدىً ترده إلىَّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) (١) .

ولما وقع الطاعون بالشام ، ماذا كانت أحلامه؟ أن يفر بأهله وجلده منها ؛ها هى أحلامه ينقلها لنا ابن الأثير (لما وقع الطاعون بالشام قال : اللهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا) (٢) .

الأمير الشاب الشهيد

لا يزال أميرنا أبو موسى الأشعرى غائبًا عن الساحة ، وسنعود إليه بعد وداع أميرنا معاذ رضي الله عنه . لكنه يحضر معنا هنا ؛لأنه حضر وفاة معاذٍ رضي الله عنه صديقه وشريكه فى إمرة اليمن .

فعن طارق بن شهاب البجلى قال : (أتينا أبا موسى وهو فى داره بالكوفة لنتحدث عنده . فلما جلسنا قال :

لا عليكم أن تخِفُّوا . فقد أصيب إنسان فى الدار بهذا السقم . ولا عليكم أن تنزَّهوا القرية . فتخرجوا إلى فسيح بلادكم ونَزِهها حتى يرفع هذا الوباء .

إنه الطاعون الذى لا علاج له فى ذلك الوقت إلا انتظار الموت . وقد وضع رسول الله ﷺ نظام الحجر الصحى للأمة بسببه ، كما روى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ قوله :

(١ ، ٢) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٣٧٧.

« إذا سمعتم بهذا الوباء ببلدٍ فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه »(١) .

وقد كان شباب الأمة فى حيرة فى الجمع بين هذا الحديث وحديث : « لا عدوى ولا طيرة » .

وحيث قد أصيب شاب فى بيت أبى موسى ، فهل ينطبق عليهم حديث : « لا تخرجوا فراراً منه » وهم ضيوف أبى موسى الأشعرى ﷺ . وأبو موسى الفقيه المثالى بعد معاذ ،هو الذى يخرج المسائل ويقيسها فهو الولاج الخراج .

صحيح أنهم لم يسألوه تحرجاً . لكنه أجابهم تفقهاً وعلماً .

(قال : سأخبركم بما يكره مما يُتقى) . أى :متى يقع فى الكراهة إذا اتقى هذا المرض.

(من ذلك أن يظن من خرج أنه لو أقام مات ، ويظن من أقام فأصابه ذلك لو أنه خرج لم يصبه . فإذا لم يظن المرء المسلم فلا عليه أن يخرج وأن يتنزه عنه) .

فهم فى حالة يمكنهم فيها الخروج ، والتفسح فى الأرض بعيداً عن الكوفة .

ونتساءل : من أين جاءه هذا الفقه الولاج الخراج ، إنه هو الذى يجيبنا ، حيث تتداعى ذكرياته عن أيامه فى الشام مع أميره أبى عبيدة وأميره معاذ .

يقول رضوان الله عليه : إنى كنت مع أبى عبيدة بالشام عام طاعون عمواس . فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبى عبيدة ليستخرجه منه :

أن سلام عليك . أما بعد فإنه قد عرضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى ، فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء . قال :

يغفر الله لأمير المؤمنين . ثم كتب إليه :

يا أمير المؤمنين ، إنى قد عرفت حاجتك إلى . وإنى فى جند من المسلمين لا أجد نفسى رغبة عنهم . فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىَّ وفيهم قضاءه . فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى .

---

(١) المسند الجامع ١٢/٩٥٥٦.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى . فقال الناس: يا أمير المؤمنين ، أمات أبو عبيدة ؟ قال: لا . وكأن قد) (١) .

لقد قدَّم أبو موسى رضي الله عنه لضيوفه الدليل على صحة موقفه . وكيف أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حاول استنقاذ أبي عبيدة من وباء الطاعون . واستدعاه على عجل ، وأدرك الأمير أبو عبيدة هدف هذا الاستدعاء وهو إنقاذه من مرض الموت ، فرفض التخلي عن جنده وتركهم ، وربط مصيره بمصيرهم . واستعفى أمير المؤمنين من تلبية دعوته . وعرف أمير المؤمنين أن صديقه أبا عبيدة آثر إخوانه على حياته . فدمعت عيناه. وهو يرى أنه على وشك الهلاك . وحين رأى عمر رضي الله عنه أن المعالجة الفردية لا تجدى . أصدر أوامره إلى تغيير موقع الجيش كله فى محاولة أخيرة لإنقاذه . فكتب إلى أبى عبيدة :

(سلام عليك أما بعد ، فإنك أنزلت الناس أرضًا عميقة . فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة .

فلما أتاه كتابه دعانى فقال: يا أبا موسى، إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءنى بما ترى، فاخرج فارتد للناس منزلاً حتى اتبعك بهم . فرجعت إلى منزلى لأرتحل فوجدت صاحبتى قد أصيبت . فرجعت إليه فقلت له : والله لقد كان فى أهلى حدث . فقال : لعل صاحبتك قد أصيبت ؟ قلت : نعم . فأمر ببعيره فرُحِّلَ له . فلما وضع رجله فى غرزه طُعن . فقال : والله لقد أصبت . ثم سار بالناس حتى نزل الجابية ، ورفع عن الناس الوباء) (٢) .

ما يقدمه لنا أميرنا أبو موسى رضي الله عنه الأوامر التى صدرت له بارتياد مكان مناسب لانتقال الجيش إليه . لكن شغله بزوجته التى طعنت أشغله عن كل ما حوله . وراح ينتظر قدر الله تعالى فيها ، فنبحث عن مذيع آخر يحدثنا عن تتمة الجولة مع الأمراء والمسلمين . ونجد هذا الراوية هو أحد الأشعريين الذين شهدوا تتمة المشهد .

اللحظات الأخيرة والوداع

نمسك بالرواية من حيث تركنا أبو موسى رضي الله عنه حيث نقل لنا أن أبا عبيدة لما وضع رجله فى غرز بعيره طعن . فيقول راويه لنا :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٨٨.

لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة خطيبًا فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ ، وموت الصالحين من قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقحم له منه حظه . فطعن فمات .

واستُخلف على الناس معاذ بن جبل قال : فقام خطيبًا بعده فقال :

أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم. وإن معاذًا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم ، فطعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات . ثم قام فدعا به لنفسه ، فطعن فى راحته ، فلقد رأيته ينظر إليها ، ثم يقبل ظهر كفه ، ثم يقول : ما أحب أن لى بما فيك شيئًا من الدنيا .

فلما مات استُخلِف على الناس عمرو بن العاص ، فقام خطيبًا فى الناس فقال : أيها الناس ، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال فقال أبو واثلة الهذلى :

كذبت ، والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حمارى هذا .

قال : والله ما أرد عليك ما تقول ، وايم الله لا نقيم عليه .

ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ، ورفعه الله عنه . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأى عمرو بن العاص . فوالله ما كرهه .

إنهما مدرستان فى هذه القيادة ، مدرسة تربوية ، ومدرسة إدارية سياسية . مثَّل المدرسة الأولى : أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة ، ومعاذ بن جبل عالم الأمة . ومثل المدرسة الثانية : عمرو بن العاص الداهية الأريب .

وكل مدير مدرسة نظر إلى الطاعون فيما يخصه .

فالأمراض ابتلاء . والمسلم صابر على الابتلاء . يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ولذلك حدد إلى الطاعون ثلاث مهمات رئيسية :

أ ـ رحمة ربكم .

ب ـ ودعوة نبيكم ﷺ .

جـ ـ وموت الصالحين من قبلكم .

ومثل هذه المهمات . هل يتقاعس الناس ، أم يشتاقون إليها ؟

ومع ذلك فبعض طلاب هذه المدرسة أشكل عليهم أن يكون الطاعون رحمة من الله . ودعوة من النبى ﷺ . وبعد المدارسة والمطالعة أمكن تعليل الرحمة بقول الله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة] (١) .

وحدثنا أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمى عن هذه المعضلة وكيف لقى لها حلاً شافيًا عند رسول الله ﷺ ، يقول رضي الله عنه :

بلغنى هذا من قول أبى عبيدة وقول معاذ بن جبل : إن هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، فكنت أقول : كيف دعا به رسول الله ﷺ لأمته حتى حدثنى بعض من لا أتهم عن رسول الله أنه سمعه منه ، وجاءه جبريل عليه السلام فقال :

إن فناء أمتك يكون بالطعن أو الطاعون » فجعل رسول الله ﷺ يقول :« اللهم فناء الطاعون . فعرفت أنها التى كان قال أبو عبيدة ومعاذ ») (٢) .

اللحظات الأخيرة :

ومعاذ رضي الله عنه مات أميرًا بعد استخلاف أبى عبيدة بن الجراح له على المسلمين .

ولجأ الناس إلى أميرهم الصالح يرجونه الدعاء إلى ربهم لرفع البلاء ، فهو أمير مبارك ، ومرضى عند رسول الله ﷺ ومحبب إليه ، فوقف خطيبًا ، وتكلم على غير ما يهوى الناس من الدعاء بالعافية ، ووضع أطرًا لفقه الحياة والموت عند المسلم ، نستمع معًا إلى خطيبنا عنها :

(لما أصيب أبو عبيدة بن الجراح فى طاعون عمواس استخلف معاذ بن جبل ، واشتد الوجع فقال الناس لمعاذ : ادع الله يرفع عنا هذا الرجز .

قال : إنه ليس برجز . ولكنه دعوة نبيكم ﷺ ، وموت الصالحين قبلكم ، وشهادة يختص بها الله من يشاء منكم) .

وبعد أن قدم الإيجابيات الأربع للطاعون حدثنا عن تشريع الموت هربًا من مخاطر أربع تواجه المسلم فى حياته والأحسن له أن يستشهد قبل وقوعها .

(١ ، ٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ٤٨٨ .

(أيها الناس ، أربع خلال من استطاع ألا يدركه شيء منهن فلا يدركه .

قالوا : وما هى ؟

قال : يأتى على الناس زمان يظهر فيه الباطل ويصبح الرجل على دين ويمسى على آخر .

ويقول الرجل : والله ما أدرى على ما أنا، لا يعيش على بصيرة ، ولا يموت على بصيرة، ويُعطى الرجل المال من مال الله على أن يتكلم بكلام الزور الذى يسخط الله، فهو ﷺ فى عهد الخلافة على عهد النبوة . ونذر الفتنة فى هذا العهد قائمة لتلد عهداً جديداً هو عهد الملك . وهو يضع معالم المجتمع الوليد الجديد :

١ ـ زمان يظهر فيه الباطل .

٢ ـ يصبح الرجل على دين ويمسى على آخر .

٣ ـ ويقول الرجل: والله ما أدرى على ما أنا ، لا يعيش على بصيرة ، ولا يموت على بصيرة .

٤ ـ ويعطى الرجل المال من مال الله على أن يتكلم بكلام الزور الذى يسخط الله.

فسيادة الباطل تزلزل العقائد عند الضعفاء . فيتبدلون بين الصباح والمساء الصالح ، والضعيف لا يدرى ما هو عليه أحق أم باطل ، والذى يبيع دينه بمال فيقول كلام الزور الذى يسخط الله ، وإن كان قد رأى هذه المعالم تلتمع على الأفق . فكان دعاؤه :

(اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفى من هذه الرحمة) . واستجاب ربه دعاءه لتوه فطعن ابناه فقال : كيف تجدانكما ؟

(قالا : يا أبانا الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) .

إنهما يدعوانه إلى قبول الحق ، وقبول الرحمة ، وإلى الصبر على فراق الولد ، فقال : (وأنا ستجدانى إن شاء الله من الصابرين .

ثم طعنت امرأتاه فهلكتا) .

إنه يرجو ربه لآل معاذ النصيب الأوفى ، فاستجاب له ربه ، وأصيب آل معاذ جميعًا من هذه الرحمة الجزاء الأوفى ؛ امرأتاه وابناه .

وجاء دوره .

(وطعن فى إبهامه فجعل يمسها بفيه يقول : اللهم إنها صغيرة فبارك فيها ، فإنك تبارك فى الصغير). فهو يخشى ألا يمسه هذا الطعن والطاعون ، فيدعو بالمباركة بالطعن حتى يكبر . (حتى هلك) .

واستجاب له ربه . وانتشر الطعن فى جسده فهل تغير بعده ؟

يحدثنا الحارث بن عميرة الزبيدى عن لحظات موته هذه وتقلبه فى فراشه يغمى عليه تارة ويصحو أخرى فيقول : (إنى لجالس عند معاذ بن جبل وهو يموت . فهو يغمى عليه مرة ويفيق مرة ، فسمعته يقول عند إفاقته : أخنق خَنَقَك . فوعزتك إنى لأحبك) (١) .

لقد ذاق الألم ، ومرارة الطعن ، ولا يزال على العهد فلم يغير رأيه . إنه يُخنق من ربه الذى يحبه ويقول مشهداً ربه كما روى سلمة بن كهيل (أخذ معاذاً الطاعون فى حلقه فقال :

يا رب إنك لتخنقنى وإنك لتعلم أنى لأحبك) (٢) .

وها هو ﷺ يعيد وصيته . وحبه للموت قبل الفتن المقبلة كقطع الليل المظلم .

فعن داود بن الحصين قال : إنه بلغه :

(لما وقع الوجع عام عمواس قال أصحاب معاذ :

هذا رجز قد دفع .

فقال معاذ: أتجعلون رحمة حفَّكم الله بها عليهم ؟ إنما هى رحمة حفَّكم الله بها . وشهادة حفَّكم الله بها) (٣) .

ومقابل هذه الرحمة . فالدعوة من ربه، تصيبه وأهله هذه الرحمة .

ويبدو الإلحاح عنده حتى على الموت عجيبًا . حتى ليحث عليه : (اللهم أدخل على معاذ وأهل بيته من هذه الرحمة ؛ من استطاع منكم أن يموت فليمت من قبل فتن ستكون) (٤) .

ما هذه الفتن التى يراها بعين بصيرته ؟

(١ ـ من قبل أن يكفر المرء بعد إسلامه .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٥٨٨، ٥٨٩. (٢ ـ ٤) المصدر السابق ٣/٥٨٩.

٢ ـ أو يقتل نفسًا بغير حلها .

٣ ـ أو يظاهر أهل البغى .

٤ ـ أو يقول الرجل ما أدرى على ما أنا إن أنا مت أو أنا عشت ، أعلى حق أو على باطل) (١) .

فقد تشابهت مستويات هذه الفتن عنده .

(من قبل أن يكفر بعد إسلامه) : أو ليس ما ذكره رسول الله ﷺ عمن يذوق طعم الإيمان : « أن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

(أو يقتل نفسًا بغير حق) : أو ليست هى معبر جهنم ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** (٩٣) ﴾ [النساء] .

(أو يظاهر أهل البغى) : ويكون نصيرًا للظالمين ، خوفًا على نفسه ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** (١١٣) ﴾ [هود] .

(أو يقول الرجل ما أدرى على ما أنا عليه إن مت أو عشت ، أعلى حق أم على باطل): فالإصرار على الباطل ومظاهرة أهل البغى عنده تعادل ذلك الضياع لمعالم الحق، والمواقف المبنية عليها ، أهى حق أو باطل .

وهذا منظر رابع من مناظر وفاته رضي الله عنه :

(قال عمرو بن قيس :إن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال : انظروا، أصبحنا ؟ فقيل : لم نصبح ، حتى أتى فقيل : أصبحنا . فقال :

أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار .

فهو لا ينتظر الصبح جزعًا ، ولا تبرمًا إنما يسأل عنه خوفًا أن يكون صباح هذا اليوم إلى النار .

فماذا يقابله من كل أصبحة الدنيا . وحتى لا يفسر مشيعوه قوله بانتظار الصباح جزعًا من الموت عاد فرحّب بالموت ، وأحسن استقباله فقال :

(مرحبًا بالموت ، مرحبًا زائر حبيب ، جاء على فاقة) .

لقد كان خوف الموت ديدنه طيلة حياته ، وخوف ربه ؛لأنه كيس عاقل .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٨٩ .

« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

(اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك) .

وهذا سمة المؤمنين فى الحياة ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] . يقدمون كل الطاعات والجهاد والبر والعبادات . وقلوبهم خائفة ألا يقبلها الله تعالى منهم ، وقلوبهم وجلة فحق الله أكبر بكثير من جهدهم .

إنه أحد أساتذة الدنيا فى فقه التعامل مع الله ، والذى تلقاه من حبيبه المصطفى ﷺ ؛ الخوف رائده فى الحياة . أما عند الموت . فالرجاء يغلب .

« أنا عند حسن ظن عبدى بى ، فليظنن بى عبدى ما يشاء » .

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

فهو يرحب بالموت الزائر الحبيب ، ويضرع إلى الله تعالى أن ينزل به الطاعون ، فهو رحمة الله تعالى بهذه الأمة ، وهو حريص على أن ينال نصيبه من هذه الرحمة .

وكان يحب الدنيا . فالمؤمنون والفاسقون والكافرون يحبون الدنيا . لكن لماذا يحبونها ؟ ومن حقه ، ومن واجبه أن يعلم الأمة لماذا يحب الدنيا ، أو ليس هو أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام ؟ (إنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ؛ ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلقِ الذكر) .

إن الدنيا مركب للطائع والعاصى ، وكل منهما يتزود ما يشاء على هذا الركب الذى يوصل إلى الموت ـ المحطة الأولى ، من محطات الآخرة ـ ثم إلى الآخرة .

إنه لا يحبها ليتزود منها ، إنما يحبها ليتزود بها إلى الآخرة .

يحب الدنيا لظمأ الهواجر ، حيث يحرم من الطعام وهو أحب ما يكون إليه ويحرم من الشراب،وهو القتيل من الظمأ فى حر الهاجرة . يتلذذ بهذا الحرمان صومًا طاعة لله تعالى ، واستعلاءً على هذه الدنيا بحب الدنيا ، لمكابدة الساعات ، لكن ليس فى كرى الأنهار وغرس الأشجار ، إنما للصبر على طلب العلم ، ومراجعته ، وحفظه ، ونشره، والذين يكابدون الساعات من أجل الدكتوراه والمناصب العلمية كثيرون ، أما مكابدة الساعات عنده لينقل دين الله تعالى إلى هذه الأمة وهو يعرف أن الشباب طاقة ؛ طاقة

هائلة صخمة مذخورة . فلابد أن يستغل هذا الشباب فى الملذات ؛ ملذات طلب العلم والتفقه فى الدين ، فإن لم يوف الشباب حقه من العلم . فلن يزاحم على الركب .

يحب الدنيا لمزاحمة العلماء بالركب . فيجثو بين يديهم يتعلم منهم ، ويتلقى منهم، ويذكر معهم ، ولا يفوته ذكر لله فى علم من علوم هذا الدين ، ففى كل حلقة علم ذكر ، وفى كل حلقة ذكر علم . يبحث عن عمر إضافى كى لا يفوته شىء من هذا المجد عند الله تعالى . ولأجل هذا نال هذه الأوسمة التى ذكرناها ابتداء قبل الثامنة والعشرين من عمره ، فهو قبل الثامنة والعشرين أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو قبل الثامنة والعشرين يتقدم العلماء برتبة ، ومن أجل هذا جعله رسول الله ﷺ أميرًا ومعلمًا. ورشحه عمر رضي الله عنه خليفةً للمسلمين كافة ؛ لأنه متقدم على العلماء .

هذه الدنيا التى أحبها معاذ وفتن فيها . فأخرجت منه عبقرى الأمة فى العلم والفقه والفتوى والإدارة والسياسة . ولما يتجاوز الثلاثين من عمره .

ها هو رضي الله عنه على فراش الموت يبكى .

ترى ،هل يبكى لفراقه الدنيا ، ومغادرته لذاتها من الشهوة والمال والشهرة ؟

لا ندرى، نسأله رضي الله عنه فيجيب :

(وقال الحسن : لما حضر معاذًا الموت ، جعل يبكى ، فقيل له :

أتبكى وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ وأنت ، وأنت ؟

فقال : ما أبكى جزعًا من الموت إن حل بى ، ولا دنيا تركتها بعدى ، ولكن إنما هى القبضتان فلا أدرى من أى القبضتين أنا ؟) (١) .

لقد بلغه حديث رسول الله ﷺ .

فدموعه الحرى الآن أنه لا يدرى من أى القبضتين من قبضتى الرحمن ؛ أهل الجنة أم أهل النار .

إنه يودعنا رضي الله عنه وهو ماضٍ إلى الأشد من عمره ، فلم يبلغ الأربعين .

(توفى فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ـ وقيل سبع عشرة ـ والأول أصح وكان عمره ثمانيًا وثلاثين سنة ، وقيل ثلاث وقيل أربع .

رحم الله معاذًا معلم الأمة وفقيهها ، ورضى الله عنه فى عليين .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣٧٨/٤.

أبو موسى أمير البصرة

بقى أبو موسى رضي الله عنه جنديًا وداعية فى أرض الشام بعد وفاة معاذ أخيه ، وهو يعلم الناس الخير .لكن عمر أمير المؤمنين،خبير الرجال العظام ، وقد أهمه أمر البصرة، وابتداء الفتن فيها . فتوجه نظره إلى الشام التى كان يرى القيادات فيها تملأ الساحة . فله قولته المشهورة :

(إن بالشام أربعين رجلاً ما منهم رجل كان يلى أمر الأمة إلا أجزاه) . فأرسل إليهم فجاء رهط منهم فيهم أبو موسى الأشعرى فقال له :

إنى أرسلت إليك لأرسلك إلى قوم عسكر الشيطان بين أظهرهم .

قال : فلا ترسلنى .

قال : إن بها جهاداً ، وإن بها رباطًا .

قال : فأرسله إلى البصرة .

لقد رضى بالولاية؛لأن بها رباطًا وجهاداً ،رغم أن الشيطان باض فيها وفرخ. وكان هذا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره . (وكانت البصرة حينذاك من أكبر قواعد المسلمين ؛ منها تسير الجيوش لفتح المشرق . فجمع أبو موسى قواته ودفعها إلى مدينة الأهواز ففتحها . كما شهد فتح مدينة السوس . . وسار أبو موسى إلى تُستَر على رأس أهل البصرة فشهد فتحها.ولكن عمر بن الخطاب رده إلى البصرة . . . وشهد أبو موسى على رأس أهل البصرة معركة نهاوند الحاسمة تحت لواء النعمان بن مقرِّن المزنى. فلما فتحها المسلمون غادر أبو موسى نهاوند ، فمر بالدينور وأقام عليها خمسة أيام ، فصالحه أهلها على الجزية كما صالح أهل ماسباذان وسيروان على الجزية أيضًا ، ولما بعث عمر ابن الخطاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان أمدَّه بأبى موسى فدخل عبد الله وأبو موسى أصبهان فاتحين ، فرد عمر أبا موسى إلى البصرة ، ثم ولاه الكوفة بعد عمار ابن ياسر فبقى فيها سنة ، ثم صرفه عمر إلى البصرة ففتح هو وعثمان بن أبى العاص الثقفى مدينة شيراز وأرجان ،وفتحا سينيز على الجزية، كما فتح قُم وقاشان . كما أنه استعاد فتح نيسابور بعد نقضها العهد) (١) .

---

(١) قادة فتح بلاد فارس للواء محمود شيت خطاب ص ١٨١ ـ ١٨٣ .

لقد فتح أبو موسى بلادًا شاسعة جدًا من أرض فارس وشهد كثيرًا من فتح الجزيرة وأرض الشام .

لقد أمضى سنى ولايته فى البصرة بين الرباط والجهاد . فى عهد عمر رضي الله عنه ، وصدق ما عاهد الله عليه . وجاء عثمان رضي الله عنه فأبقاه فى البصرة سنته . وأعفاه عنها ، ثم عاد فولاه الكوفة بطلب من أهلها ، وبقى عليها حتى خلافة على رضي الله عنه ، حيث اختاره للتحكيم بعد صفين ، ولم يتفق مع عمرو بن العاص رضي الله عنهما على رأى ولم يتم التحكيم . وعاش ردحًا من عمره فى خلافة معاوية . حيث كان مبجلاً عنده ووافاه أجله عام اثنتين وخمسين للهجرة .

لقد كان إمامًا فى العلم ، وإمامًا فى الإمارة ، وإمامًا فى القيادة ، وإمامًا فى الورع والعبادة ، ومثلاً يحتذى للأمة على مدار التاريخ .

ولنشهد نماذج من إمامته فى ذلك رضي الله عنه .

كان إمامًا فى العلم :

أ ـ من أصحاب الفتيا من الصحابة :

بين عشرات الألوف من الصحابة . كان أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه أحد العشرين الأوائل الذين كانوا يفتون فى عهد النبى ﷺ ومن بعده .

يقول الإمام ابن حزم فى كتابه (جوامع السيرة) : باب فى تسمية من روى عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ على مراتبهم فى كثرة الفتيا فقط (١) .

وقد قسمهم ابن حزم أقسامًا ثلاثة :

(المكثرين وهم السبعة الأوائل : عائشة أم المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، على بن أبى طالب ، ابن مسعود ، ابن عمر ، زيد بن ثابت ، عبد الله بن عباس .

والمتوسطين وهم : أبو بكر الصديق ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن الزبير ، **وأبو موسى الأشعرى** ، وسعد بن أبى وقاص ، وسلمان الفارسى ، وجابر ابن عبد الله ، ومعاذ بن جبل . فهؤلاء ثلاثة عشر يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جدًا .

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم ص ٣١٩.

ويضاف إليهم طلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمران بن حصين ، وأبو بكرة ، وعبادة بن الصامت ، ومعاوية بن أبى سفيان .

والباقون منهم مقلون فى الفتوى لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان والزيادة اليسيرة على ذلك ، ويمكن أن يجمع من فتوى جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصى والبحث) (١) .

ب ـ من علَّمه الله علمًا فليعلمه :

(عن أبى المهلب قال : سمعت أبا موسى على منبره وهو يقول : من علَّمَهُ الله علمًا فليُعلِّمْهُ. ولا يقولن ما ليس له علم. فيكون من المتكلفين، ويمرق من الدين) (٢) .

فهو يرى فرض نقل العلم ، ويرى فتوى الجاهلين تقود إلى المروق من الدين . فهو مذهبه النظرى وهو سلوكه العملى فى ذلك .

جـ ـ احفظ كما حفظت :

(عن أبى بردة بن أبى موسى قال: كان لأبى موسى تابع فقذفه فى الإسلام فقال لى (المتحدث ابن أبى موسى): يوشك أبو موسى أن يذهب ولا يحفظ حديثه فاكتب عنه.

قال : قلت : نِعم ما رأيت . قال : فجعلت أكتب حديثه .

قال : فحدَّث حديثًا فذهبت أكتبه كما كنت أكتب . فارتاب بى وقال :

لعلك تكتب حديثى ، فقلت : نعم . قال : فأتنى بكل شىء كتبته . قال :

فأتيته به فمحاه ثم قال : احفظ كما حفظت) (٣) .

د ـ الثالث عشر فى رواية الحديث :

ومع أن أبا موسى ﷺ محا كل ما كتبه ابنه أبو بردة عنه . وطالبه بالحفظ كما حفظ . فقد كان الثالث عشر فى ترتيب رواة الحديث عن رسول الله ﷺ . فقد سبقه أربعة من الصحابة وهم رواة الألوف ، وثلاثة آخرون هم رواة الألف ، وكان ترتيبه بين رواة المئين من الأحاديث السادس . فقد روى ثلثمائة وستون حديثًا (٤) عن رسول الله ﷺ من بين ما ينوف عن الألف من الرواة (٥) .

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم هامش ص٣١٩ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١٠٩، ١١٠ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١١٢ .
(٤، ٥) مسند بقى بن مخلد ص٨١ .

هـ ـ فقهه فى الإمرة والملك :

عن مسروق بن الأجدع قال : كنت مع أبى موسى أيام الحكمين وفُسطاطى إلى جانب فسطاطه فأصبح الناس ذات يوم قد لحقوا بمعاوية من الليل، فلما أصبح أبو موسى رفع طرف فسطاطه فقال :

يا مسروق بن الأجدع . قلت : لبيك يا أبا موسى . قال :

إن الإمرة ما أوتمر فيها ، وإن الملك ما غُلب عليه بالسيف .

و ـ فقهه فى الفتنة :

(دخل المغيرة بن شعبة على أبى موسى الأشعرى ـ قبل التحكيم فقال له : أخبرنى يا أبا موسى عما أسألك عنه ، كيف ترانا نحن معشر المعتزلة فإنا قد شككنا فى الأمر الذى تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا أن نستأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة . فقال: أراكم أثبت الناس رأيًا فيكم بقية المسلمين) (١) .

ز ـ فقهه فى التحكيم :

لخص ابن كثير فى البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال : (فلما اجتمع الحكمان تراوحا على المصلحة للمسلمين ، ونظرا فى تقدير أمور ، ثم اتفقا على أن يعزلا عليًا ومعاوية ثم يجعلان الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما) (٢) .

ح ـ فقهه فى البيعة :

(عن أبى بردة قال : قال أبو موسى: كتب إلىَّ معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، فإن عمرو بن العاص قد بايعنى على الذى بايعنى عليه ، وأقسم بالله لئن بايعتنى لأبعثن ابنيك؛أحدهما على البصرة ، والآخر على الكوفة ، ولا يُغلق دونك باب ، ولا تقضى دونك حاجة. . . فكتب إليه مثل العقارب : أما بعد فقد كتبت لى فى جسيم أمة محمد ﷺ لا حاجة لى فيما عرضت علىّ . . .) .

وكان إمامًا فى الإمارة :

أ ـ لقد كان عند عمر رضي الله عنه أهلاً للخلافة العظمى . فهو أحد الذين قال عنهم عمر: (بالشام أربعون رجلاً ما منهم من رجلٍ كان يلى أمر هذه الأمة إلا أجزاه) .

---

(١) تاريخ الطبرى .

(٢) الطبقات الكبرى ٤/ ١١٢ .

فأرسل إليهم فجاء رهط منهم فيهم أبو موسى الأشعرى) (١) .

ب ـ مذهبه فى القضاء :

عن قتادة أن أبا موسى قال : (لا ينبغى للقاضى أن يقضى حتى يتبين له الحق كما يتبين الليل من النهار . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال : صدق أبو موسى) (٢) .

جـ ـ مساواته مع الرعية :

حدثنا قتادة قال : (بلغ أبا موسى أن قومًا يمنعهم من الجمعة أن ليس لهم ثياب . فخرج على الناس فى عباءة) (٣) .

وذلك حتى لا يستحى الناس من ألبستهم القديمة وأسمالهم البالية . فالعباءة لباس الأعراب .

د ـ القدوة فى السيرة :

عن أنس بن مالك ﷺ قال :(قال الأشعرى وهو على البصرة : جهزنى فإنى خارج يوم كذا وكذا . فجعلت أجهزه . فجاء ذلك اليوم وقد بقى من جهازه شىء لم أفرغ منه . فقال : يا أنس إنى خارج . فقلت : لو أقمت حتى أفرغ من بقية جهازك.

فقال : إنى قد قلت لأهلى :إنى خارج يوم كذا وكذا ، وإنى إن كذبت أهلى كذبونى ، وإن خنتهم خانونى ، وإن أخلفتهم أخلفونى . فخرج ، وقد بقى من حوائجه بعض شىء لم يفرغ له) (٤) .

هـ ـ ثروته التى خرج بها بعد عزله :

(عن أبى بردة الأشعرى قال : حدثتنى أمى (زوجة أبى موسى) قالت : خرج أبو موسى حين نزع من البصرة وما معه إلا ستمائة درهم عطاء عياله) (٥) .

و ـ حكمه على من سبه على ملأ من الناس :

عن السميط بن عبد الله السدوسى قال :(قال أبو موسى وهو يخطب : إن باهلة كانت كراعًا فجعلناها ذراعًا . فقام رجل . فقال : هل أدلك على الأم منهم ؟ قال : من ؟ قال : عك والأشعريون قال : أولئك آبائى يا سابٌ أميره تعال) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٩/٤ .
(٢) المصدر السابق ١١٣/٤ .
(٣) المصدر السابق ١١٢/٤ .
(٤ ، ٥) المصدر السابق ١١١/٤ .

ولم يقض عشرين عامًا في السجن لا يعرف أحد مصيره ، أو يخرج من السجن بعدها مسلولاً او مشلولاً أو مجنونًا لتعرضه لذات الحاكم ، ونسبه الشريف على الملأ . إنما كان سجنه (قال : فضرب عليه فسطاطًا ، فراحت عليه قصعة ، وغدت أخرى . فكان ذلك سجنه) (١) .

ز ـ فرد من الأمة يصيبه ما أصابهم :

(عن أبي بردة بن قيس قال : قلت لأبي موسى الأشعرى في طاعون وقع : أخرج بنا إلى دابق نبدو بها . فقال أبو موسى : إلى الله آبقٌ لا إلى دابق) (٢) .

ح ـ يشارك في إنقاذ الأمة من الجوع :

(عن عبد الله بن عمير أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعرى : إن العرب هلكت . فابعث إليّ بطعام . فبعث إليه بطعام وكتب إليه : إني قد بعثت إليك بكذا وكذا من الطعام ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الأمصار فيجتمعون في يوم فيخرجون فيه فيستسقون .

فكتب عمر إلى أهل الأمصار . فخرج أبو موسى فاستسقى ولم يصل) (٣) .

ط ـ شهادة عمر رضي الله عنه في كفاءته :

فقد توفي وأبو موسى أميرًا على البصرة (وعن الشعبي قال : كتب عمر في وصيته ألا يقر لي عامل أكثر من سنة ، وأقروا الأشعرى أربع سنين) (٤) .

ى ـ وعظ الأمة وتعليمها :

(عن قسامة بن زهير أن أبا موسى خطب الناس بالبصرة فقال : أيها الناس ، ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا . فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع ، ثم يبكون الدماء حتى لو أجرى فيها السفن لسارت) (٥) .

(وعن أبي لبيد قال : ما كنا نشبه كلام أبي موسى إلا بالجزار الذى لا يخطئ المِفصل) (٦) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١١٣ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١١١ .
(٣) المصدر السابق ٤ / ١١٠ .
(٤) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه: إسناده حسن ٩/ ٣٦٠ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ١١٠ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ١١١ .

(وعن أنس بن مالك قال : بعثنى الأشعرى إلى عمر . فقال عمر : كيف تركت الأشعرى ؟ قال: تركته يعلم الناس القرآن، قال: أما إنه كبير ولا تسمعها إياه. . .) (١).

ك ـ هكذا يكون من كان مستشاروه الصحابة :

(. . . فبعث عمر إلى أبى موسى فقال : يا أبا موسى ، إنى مستعملك ، إنى أبعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرخ فالزم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أعنى بعدة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار . فإنى وجدتهم فى هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلا به .

قال : فاستعن بمن أحببت . فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً منهم أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر ، ثم خرج فيهم أبو موسى حتى أناخ بالمربد . . .) (٢) .

وكان إمامًا فى القيادة :

وندع هذه الشهادة لرجل الاختصاص العظيم اللواء محمود شيت خطاب رحمه الله يقول :

(**القائد** : كان أبو موسى من أشجع الشجعان ، وحسبنا أن نذكر قول الرسول القائد فيه : «سيد الفوارس أبو موسى» . وأن نذكر أنه قتل فى معركة واحدة تسعة إخوة من المشركين . فكان يضرب لجنوده فى القتال أروع الأمثال .

لقد كانت الحروب القديمة تحتاج إلى قائد يعمل بعقله وبسيفه ؛ يعمل بعقله لإعداد الخطط العسكرية وتنفيذها ، وإدارة دفة المعركة ، ويعمل فى المعركة؛ يبارز بسيفه الأبطال، ويصاول الرجال .

والحق: إن أبا موسى كان مثالاً رائعًا للقائد الممتاز الذى يعمل بعقله وبسيفه معًا فى آن واحد لذلك انتصر فى كل المعارك التى خاضها ، ولم ينكص له لواء واحد طيلة حياته العسكرية الطويلة . كانت له قابلية بدنية ممتازة تعينه على تحمل المشاق العسكرية. وكان متقشفًا بطبعه ، لا يميل إلى الراحة والدعة ولذيذ العيش . وكانت له طاقة نفسية

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/١٠٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ٤٩٣.

عجيبة في الصبر على المكاره . كل ذلك جعله يفضل دائمًا أن يكون في ساحات القتال على أن يكون بين أهله آمنًا مطمئنًا . لهذا نراه قضى أكثر حياته مجاهدًا ؛ لأنه كان يعتبر الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات . لا يبالى في جهاده أن يكون قائدًا عامًا أو قائدًا مرؤوسًا يضع نفسه بإمرة غيره من القادة، حتى القادة الذين أرسلهم هو بنفسه إلى ساحات الجهاد. وهذا ما لا يقدر عليه إلا المجاهدون الصابرون والمؤمنون الصادقون.

لقد كان صحيح القرار ذا إرادة قوية وشخصية رصينة ، يتحلى بمزايا الضبط ، ويؤمن بمبادئ الطاعة ويتحمل المسؤولية إلى الحدود التى لا مخالفة في تحملها . إذ هو لا يطيق الخلاف لأولى الأمر، فهو من هذه الناحية قائد (متبع) وليس قائدًا (مبتدعًا) له نفسية لا تتبدل في حالتى الرخاء والشدة ، يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ويثق بهم ويحبهم ويثقون به ويحبونه ثقة وحبًا لا مزيد عليهما . . وعند مقارنة أعماله العسكرية بمبادئ الحرب نجد أنه يختار مقصده ويديمه دائمًا ولا يحيد عنه . كل معاركه (تعرضية) يحاول أن (يباغت) بها عدوه كلما وجد إلى ذلك سبيلا . وكان يعمل على (تحشيد قوته) قبل المعركة و(يقتصد بالمجهود) فلا يعطى خسائر في الأرواح دون مبرر، وكان (يتعاون) تعاونًا وثيقًا مع غيره من القادة . كما أنه كان يحمل قواته على التعاون فيما بينها تعاونًا وثيقًا و(يديم معنويات) قواته بشجاعته الشخصية ، وقيادته الحكيمة وبتوالى انتصاراته . . لقد كان قائدًا مثاليًا من كافة الوجوه) (١) .

وكان إمامًا في الورع والعبادة :

أ ـ شهادة رسول الله ﷺ فيه :

عن ابن بريدة عن أبيه قال :(خرج بريدة عشاءً فلقيه النبى ﷺ ، فأخذ بيده فأدخله المسجد ، فإذا صوت رجل يقرأ ،فقال النبى ﷺ : « تراه يرائى » فأسكت بريدة قال : فلما كان من القابلة ، خرج بريدة عشاء ولقيه النبى ﷺ ، فأخذ بيده فأدخله المسجد ، فإذا صوت الرجل يقرأ، فقال النبى ﷺ : « تراه يرائى » فقال بريدة : أتقول هو مراء يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ :

« لا ، بل مؤمن منيب . لا ، بل مؤمن منيب » .

فإذا الأشعرى يقرأ بصوت له في جانب المسجد ، فقال النبى ﷺ : « إن الأشعرى ـ أو إن عبد الله بن قيس ـ أعطى مزمارًا من مزامير داود » .

---

(١) قادة فتح بلاد فارس. للواء محمود شيت خطاب ص ١٨٩، ١٩٠.

فقلت : ألا أخبره يا رسول الله ؟ قال : « بلى فأخبره » . فأخبرتهُ فقال : أنت لى صديق أخبرتنى عن رسول الله ﷺ بحديث) [١] .

ب ـ يشوق الناس إلى ربهم :

(حدثنا شعبة عن أبى مسلمة عن أبى نضرة قال : قال عمر لأبى موسى : شوقنا إلى ربنا ؟ فقرأ . فقالوا : الصلاة . فقال عمر : أو لسنا فى صلاة) [٢] .

جـ ـ ريح الضأن :

(عن أبى بردة عن أبيه قال : قال لى أبى (يعنى أبا موسى) : يا بنى ، لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف) [٣] .

د ـ بعده عن الشبهات :

(عن بلال بن أبى بردة عن أبيه وعمه عن سُرِّيَّة لأبى موسى قالت : قال أبو موسى : ما يسرنى أن أشرب نبيذ الجرولة خراج السواد سنتين) [٤] .

هـ ـ ورعه عن ظهور عورته خاليًا :

(عن أبى مجلز أن أبا موسى قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأحنى ظهرى حياءً من ربى) [٥] .

(وعن قتادة قال : كان أبو موسى إذا اغتسل فى بيت مظلم تجاذب وحنى ظهره حتى يأخذ ثوبه ولا ينتصب قائمًا) [٦] .

(وعن عبادة بن نسى قال : رأى أبو موسى قومًا يقفون فى الماء بغير أزر . فقال : لأن أموت ثم أنشر ثم أموت ثم أنشر ، ثم أموت ثم أنشر أحب إلى من أن أفعل مثل هذا) [٧] .

(وعن أنس بن مالك قال : كان أبو موسى الأشعرى إذا نام لبس ثيابًا عند النوم مخافة أن تنكشف عورته) [٨] .

و ـ ورعه عن المرأة الأجنبية :

(عن أبى عمرو الشيبانى قال : قال أبو موسى : لأن يمتلئْ منخَرَىَّ من ريح جيفة

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٩/٣٥٩ وقال فيه : رواه أحمد.. ورجال أحمد رجال الصحيح .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/١٠٩ . (٣) المصدر السابق ٤/١٠٨ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ١١٠ . (٥ ـ ٧) المصدر السابق ٤/١١٣ .
(٨) المصدر السابق٤/ ١١٢ .

أحب إلىَّ من أن يمتلئ من ريح امرأة) [1] (لا تحل له) .

ز ـ بعده عن الرياء والسمعة :

(عن سيار بن سلامة قال : انظروا إذا أنا مت فلا تُؤْذِنُنَّ بى أحدًا ، ولا يتبعنّى صوت ولا نار . وليكن ممشى أحدكم بحذاء ركبتى من السرير) [2] .

عن صفوان بن محرز قال : (أغمى على أبى موسى فبكوا عليه فأفاق وقال : إنى أبرأ إليكم مما برئ منه رسول الله ﷺ ، من حلق وخرق وسلق) [3] .

وأخيرًا : أصح ما روى فى التحكيم :

لما عزل معاوية عمرو بن العاص عن مصر ، ضرب (الحصين بن منذر راوى الحديث) فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية .. فبلغ نبأه معاوية . قال . فأرسل إليه فقال : إنه قد بلغنى عن عمرو (ابن العاص) بعض ما أكره . فأته فاسأله عن الأمر الذى اجتمع هو وأبو موسى فيه كيف صنعا ؟

قال : فأتيته فقلت : أخبرنى عن الأمر الذى اجتمعتما فيه أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟

قال : قد قال الناس:ولا والله،ما كان ما قالوا ، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له : ما ترى فى هذا الأمر ؟

قال : أرى أنه فى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ . قال :

فقلت : أن تجعلنى من هذا الأمر أنا ومعاوية ؟

فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة . وإن يستغن عنكما ، فطالما ما استغنى أمر الله عنكما . . .) .

رحم الله أبا موسى ورضى عنه فى عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين مع من قال فيهم :

غدًا نلقى الأحبة : محمدًا وحزبه

(١ ـ ٣) الطبقات الكبرى ٤ / ١١٢ .

أبو بكر رضي الله عنه
أمير الحج فى العام التاسع للهجرة

أبو بكر رضي الله عنه

أمير الحج فى العام التاسع للهجرة

لقد انتهى الشرك من بلد التوحيد مكة المكرمة ، ومن جوار بيت الله الحرام إلى غير رجعة ، وذلك بعد فتح مكة .

فعن ابن عباس قال : (دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته . فطاف عليها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبى ﷺ يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقًا » .

فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه . حتى ما بقى منها صنم إلا وقع فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك :

وفى الأصنـــام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب والعقابا) (١)

واكتفى رسول الله ﷺ بعمرة الجعرانة هذا العام بعد توزيع مغانم حنين (فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعًا إلى المدينة . واستخلف عتاب بن أسيد على مكة،وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين، ويعلمهم القرآن واتُّبع رسول الله ﷺ ببقايا الفىء. وكانت عمرة رسول الله ﷺ فى بقية ذى القعدة أو فى ذى الحجة .

وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد وهى سنة ثمان) (٢) .

* * *

مضى عام كامل ، وأهل الحج فى العام التاسع ، ودنيا العرب قد تغيرت كلها . فقد غزا الإسلام أرض العرب ، وخاصة عرب الشمال . فقد فاء الناس جميعًا إلى هذا الدين . ولابد من تخطيط جديد للحج ، يلغى كل آثار الوثنية فيه ، ويلغى حتى وجود المشركين بشعائرهم فيه. وإذا كان رسول الله ﷺ الذى تنتظر العرب لقاءه بعد إسلامها، لم يعد العدة لكى يكون على رأس الحجيج فى مكة . فليتعرف العرب على الخليفة القادم ، على رئيس وزرائه أبى بكر رضي الله عنه ، ليكون هو أمير الحج لهذا العام ، فهو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤/ ٤٦.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤/ ١١٣ .

رفيقه فى الغار يوم اختاره ليكون معه فى الهجرة . حيث كانت دنيا العرب ، وقيادة مكة تبحث عن محمد ﷺ لتقتله ، وها هو يختاره صلوات الله عليه ليكون أمير الحجيج للعرب جميعًا والوافدين من كل مكان لتأدية هذه الشعيرة .

ولا ندرى ، فلعل من حكمة الله عز وجل ، ومُكْث رسول الله ﷺ فى مكة دون أن يحج ، وبعثه أبى بكر على رأس الحجيج . أن تكون معقودة لذاتها بحيث يتعرف الناس ، والعرب على أبى بكر الذى ادخره القدر ليكون أول خليفة للمسلمين بعد رسول الله ﷺ . وسيعود والحجاج إلى قبائلهم . ويتحدثون عن الأمير الذى اختاره رسول الله ﷺ لقيادة هذا الحجيج . ويبقى اسمه محفوراً فى قلوبهم وذاكرتهم .

المفاصلة والتميز الإسلامى

فقد جاء حجيج المشركين على منازلهم كما هو الحال فى العام الماضى . والجديد اليوم تلك التعليمات الخالدة التى تلقاها الصديق رضي الله عنه لاقتلاع جذور الشرك والوثنية وخرج معه ثلاث توجيهات جديدة بالنسبة للمسلمين .

(فاستعمل رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فى ثلاثمائة من المدينة ، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنَة ، قلَّدَها رسول الله ﷺ النعال ، وأشعرها بيده فى الجانب الأيمن ، واستعمل عليها ناجية بن جندب الأسلمى وساق ، أبو بكر رضي الله عنه خمس بدنات ، وحج عبد الرحمن بن عوف فأهدى بُدنًا ، ـ وقومه أهل قوة ـ وأهل أبو بكر رضي الله عنه من ذى الحليفة ، وسار حتى إذا كان بالعرج فى السحر سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء . فقال : هذه القصواء ، فنظر فإذا على بن أبى طالب عليها فقال : استعملك رسول الله ﷺ على الحج ؟ قال : لا . ولكن بعثنى أقرأ (براءة) على الناس وأنبذ إلى كل ذى عهد عهده . وقد كان رسول الله ﷺ عهد إلى أبى بكر أن يخالف المشركين .

فيقف بعرفة ولا يقف بجمع .

ولا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس .

ويدفع من جمع قبل طلوع الشمس . . .) (١) .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٧٦ .

ولا نستطيع أن ندرك أهمية هذه التوجيهات إلا إذا عرفنا واقعها ، وكيف انتشرت في العرب وكيف تحول الحج إلى بيت الله الحرام من شعيرة عبادة خالصة إلى عملية ابتزاز تجارى ، واستعلاء قرشى ، وتفسخ خلقى وطقوس وثنية . بعد أن كان على الحنيفية الخالصة دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ففى بعض الروايات أن الذى منع رسول الله ﷺ من الحج فى هذا العام هو هذه الانحرافات عن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(فقد أخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن عبد المنذر ، وابن أبى حاتم عن مجاهد رضي الله عنه فى قوله : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① ﴾ [التوبة] إلى أهل العهد ؛ خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغيرهم . أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ثم قال :

« إنه يحضر البيت مشركون ، يطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك . . . » (١) .

ونبحث عن أساس هذه الانحرافات . فنجد جوابها عند ابن إسحاق رحمه الله .

قال ابن إسحاق : وقد كانت قريش ـ لا أدرى أقبل الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأى الحمس (٢) رأيًا رأوه وأداروه فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت ، وقطان مكة وساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا .

فلا تعظموا شيئًا من الحِلّ كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة منها .

وهم يقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا :

نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى أن نخرج من الحرمة ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ١٢٢ .

(٢) الحمس : جمع أحمس والأحمس : المشتد المتصلب فى دينه ، وهم أهل الحرم من قريش ، أو من كانت أمهاتهم من قريش من قبائل العرب .

والحمس أهل الحرم ، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم . ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا :

لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الإقط [1] ولا يسلئوا السمن [2] وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتًا من شعر ، ولا يستظلوا إذا استظلوا إلا فى بيوت الأدم [3] ما كانوا حرمًا .

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لا ينبغى لأهل الحِلّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحِلّ إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجًا أو عماراً .

ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس . فإن لم يجدوا منها شيئًا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرَّم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه . ثم لم ينتفع بها، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

فكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى [4] . فحملوا على ذلك العرب. فدانت به، ووقفوا على عرفات (أى العرب) وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عراة ، أما الرجال فيطوفون عراة . وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا [5] عليها ثم تطوف به . فقالت امرأة من العرب وهى كذلك تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فكانوا كذلك حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ فأنزل عليه حين أحكم له دينه ، وشرع له سنن حجه : ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (199)** ﴾ [البقرة] . يعنى قريشًا والناس: العرب . فرفعهم فى سنة الحج إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها) [6] . وأنزل الله عليه فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة ، وحرموا ما جاؤوا به من الحل فى الطعام : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)** ﴾ [الأعراف] .

---

(1) يأتقطوا الإقط : يصنعونه .

(2) سلأت السمن : إذا طبخته .

(3) الأدم : الجلود .

(4) اللقى : الشيء الملقى .

(5) الدرع المفرج : المشقوق من قدام أو من خلف .

(6) السيرة النبوية لابن هشام ١/١/ ١٦٤.

فوضع الله تعالى أمر الحمس ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام) (1) .

لقد تحول الحج فى الجاهلية إلى احتكار تجارى كبير .

فطعام قريش هو الذى يؤكل، ولباسها هو الذى يلبس . ولا يحق للناس أن يطوفوا بلباسهم الذى جاؤوا به أو يأكلوا من طعامهم الذى جاؤوا به .

وتحول إلى سوقٍ إباحي ، فيطوف فيه الناس عراة إذا لم يجدوا لباس الحمس أو عجزوا عن شرائه وتطوف النساء عراة بلباس لا يستر سوآتهن .

وتتحول العبادة إلى إثارة الغرائز الهابطة ، والمجون الخليع .

حتى العبادة نفسها وشعيرة الطواف تتحول كذلك إلى رقصٍ وصفير وتصفيق . كما قال تعالى عنهم : ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)** ﴾ [الأنفال] .

فماذا بقى من شعيرة الطواف عند بيت الله الحرام ، وفى ظل الأصنام الثلاثمائة والستون إلا الخلاعة والمجون والتهتك واللهو والوثنية .

وجاء الإسلام بإلغاء ذلك كله ، لكنه إلغاء نظرى ، فلم يكن للمسلمين سلطة على المسجد الحرام حتى فتح مكة فى العام الثامن للهجرة ، وحين اعتمر رسول الله ﷺ فى ذى القعدة كان الناس قد حضروا إلى الحج ، فقد سقطت الأصنام وكسرت ، لكن من الذى يمنع بقية تقاليد وطقوس الحمس . ومن عظمة هذا الدين أنه لا يعاقب حتى ينذر ويبلغ ويعلن ، ومن أجل هذا مضى أبو بكر رضي الله عنه ليحج بالمسلمين جميعًا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويعلن إلغاء الشرك ومظاهره وطقوسه ولو كانت قريش هى التى ابتدعتها . فكانت صدر سورة براءة .

لم يحضر رسول الله ﷺ، وأرسل أبا بكر على رأس الحجيج ليقدم للناس الصورة المشروعة للحج، ويعلن لكل الحجاج أن هذا العام هو نهاية كل طقوس الشرك وتعاليمه، وصوره ومظاهره إنه منهج تربية ، وليس منهج إبادة وعقوبة ، وبعث رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام بصدر سورة براءة وبكل ما فيها من تعليمات وأحكام وقوانين يبلغها ابن عم النبى ﷺ إشارة إلى أهميتها الخالصة . فأمير الحج العام أبو بكر رضي الله عنه له قيادة الحجيج

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ١/١/١٦٥.

جميعًا. وهو الذى يعلم الناس الصورة الصحيحة لهذه الشعائر نظريًا وعمليًا . بينما يقوم على رضي الله عنه بإبلاغ الحجيج كافة إنهاء الشرك برجالاته وطقوسه وعاداته ومقدساته . ولو كانت ميزة لقريش على العرب ، فقد ألغيت هذه الامتيازات كافة .

فلابد من الإبلاغ العام للأوامر الربانية بحيث لا يعتذر أحد بالجهل بعد اليوم .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث عليًا رضي الله عنه بأربع :

ـ لا يطوفن بالبيت عريانًا .

ـ ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم .

ـ ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى عهده .

ـ وأن الله برىء من المشركين .

وروى ابن جرير بسنده عن أبى الصهباء البكرى قال : سألت عليًا رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يقيم للناس الحج ، وبعثنى معه بأربعين آية من براءة ، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال : قم يا على فأدّ رسالة رسول الله ﷺ .

فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى ، فرميت الجمرة ، ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى ، علمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبى بكر يوم عرفة ، فطفقت بها أتتبع الفساطيط أقرؤها عليهم . فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ، ألا وهو يوم عرفة .

لقد غدت الكعبة بعد هذا الحج صورة لما بنيت له ،تمثل التوحيد الخالص البرىء من الشرك وجميع مظاهره وأشخاصه (ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان) ولا يسمح إطلاقًا بشعائر تتنافى مع شعائر إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا للحمس ولا لغيره . وكما حدثنا على رضي الله عنه أن أهل جَمْع (وجمع هى المزدلفة) ، لم يشهدوا خطبة عرفة لأنهم لا يخرجون إلى عرفة ، وهم أهل الحمس . صحيح أن أمر الحج كان لأبى بكر . لكن تنفيذ هذه التعليمات على جميع الحجيج . لم يكن فى هذه اللحظة . لابد من الإعلان الكامل .

وحيث إن الخمس قد فاتهم سماع تلاوة آيات براءة الأربعين وأحكامها ، فقد قام على ﷺ المسؤول الشخصى عن تبليغها فراح يدخل خيام الحجيج كلهم . ويبلغهم الأوامر الربانية ، ويسمعهم ما أنزل الله تعالى فى صدر سورة التوبة .

إنها بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الأمة بلغ من أهميتها أن يبعث رسول الله ﷺ أقرب الناس إليه قرابة . ابن عمه أبى طالب وأخاه فى الدنيا والآخرة خصيصًا ليبلغ الناس معالم وأبعاد المرحلة الجديدة . والتى تعتبر المرحلة النهائية فى أحكام الجهاد الإسلامى حين يكون للمسلمين دولة تملك السلطان فى الأرض ، وتمثل الإسلام فى الوجود .

وسنمضى مع آيات سورة براءة الأربعين لنشهد ذروة سنام الأمة (الجهاد) ، وأين موقعه فى دولة الإسلام .

المقطع الأول : الآيات (١ ـ ١٠)

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) ﴾ [التوبة] .

لقد أصبح الحكم النهائى فى جزيرة العرب هو قتال كل مشرك لا عهد له كما أخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: (كان عهد بين رسول الله ﷺ وبين قريش أربعة أشهر بعد يوم النحر كانت تلك بقية مدتهم . ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم . فأمر الله نبيه ﷺ إذا مضى هذا الأجل أن يقاتلهم فى الحل فى الحرم ، وعند البيت حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وروى ابن زيد فى ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ قال : ضيقوا عليهم ، ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ قال : لا تتركوهم يضربون فى البلاد ولا يخرجون لتجارة) [1] .

(وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رحمه الله ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ قال :

إنما الناس ثلاثة نفر ؛ مسلم عليه الزكاة ، ومشرك عليه الجزية ، وصاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله) [2] .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ قال : أمَرَ من أراد ذلك أن يأمنه ، فإن قبل وإلا خلى عنه حتى يبلغ مأمنه ، وأمر أن ينفق عليهم على حالهم ذلك [3] .

(إن هذا يعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى أو يتوب ، وإن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يُعطَوا الجوار والإحسان. ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن، ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب . . . وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم ، ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الإسلام . ولكم قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة بعد قمة . وهذه إحداها ؛ هذه الحراسة للمشرك ، عدو الإسلام ، والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين ، هذه الحراسة له حق حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام .

---

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ٣١.

(٢، ٣) المصدر السابق ٤ / ١٠/ ٣٣.

إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام) [1] .

إن الإسلام الذى فض هذه التجمعات المعادية ، وأعلن أنه حرب عليها ، يعلم أن القيادات عندما تنهار ، والسلطان عندما يتحطم تتفتح كثير من العيون ، وتتيقظ كثير من القلوب لترعوى إلى الله بعد أن أعماها السلطان والطغيان . فتفكر فى هذا الدين ، وتود لو تعرف حقيقته ، بعيداً عن الإرهاب ، وبعيداً عن القوة ، وبعيداً عن السيف ، هذا شأن القيادات ، فكيف بالجماهير المستضعفة التى كانت صامتة تحت وطأة الإرهاب حكامها أو طغاتها . وقد تكون النفوس لكثير من هذه الجماهير تتشوف إلى الإسلام ، وترغب فى التعرف عليه ، وترنو إلى فهم أسراره ، فجاءت هذه الآيات القرآنية فى هذا الموقع بالذات بعد الأمر بالقتل والحصر وأخذ كل مرصد للمشركين. بعد هذا الأمر تفتح كل الأبواب على مصاريعها لطالبى الهدى والرحمة ، يتعرفون على الإسلام يسلمون أو يبقون مشركين ، ولهم الأمان لو بقوا على شركهم أن يعيدوهم معززين مكرمين إلى موطنهم ومأمنهم ، وقد يستأنفون من هناك حرب الإسلام ، لا ضير . لكن لابد أن تفتح لهم منافذ المعرفة على الإسلام أملاً بهدايتهم وطمعًا فى إسلامهم . فإن أصروا على موقفهم بالانضمام إلى تجمع المشركين ثانية فليتحملوا مسؤولية مواقفهم،فالإسلام لا يغدر ،ولا يطعن من الخلف ، ولا يغرر بالناس فيدعوهم إلى الإسلام ، ثم يفترسهم فى أرضه ، بل يعيدهم بحراسة حرابه وجيشه إلى موطن شركهم ، فأى خوف إذن من القدوم للإسلام ؟

* * *

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) ﴾ .

(عن مقاتل قال : كان النبى ﷺ قد عاهده أناس من المشركين ، وعاهد أناسًا من بنى ضمرة بن بكر وكنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام، وجعل مدتهم أربعة أشهر وهم الذين ذكر الله **﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ ﴾** أما السدى فيقول : هم بنو خزيمة ابن فلان ، وقتادة يعيدها على بكر وخزاعة فيقول : هو يوم الحديبية **﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾** قال :فلم يستقيموا ونقضوا العهد ، وأعانوا بنى بكر حلفاء قريش على خزاعة

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٠/ ١٦٠٢ ، والدر المنثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ١٣٤ .

حلفاء النبى ﷺ) .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ .

روى عن مجاهد وعكرمة أن (الإل) هو الله . وأخرج الطستى عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرنى عن قوله عز وجل : ﴿ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ قال : الإل : القرابة، والذمة : العهد . وقال : هل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

جزى الله إلاً كان بينى وبينهم ... جـزاء ظلوم لا يؤخـر عاجلاً

(وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب ـ الوقف والابتداء ، عن ميمون بن مهران ؓ أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس ؓ : أخبرنى عن قول الله عز وجل : ﴿ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ قال : الرحم . وفيه قال حسان :

لعـمـــــرك إن إلـك مـن قـريش ... كإل السقب [(١)] من رال [(٢)] النعام

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ قال : ذم الله تعالى أكثر الناس) [(٣)] .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) ﴾ .

يعنى أن المشركين فى نقضهم للعهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان . قال مجاهد : (إنهـم استبدلوا بالقرآن الكريـم متـاع الدنيـا ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى أعرضوا: من الصدود ، أو منعوا عن سبيل الله من الصد) [(٤)] .

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) ﴾ .

قال النحاس : ليس هذا تكريراً. ولكن الأول لجميع المشركين ، والثانى لليهود خاصة . والدليل على هذا .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ يعنى: اليهود باعوا حجج الله وبيانه بطلب الرياسة وطمع فى شىء .

---

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الرال : ولد النعامة .

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٠/ ١٣٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٤/ ٨/ ٨٠ .

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ أى المجاوزون الحلال إلى الحرام فى نقض العهد)[1].

(لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين ، فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده فى المقطع الثانى من السورة . وأما المشركون . فقد كان هذا دأبهم مع المسلمين على مدار التاريخ .

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ ، إنما ختم بهذه الرسالة وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل . إنما يمثل موقف الشرك من دين الله على الإطلاق ، فإن أبعاد المعركة تترامى ، ويتجلى الموقف على حقيقته كما تصوره النصوص القرآنية الخالدة على مدار التاريخ البشرى كله بلا استثناء) [2] .

المقطع الثانى : الآيات (١١ ـ ٢٦)

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ
عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ
لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ
هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٤/٨ / ٨٠. (٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٠/ ١٦١٠.

قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة] .

منهج قتال المشركين :

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ .

إن الانتقال من القتل والحصر والأخذ فى كل مرصد إلى الأخوة فى الدين لهو أمر عجب حقًا فى غير هذا الدين لكنه فى شريعة الله ، وفى دولة الفكرة يمثل قمة كذلك من قمم هذا الدين العظيم، لأن الدين لله، وليس لأحد من البشر بينه وبين الله رحم. فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه أقرب إلى الله لنسبه ، ولا نسب لله إلا طاعته ، ومن أجل هذا عندما ينضم أحد لهذا الدين ، ويؤدى واجباته من الصلاة والزكاة ، وكان من قبل عدوًا لهذا الدين ، فقد ملك كل الحقوق التى يملكها المسلم قبله منذ عشرين عامًا أو أكثر ، وهذا ما قاله خالد رضي الله عنه لجرجة قائد الروم فى معركة اليرموك وهو يدعوه إلى الإسلام .

(قال جرجة : ما منزلة من يجيبكم ويدخل فى هذا الدين ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا .

قال جرجة : كيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة ، وبايعنا نبينا وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى مثل ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع . وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا ، فمن دخل منكم بهذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجة : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ؟

قال : بالله لقد صدقتك وإن الله ولى ما سألت عنه .

فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال : علمنى الإسلام) [(١)] .

والجزيرة العربية معقل الإسلام ومنطلقه إلى الأرض ، لابد أن يتحول قلبها إلى قاعدة صلبة لهذا الدين ، فلا يبقى فيها جيوب وثنية ، أو تجمعات مشركة أو كافرة ، لابد أن تبقى خالصة للإسلام بعد أن دانت له باختيارها أكثر مما دانت له بقوة السيف . فجميع من قتل فى الحرب النبوية لا يصل إلى خمسمائة مقاتل .

وعندما كانت حجة الوداع كان عدد المسلمين الذين انضموا إلى هذا الدين وحضروا هذا المؤتمر ما ينوف عن المائة ألف . فقد كانت الحروب المباشرة بين قريش ورسول الله ﷺ هى التى حسمت الموقف لصالح الإسلام . ثم كان فتح مكة إيذانًا بفتح الجزيرة العربية كلها .

ولاشك أن الردة التى وقعت بعد وفاة الرسول ﷺ هى لأن الإسلام لم يتمكن فى القلوب بعد لدى كثير من الزعامات الدينية . . اختلط الأمر بشخص رسول الله ﷺ ، ووفاة الرسول لم تغير من دافع القوة والسلطان شيئًا ، إنما غيرت من الواقع النفسى الذى ربط الإسلام برسول الإسلام ولم تتعمق مفاهيم الوحدانية لله بعد فى نفوسه .

وكان لابد لهذه المعانى من فتح باب التوبة للأخُوَّةِ فى الدين أمام الجماهير العربية فى الحج، وبكلام الله عز وجل وتبليغه للعرب على لسان رجل من أهل بيت النبى ﷺ لابد أن يعرف هؤلاء نهاية الخطين الأصليين فى الجزيرة، فإما الحرب وإما الإسلام حتى يهلك أحد الفريقين. لأن الجزيرة لابد أن تبقى المعقل الرئيسى للإسلام فى الأرض . . وإن كان قد اعترف بوجود أهل الكتاب فهو وجود مؤقت ،إنما آل الأمر إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ « أخرجوا اليهود من جزيرة العرب » وقد حدد معالمها عليه الصلاة والسلام يوم وصل إلى أقصاها فى تبوك . وقال :

« ها هنا شام وها هنا يمن » والشام خارج جزيرة العرب حسب ما فهمه الفقهاء؛ لأن اليهود الذين أجلوا عن خيبر إنما مضوا إلى الشام فأقاموا فيها .

وإذا كان هذا هو الباب، المفتوح للتوبة والإسلام والأخوة فى الدين فما هو الطريق الثانى الذى يقابله :

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/٧/١٢.

استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن فى الدين إذ هو كافر. والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ، لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه ، وأما الذمي إذا طعن فى الدين أنقض عهده على المشهور من مذهب مالك لقوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم ﴾ فأمر بقتلهم وقتالهم وهو مذهب الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة :

إنه يستتاب ، وإن مجرد الطعن لا يُنقض به العهد إلا مع وجود النكث ، لأن الله تعالى أمر بقتالهم بشرطين أحدهما : نقض العهد ، والثانى طعنهم فى الدين ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ المراد : صناديد قريش فى قول بعض العلماء .. وهذا بعيد فإن الآيات فى سورة براءة حين نزلت وقرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش ، فلم يبق إلا مسلم أو مسالم ، فيحتمل أن يكون المراد ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ أى من أقدم على نكث العهد، والطعن فى الدين يكون أصلاً ورأسًا فى الكفر، فهو من أئمة الكفر على هذا ، ويحتمل أن يعنى به المتقدمين والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتال لأتباعهم وأنهم لا حرمة لهم ﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ أى لا عهود لهم ، أى ليست عهودهم صادقة يوفون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾ أى عن الشرك . . .) [1] .

وما ذهب إليه القرطبى سديد . فحيث كانت (براءة) تنزل ، يُعلنُ بها فى أرجاء مكة والمشاعر ، كانت دعوة حارة إلى أن تكون الحرب على أساس العقيدة منذ اليوم ، ولم تجر بعد (براءة) قرابة سنة أو أكثر شيء من الحروب والمعارك . ولكن كان تطبيق الآية صارخًا بعد الردة لمقاتلة أئمة الكفر العتاة كالأسود العنسى ، وسجاح بنت الحارث، ومسيلمة الكذاب ، الذين ادعوا النبوة ، أو منعوا الزكاة ، أو ارتدوا عن الدين .

وكانت هذه الآيات قد تخمرت فى نفوس المسلمين ، ونبت جيل العقيدة ، واختلطت بأرواحهم وأفئدتهم . فما أن شمرت الفتنة والردة عن ساقيها حتى كان المسلمون المجاهدون على رأسهم الصديق رضي الله عنه يمضون لمقاتلة أئمة الكفر ، وسالت الدماء أنهاراً ، وسقى المسلمون الأرض الذكية بدمهم الطاهر حتى انتهى أئمة الكفر ، فمنهم من قتل ، ومنهم من تاب وارعوى ، ثم انضم بعد إلى الصف الإسلامى ، ودانت الجزيرة بالطاعة والولاء لله ولرسوله .

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

---

(١) مقتطفات من القرطبى ٤/٨/٨١ ـ ٨٥.

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ .

ولا شك أن هذه الآية تأتى للذين يتلقون الوحى من فم على ﷺ ، وتدعوهم إلى القتال لله وحده ، وهم اليوم فى مكة ، لابد أن يعرف هؤلاء الناس ، أن ما كانت عليه قريش هو كفر بواح ولو كانوا سدنة البيت وحراسه ، وأن الذين يطوفون اليوم عراة ، أو يحجون وهم مشركون على دين قريش قد أفل نجمهم ، وأعطوا أربعة أشهر لإنهاء وجودهم فى حرم الله ، ولابد أن تنتزع من قلوب العرب جميعًا الزعامة الدينية لقريش، الذين نكثوا أيمانهم ، وحاربوا حزب الله فى أقدس أرضه فى مكة وهموا بإخراج الرسول « ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه » وهم بدؤوا النقض أول مرة . فقادوا الجيش الذى قوامه ألف مقاتل لينهوا المسلمين عن آخرهم ، فقد انتهى ظلمهم وآبوا إلى الله ، ولا وجود لهم على الساحة بعد أن استسلمت مكة وانقادت لرب العالمين ، فعلام يتمسك الكافرون بكفرهم والمشركون بشركهم ، وكل قيادات قريش قد انضوت تحت راية لا إله إلا الله .

هؤلاء الكفار سابقًا ، وأمثالهم لاحقًا لابد من قتالهم وقد كان آخر عهدهم بالنقض قبيل الفتح .

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

(فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين قيادات أو أفرادًا إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى . حين يرون المسلمين يُنصرون . ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم ، وهذا ما كان فعلاً . وما إسلام عكرمة وصفوان ومالك بن عوف قائد هوازن ، وثقيف بعد كل تمنعها عن الدين إلا نماذج ممن تاب الله عليهم ، ويتوب عليهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات حكيم بقدر نتائج الأعمال والحركات .

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوى قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ ، وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد ، لم يكن يعدها وهى فى مكة ، قلة قليلة مستضعفة مطاردة إلا وعدًا واحدًا هو الجنة ، ولم يكن

يأمرها إلا أمرًا واحدًا هو الصبر .

فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ، وجعل يحرضها عليه ، ويشفى صدورها به ،ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ، ولكن لدينه وكلمته ، وإن هى إلا ستار لقدرته .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة وأن يقف المسلمون إزاءهم صفًا واحدًا ، لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة ، لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، ليتكشف الذين فى قلوبهم خبئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابضهم مع المشركين فى ظل الصلات غير المتميزة أو الواضحة فى المعسكرات المختلفة) [1] .

* * *

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

لقد كان فى المجتمع المسلم ـ كما هو الحال عادة ـ فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار ، وتتقن استخدام الأعذار ، وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابًا للمصلحة ولو على حساب الجماعة مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ، ووجود ثغرات فى المفاصلة بين المعسكرات فإذا وضحت المفاصلة . وأعلنت قطع الطريق على تلك الفئة ، وتشتت المداخل والمسارب للأنظار .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة أن تنتهك الأستار ، وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا من الفريقين على حقيقته وإن كان الله يعلمهم من قبل ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم ،

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٠/ ١٦١٢ .

وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبء ، وتتميز الصفوف ، وتتمحص القلوب ، ولا يكون ذلك إلا بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات) [١] .

ولو سرنا بهذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ... ﴾ قدمًا أقل من سنتين لوجدناها واقعًا حيًا يوم وقعت الردة الخبيثة الرهيبة فى الأرض العربية ، وحين يسيطر الكفر على القبيلة ، وتسيطر الردة فيكون سيد القبيلة أول المتنبئين والمرتدين . فما هو موقف المسلمين الصادقين فى هذه القبيلة ؟

هل ينضمون إلى الردة ويُعذرون لقوة شكيمة الكفار والمشركين فيها ؟ أم أن عليهم أن يجاهدوا ولا يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ لقد جاء الامتحان الصعب لوضع هذه الآية موضع التطبيق ، ولكشف التجاوب معها وتنفيذ مضمونها .

لقد جاءت الأوامر من الخليفة الصديق رضي الله عنه تقول للمسلمين :

(من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابى هذا من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ـ بعد أن أقر بالإسلام وعمل به ـ اغترارًا بالله وجهلاً لأوامره ، واستجابة للشيطان و . . . وإنى قد بعثت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل فإن أجاب وأقر وعمل صالحًا قَبِل منه وأعان عليه ، وإن أبى حاربه عليه حتى يفىء إلى أمر الله ، ثم لا يبغى على أحد منهم قدر عليه . . . ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان .

فإذا أذّن المسلمون فأذنوا وكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قُبِلَ منهم وحملهم على ما ينبغى لهم) [٢] .

وكان الامتحان أعسر وأشد فى الخطاب الذى وجهه النبى ﷺ بعد تنبؤ الأسود العنسى إلى عماله فى اليمن ، ولم يُترَك المسلمون قبل أن يجاهدوا فى سبيل الله ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة . . .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد بن عبد الله النبى ﷺ لمن أسلم

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٠/ ١٦١٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٣٥٦.

من فارس وحمير وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وقتل المشرك وفارقه ، وأعطى الخمس من المغنم ، فإنه آمن نفسه وماله بذمة الله وذمة محمد ﷺ » (١) .

* * *

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

[التوبة]

وليست هذه الآيات إلا الأسباب والمقدمات لأوامر النبى ﷺ :

« ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » .

فهذا البيت هو بيت الله عز وجل الذى أقامه لعبادته وتوحيده منذ أن خلق الخلق، والشرك طارئ عليه توارثه الآباء عن الأجداد ، وامتدت المعركة الضاربة بين الإسلام والشرك عشرين عامًا أو تزيد ، حتى سقط المشركون حماة هذه الوثنية ، وسقطت أصنامهم ، وهوت إلى غير رجعة فلا لات ولا عزى بعد اليوم ، وهذا الحج لم يفرغ رسول الله ﷺ لإجلاء كل المشركين عنه فلم يرض حضوره ، وحضور مشاعر الوثنية فيه، ويبعث إنذاره العام للعرب قاطبة وغيرهم ألا يحج بعد العام مشرك ، فقد انتهى الشرك من أرض التوحيد ، ودانت لله عز وجل ، فلا يعمر مساجد الله الشاهد على نفسه بالكفر ، إنما يعمرها المسلم الصادق الغيور على دينه وإسلامه .

وارتبطت الكعبة ، أول بيت أقيم للناس لعبادة الله ، ومن حولها البيوت التى يذكر فيها اسمه ، ويسبح له بالغدو والآصال ممن آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ومن الآن فصاعداً فلن يذكر فى بيت الله الحرام إله غير الله ، ولن ترتفع فوقها إلا راية لا إله إلا الله .

(١) الوثائق السياسية فى العهد النبوى ص ٣٣٤.

ولن تتوازن الكفتان ، فسقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام دون إيمان بالله ورسوله ، ودون إسلام لله وإقرار له بالربوبية المطلقة ، والرسالة الخاتمة تلغى كل عمل، ولو كان خدمة الحجيج وسقيهم ، وإعمار المسجد الحرام ، وإطعام أهله ، إنها بدون شهادة التوحيد ملغاة محبطة ، وفوقها الخلود فى النار ، وذلك ليعرف من تبقى على حالة الشرك أنه مهترئ ومنتن مع ملته وعقيدته ولن يستوى الإيمان والكفر أبداً .

إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله لابد لهم من تكاليف لمقتضيات هذه العقيدة، ومن مقتضياتها أنهم بعد أن آمنوا وهاجروا وانضموا إلى معسكر المسلمين ودار الإسلام وجاهدوا بعد الهجرة وقدموا الثمن غاليًا من دمائهم وأرواحهم وأموالهم ، ولم يكن الجهاد لدنيا يصيبونها ، أو حمى لجاهلية يثأرون لها ، أو رغبة فى منصب يتسنمونه ، أو طمعًا فى مغنم يتلقونه ، لقد كان جهاداً خالصًا لله وحده لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

والذين قدموا هذا الثمن لمقتضى لا إله إلا الله بعد المفاصلة عن المال والولد ، والعشيرة والوطن ، ولم يعد لهم وطن إلا حيث تقوم شريعة الله ، وحاربوا أهلهم وذويهم فى سبيل الله .

هؤلاء هم الفائزون الذين يستحقون بشارة الله تعالى بالجنات والنعيم المقيم .

وكما أن الفريق الأول حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون .

فالفريق الثانى أثمرت أعمالهم و﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ فقد فازوا برضا الله عز وجل وفازوا برحمته. وفازوا بنعيمه ﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ .

لقد كانت مآثر الجاهلية ومفاخرها التى ذهبت بها قريش عشراً ، وقد وزعت على بطون قريش وكان أعلى هذه المآثر السقاية والرفادة والحجابة . حيث كانت السقاية والرفادة فى بنى هاشم وكانت الحجابة فى بنى عبد الدار وجاء الإسلام وقال على لسان رسوله ﷺ :

« الا إن كل مأثرة أو دم من مآثر الجاهلية تحت قدمى هاتين إلا سقاية الحاج وعمارة البيت » (١) .

وانضمت السقاية إلى بنى هاشم المسلمين حيث كان العباس عم رسول الله ﷺ

---

(١) من حديث رواه أبو داود (٤٥٤٧) وغيره .

يقوم بها فقد أصبحت تنطلق من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وانضمت الحجابة إلى بنى عبد الدار المسلمين ، إلى عثمان بن شيبة بن طلحة ، وانطلقت معه من الإيمان بالله واليوم الآخر فقال عليه الصلاة والسلام :

«خذوها يا بنى طلحة، خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لا ينزعها منكم إلا ظالم» (١). وألقيت بقية المآثر والثارات والدماء تحت قدمى رسول البشرية محمد عليه الصلاة والسلام. لقد أُبلغت هذه المعانى إلى حجيج العام التاسع الذى كان على رأسه الصديق. وكان وزير إعلامه عليًا ﷺ الذى يبلغ (براءة) فى المحافل والمجالس والمنتديات والفساطيط . وكان لا بد مع هذا الإعلان كذلك أن يسمع الناس كما قال عليه الصلاة والسلام لأهل مكة : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » (٢) .

فجاءت آيات (براءة) لتعلن قيام دولة العقيدة ، وسقوط دولة العصبية والحمية والقومية جاءت آيات (براءة) لتعلن أن رابطة العقيدة والدين فوق كل رابطة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ [التوبة] .

لقد نزلت هذه المعانى فى آيات شبيهة عقب بدر فى ذلك المجتمع الإسلامى الصغير الذى كان جيشه لا يربو على ثلاثمائة إلا قليل ، وها هى الآيات تترى هنا فى كل أصقاع الأرض العربية لتعلن انتهاء دولة رابطة القبيلة والعشيرة .

وأحيانًا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وانتهت الولاية على أساس القبيلة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

لتقوم دولة رابطة العقيدة والإيمان فى أرض التوحيد :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ .

ولم تأت هذه الآية لتبت كل الروابط الأخرى من روابط الدم والأهل والوطن والمصالح ، إنما جاءت لتجعل رابطة العقيدة فوق هذه الروابط جميعًا ، ولا يعلو عليها

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/٨٣٨.

راية ، ولا يسمو فوقها رابطة فهى الأحب والأوجب من كل رابطة أخرى .

إن بالإمكان أن تبقى كل تلك الروابط إذا لم تتعارض مع رابطة العقيدة ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله ، وكانت ردفًا لها ، أما إذا تعارضت فتسقط أمام الرابطة العليا .

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة] .

فالجهاد والعقيدة وحب الله ورسوله فوق حب الأب والأم والأخ والزوج ، وفوق مصلحة المال والتجارة ، وفوق حب الوطن ، إنه يحكم هؤلاء جميعًا إذا اقتضت المصلحة ذلك ، وتبقى لهذه الروابط دورها دون أن تعطل الجهاد أو ترتفع فوق قدرها الذى أعطاها الله .

إنها مواصفات هذا الجيل الذى يعد لمواجهة أمم الأرض ، ولدعوة أمم الأرض إلى هذا الدين ، وعليه أن ينطلق بتميزه ومفاصلته وإخلاصه وولائه لله ورسوله . وبيع نفسه وماله لله عز وجل . لا ينطلق بعصبية وحمية الجاهلية واستعلائه القومى ليستعمر الأمم الأخرى . إنه الجيل الربانى النبوى الذى صُنع على عين الله ، ورعاه رسول الله ﷺ حتى أثمر وأينع، فكان معدًا لتغيير الأرض وتحرير الإنسانية، وأثبت بتربيته الجهادية العالية أنه خير جيل، وخير أمة أخرجت للناس ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] فتحقق به موعود الله فى الأرض ، ولن يتحقق هذا الموعود من جديد ، وفى ظلال الحركة الإسلامية اليوم إلا بهذه المواصفات ، وعلى ضوء هذا المنهج ، وعلى آثار ذلك البناء .

(ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض ، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته ، فلا عليه بعدها أن يستمتع بالأبناء وبالإخوة ، وبالزوج والعشيرة ، ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة الله، والطيبات من الرزق ـ من غير سرف ولا مخيلة ـ بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده وهم يذكرون أنه الرزاق المنعم الوهاب) (١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٠/ ١٦١٥، ١٦١٦ .

(وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة ترتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ، ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله، وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد ، لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ؛ لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم . والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ، ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك) (١) .

المقطع الثالث : الآيات (٢٥ ـ ٣٥)

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٠/ ١٦١٥، ١٦١٦ .

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] .

* * *

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾ .

لا نزال مع على رضي الله عنه وهو يقرأ على المسلمين آيات (براءة) وفيهم أفراد كثيرون من المشركين .

والحديث عن حنين ؛ضرورى لأنه مثل نموذجًا من نماذج المواجهة الكبرى بين المشركين والمسلمين فهوازن من أكبر قبائل العرب ، صممت أن تواجه الإسلام ونبى الإسلام ، بعدد يبلغ ثلاثة أضعاف المسلمين ، وماذا كانت نتيجة المواجهة ؟ كانت النتيجة أن أصبحت هوازن غنائم وسبايا للمسلمين والتذكير هنا مهم لهذا الحدث ، بأن من يفكر بمواجهة الإسلام فسيلقى هذه النتيجة مهما كان عدده وعدته ، ولابد أن يسمع المشركون الوافدون من أصقاع الجزيرة بهذا الحدث ، وهم يعرفون من هوازن لينقلوا إلى قبائلهم ما سمعوه ، ومع أن معظم القبائل العربية قد دخلت فى الإسلام فى شمالى الجزيرة . فى السنة التاسعة ، لكن بعضها القليل لا يزال متربص على شركه ، وخاصة بنو حنيفة فى اليمامة ، الذين تأخر وفدهم على رسول الله ﷺ .

فعن مجاهد قال : (هذه أول آية نزلت من براءة يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعُدَدِهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا ، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه) (١) .

وحيث ابتدأت براءة . ببراءة الله تعالى ورسوله من المشركين ، وأعلنت لهم أنهم غير معجزى الله ، وبشرت الذين كفروا بالعذاب الأليم ، فكان من المناسب ذكر حنين التى مثلت صورة جلية عظمى عن نصر الله لعبده ورسوله محمد ﷺ على المشركين

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٣.

رغم جحافلهم الكبرى وجيوشهم الضخمة (وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النصرى ، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بنى هلال وهم قليل ،وناس من بنى عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَعَم وجاؤوا بقضهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح . انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا ، لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادوهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوّه باسمه عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : « إلىَّ عباد الله إلىَّ أنا رسول الله» ، ويقول فى تلك الحال :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه أصحابه قريب من مائة ، ومنهم من قال ثمانون ، فمنهم أبو بكر وعمر ﭫ ، والعباس وعلى،والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم ﭫ ، ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة ـ يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها ـ على ألا يفروا عنه ، فجعل ينادى بهم :

يا أصحاب السَمُرَة،ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة. فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس ، فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى أن الرجع منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره وقال: « اللهم انجز لى ما وعدتنى » ثم رمى القوم بها ، فما بقى منهم إنسان إلا أصابه منها فى عينيه وفى فمه ما يشغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع

بقية الناس إلا والأسرى مجندلة عند رسول الله ﷺ) (١) .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

(أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفى المشركين الذين هم نجس عن المسجد الحرام وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها فى سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبى بكر رضي الله عنهما عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين ألا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا . . . وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ . قال محمد بن إسحاق : وذلك أن الناس قالوا: لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب من المرافق فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إِن شَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أى هذا عوض ما تخوفتم به من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، وقتادة والضحاك وغيرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أى: بما يصلحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ أى : فيما يأمر به وينهى عنه) (٢) .

وقد شرع الله تعالى الجزية لأهل الكتاب ولم يشرعها لمشركى العرب حيث لا يقبل منهم إلا الإسلام، فقاعدة الإسلام لابد أن تبقى خالصة للتوحيد الخالص ، والتى ينطلق منها هذا الدين فى الأرض . ونشير إلى أن القبائل العربية فى شمال الجزيرة كانت قد دخلت كلها فى الإسلام قبيل هذا الإعلان الربانى ، ولم يتم إسلامها خوفًا من السيف. وقبائل اليمن أتت وفودها لتعلن إسلامها فى نهاية العام التاسع وطيلة العام العاشر ، وقبلت الجزية من نصارى نجران ، وقبلت من يهود خيبر ، ولم تكن غزوة تبوك التى سبقت (براءة) إلا حملة وصلت أقصى جزيرة العرب ، ولم يقتل فيها مسلم واحد . بينما تمت مواثيق الصلح على الجزية مع أهل الكتاب جميعًا المجاورين والبعيدين . فقد

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٤٧.

عاهدت دومة الجندل وتيماء وأيلة على الجزية ، وكذلك أهل مقنا وأهل جرباء وأذرح ، ولم يقُد رسول الله ﷺ معركة بعد فتح مكة ، وكل ما نزلت به هذه الآيات وسورة براءة هى منع أفراد المشركين الذين بقوا على شركهم أن يعلنوا شعائرهم فى أرض التوحيد . بينما أخذت التجمعات المجاورة كلها طريقها إلى الإسلام أو الجزية ، وحتى فتح مكة ، والتى صارت قريش كلها بين يدى رسول الله ﷺ ولم تدخل فى دين الله، لم تخير بين الإسلام أو القتل ، إنما قال رسول الله ﷺ لهم : « ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** (٩٢) ﴾ [يوسف] اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأطلق سراحهم دون أن يفرض عليهم الإسلام ، ولكنهم اعتنقوا هذا الدين جميعًا عن طواعية ورضا ، وحضر العديد منهم حنين مشركًا ، ثم أسلموا جميعًا لله بدون استثناء ، وبعد عام أو أكثر نزلت آيات سورة (براءة) . ونستطيع أن نقول مطمئنين : إنه لم يسلم واحد خوفًا من السيف ، لكن لا ننفى أن بقى بعض المشركين على شركهم فى السر ولم يعلنوه ، ومنعوا من ممارسة شعائرهم الجاهلية داخل بيت الله الحرام ، ولم يبق تجمع قبلى من عرب الشمال إلا وأرسل وفده للإسلام قبيل آيات براءة .

* * *

وحتى يتضح كفر أهل الكتاب دون لجلجة وهم الذين كانوا يبرزون فى العهود الأولى للمسلمين أنهم حلفاؤهم ضد المشركين . جاء القرآن ليعلن للدنيا كفرهم الصريح. وعلى لسان على محمدﷺ مبعوث نبى رب العالمين .

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** (٣٠) **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٣١) **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** (٣٢) **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** (٣٣) ﴾ .

لأول مرة يعلن فى جزيرة العرب ، وعلى العرب كافة أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كفار مثل المشركين،حتى تنقل هذه المعلومة إلى أقصى الأرض ، فلا دين حقًا إلا الإسلام الذى جاء ليصحح كل العقائد والأديان التى سبقته ، ودليل كفرهم ابتداءً .

﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وإن ادعوا أنهم يؤمنون بالله ، فادعاؤهم أن عزيراً ابن الله ، والمسيح ابن الله، يخرجهم من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ، فهم يضاهئون قول الذين كفروا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، واتخذوا المسيح ابن مريم ربًا مع الله . فهم كفرة ومشركون بالله .

ولم يكن النصارى واليهود يعتبرون أنفسهم كذلك . فهم أهل الكتاب الذين انتهى عندهم علم الله ، وخزائن أسراره وكلام أنبيائه . ولا يستطيع أحد أن يواجه ادعاءهم هذا الشيء . وجاء النبى الخاتم ، وجاءت الرسالة الخاتمة لتضع الأمور فى نصابها ، وتقرر أن كل من لا يؤمن بـ لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، هو كافر ، مهما كان انتسابه لأية ملة كانت . فالدين عند الله الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران] .

حتى أن النصارى ، وإن لم يجادلوا بألوهية عيسى ، وراحوا يفلسفون أقوالهم بالأب والابن وروح القدس إله واحد آمين ،لم تمض هذه الفرية ، وفضحهم الله تعالى فى كتابه ، لكنهم جادلوا باتخاذ الرهبان والأحبار أربابًا من دون الله .

فهذا عدى بن حاتم أحد سدنة النصرانية فى جزيرة العرب جاء إلى رسول الله ﷺ ليقف على دينه الجديد ، وندع الحديث له فى ذلك :

(فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة. فدخلت عليه وهو فى مسجده، فسلمت عليه فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تعلمه فى حاجتها . قلت فى نفسى ، والله ما هذا بملك . ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلىّ فقال: « اجلس على هذه » . قلت : بل أنت فاجلس عليها . قال : « بل أنت » . فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال: قلت فى نفسى: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: « إيه يا عدى بن حاتم، ألم تكن ركوسيًا ؟ » قال: قلت : بلى . قال : « أو لم تكن تسير فى قومكم بالمرباع ؟ » قلت : بلى . قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » . قال : قلت : أجل والله . قال :

وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل . ثم قال :

« لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم فلا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ،فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخشى إلا الله ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم» فأسلمت) (١) .

وإذا كانت رواية عَدي ﷺ لم تحدثنا إلا عن إسلامه . فهناك رواية أخرى تحدثنا عن لقاء المسجد الأولى الذى سبق البيت مع رسول الله ﷺ . كما يرويه لنا ابن جرير الطبرى : (أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : يا عدى ، اطرح هذا الوثن من عنقك ، فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ فى سورة براءة . فقرأ هذه الآية :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾ قال : قلت : يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدهم . فقال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرَّم الله فتحلونه ؟ » قلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم ») (٢) .

(إن النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك باتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود والذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه . وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادًا ، أو قدموا إليه الشعائر فى العبادة ، فهذه كتلك سواءً فى اعتبار فاعلها مشركًا فى الله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين) (٣) .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ .

إنها حرب بينهم وبين الله ، هم جادون فى وأد هذا الدين ، وإطفاء شعلته ، وخنق نوره ، والله تعالى اقتضت إرادته أن يخرج البشرية من الظلمات إلى النور ، ويعم النور هذه الآفاق ، ويهدى البشرية الضالة التائهة الشرود .

وهذا لا يتم إلا من خلال البشر أنفسهم ، ومن أجل هذا أرسل رسولاً يهدى إلى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٧٨ ـ ٥٨١ . (٢) جامع البيان لتفسير القرآن ٦/ ١٠/ ٨١.

(٣) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٩٤٢ .

الحق بإذنه ، ومضى حواريوه وصحبه معه يجاهدون فى سبيل الله لنشر هذا الدين ، وإبلاغ هذه العقيدة ، وتمكينها فى الأرض . ويريد الإسلام أن يرتفع بآفاق هذه النفوس خارج الأرض العربية ، فالقضية ليست حدود قريش وهوازن . إن المعركة لإطفاء نور الله، هى خارج هذه الأرض العربية . فهناك قيصر والروم من ورائه الذين يغذون عرب الجزيرة ويمدونهم للقضاء على الإسلام ورسول الإسلام . ولابد أن تستقر هذه المعانى فى هذه النفوس جميعًا ، ولدى هذا الجيل الجديد ، والذى اقتضى تجشم على رضي الله عنه مشاق السفر واللحاق بالصديق أمير الجيش ، ليبلغ العرب هذه المعانى ؛ لأن كثيراً من هؤلاء العرب المسلمين رأوا أن الحرب قد انتهت بعد هزيمة هوازن ، وعندما تتضح عالمية المعركة لدى هذا الجيل الذى بدأ يفد إلى الإسلام . سوف يتعبأ نفسيًا ، ويتكيف لهذه المواجهة . وحينما تمتد المعركة لمواجهة الروم بعد العرب ويأتى التأكيد على أن نصر الله قادم فهذه الإرادة الربانية كذلك . وأن كل الحرب العوان من العدو لإطفاء نور الله هى حرب مع الله ـ وهى حرب خاسرة ؛ لأن دين الله لابد أن يظهر على الدين كله .

وهنا تأتى أهمية الدرس الثانى فى إسلام عدى بن حاتم رضي الله عنه وهو فرد من هذا الجيل الجديد الذى رأى سلطان الروم ، وسلطان قيصر . وكيف يقتسم نفوذ الأرض مع ملك الملوك كسرى ، وهو الذى حقق انتصارات ضخمة واسترد الصليب المقدس . لابد أن تتغير المفاهيم عنده . وكيف لا تتغير وهو قد زال سلطانه الذى كان فى قومه على يد الفتى العظيم على بن أبى طالب الذى هو فى الثلاثين من عمره . وهو الآن رسول رسول الله ﷺ إلى العرب كافة يبلغهم تعليمات رسول الله ﷺ لمستقبل الجزيرة ثم لمستقبل البشرية .

يقول عدى رضي الله عنه فى رواية ثالثة :

(قال ـ أى رسول الله : « وإنى أرى أن يمنعك خصاصة تراها ممن حولى ، وأن الناس علينا إلبًا واحدًا . هل تعلم مكان الحيرة ؟ » قال : قد سمعت بها ولم آتها .

قال : « لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار تطوف بالكعبة ، ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح » .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » ثلاث مرات .

«وليوشكن أن يبتغى من يقبل ماله منه فلا يجد» .

قال عدى : فلقد رأيت اثنتين : قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة. وكنت فى الخيل التى أغارت على المدائن. وايم الله لتكونن الثالثة) (١).

إن الصورة التى يراها عدى هى الصورة التى يراها الجيل الإسلامى الجديد كله ، جيل ما بعد الفتح ، والذى جاء على ﷺ خصيصًا لتبليغها له .

وتتجاوز المعركة بين الإسلام والكفر الآماد والآفاق لتستشرف الزمن كله لا زمنًا محددًا ولا بيئة محددة .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة ﷺ فى قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال: الأديان ستة: الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى، والمجوس ، والذين أشركوا .

فالأديان كلها تدخل فى دين الإسلام ، ولا يدخل الإسلام فى شىء منها . فإن الله قضى فيما حكم ، وأنزل أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون) (٢) .

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى : على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى منها » (٣) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن تميم الدارى ﷺ قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزًا ، أو يذل ذليلاً ، عزًا يعز الله به الإسلام ، وذلاً يُذِلُّ الله به الكفر » .

فكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك من أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الصغار والجزية . . .) (٤) .

قال الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام،يعز عزيزاً،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٧٨.

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ١٧٤.

(٣) مسلم وغيره ٤/ ٢٢١٥ (ح ٢٨٨١).

(٤) المسند للإمام أحمد ٥/ ٣٦٦.

ويذل ذليلاً إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم الله فيدينون لها») (١) .

وأقلق عائشة رضي الله عنها أن يتناقص هذا الأمر وهذا التمكين ذات يوم :

فأخرج أحمد ومسلم والحاكم وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقالت عائشة رضي الله عنها :

يا رسول الله ، إني كنت أظن حين أنزل الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أن ذلك سيكون تامًا ؟ فقال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحًا طيبة ، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير، فيبقى من لا خير فيه ، يرجعون إلى دين آبائهم » (٢)) (٣) .

(وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن جابر رضي الله عنه في قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ .

قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام ، حتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد ، والإنسان الحية ، وحتى لا تقرض فأرة جرابًا ، وحتى توضع الجزية ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وذلك إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام) (٤) .

(وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام) (٥) .

المقطع الأخير : الآيات (٣٤ ـ ٤١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٧.
(٢) مسلم (ح ٢٩٠٧) .
(٣) الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١٠/ ١٧٥.
(٤، ٥) الدر المنثور ٤/ ١٠/ ١٧٦.

الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة] .

دعوة إلى الجهاد :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ .

لقد كانت الصورة السابقة عن القسيسين والرهبان أنهم لا يستكبرون ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) ﴾ [المائدة] .

هذه الصورة المشرقة عن القسيسين والرهبان من النصارى الذين هم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، هى صورة صادقة لما كان عليه نصارى الحبشة مع هذا الدين الجديد .

أما الصورة المقابلة وهى الصورة الغالبة لأحبار اليهود ورهبان النصارى بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، وقد تغر مظاهر علمائهم أحبارًا ورهبانًا ، ويتوقف المسلم فى اندفاعه لحربهم بعد ما سمع فى الآيات الأولى عن أتباعهم

والذين شرع حربهم ؛ لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله . فماذا عن هؤلاء الأرباب . ما هو موقفهم ؟ إنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ويمنعون الناس من الإيمان ، ويهيجونهم على حرب أهل الإسلام (أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ ﴾ يعنى: علماء اليهود و﴿ الرُّهْبَانِ ﴾ علماء النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ والباطل: كتب كتبوها لم ينزلها الله تعالى فأكلوا بها الناس وذلك قول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة] .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى رضي الله عنه فى الآية : أما الأحبار فمن اليهود ، وأما الرهبان فمن النصارى ، وأما سبيل الله محمد ﷺ .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾

أخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

لما نزلت هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ... ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا لولده مالاً يبقى بعده ، فقال عمر رضي الله عنه : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر رضي الله عنه واتبعه ثوبان رضي الله عنه فأتى النبى ﷺ فقال :

يا نبى الله ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال :

« إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّبَ بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » فكبَّر عمر رضي الله عنه . ثم قال له النبى ﷺ :

« ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » (١) .

أما هذا العذاب الأليم فهو :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ١٧٨ .

(أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من صاحب كنز ولا فضة لا يؤدى حقها إلا جُعلت له يوم القيامة صفائح ، ثم أحمى عليها فى نار جهنم ثم يكوى بها جبينه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله؛إما إلى الجنة وإما إلى النار »(1) .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يوضع الدينار على الدينار ولا الدرهم على الدرهم ، ولكن يوسع الله جلده ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ »(2) .

* * *

دعوة عامة للقتال :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

(هذا المقطع من السياق استطراد فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة ـ تبوك ـ كان فى رجب من الأشهر الحرم ، ولكن كانت هناك ملابسة واقعة وهى أن رجب فى هذا العام لم يكن فى موعده الحقيقى وذلك بسبب النسىء الذى ورد ذكره فى الآية التالية ـ كما سنبين ـ فقد ورد أن ذى الحجة فى هذا العام لم يكن فى موعده ذلك، وبيان هذه القضية أن الله حرم الأشهر الحرم الأربعة وهى الثلاثة المتوالية: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، والشهر الرابع الفرد رجب . والواضح أن هذا التحريم كان مع فرض الحج فى أشهر معلومات منذ إبراهيم وإسماعيل . . وعلى كثرة ما حرف العرب فى دين إبراهيم . وعلى شدة ما انحرفوا فى جاهليتهم قبل الإسلام. فإنهم بقوا يعظمون الأشهر الحرم هذه لارتباطها بموسم الحج ، الذى كانت تقوم عليه حياة الحجازيين ، وبخاصة سكان مكة ، كيما يكون هناك السلام الشامل فى الجزيرة

(1) وهو عند مسلم (ح ٧٦٢).

(2) الدر المنثور للسيوطى ٤/ ١٠/ ١٧٩.

الذى يسمح بالموسم ، والانتقال إليه والتجارة فيه .

ثم كانت بعد ذلك تعرض حاجات لبعض القبائل العربية تتعارض مع تحريم هذه الأشهر .

وهنا تلعب الأهواء ، ويقوم من يفتى باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره فى عام وتقديمه فى عام آخر ، فتكون عدة الأشهر المحرمة أربعة ، ولكن أعيان هذه الأشهر تتبدل ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ فلما كان هذا العام التاسع ، كان رجب الحقيقى غير رجب . وكان ذو الحجة الحقيقى غير ذى الحجة . كان رجب هو جمادى الآخرة ، وكان ذو الحجة هو ذو القعدة . وكان النفير فى جمادى الآخرة فعلاً وواقعًا ، ولكنه كان فى رجب اسمًا بسبب هذا النسىء ، فجاءت هذه النصوص تبطل النسىء ، وتبين مخالفته ابتداء لدين الله الذى يجعل التحليل والتحريم ـ والتشريع كله ـ حقًا خالصًا لله ، وتجعل مزاولته من البشر ـ بغير ما أنزل الله ـ كفرًا بل زيادة فى الكفر ، ومن ثم تُزيل العقبة التى تحيك فى بعض النفوس من استحلال رجب . وفى الوقت ذاته تقرر أصلاً من أصول العقيدة الأساسية وهى قصر حق التشريع فى الحل والحرمة على الله وحده .

وحقيقة أخرى تقررها هذه النصوص ، تتعلق بما سبق تقريره فى المقطع السابق مباشرة من اعتبار أهل الكتاب مشركين ـ وضمهم فى العداوة والجهاد إلى المشركين ، والأمر بقتال المشركين كافة كما أنهم يقاتلون المسلمين كافة . الأمر الذى يقرره الواقع التاريخى كله كما تقرره من قبل كلمات الله سبحانه . وهى تعبر عن وحدة الهدف تمامًا بين المشركين وأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين مهما يكمن بينهم من عداوات قبل ذلك وثارات واختلافات فى تفصيلات العقيدة كذلك . لا تقدم شيئًا ولا تؤخر فى تجمعهم جميعًا فى وجه الانطلاق الإسلامى ، وفى عملهم مجتمعين لسحق الوجود الإسلامى .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾ . فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله وأن يحلوا ما حرم الله وأن يحرفوا نواميس الله ، فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة . ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل فهو جهاد فى سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ، ويتوجهون إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية فلهم النصر؛ لأن الله معهم ـ ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾

(قال مجاهد رضي الله عنه : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول :

أيها الناس ، إنى لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول . إنا قد حرّمنا المحرّم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول : إنا حرّمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قال: يعنى الأربعة ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ من تأخير هذا الشهر الحرام .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له: القلمس ، وكان فى الجاهلية .

وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده. فلما كان هو قال : اخرجوا بنا . قالوا له : هذا المحرم . قال ننسئه العام.هما العام صفران فإذا كان العام القابل قضينا ، جعلناهما محرّمين . . قال : ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال : لا تغزو فى صفر ، حرموه مع المحرم هما محرّمان .

وهذه كتلك فى إحلال ما حرّم الله ، والمخالفة عن شرع الله ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ ذلك أنه كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ فإذا هم يرون السوء حسنًا، ويرون قبيح الانحراف جمالاً ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال .

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ .

الذين ستروا قلوبهم عن الهدى ، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم . فاستحقوا أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال) (١) .

* * *

وكما رأينا رسالة النبى ﷺ التى بعثها مع ابن عمه على رضي الله عنه ألغت تشريعات

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ تفسير الآيتين ـ الصفحات ١٦٥٠ ـ ١٦٥٤ ، مقتطفات .

قريش كلها فى الحمس، وطواف العراة، ووقوف قريش بالمزدلفة، ها هى تلغى تشريعات كنانة فى النسىء والتلاعب بالأشهر الحرم .

وهناك خيط رفيع يصل بين الرهبان والأحبار ـ الذين اتخذوهم أربابًا من دون الله حين شرَّعوا على أهوائهم فأحلوا ما حرَّم الله ، وحرَّموا ما أحل الله . فكانت تلك عبادة الأتباع لهم ، وبين سادة قريش وسادة كنانة الذين اتخذهم العرب أربابا من دون الله ، حين شرَّعوا لهم على أهوائهم فأحلوا ما حرم الله ، وحرموا ما أحل الله ، فكانت تلك عبادة الأتباع لهم .

وكلا الفريقين يحمل الإسلام الحرب عليهما . ويلغيهما . ويلغى كل تشريع بغير ما أنزل الله . والذين يفعلون ذلك ويريدون فرضه على الناس لابد من قتالهم حتى يرتفع طغيانهم عن عباد الله . كما يقول ربعى رضي الله عنه :

(الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) .

والحبل موصول ومتناسق منذ بداية (براءة) التى تحمل السيف على أرباب أهل الأرض ومشرعيهم بأى زى يتزيون فيه ، أحباراً أو رهبانًا أو زعماء يتعبدون الناس من دون الله ، وعلى المسلمين أن يستعدوا لهذه المواجهة. فرسالة التحرير ليست عربية فقط، إنها رسالة لتحرير الإنسانية كلها من جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة وبغى البغاة .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إن الدعوة إلى النفير انطلقت قبل تبوك ، وتقاعس المنافقين عن الجهاد قد تم فى ذلك الوقت ، وجاءت هذه الآيات الآن لتأخذ موقعها فى النظم القرآنى فى صدر سورة براءة ليعرف العرب والمسلمون فى موسم الحج الأكبر مبررات جهادهم ومنطلقاته .

فلابد من أن يظهر الله الإسلام على الدين كله ، بمن ؟ بهذا الجيل الجديد الذى انطلق فى الأرض بإمرة رسول الله ﷺ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعيد الحياة إلى الوجود . والذين يركنون إلى الدنيا ، ويرضون بمتاعها ويسقطون بجاذبيتها. ليسوا متروكين بلا عقوبة .

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ .

فعذاب الذل فى الأرض ، والهزيمة والصغار والخزى ، وعذاب الآخرة للتخلى عن الزحف ، وللفرار منه . ولو أن الأمة كلها تخلفت عن الجهاد ما ضرت إلا نفسها ، ولأقام الله الإسلام بغيرها . وبجيل غير هذا الجيل وبقوم غير هؤلاء القوم . ومن يشك فى ذلك فليستمع ولينصت إلى الدليل .

ألم تفعل ذلك قريش من قبل . وحاربت رسول الله . كما قال الله تعالى فى الآيات السابقة عنهم .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ [التوبة] .

وبقى رسول الله ﷺ وحده .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] .

وحتى المؤمنين المهاجرين كانوا مستضعفين غير قادرين على نصر رسول الله ﷺ . وقد سبقوه جميعًا إلى المدينة ، وبقى وحده معه رجلان :

الأول : أمير الجيش الآن : أبو بكر الصديق .

والثانى : حامل سورة براءة : على بن أبى طالب .

هذا القرينان تخلف أحدهما فى فراش رسول الله ﷺ بأمر رسول الله. وهو هذا الواقف يتلو براءة . وكان سيد الفدائيين وإمامهم فى التضحية والتعرض للخطر فى سبيل الله .

وهذا ثانيهما تابع المسير معه فى بهيم الليل ينهبان الأرض ليصلا إلى الغار قبل أن تتناشهم السيوف . وعز النصير فى الوجود ، وخلت الأرض كلها من نصير .

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ .

وها هو المشهد كاملاً قد سلطت الأضواء عليه من رب العالمين . فلم يكن وحده . إنما كان معه وزيره ونصيره أبو بكر الصديق ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

العرب الآن كلهم يصغون إلى هذا العرض الربانى الذى يقدمه على ﷺ بلسان رب العالمين عن الهجرة وعن الغار ، وعن الأمير الجالس بجواره فهو أحد شهود العرض، إنه ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

ويسمع العرب فيعرفون من أبى بكر ،والذى يقدمه للناس رب العالمين . على لسان رسوله ورسول رسوله على بن أبى طالب حتى يمضى الحجيج إلى قوافلهم ، وإلى ركبانهم وإلى قبائلهم ، فيحدثونهم عن أنهم قد رأوا ثانى اثنين إذا هما فى الغار ، والله تعالى ذكره فى كتابه ، وعلى ﷺ يتلو على الحجيج هذه المأثرة الخالدة التى أكرم الله تعالى بها الصديق أن يذكر مع سيد ولد آدم فى هذا الوجود . بل ويقدم من المشهد كذلك الحديث الدائر بينهما فى الهمس . والعدو خارج الغار مدجج بالسلاح يوعد ويبرق ويزمجر، يود قتل محمد الذى فر من بين يديه . هذه النجوى بين الحبيبين . ينقلها لنا رب العزة :

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

متى كان ذلك ؟ كان حين قال الصاحب العظيم لرسوله الحبيب :

يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلى خلل قدميه لرآنا .

فيقول الرسول الحبيب ﷺ لصاحبه : « ما قولك فى اثنين الله ثالثهما . لا تحزن إن الله معنا » حين أطبقت الأرض بلا نصير لرسوله . كان الله تعالى هو الناصر . وهو الذى هزم الطغاة والجبارين والعتاة والمدججين بالسلاح . بأضعف خلقه على الإطلاق . بالعنكبوت الذى يعشش على باب الغار ، ويبنى بيته بالسرعة المطلوبة : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) ﴾ [العنكبوت] .

نسج داود ما حمى صاحب الغا ... ر وكان الفخـــــار للعنكبوت

هى تبعث حية من جديد بصورها وظلالها ، يتلوها على ﷺ كأنما هى رأى عين.

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ

هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

فذاك على تحرسه حراب المشركين إلى الفجر ، وكان يمكن أن تقطعه إربًا إربًا من غيظها . وذاك أبو بكر يهمس لصاحبه : لو نظر أحدهم إلى خلل قدميه لرآنا .

وأين هى الآن ؟

هذا أبو بكر الصديق أمير الجيش الإسلامى الذى دانت له أرض العرب يستمع إلى على وهو يتلو ما أنزل الله تعالى برسوله وبه من سورة براءة . وذاك على هو الممثل الشخصى لرسول الله ﷺ ، وأين ؟ فى مكة التى أخرجته . وفى الكعبة العظمى وفى بيت الله العتيق .

أليس عجيبًا أن يكون الصاحبان رفيقى رسول الله ﷺ هما صاحباه الآن، وقد ألقى العرب جميعا قيادهم إليهما ، يستمعون إلى إنهاء الوجود الوثنى فى أرض العرب.

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وتنتهى رسالة رسول لله ﷺ عند هذا المشهد العظيم الخالد . ليكون ختام تلاوة براءة: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

ولابد ونحن نصغى مع المسلمين إلى على رضي الله عنه وهو يتلو الآيات الأربعين من سورة براءة والتى تمثل ذروة المنهج الجهادى التربوى . أن نمضى عودًا على بدء . فنشهد بداية هذا المنهج . حيث نفقه التدرج والحركة المناسبة للواقع القائم كما لخصها ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى كتابه زاد المعاد :

(فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى أن لقى الله عز وجل : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ بنفسه . ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ [المدثر] . فنبأه بقوله: ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق : ١] ، وأرسله بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضعة عشر سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له بالقتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم

يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام :

أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر أن يتم لأهل الصلح والعهد عهدهم، وأن يوفى لهم بما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده .

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها . فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . أو يدخلوا فى الإسلام .

وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان . والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم .

دولـة الإســـلام

دولة الإسلام

كانت الدولة الإسلامية قد عمَّت الجزيرة العربية كلها قبيل حجة الوداع .وكانت اليمن كلها تحت إمرة باذان أمير رسول الله ﷺ .

وفرّق رسول الله ﷺ فى جميع البلاد التى دخلها الإسلام عمالاً على الصدقات، فعن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر قال :

كان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات على كل ما أوطأ الإسلام من البلدان :

١ـ فبعث المهاجر بن أبى أمية بن المغيرة إلى صنعاء. فخرج عليه العنسى وهو بها .

٢ـ وبعث زياد بن لبيد أخا بنى بياضة الأنصارى إلى حضرموت على صدقتها .

٣ـ وبعث عدى بن حاتم على الصدقة ، صدقة طيئ وأسد .

٤ـ وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة (من بنى تميم) .

٥ـ وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين .

٦ـ وفرق صدقة بنى سعد على رجلين منهم (من بنى تميم) .

٧ـ وبعث على بن أبى طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم،ويقدم عليه بجزيتهم .

أمر الدعوة

ولأن الأمور كلها مضت مستقرة مع عمال الصدقات هؤلاء . إلا اليمن التى كانت تعادل أكثر من نصف جزيرة العرب ـ آنذاك ـ فقد كان رسول الله ﷺ يعطى لهما اهتماما خاصا رغم ثقته الكبرى بواليه هناك ، ورغم وفود معظم زعمائها عليه كما سبق وذكرنا من قبل،ولاتساع رقعة اليمن،ولنشر الدعوة فيها. بعث رسول الله ﷺ فى أوائل سنة عشر اثنين من أكبر دعاته وفقهائه .وهما فى عرامة الشباب لينشرا دعوة الإسلام هناك ويقضيا بين الناس فى الإسلام.وهما أبو موسى الأشعرى،ومعاذ بن جبل. وسبق أن تناولنا حياتهما بالتفصيل من قبل . إنما نعرض هنا لتسلسل الأحداث هناك .

أ ـ بعثه ﷺ أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن

روى البخارى من طريق سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى الأشعرى قال:

(أقبلت إلى رسول الله ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى كلاهما يسأل العمل والنبى ﷺ يستاك . فقال : « ما تقول يا أبا موسى» ، فقلت: والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى نفسيهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : فكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفتيه وقد خلصت . قال : « لن يستعمل على عملنا من يريده .ولكن اذهب أنت يا أبا موسى » ،فبعثنى رسول الله ﷺ وبعث معى معاذ بن جبل .فقال رسول الله ﷺ:

« ادعُوا الناس ، وبشرا ولا تنفرا ،ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

هذ هى أساليب الدعوة الكبرى التى كُلف الداعيتان العظيمان بهما.إنها ثلاثة :

١ـ بشرا ولا تنفرا .

٢ـ يسرا ولا تعسرا .

٣ـ لا تختلفا .

وضمن هذا المنهج يجب أن تسير الدعوات جميعاً فى الأرض .

وأهمية عدم اختلافهما هى أن اليمن قسمت بينهما .

يقول أبو بردة بن أبى موسى رضي الله عنهم :

بعث كل منهما إلى مخلافه .واليمن مخلافان .وكانت جهة معاذ العليا. وجهة أبى موسى السفلى، ولمعرفة أبى موسى العريقة باليمن فهو ابنها ومن أعرق قبائلها استفسر رسول الله ﷺ عن أشربة يصنعها أهل اليمن .

قال أبو موسى: يا رسول الله، أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما فى اليمن .قال:التبع وهو من العسل ينبذ ثم يشتد ،والمِزر وهو من الذرة والشعير ينبذ ثم يشتد . قال :وكان رسول الله ﷺ أوتى جوامع الكلم ،قال:

« أنهى عن كل مسكر أسكر عن الصلاة » وفى رواية :« كل مسكر حرام ».

ونتابع حديثنا مع أبى موسى رضي الله عنه .

قال: فقدمنا اليمن وكان لكل واحد منا قبة نزلها على حدة .

قال أبو بردة : فانطلق كل واحد منهما إلى عمله ، وكان كل واحد منهما إذا سار فى أرضه وكان قريباً من صاحبه أحدث عمداً فسلم عليه ، فسار معاذ فى أرضه قريباً من صاحبه أبى موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه فإذا هو جالس وقد اجتمع الناس إليه. وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس، أيْم هذا ؟ قال: هذا يهودى كفر بعد إسلامه، انزل وألقى له وسادة . فقال : لا أنزل حتى يقتل فأمر به فقتل .ثم نزل . فقال : يا عبد الله ،كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقاً (١) قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال: أنام أول الليل .فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم فأقرأ ما كتب الله لى .فاحتسب نومتى كما أحتسب قومتى) (٢) .

وما نفقهه من هذ النص إضاءت أخرى فى طريق الدعوة :

أولاً :إن العمل لله عبادة .لا تشوفا ورغبة .ولهذا قال ﷺ للشابين :«لن يستعمل على عملنا من يريده » .

ومن يكون بهذه الحالة .فهو مؤهل للطغيان والظلم فى حكمه. كما فى النص الآخر :

« إنا لا نعطى هذا الأمر أحداً طلبه أو حرص عليه » .

وهذه تربية من أعنف أنواع التربية، فالرغبة فى الشهرة والتطلع إليها، والرغبة فى الحكم والسلطان كامنة فى الكيان البشرى عندما تترك على حالها .تحول السلطة إلى استبداد وقتل وذبح .وكم رأينا من قتل أباه وأخاه وابنه من أجل السلطة .ومثل هذا النموذج يمثل ذاته لا يمثل شريعة الله .

ثانيا : لا بد من قرب الحاكم من واقع الشعب .والتعرف على كل عاداته التى استحكمت فيه والطرق المناسبة لصلاحها. حيث شهدنا أبا موسى ابن اليمن يتحدث عن الشرابين المستأصلين فى أهل اليمن وما هو حكمهما بالنسبة للحل والحرمة .

ثالثاً: الحاكم المسلم يجب أن يكون عابداً متبتلاً لله ،عارفاً بأمر دينه. والقرآن الكريم يملك عليه حياته فأول ما تراجع الصاحبان فى أمورهما .هو قراءة القرآن، والصلاة فى السحر فيه ،ومراجعته والحياة معه .

رابعاً : تنفيذ حكم الله عز وجل وعدم التلكؤ فيه. فقد رفض معاذ رضي الله عنه على دماثته وسماحته ولينه المعهود فيه رفض أن يجلس قبل تنفيذ حكم الله فى الذى ارتد

---

(١) أتفوقه تفوقاً : لا أقرأ وردى دفعة واحدة ولكن أقرأ شيئاً بعد شىء .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣٥٠ وهو فى البخارى .

عن الإسلام وعاد إلى يهوديته .

بينما نتابع من طرف معاذ رضي الله عنه أساليب فى الدعوة ، تغوص فى الأعماق أكثر من هذه الخطوط العامة ، يحدثنا عنها معاذ رضي الله عنه بقوله :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: « إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب .فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله ،فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم،واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» رواه الشيخان)(١).

إنه فقه التدرج فى الدعوة الذى يغيب كثيراً عن أذهان الدعاة .إضافة إلى فقه الأولويات الذى قد لا يكون قائماً على سلم الدعوة .

« إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى شهادة أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله » .هذه الأولوية الأولى فى دعوة أهل الكتاب ،وبكل أسف نجد العديد من الدعاة يميعون هذه القضية تمييعا كاملاً مع أهل الكتاب،قائلين: لا داعى للحديث عن الوحدانية والتثليث. طالما أنهم يقولون فى نهاية دعوتهم (إله واحد آمين) حتى لا نستثيرهم ولا نستفزهم .وسوف يرفضون منا كل شىء بعد ذلك . لتكن دعوتنا لهما فيما نلتقى فيه معهم من مبادئ ،ونظهر لهم محاسن الإسلام ،ونتألف قلوبهم بذلك دون أن ندخل فى حساسيات من البداية معهم ، تجعلهم يرفضوننا ،ويرفضون كل شىء منا. إننا فى الحقيقة يوم نجعل الدعوة إلى الوحدانية والرسالة فى آخر سلم الأولويات . يعنى أن لا حاجة إلى الإسلام . وفى المسيحية مبادئ المحبة والحرية الفردية والفداء والصلب.أما قضايا التشريع الاقتصادية والسياسية .فبالإمكان أن تعالج فى أروقة البرلمان حيث يكون الحكم والتشريع لممثلى الشعب. إن رسول الله ﷺ يعلمنا أن الأولوية مع أهل الكتاب هى الدعوة إلى التوحيد والرسالة،فالإيمان بهما يقضى على كل أصول المسيحية لإقامة بناء الإسلام على أسس نظيفة راسخة بعيدة عن الدخن والتلوث بالشرك.

« فإن هم أطاعوك بذلك ،فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة . . » .

وإذا لم يؤمنوا بالله الواحد الأحد الذى له الحكم والتشريع والتحليل والتحريم .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٣٥١ .

فكيف يمكن أن يقبلوا أحكام الصلاة المتكررة خمس مرات فى اليوم والليلة . وهى التى ألح موسى عليه الصلاة والسلام يوم المعراج على رسول الله ﷺ بتخفيفها من الخمسين إلى الخمس ،أو إعفاء الأمة منها لما عانى من بنى إسرائيل فى تركها ،والتثاقل منها . وعندها يدخل الداعية بالتفصيل فى أحكام الصلاة . وشروطها ،ومبطلاتها . وفضل صلاة الجماعة ، وغير ذلك مما يتعلق فيها ،بالوضوء والطهارة اللذان يسبقانها .

« فإن هم أطاعوا بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة ،تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » .

وذلك بعد أن يكون الإيمان قد تجذر وترسخ فى القلوب . لقد تخلى كثير من العرب عن الإسلام . وحاربوا دولته بسبب الزكاة . وجاءت وفود منهم تطالب بإعفاء أقوامهم من الزكاة .

وعندما نستعيد ذلك الحديث بين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وعبد بن الجلندى نائب ملك عُمان قلت (أى عمرو): إن أسلم ملَّكه رسول الله ﷺ على قومه . فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل ، قال : يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترو المياه؟ فقلت : نعم . فقال:

والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

ومن أجل هذا أعقب رسول الله ﷺ وصيته الهامة بعد الإعلام بفريضة الزكاة. أن يجتنب النفيس من الإبل والغنم . فهذه هى التى تثير الحرب بين الفريقين . « وإياك وكرائم أموالهم » . حتى لا تتحول القضية من عدل ربانى إلى ظلم بشرى . وحينئذ فالله تعالى ضد الظالمين ولو كانوا مسلمين ،ومع المظلومين ولو كانوا كافرين « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . فأساس الحكم ركيزتان أساسيتان . الأولى : تنفيذ شرع الله، والثانية : إقامة العدل فى الرعية . وبدونهما . فحكم الجاهلية يبغون ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة] .

ب ـ بعث خالد إلى بنى عبد المدان من بنى الحارث بن كعب

خالد رضي الله عنه كانت آخر سراياه فى غزوة تبوك عندما غزا أكيدر بن عبد الملك فى قلب الصحراء العربية وانتزعه من حصنه فى دومة الجندل، وجاء به أسيراً إلى رسول الله ﷺ . فقد أصبحت عنده خبرة فى التعامل مع الخصوم فى قلاعهم . وكما كانت مهمته

فى غزوة أكيدر عسكرية سياسية؛ إذ كانت التوجيهات النبوية لخالد رضي الله عنه على أن يأتى به أسيراً إلى تبوك .فقد كانت هذه المهمة اليوم دعوية بحتة . وكانت فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر.

(قالوا : بعثه رسول الله ﷺ إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام فإن استجابوا فاقبل منهم ،وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم . فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ويقولون: يا أيها الناس أسلموا تسلموا .فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه .فأقام فيهم خالد يعلمهم شرائع الإسلام ، وكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ) .

وذكر الكتابين المتبادلين بين خالد رضي الله عنه ،ونبيه محمد ﷺ عن المهمة ونتائجها وآثارها يغنى عن ذكر أى تعليق بعدها .

(ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، يا رسول الله صلى الله عليك .فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب، وأمرتنى إذا أتيتهم إلا أقاتلهم ثلاثة أيام .وأن أدعوهم إلى الإسلام . فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه . وإن لم يسلموا قاتلتهم .وإنى قدمت عليهم ، فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ ، وبعثت فيهم ركباناً ينادون : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا ،وإنى مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به.وأنهاهم عما نهوا عنه . وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبى ﷺ ،حتى يكتب إلىَّ رسول الله ﷺ . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك .فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .أما بعد . فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا ،وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله قبل أن تقاتلهم . وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام .وأن

قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم. وأقبل ، وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك، ورحمة الله وبركاته ») (١) .

جـ ـ بعث خالد إلى همذان ، ثم على رضي الله عنهما

وأمام نجاح هذه المهمة . يظهر أن رسول الله ﷺ عاد فوجهه إلى همدان .

وفى بعثه ﷺ خالد بن الوليد إلى همدان ، ثم بعثه علياً رضي الله عنهما . روى البيهقى فى السنن والدلائل والمعرفة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد . فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم تجيبوا . ثم إن النبى ﷺ بعث على ابن أبى طالب مكان خالد وأمره أن يُقفل خالداً وقال:

« مر أصحاب خالد بن من شاء منهم أن يعقِّب معك فليعقب ، ومن شاء فليقبل» .

قال البراء: فكنت فيمن عقب مع على، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا . فصلى بنا على، ثم صفنا صفا واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال: «السلام على همدان » مرتين رواه البخارى مختصراً (٢).

د ـ فى سرية على بن أبى طالب إلى اليمن مرة ثانية

قال محمد بن عمر ، ومحمد بن سعد رحمهما الله تعالى:

بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب عليه السلام فى رمضان سنة عشر . فأمره رسول الله ﷺ أن يعسكر بقباء . فعسكر بها حتى تتام أصحابه . فعقد له رسول الله ﷺ لواء وأخذ عمامته فلفها مثنية مربعة فجعلها فى رأس الرمح وقال : « هكذا اللواء » . وعممه عمامة ثلاثة أكوار ـ وجعل ذراعاً بين يديه وشبراً من ورائه ثم قال : «هكذا العمة» .

قال: فحدثنى أسامة بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى رافع قال:

لما وجهه رسول الله ﷺ قال:

« امض ولا تلتفت » فقال علىٌ عليه السلام : يا رسول الله، كيف أصنع ؟

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٨ .

قال: « إذا نزلت بساحتهم ، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً . فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم ، تلوَّمهم تُرِهم أناة، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا: لا إله إلا الله ؟ فإن قالوا: نعم . فقل لهم: هل لكم إلى أن تصلوا ؟ فإن قالوا :نعم ،فقل: هل لكم إلى أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم ؟ فإن قالوا : نعم . فلا تبغ منهم غير ذلك .والله لئن يهدى الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت» .

وواضح تماماً أن الهدف الرئيسى لهذه البعثات الثلاث هو الدعوة إلى الله عز وجل فالأوامر صارمة بعدم اللجوء إلى القتال ما لم يقاتلهم العدو .وحتى حين يقاتلهم. فلا يقاتلوا حتى يقتلوا رجلاً من المسلمين . وإن قتلوا رجلاً من المسلمين فلا بد من وعظهم وتذكيرهم قبل الشروع فى قتالهم ،ورأينا خالداً رضي الله عنه قد استمر ستة أشهر يدعو إلى الله عز وجل دون أن يشرع فى قتال .وجاء على رضي الله عنه وتابع الدعوة .

وفى اختيار رسول الله ﷺ مذحج ، وبعث هؤلاء الفوارس الثلاثمائة. لتقديره ﷺ عن القوة والامتناع عندهم ،فقيس بن مكشوح أحد زعمائهم لم يسلم إلا بعد وفاة النبى ﷺ ،وعمرو بن معد يكرب فارس العرب . أسلم على دخن .فقد ولّى رسول الله ﷺ فروة بن مسيك المرادى على قومه زبيد ـ وغيرهم ـ ولم يوله هو كما ورد :(واستعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك على مراد وزبيد ومذحج كلها . . .) ومن أجل ذلك سرعان ما ارتد عن الإسلام حين سنح له الأمر وهاجم فروة بقوله:

رأينا ملك فروة شر ملك   حماراً ساف منخره بثغر

ونرى فى قول رسول الله ﷺ : «لأن يهدى الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس » مدى العظمة النبوية فى التربية . إذ يريد للمقاتل أن يكون مشعل هداية قبل أن يكون قاتلاً للعدو .يريد للداعية أن يكون هدفه الأساسى هو حياة العدو لا قتله؛حياته بالإسلام قبل قتله بالحسام . وهداية رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس ،وما غربت خير من الدنيا وما فيها .وليس كذلك أجر قاتل العدو .

لقد تحرك المسلمون فى الأرض بهذا الهدى فى مكان. وكانت اليمن ذات اهتمام كبير من النبى ﷺ فبعث القادة الكبار عنده هداة لا قتلة . كما بعث معهم منهج الدعوة كذلك. فى أن يقر العدو ابتداء بالشهادتين ،وإذا أقروا بها ، فالإقرار بالصلوات فإن تم قبولها. فالإقرار بالزكاة. فإن قبلوا فلا سلطان للمسلمين عليهم .وذلك تنفيذاً لقوله ﷺ:

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله تعالى».

وقد كان تطبيق هذا الحديث فى جزيرة العرب مع المشركين ؛أما مع أهل الكتاب فقد كانت الجزية هى الحل الثالث المقبول منهم ،كما فعل ﷺ مع نصارى نجران حين أقرهم على الجزية .

وبعد هذه الجولة . نعود إلى الجيش الدعوى الذى قاده على رضي الله عنه .

(فخرج فى ثلثمائة فارس. فكانت خيلهم أول خيل دخلت تلك البلاد. فلما انتهى إلى أدنى الناحية التى يريد - وهى أرض مذحج - فرّق أصحابه .فأتوا بنهب وغنائم وسبى ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك ،فجعل علىٌ على الغنائم بريدة بن الحصيب الأسلمى. فجمع إليه ما أصابوا قبل أن يلقاهم جمعا .ثم لقى جمعهم ، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ،ورموا أصحابه بالنبل والحجارة . فلما رأى أنهم لا يريدون إلا القتال صف أصحابه، ودفع اللواء إلى مسعود بن سنان السلمى . فتقدم به . فبرز رجل من مذحج يدعو إلى البراز .فبرز إليه الأسود بن خزاعى . فقتله الأسود ،وأخذ سلبه،ثم حمل عليهم علىٌ وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرقوا وانهزموا ،وتركوا لواءهم قائماً ،وكف علىٌ عن طلبهم ثم دعاهم إلى الإسلام فسارعوا وأجابوا . . .)(١).

هـ - بعث خالد بن سعيد بن العاص

وتطالعنا رواية أخرى ،تفيد أن هذا اللقاء قد تم حين اجتمع على رضي الله عنه بجيشه، وخالد بن سعيد بجيشه فى أرض مذحج :

وذكر أبو عمرو من طريق ابن عبد الحكم قال: حدثنا الشافعى قال: وجَّه رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وخالد بن سعيد بن العاص إلى اليمن وقال:«إذا اجتمعتما فعلىٌ الأمير . وإذا افترقتما فكل واحد منكما أمير »فاجتمعا ،وبلغ عمرو بن معد يكرب مكانهما .فأقبل فى جماعة من قومه فلما دنا منهما قال:

دعونى حتى آتى هؤلاء القوم .فإنى لم أُسَمَّ لأحد قط إلا هابنى .فلما دنا منهما نادى: أنا أبو ثور . أنا عمرو بن معد يكرب .

فابتدره على وخالد رضي الله عنهما ، وكلاهما يقول لصاحبه : خلنى وإياه،ويفديه بأبيه

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣٦٢ - ٣٦٣ ، والمغازى للواقدى ٣/ ١٠٧٩ ، ١٠٨٠

وأمه فقال عمرو ـ إذ سمع قولهما ـ العرب تفزع بى وأرانى لهؤلاء جزرة فانصرف عمرو عنهما . وكان فارس العرب ـ مشهوراً بالشجاعة) (١) .

وعودة إلى تتمة الحديث السابق:

وتقدم نفر من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا. وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله تعالى:

وأقام فيهم يقرئهم القرآن ويعلمهم الشرائع ، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً مع عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ـ بخبره الخبر أنه لقى جمعاً من زبيد وغيرهم ، وأنه دعاهم إلى الإسلام وأعلمهم إنهم إن أسلموا كفَّ عنهم . فأبوا ذلك وقاتلهم . قال على عليه السلام : فرزقنى الله الظفر عليهم حتى قتل منهم من قُتل . ثم أجابوا إلى ما كان عرض عليهم . فدخلوا فى الإسلام ، وأطاعوا بالصدقة وأتى بشر منهم للدين ، وعلمهم قراءة القرآن . فأمره رسول الله ﷺ يوافيه فى الموسم فانصرف عبد الله بن عمرو بن عوف إلى على عليه السلام بذلك (٢).

و ـ لقاء مع الحبر كعب الأحبار

ومن قضايا الدعوة ما حدثنا به يونس بن ميسرة عن خطبة من خطب على رضي الله عنه شهدها كعب قبل إسلامه قال: ولما قدم على بن أبى طالب اليمن خطب به وبلغ كعب الأحبار قيامه بخطبته ، فأقبل على راحلته فى حُلَّةٍ معه حبر من أحبار اليهود . حتى استمعا له فوافقاه وهو يقول:

إن من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار . فقال كعب : صدق ، فقال على: وفيهم لا يبصر بالليل ولايبصر بالنهار . فقال كعب: صدق . فقال على عليه السلام : ومن يعطِ باليد القصيرة يُعط باليد الطويلة . فقال كعب : صدق . فقال الحبر : وكيف تصدقه ، فقال:

أما قوله: من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، فهو المؤمن بالكتاب الأول . ولا يؤمن بالكتاب الآخر . وأما قوله : منهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار . فهو الذى لا يؤمن بالكتاب الأول ولا الآخر . وأما قوله: من يُعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة . فهو ما يقبل الله من الصدقات . قال: وهو مثل رأيتُه بيِّن .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٥٩٠ .

(٢) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٨١ ، ١٠٨٢.

قالوا : وجاء كعباً سائل فأعطاه حُلَّتهُ ، ومضى الحبر مغضبا ، ومثلت بين يدى كعب امرأة تقول: من يبادل راحلة براحلته؟ فقال كعب: وزيادة حلة ؟ قالت: نعم. فأخذ كعب وأعطى. وركب الراحلة ولبس الحلة وأسرع السير حتى لحق الحبر وهو يقول: من يُعط باليد القصيرة ـ يُعطَ باليد الطويلة) .

قال : فحدثنى إسحاق بن عبد الله بن بسطاس عن عمرو بن عبد الله العبسى قال: قال كعب الأحبار : لما قدم على عليه السلام اليمن ، لقيته فقال : أخبرنى عن صفة محمد ؟ فجعل يخبرنى عنه ، وجعلت أبتسم . فقال: مم تتبسّم؟ قلت: مما يوافق ما عندنا من صفته . قال: ما يُحِلُّ وما يحرِّمُ . فقلت: فهو عندنا كما وصفت. وصدَّقتُ برسول الله ﷺ ،وآمنت به. ودعوت من قبلنا من أحبارنا ،وأخرجت إليهم سِفراً فقلت:

هذا كان أبى يختمه علىَّ ويقول : لا تفتحه حتى تسمع بنبى يخرج بيثرب.

قال: فأقمت باليمن على إسلامى حتى توفى رسول الله ﷺ ،وتوفى أبو بكر رضي الله عنه . فقدمت فى خلافة عمر بن الخطاب،ويا ليت أنى كنت تقدمت فى الهجرة [1].

* * *

وإذا كان على رضي الله عنه قد وافى رسول الله ﷺ الموسم فى حجة الوداع ،فخالد بن سعيد رضي الله عنه مكث فى اليمن بأمر رسول الله ﷺ . فقد كان بجوار فروة بن مسيك المرادى كما عند الصالحى :

(واستعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك المرادى على مراد وزُبيد ومذحج كلها[2] وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله ﷺ) [3] .

وروى محمد بن عثمان بن أبى شيبة من طرق قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص إلى اليمن وقال له: إن مررت بقرية فلم تسمع آذاناً فاسبهم. فمر ببنى زبيد،فلم يسمع أذاناً فسباهم. فأتاه عمرو بن معد يكرب. فكلَّم فيهم،فوهبهم له. فوهب له عمرو سيفه الصمصامة فتسلمه خالد .ومدح عمر وخالداً فى أبيات له)[4] .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣ .

(٢) زبيد ومراد والأشعريون كلهم من فروع مذحج .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٦٠٣ .

(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٧٤ .

وهذا يعنى أن اليمن قد دانت كلها للإسلام .ولا يزال واليها باذام والى رسول الله ﷺ وكل هذه الوفود تأتى لدعوة الأمة إلى الإسلام ،وتفقيهها به .وأخذ الصدقات من الأغنياء لترد على الفقراء . وتعليم الناس أحكام دينهم .إلى أن الزلزال الأكبر بعد حجة الوداع .والذى قلب الأوضاع فى اليمن رأساً على عقب .

حجة الوداع

حجة الوداع

أولاً: الإعلام العام بالحجة

قال ابن سعد : قالوا : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين . يضحى كل عام، ولا يحلق ولا يقصر ـ ويغزو المغازى ـ ولا يحج حتى كان فى ذى القعدة سنة عشر ـ أجمع الخروج إلى الحج ـ أذّن فى الناس أنه حاج فى هذه السنة . فسمع بذلك من حول المدينة . فلم يبق أحد يريد ـ وفى لفظ ـ يقدر أن يأتى راكباً أو راجلاً إلا قدم ـ فقدم المدينة بشر كثير ـ ووافاه فى الطريق خلائق لا يحصون . وكانوا من بين يديه ومن خلفه .وعن يمينه وعن شماله مد البصر ،كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .وأصاب الناس جدرى أو حصبة منعت من شاء الله أن يمنع من الحج فأعلم رسول الله ﷺ أن عمرة فى رمضان تعدل حجة معه .والصواب أن هذا الإعلام كان بعد رجوعه ﷺ وهو كما قال.

* * *

لقد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن أقام مع إسماعيل عليه الصلاة والسلام قواعد البيت أن يؤذن الناس بالحج .وكان هذا قبل حوالى عشرين قرناً من الزمان أو تزيد من الدعوة النبوية .وحدثنا رب العزة جل جلاله عنها فقال:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة] .

لقد كان خليل الله إبراهيم مشغولاً بذريته بعد الحرمان الطويل منها .وها هو هنا عنده إسماعيل عليه الصلاة والسلام وفى فلسطين أخوه إسحاق،وعندما اختاره الله للناس إماماً سرعان ما سأل ربه عز وجل عن ذريته: **﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾**[البقرة].

فإذن سيكون من ذريته ظالمون ومنحرفون عن الحق. فضرع إلى ربه قائلاً أن يجعل من ذريته وذرية ابنه إسماعيل أمة مسلمة .ولم يكتف إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الدعاء . لقد استشرف المستقبل وحدّ فى الأفق البعيد البعيد ،وامتد بصره إلى الأحقاب

والأزمان القادمة . فخص بعد التعميم ، بعد أن رجا ربه الأمة المسلمة من ذريته بالرسول الخاتم من هذه الذرية : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ ، وكان رسول الله ﷺ دعوة أبيه إبراهيم وبشارة أخيه عيسى عليه الصلاة والسلام. فالخط موصول من لدن نوح وإبراهيم إلى ذرية إسماعيل الذى جاءته الأوامر أن يبقى بجوار البيت العتيق ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) [إبراهيم].

وكما أمر الله تعالى نبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يطهر بيته لعبادته:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج] فقد أمر الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ بتطهير البيت من الوثنية والشرك. وبوأه مكان البيت حين فتح مكة وحطم أصنامها الثلاثمائة المزروعة حول البيت . كما ألغى كل مظاهر الوثنية والشرك من تحريم « ألا يحج بعد العام مشرك ،ولا يطوف بالبيت عريان » . فقد كان حج هذا العام مطهراً من كل شرك وكل وثنية . ومؤهلاً لاستقبال الطائفين والقائمين والركع السجود .

وكما أمر الله تعالى نبيه إبراهيم بعد تبوئه مكان البيت وتطهيره للعابدين الطائفين أمره أن يؤذن الناس بالحج ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] ،أمر نبيه المصطفى ﷺ بعد أن طهر بيته من أدران الشرك وأرجاس الوثنية أن يؤذن فى الناس بالحج وأنه سيكون عليه الصلاة والسلام هو أمير الحج هذا العام ،فجاءته العرب من كل فج رجالاً وعلى كل ضامر فلم يبق أحد يريد وفى لفظ يقدر أن يأتى راجلاً أو راكباً إلا قدم .فقدم المدينة بشر كثير لينطلقوا معه فى رحلة الحج الخالدة من أول خطوة ، ويتعلموا منه مناسك الحج - ويفقهوا منه أمور دينهم (ووافاه فى الطريق خلائق لا يحصون) انضموا إلى الركب الميمون ليمتعوا ناظريهم برسول الله ﷺ ، ولتكتب لهم صحبته التى قد لا تتكرر .

وكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر .

لم تشهد الجزيرة العربية هذا المشهد منذ أن كانت جزيرة . فربما شهدت جيوشاً جرارة .أما ركباً ماضياً إلى الحج بهذا العدد بهذه الكثافة فلا .فهو عرس الكعبة

اليوم،وعرس جزيرة العرب. ويكفى أن يكون قائد الركب محمد ﷺ .ولماذا قدموا؟

قدموا (كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله) .

ومع هذا فهؤلاء طلائع الركب المسلم ،فلم يكونوا المسلمين جميعاً (وأصاب الناس جدرى أو حصبة منعت من شاء الله أن تمنع من الحج) ولعل القاعدين أكثر من الماضين فى الحج نتيجة المرض وصعوبة الالتحاق بالركب .فلم ينسهم رسول الله ﷺ وقال لهم:« عمرة فى رمضان تعدل حجة معى » .

لقد كانت أمة يونس عليه الصلاة والسلام : مائة ألف أو يزيدون .﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] .ويوم جاء ذكر يونس فى مكة والطائف، كان رسول الله ﷺ يقذف بالحجارة ويطرد من الطائف وتُدمى عقباه ﷺ .حين جاءه خادم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؛ عداس بقطف من عنب عطفتهم عليه الرحم .أما اليوم فالطائف ومكة واليمن واليمامة ونجد وأرض العرب كلها خلفه . نعم ، شهدت جزيرة العرب عشرات الألوف من قبيلة واحدة تواجه قبيلة أخرى أو قبائل أخرى . أما أن تكون القبائل جميعاً قد بعثت وفودها وممثليها ليصحبوا محمدا ويتلقوا منه ويأتموا به ، ثم يعودوا إلى أقوامهم وقبائلهم بما رأوا ، وبما سمعوا ، ويصبحون أصحاب محمد ﷺ بهذه الرفقة الميمونة . فهذا لم يكن قبل اليوم أبدا .

لقد صدق إبليس ـ وهو كذوب ـ حين حضر محادثات الندوة بصفة شيخ نجدى . واحتج على فكرة نفى محمد ﷺ من مكة ،ووقع الذى خافه حين قال للمؤتمرين فى الندوة :

والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه ،وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به . والله لو فعلتم ذلك (واخرجتموه) ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا (١) .

ووقع ما كان يخشاه إبليس وحزبه. وجاء بعشرة آلاف مقاتل قبل سنتين .ففتح بهم مكة التى استسلمت قبل المواجهة ،وقال قائدها أبو سفيان :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٥٩ .

لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ،ومن دخل المسجد فهو آمن .

عشرة آلاف لا قبل لمكة بهم ، فكيف بعشرة أضعافهم جاؤوا مهلين بالحج تحت راية محمد ﷺ ؟ فمن يقوم أمامهم ؟ لقد صدوهم عن المسجد الحرام حين كانوا ألفاً وخمسمائة .أما اليوم فهم قرابة مائة ضعف .إنهم مائة وثلاثون ألفًا . إنهم مد البصر لا يرى أولهم من آخرهم .

وأخيرا فها هو رسول الله ﷺ يمضى بخيرة أهل الأرض وهو خير أهل الأرض إلى خيرة الله تعالى من أرضه وأحبها إليه ؛إلى البيت العتيق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير .

ثانياً: ذكر خروجه ﷺ من المدينة

استعمل رسول الله ﷺ لما أراد الخروج على المدينة أبا دجانة سماك بن خرشة الساعدى ،ويقال :سباع بن عرفطة الغفارى ذكره ابن هشام، والله تعالى أعلم .

وصلى رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة أربعاً ،وخطب الناس وعلمهم ما أمامهم من المناسك ،ثم ترجَّل وادهن بزيت ،قلت: اغتسل قبل ذلك ،وتجرد فى ثوبين صحاريين؛ إزار ورداء كما ذكره محمد بن سعد ،زاد محمد بن عمر الأسلمى : وأبدلهما بالتنعيم بثوبين من جنسهما، والله تعالى أعلم ،ولبس إزاره ورداءه .قلت[1]: وركب .(كما قال أنس على رحل) وكانت زاملته .وقال أيضاً : حج رسول الله ﷺ على رحل رثٍ ، وقطيفة خلِقة تستوى أربعة دراهم ولا تستوى ثم قال:

« اللهم اجعله حجًا مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة »رواه البخارى تعليقاً وابن ماجه والترمذى فى الشمائل، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذى القعدة،وصوّبا[2] أن كان خروجه يوم السبت.وخرج رسول الله ﷺ على طريق الشجرة [3]،وكان يخرج منها وصلى فى مسجدها ،رواه البخارى عن ابن عمر[4].

نحرص على أن نرافق رسول الله ﷺ خطوة بخطوة فيما نقله لنا الرواة عنه ، فخليفته وأميره على المدينة سماك بن خرشة أبو دجانة الفارس المشهور الذى أعطاه رسول الله ﷺ سيفه يوم أحد على أن يقاتل به العدو حتى ينحنى ، وسباع بن عرفطة، ذكر أنه تولى المدينة مراراً عدة فى غزاة خيبر وغزاة دومة الجندل .وما هو دور الأمير ؟ وتكاد المدينة أن تكون خلت من سكانها رجالاً ونساءً إلا الذين حبسهم العذر. إنه يؤم الناس ، ويستقبل القادمون ،ويلحقهم برسول الله ﷺ ويحمى المدينة ويحرسها من العدو ،يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه عن سباع بن عرفطة وإمارته على المدينة فى غزوة خيبر فيقول:

لما خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى،

---

(١) أى الصالحى .   (٢) صوبا : أى ابن كثير وابن القيم .

(٣) الشجرة : مكان معروف على ستة أميال من المدينة .

(٤) فتح البارى ٣/ ٣٩١ . وانظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦١٦ .

فقدمنا فشهدنا معه صلاة الصبح فقرأ فى أول ركعة : كهيعص وفى الثانية بـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ،فقلت فى نفسى : ويل لفلان له مكيالان يستوفى بواحد ويبخس بآخر . فأتينا سباع بن عرفطة .فجهزنا فأتينا رسول قبل الفتح بيوم أو بعده بيوم) (١) .

ها نحن الآن فى يوم الخامس والعشرين من ذى العقدة .وفى المدينة المنورة ، وفى رحاب المسجد النبوى ندلف مع الناس لصلاة الظهر فى تجمع وجمهرة من الناس لم يتسع لها المسجد . يكاد الناس يركب بعضهم بعضا،وكثيرون منهم يزاحم لعله يصل إلى الصفوف الأولى ليرى رسول الله ﷺ .حيث لم يكن رآه من قبل.وليسمع إلى خطبته وتعليماته عليه الصلاة والسلام ،وخرج رسول الله ﷺ من بيته مدخل المسجد وصلى الظهر أربعاً (وخطب الناس وعلمهم ما أمامهم من المناسك) وكأن الناس على رؤوسهم الطير .وأكثرهم يرى أنه حقق حلم عمره. فقد رأى رسول الله ﷺ ،وسمع صوته وأصاخ إلى خطبته .والأسعد من هذا كله أنه سوف يرافقه فى رحلة الحج هذه والجميع يؤكدون أن الخروج سيكون الساعة . وتبدأ رحلة العمر التى قطع الفيافى والقفار من كل فج عميق ليشارك فى هذه الرحلة من بدايتها ولحظاتها الأولى. وها هو التليفزيون الرسمى ينقل لنا على الهواء .حيث لم نستطع نحن أن نرى شيئاً ؛ اللحظات الأولى من الرحلة يصف لنا خروج رسول الله ﷺ من بيته . بعد أن (اغتسل ،ثم ترجل وادهن بزيت) .

وها هو رسول الله ﷺ بثياب الحج.فقد اغتسل ابتداءًا استعداداً للرحلة الطويلة. وسرّح شعره وادهنه بزيت .وكثيرون يرون شعر الرسول ﷺ لأول مرة .

(وتجرد وفى ثوبين صحاريين إزار ورداء)وها هو جسده الشريف يظهر منه ومضات كأنها برق خاطف إنها التربية الأولى ابتداءً .على النظافة فالإزار والرداء عاديان من حيث قيمتهما المادية .فهما من نسج صحار وكثير ممن هو مع المسلمين عنده مثلهما.لكنها التربية العملية على النظافة فى ترجيل الشعر ،وفى ادهانه بزيت ليبدو جماله.وفى نظافة الإزار والرداء .هذا كله تعلمه المسلمون منذ اللحظات الأولى وبدون أية كلمة .إنما المظهر الشخصى .أمام هذا الجمال، والمظهر الآسر طبع فى كل قلب بهجة هذا المنظر ، وهذا يستطيعه الغنى والفقير .فكل مسلم يمكن أن يشترى مثل هذا الرداء والإزار ويمكن أن يرجل شعره ويدهنه بزيت .

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢/٢٥٨ .

(الناس ينظرون إليه وقد أكبروا رسول الله ﷺ وفتنوا برؤيته . وها هو يركب على راحلته على ناقته القصواء (وركب على راحلته وكانت زاملته) .

ومع أنه سيد الركب ،وسيد الخلق .فهو فرد من المسلمين يحتاج إلى زاده فى هذا السفر حيث وضعه على ظهر رحله .وما من مسافر لا يأخذ معه زاد الطريق .لم تكن لتعد له السرادقات ولتقام له حفلات الفطور والعشاء .فهو فرد من عشرات الألوف الذين معه .فزاملته بها زاده قد حمّلها على ظهر ناقته .

وهذا هو الدرس الثانى فى التربية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف : ١١٠] إنه سيد ولد آدم وفرد عادى فى غمار الناس ؛ولولا النبوة لما استلفت نظر أحد .فلباسه كلباسهم . لكنه أجملهم وأكملهم .وها هو ترافقه زاملته وطعامه مثل كل الناس .

حج رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة خَلَقَةٍ تساوى أربعة دراهم .

لا بد لنا أن نصف خروج بعض الزعماء العرب الذين دان لهم الملك أو كانوا من أسر ملكية . لنعلم عظمة العبد النبى ﷺ .

فهذا وفد نصارى نجران (حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ، ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة،وتختموا بالذهب ،وفى لفظ : دخلوا على رسول الله ﷺ فى مسجده بالمدينة حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات ؛ جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب) (١).

وذاك وائل بن حجر رضي الله عنه من أبناء الملوك من حضر موت ،وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ لإسلامه . نشهد نفسيته قبل أن يتعمق الإيمان فى قلبه :

وأمر رسول الله ﷺ معاوية بن أبى سفيان أن ينزله منزلاً بالحرة .فمشى معه ووائل راكبا .فقال له معاوية: أردفنى خلفك ـ وشكا إليه حر الرمضاء ـ قال: لست من أرداف الملوك ، قال : فألق إلىَّ نعليك ، قال : لا ، لم أكن لألبسهما وقد لبستهما ، قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمى ،قال:امش فى ظل ناقتى ـ كفاك به شرفا (٢).(وفى رواية: قال معاوية : فأعطنى نعليك أتوقى بهما من الحر قال: لا يبلغ أهل اليمن أن سوقَة لبس نعل ملك.ولكن إن شئت قصرتُ عليك ناقتى فسرت فى ظلها، قال معاوية:فأتيت النبى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٨٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ٦/ ٦٦٦ .

ﷺ فأنبأته بقوله ، فقال: « إن فيه لعُبيةً من عُبيَّة الجاهلية »)(١).

كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يخرج على الناس بأبهى زينة - حتى تهابه العرب . ثم يلبس ثياب الإحرام من ذى الحليفة . فقد جاء إلى المدينة أضعاف من فيها ليروا رسول الله ﷺ وينطلقوا معه . فلا أقل من هذه الأميال الأولى بين المدينة وذى الحليفة يشهده الناس بلباس عظيم ، وزينة كبيرة .فيهابونه ،لكن رسول الله ﷺ إنما هو عبد يأكل كما يأكل العبد ،ويلبس كما يلبس العبد ،وعندما ما خيره ربه أن يكون عبداً نبياً أو ملكا نبيا .اختار أن يكون عبداً نبياً .

وظاهر الأمر أن اللباس والزينة تبعث الخوف والهيبة والاحترام فى النفوس ،لكن التجرد لله تعالى بالإزار والرداء يبعث الحب فى نفوس هؤلاء العرب . فهو مثلهم ، وهو كأحدهم. ويحس هؤلاء العرب الوافدون أنهم ليسوا مع ملك صاحب سلطان، إنما مع نبى مبعوث من رب العالمين للعالمين كافة . فتلتحم قلوبهم به ويتربوا بأخلاقه وسلوكه .ويذوبون حبًا فيه ، وفداءً فى سبيله .

وما قيل عن لباسه يقال عن رحله .

(وحجَّ على رحل رث وقطيفة لا تساوى أربعة دراهم) .

وها هم الناس جميعاً يشهدونه ،يشهدون رحله ،ويشهدون قطيفته وعيونهم مسمرة به، وقد صعد على رحله ويصغون إلى قوله وهو يصعد راحلته :

« اللهم اجعله حجًا مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة » .

قد يكون رحل غيره وقطيفته من الزعماء يعدل مائة ألف درهم .ويراها لا تعجبه . أما رسول رب العالمين، فيستحى من ربه أن يدخل إلى قلبه فى هذه القطيفة وهذا الرحل الرث .شيء من الرياء والسمعة . فيضرع إلى ربه قائلاً : «اللهم اجعله حجًا مباركاً لا رياء فيه ولا سمعه ..» .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٥١ .

ثالثاً : ذكر نزوله فى ذى الحليفة وبياته بها

١ـ (فسار حتى أتى ذا الحليفة وهو من وادى العقيق فنزل به (قلت: تحت سمرة فى موضع المسجد بذى الحليفة .دون الروسة عن يمين الطريق كما فى الصحيح عن عبد الله بن عمر ليجتمع إليه أصحابه . كما ذكره محمد بن عمر الأسلمى ـ وصلى بهم العصر ركعتين ،وأمر بالصلاة فى ذلك الوادى كما رواه الإمام أحمد والبخارى وأبو داود عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول بوادى العقيق :

« أتانى آتٍ من ربى (ولفظ البيهقى :جبريل) فقال: صل فى هذا الوادى المبارك».

وقال: « عمرة فى حجة ،فقد دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة » .

٢ـ ثم بات فى ذى الحليفة ،وصلى المغرب والعشاء ،والصبح والظهر ، فصلى بها خمس صلوات ،وكانت نساؤه معه كلهن فى الهودج .وكن تسعة ،وطاف عليهن فى تلك الليلة واغتسل . قلت : وطيّبته عائشة قبل طوافه عليهن تلك الليلة .واغتسل كما رواه مسلم عن عائشة وساق هديه مع نفسه .قلت: كان معه قبل وصوله أنه ﷺ دعا ببدنته ،وفى رواية بناقته فأشعرها فى صفحة سنامها من الشق الأيمن ، ثم سلت الدم عنها، وقلّدها نعلين .وتولى إشعار بقية الهدى وتقليده غيره . قلت : كان معه هدى كثير .قال ابن سعد : وكان على هديه ناجية بن جندب الأسلمى، وكان جميع الهدى الذى ساقه من المدينة .

٣ـ ذكر إحرامه ﷺ :

(فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخذ فى الإحرام .فاغتسل غسلاً ثانياً غير الغسل الأول .وغسل رأسه بخطمى وأشنان . قلت: ودهن رأسه بشىء من الزيت غير كثير .رواه أحمد والبزار والطبرانى عن عائشة.وفى حديث أبى أيوب عند الشيخين أنه ﷺ فى غسله حرّك رأسه بيده جميعاً فأقبل بهما وأدبر (وطيبته بذريرة ، وطيب فيه مسك قلت : وبالغالية الجيدة كما رواه الدارقطنى والبيهقى فى بدنه ، ورأسه حتى كان وبيص المسك يرى من مفارقه ولحيته الشريفة .ثم استدامه ولم يغسله وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفرق رسول الله ﷺ بعد أيام

وهو محرم.

ثم لبس إزاره ورداءه . قلت : ولم ينه عن شيء من الأردية إلا المزعفرة التى تَرْدَع على الجلد . رواه البخارى . وسأله رجل : ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال:

« لا تلبسوا القميص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف إلا أن تكون نعالاً . فإن لم تكن نعالاً فخفين دون الكعبين . . . فإن لم يجد نعلين. فليلبس خفين وليجعلهما أسفل الكعبين ،ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مسه الزعفران ولا الورس إلا أن يكون غسيلاً . ولا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين» .رواه الإمام أحمد والشيخان .

٤ـ ولادة أسماء بنت عُميس :

وولدت أسماء بنت عُميس ـ زوجة أبى بكر ـ بذى الحليفة محمد بن أبى بكر . فأرسلت أبا بكر إلى رسول الله ﷺ تقول : كيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اغتسلى واستثفرى بثوب وأهلى» رواه مسلم فى حديث جابر الطويل . وزاد النسائى: «وتصنع ما يصنع الناس إلا أنها لا تطوف بالبيت ».

٥ـ صلاة ركعتين:

ثم إنه ﷺ صلى ركعتين . قال فى الإطلاع : صلى ركعتى الإحرام ؛وهما الركعتان اللتان كان يودع بهما المنزل قال ابن القيم:ولم ينقل عنه ﷺ أنه صلى للإحرام ركعتين. قلت: روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يركع بذى الحليفة ركعتين . ثم إذا استوت به الناقة قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل .

قال النووى فى شرح مسلم : فيه استحباب صلاة ركعتين عند إرادة الإحرام ، ويصليهما قبل الإحرام، ثم ركب ناقته القصواء . قلت :واستقبل القبلة قائماً . ثم لبى. رواه البخارى .

٦ـ ذكر إهلاله ﷺ وفى أى مكان أهل :

اختلف فى الموضع الذى أهل فيه ﷺ. فقيل:أهل من المسجد الذى بذى الحليفة. فروى الخمسة عن سالم عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه ﷺ أهل من عند المسجد أى : مسجد ذى الحليفة . وفى رواية الشيخين عن ابن عمر قال: بيداؤكم هذه التى تكذبون فيها عن رسول الله ﷺ . إنما أهل من المسجد .

وروى الطبرانى عن أبى داود المازنى وكان من أهل بدر قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ . فدخل مسجد ذى الحليفة .فصلى فيه أربع ركعات . ثم أهل من المسجد ، فسمعه الذين كانوا فى المسجد ، فقالوا : أهل من المسجد ، وأهل حين ركب راحلته،فقال الذين فى المسجد:أهل حين استوت راحلته.ثم لما استوى على البيداء أهل فسمعه الذين على البيداء؛ فقالوا : أهلّ من البيداء وصدقوا كلهم .

٧ـ ذكر الاختلاف فيما أهل به :

اختلف فى ذلك على أربعة أقوال :

الأول:الإفراد بالحج :روى الإمامان الشافعى وأحمد ، والشيخان ،والنسائى عن عائشة. . . وعن ابن عباس . . . أنه ﷺ أهل بالحج منفرداً .

الثانى : القران : روى الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى (وغيرهم كثير) أن رسول الله ﷺ كان قارناً .

الثالث :التمتع :روى الإمام أحمد والشيخان وأبو داود وغيرهم ـ عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق الهدى من ذى الحليفة .

الرابع :الإطلاق : روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها .قالت :خرجنا مع رسول الله ﷺ نلبى لا نذكر حجًا ولا عمرة حتى إذا دنونا مكة أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدى إذا طاف بين الصفا والمروة أن يحل . فهذه أربعة أقوال: الإفراد ، القران والتمتع ،والإطلاق .ورجح ابن كثير وابن القيم أنه ﷺ كان قارناً .

٨ ـ ذكر لفظ تلبيته :

لبى ﷺ فقال: «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ورفع صوته بالتلبية حتى سمعها أصحابه . قلت: روى البزار عن أنس قال: كانت تلبية رسول الله ﷺ : لبيك حجًا حقاً ،تعبدًا ورقا.

روى الطبرانى بسند حسن عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما :أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات فلما قال :«لبيك اللهم لبيك» .قال:« إنما الخير خير الآخرة » . وعند الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال فى تلبيته :« لبيك إله الحق لبيك» .

وروى الطبرانى عن خزيمة بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من تلبيته :

سأل الله عز وجل مغفرته ورضوانه واستعتقه من النار .

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية .فإنها من شعائر الحج .

وأمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يعلن بالتلبية .وروى الإمام أحمد عن السائب بن خلاد: أن رسول الله ﷺ قال :« أتانى جبريل فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية ،وقال: يا محمد كن عجاجاً ثجاجاً » رواه الطبرانى وغيره .

قلت: جاء جبريل وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ،فلم يرد ﷺ شيئاً منه.ولزم ﷺ تلبيته . رواه مسلم وعند أبى داود والناس يزيدون (ذا المعارج) ونحوه من الكلام والنبى ﷺ يسمع فلا يقول لهم شيئاً .ثم إنه ﷺ خيرهم عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة . ثم ندبهم عند دنوهم من مكة إلى فسخ الحج .والقران إلى العمرة لمن لم يكن معه هدى .ثم حتَّم ذلك عليهم عند المروة .ثم سأل رسول الله ﷺ وهو يلبى تلبيته المذكورة.والناس معه يزيدون فيها وينقصون وهو يقرهم،ولا ينكر عليهم.ولزم تلبيته)[1].

* * *

١ـ إنه وفد مرافق رسمى بجوار رسول الله ﷺ . يصف للناس المستمعين للإذاعة أين نزل رسول الله ﷺ ومتى نزل .فقد تحرك برعاية الله من المدينة بعد الظهر والناس من حوله وأمامه وخلفه حتى وصل ذا الحليفة .وصلى العصر فيها .و (ذا الحليفة من وادى العقيق فنزل به تحت سمرة فى موضع المسجد بذى الحليفة دون الروسة عن يمين الطريق؛ ليجتمع إليه أصحابه .فالأعداد الكبيرة حتى تصل كلها بحاجة إلى انتظار وهنا بهذا الوادى وبهذه البيداء مكان فسيح وواد واسع يمكن أن يجتمع فيه كل الناس ،ليس مقيداً ببناء معين كما هو الحال فى المسجد النبوى .واختار الوادى ينحدر فيه الناس ، ويصبحون كتلة وحدة .يمكن إيصال كل التعليمات إليها .ومن ذى الحليفة يبدأ الحج فكل ما سبق تمهيد له . وذو الحليفة هو ميقات أهل المدينة . فلا يمكن تجاوزه لأهل المدينة بدون إحرام .وأين نزل رسول الله ﷺ؟ نزل تحت ظل شجرة سمرة لا تكاد تظلل نفسها فلا سرادقات ولا خيام ،ولا شيء إلا ظل هذه السمرة والمسلمون يتوافدون ويتقاطرون حتى اطمأن إلى وصولهم . فأمر بلالا فأمر بإقامة الصلاة وصلوا العصر ركعتين والمسلمون يعلمون أن صلاة العصر أربع ركعات .فصلاها رسول الله ﷺ ركعتين .ولا شك أن الإعلام الإسلامى أبلغ الناس أن الصلاة ستكون ركعتين .حتى

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٨/ ٦١٧ ـ ٦٢٨ مقتطفات .

يعلم كيف يصليها الناس الذين لم يدركوا من المراحل الأولى من الدعوة ولم يتعرفوا على قصر الصلاة فى السفر ،وقد يكونوا أكثر من الذين يعرفونها .

لا بد أن نسمع جديداً مع كل نأمة ومع كل خطوة .فنحن مع رسول رب العالمين الذى أعلم الناس أنه إنما صلى بهذا المكان بوحى من الله عز وجل «أتانى آت من ربى فقال لى: صل فى هذا الوادى المبارك » .

وحيث إن رسول الله ﷺ قد تجاوز العمران ،وشرع فى السفر .وصلى صلاة العصر ركعتين قصراً ،أما صلاة الظهر فقد صلاها أربعاً فى وقتها فى المدينة. وعرف المسلمون الذين يستمعون إلى النذير النبوى أن هذا واد مبارك تسن الصلاة فيه .

والوحى الآخر الذى تلقاه نبى الهدى والرحمة إضافة إلى بركة الوادى والصلاة فيه هو دخول العمرة فى الحج إلى يوم القيامة إذا يمكن أن يؤديان معًا وبنية واحدة .

الأمور التى لم تصلنا هو هذا الاستقرار النبوى تحت الشجرة وقدوم الناس للسلام عليه والنظر إليه وللتعرف عليه ، والأحاديث التى خصٌ فيها وعم . فقد مكث ﷺ قرابة أربع وعشرين ساعة فى ذى الحليفة .وكل ما عرفناه بصورة جماعية أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين صلاة المغرب والعشاء وبات فيها . فقد كان الوفد المرافق لا ينقل لنا تفصيلات كثيرة إلا عن مشاعر الحج .وأكد لنا أن هذا الانتظار والمبيت إنما كان لتكامل تقاطر الناس . حتى لا يفوتهم من التربية شيء .

٢ ـ حق نسائه رضوان الله عليهن :

لقد كان الليل عند رسول الله ﷺ لربه .فكان ينام ثلثه ويقوم نصفه وينام سدسه، وأعاد تركيب الجزيرة العربية وأسس أعظم دولة فيها من غير أن يكون هذا على حساب عبوديته لله عز وجل . وهل يعى تاريخ البشرية سياسياً وحاكمًا أقام أعظم دولة ؛ دولة المبادئ والعقيدة . وينام بعد العشاء إلا لمسامرة زوجة أو ضيف .ويقوم نصف الليل عابداً متبتلاً بين يدى ربه عز وجل حتى تتفطر قدماه .

يؤسفنى أن أقول: فى جيل الدعاة اليوم أن أكثر من ٩٠٪ منهم لا يقومون الليل أصلاً ،أو يقومون ببضع ركعات لا تتجاوز الساعة . ويستهلكون ليلهم كله فى التخطيط لدعوتهم أو لحركتهم على حساب عبادتهم .ولم يؤسسوا دولة ولم يقودوا جيشاً ،ولم يبلغوا أكثر من الجدل والكلام حتى منتصف الليل .

إنها كارثة .

ونعود إلى سيد ولد آدم ﷺ .وقد بات فى ذى الحليفة .ولأول مرة فى تاريخ حياته ﷺ يكون معه نساؤه التسع فى سفر .لقد كان يقرع بين نسائه فى الغزوات . فأيتهن خرجت قرعتها خرجت معه .وقد يكن اثنتين أحيانا. ولم يشهد تاريخه صلوات الله عليه أن رافق نساءه جميعاً إلا فى هذه الحجة ،حجة الوداع .والحج فرض على كل مسلم ومسلمة .ولمن يدعهن بعد وفاته ﷺ يحججن معه. فهو محرمهن جميعاً. والمرأة لا تحج إلا مع محرم .ولا مجال لتمييز واحدة على أخرى .ومن أجل هذا (كان نساؤه معه كلهن فى الهودج وكن تسعة ، وطاف عليهن تلك الليلة واغتسل) .

لقد جامع نساءه التسع فى ليلة واحدة بغسل واحد .ولعل عائشة رضي الله عنها أدركت ذلك فأحضرت الطيب فطيبته به .

لقد قال الله تعالى له : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب : ٥١]. وأعطاه الحرية فى العدل معهن .لكن عظمة النبى ﷺ وعظمة خلقه أبت عليه إلا أن يجامعهن جميعاً فيسوى بينهن حتى فى الجماع.

ونحن نعلم أن الرجل العادى لا يملك هذه الطاقات الجنسية فى القدرة على الجماع إلا على أيام متفرقة وفى مثل سنه صلوات الله عليه فى الثالثة والستين ، لكنه الرجل الكامل الذى يملك من كل الطاقات البشرية أعلاها ، طاقات العقل وطاقات العاطفة ، وطاقات العبقرية ،ولم يكن شيء من هذه الطاقات على حساب الأخرى .ونساؤه ﷺ لسن على مستوى واحد من الجمال والإثارة .والسن، فكلهن أرامل إلا عائشة البكر رضي الله عنها .ومنهن المتقدمات فى السن. ومع ذلك طاف عليهن جميعاً وقد أدرك المسلمون هذه الطاقات النبوية التى لا يملكونها حتى فى هذا المجال. (فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أطيب رسول الله ﷺ ،فيطوف على نسائه ،ثم يصبح محرمًا ينضح طيباً) (١).

وفى رواية للبخارى عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل أو النهار ،وهن إحدى عشرة .قال: قلت لأنس : أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين (٢).

وقال سعيد عن قتادة :إن أنساً حدثهم تسع نسوة (٣).

---

(١) البخارى (ح ٢٦٧) ومسلم (ح ١١٩٢) .
(٢) البخارى (ح ٢٦٨) .
(٣) مسلم (ح ٣٠٩) والبخارى (ح ٢٦٨) .

إن جو الوادى والمسير فى هذه الصحراء يجعل وعثاء السفر بادية على صاحبها. وريح العرق قد تغلب عليه ، لكن عرق رسول الله ﷺ كان طيباً من الطيب كما تقول أم سليم رضي الله عنها التى كانت تجمع عرق رسول الله ﷺ فى قارورة وتهديه إلى النسوة يطيبن به طيبهن .

قالت أم سليم رضي الله عنها : كان رسول الله يقيل فى بيتى .فكنت أبسط له نطعاً فيقيل عليه فيعرق .فكنت آخذ سكا فأعجنه بعرقه . فجاء ذات يوم فجعلت أسلُت العرق فأجعله فى قارورة لى فاستيقظ النبى ﷺ . فقال : « ما تجعلين يا أم سليم » . فقلت: باقى عرقك أريد أن أدوّف به طيبى .

وقد اجتمع الطيبان معاً فى هذه الرحلة ؛ طيب عرقه ﷺ وطيب عائشة الذى اختلط بالعرق النبوى .

فأقبل رسول الله ﷺ عليهن فجامعهن جميعاً ،ثم قام فاغتسل بعد ذلك .

لا ندرى شيئاً عن بقية ليلته ﷺ . لقد حرص عليه الصلاة والسلام على أن يفى نسوته جميعهن . فهو مقدم على الإحرام الذى يستمر وقتاً طويلاً ينقطع به عنهن .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ كان لا يدع صلاة النافلة فى حضر ولا فى سفر . ونعلم أنه ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه. فهو مع ربه حاضر القلب فى كل لحظة لتستقيم له العبودية الكاملة لربه عز وجل .

٣ـ إحرام النبى ﷺ :

فلما صلى ﷺ الصبح أخذ فى الإحرام فاغتسل غسلاً ثانياً غير الغسل الأول،وغسل بخطمى(١) وأشنان(٢) . قلت : وادهن رأسه بشىء من زيت غير كثير.رواه الإمام أحمد والبزار والطبرانى والدارقطنى وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله يدهن بالزيت وهو محرم غير المقنت(٣). رواه الترمذى وابن ماجه .

وفى حديث أبى أيوب عند الشيخين أنه ﷺ فى غسله حرك رأسه بيديه جميعاً فأقبل بهما وأدبر . وطيبته عائشة بذريرة (٤) وطيب فيها مسك .قلت: وبالغالية الجيدة

---

(١) الخطمى : بفتح الخاء وكسرها ، نوع من النبات يغسل به .

(٢) الأشنان ، مسحوق أقرب إلى الصفرة ينظف به ، بضم الهمزة وكسرها .

(٣) المقنت : طبخ فيه الرياحين أو خلط بأدهان طيبة .

(٤) الذريرة : نوع من الطيب فيه أخلاط.

كما رواه الدارقطنى والبيهقى فى بدنه ورأسه حتى كان وبيص المسك يرى من مفارقه ولحيته الشريفة ﷺ ثم استدامه ولم يغسله ،وعن عائشة رضي الله عنها قالت :كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفرق رسول الله ﷺ بعد أيام وهو محرم ، ثم لبس إزاره ورداءه .

وعودة إلى النظافة النبوية التى يُعلِّم بها هؤلاء الشعث الغبر الذين يقطعون هذه الفيافى سفراً .ماذا عليهم أن يفعلوا قبل الولوج فى الإحرام .إنها غاية التنظف والتطهر والتطيب .فلم يكتف رسول الله ﷺ بغسل الليل.والماء معهم بحاجة إلى أن يكفيهم مدة طويلة للاستسقاء والشرب ،بل قام بعد صلاة الصبح واغتسل للإحرام.فلم يكن غسلاً عادياً يريق الماء على جسده الشريف فحسب ، بل كان غسلاً مخصصاً ؛ لأنه قد يمضى ﷺ الأيام قبل أن يتمكن من الغسل مرة ثانية .ومن أجل هذا غسل رأسه بخطمى وأشنان،وهى صابون تلك الأيام.وقد أدركناه صغاراً .قبل قدوم الصابون.حيث تغسل به الثياب وتنظف .

ودهن رأسه بزيت .وجاء دور عائشة رضي الله عنها التى خبأت له أغلى وأنفس ما عندها من طيب فقدمته له بعد اغتساله أو عند اغتساله وطيبته به .فالذريرة أخلاط من الطيب. والمسك أطيب الطيب .وحرّك رسول الله ﷺ رأسه ؛ أقبل وأدبر ،وهو يدهن رأسه بهذه المطيبات جمعاً. المطيبات الأولى من الخطمى والأشنان لإزالة ما علق بالجسم والرأس من الأوساخ .والمطيبات الثانية ليبقى ريحها يملأ كل فج . فقد أزال الخطمى والأشنان ما علق بالرأس والجسم من غبار ووسخ.

وجاءت الذريرة والمسك بعدها . لتمضى أياماً ولم يزل أثرها فيه .وعائشة رضوان الله عليها تحدثنا بسعادة غامرة عن هذا الطيب الذى طيب به النبى ﷺ .والذى لم يُزَل أثره ولا ريحه لأيام تلت بعد ذلك وهو فى ثياب الإحرام .ووبيصه أى : بريقه ولمعانه يراه الغادى والرائح .وقد رآه ابن عمر رضي الله عنهما وحدثنا عنه .ولم يمسحه عليه الصلاة والسلام ولم يغسله ولم يزله .وهو فى ثياب الإحرام ،فلا حرج طالما أنه تم فى الحل قبل أن يحرم (كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفرق رسول الله ﷺ وهو محرم .وفى رواية الحميدى بعد ثالثة) . ومفرق رأسه حيث يفرق الشعر إلى جانبين فى الرأس .

إنه رغم المسير إلى الإحرام .وما فيه من محرمات .هو دين النظافة والتطهر فغسلان فى ليلة واحدة .واستعمال الخطمى والأشنان ، ثم التطيب بأحسن أنواع الطيب. إنها تربية عامة لكل من معه ﷺ .ويكفى أن يرى الجيش كله وبيص الطيب من مفرقه ، وإن لم ير غسله.وقد سمع به لينشأ جيل جديد على النظافة فى الظاهر

والباطن ؛ فى القلب من الغل والحقد والحسد ،وفى الظاهر من الوسخ والقذر ، وفى الحدث من النجاسة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة] .

٤ـ أما الحديث عن الهدى هنا فتناول أربعة أمور :

الأمر الأول :

ساق هديه بنفسه ﷺ .وهو الهدى الخاص بشخصه عليه الصلاة والسلام.كان معه ﷺ قبل وصوله .ونلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ لم يأمر أن يسوقوا الهدى معهم. إلى بيت الله الحرام، حتى لا يشق على الناس بشىء وأدرك الناس من هذا الدرس أن الأمر متروك لرغبة المسلم أحب أن يسوقه معه أو يشتريه من مكة أو يحج بدون هدى . حتى أن رسول الله ﷺ لم يحث على ذلك ترغيباً أو تحبيباً .وكل ما فعله عليه الصلاة والسلام أن ساقه بنفسه .وقد يقول قائل : إن الاقتداء فى السلوك العملى أقوى من الاقتداء بالسلوك النظرى .وهذا صحيح فى عالم التربية .لكن الأمة المسلمة تربت كذلك على مفهوم الحلال والحرام من خلال التوجيه النبوى. أما عمله فقد يكون خاصاً بشخصه .وقد يكون مكلفاً به من ربه ،أو يكون عطاءً من ربه لنبيه . فما لم يسبق السلوك أمر أو نهى يفهم المسلمون جواز العمل والترك.

وحين نستعيد ذكرى بيعة الرضوان . وصلح الحديبية .وكيف أمر الرسول ﷺ أن ينحروا هديهم قبل دخول مكة .وكيف تلكأ الناس أمام الأمر ،ولم يحُل الأمر إلا التنفيذ للحلق والذبح .فعن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى قصة الحديبية :

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته قال لأصحابه: « قوموا فانحروا ، ثم احلقوا». فوالله ما قام منهم رجل،حتى قال ذلك ثلاث مرات،فلما لم يقم منهم أحد .قام فدخل على أم سلمة . فذكر لها ما لقى من الناس ،فقالت له أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدَنك ،وتدعو حالقك فيحلقك .

فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك ،نحر بدنته ،وقام إلى حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً) (١).

---

(١) رواه البخارى (ح ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

الأمر الثانى :

إن رسول الله ﷺ وسلم هو الذى أشعر ناقته بيده . فهو الذى جرحها فى صفحة سنامها وسلت الدم عنها وقلَّدها نعلين ليعلم أنها مهداة إلى الكعبة للذبح .

وتعلم الناس أن الهدى بهذه الطريقة وبتعليق النعلين أن هذا من أمر الإسلام وليس من أمر الجاهلية المنهى عنه .صحيح أنهم عرفوا من كتاب الله حرمة الهدى والقلائد فى قوله عز وجل بسورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا** ﴾[المائدة: ٢] .

لكن الصيغة العملية لذلك هى الصيغة نفسها فى الجاهلية .يجرح الدابة وتعليق النعلين فيها وهو تقليدها . وعلى أساس هذا الأمر قام كل مسلم إلى هديه فقلده .

الأمر الثالث :

وتولى إشعار بقية الهدى وتقليده غيره . فقد حدد رسول الله ﷺ الأمر بناقة واحدة .وقام المسلمون إلى هديهم فأشعروه وقلدوه وقام من حول رسول الله ﷺ إلى هدى النبى ﷺ فأشعروه وقلدوه. فالمنهج التربوى يكتفى فيه فى التربية الجماعية بنموذج واحد ،والناس يقتفون أثره بعد ذلك ، ويريد رسول الله ﷺ أن يتقرب الجميع بالطاعات لله عز وجل ،فالذين لم يسوقوا الهدى أو لا يملكونه . فبإمكانهم أن يشاركوا فى الإشعار والتقليد . خاصة ومع رسول الله ﷺ هدى كثير.

الأمر الرابع:

وكان على هديه ناجية بن جندب الأسلمى ،وكان جميع الهدى الذى ساقه من المدينة ، فناجية يظهر أنه اختصاصى فى رعاية الإبل والإشراف عليها . فقد كان على الهدى يوم الحديبية.وهو الذى كلف بالنزح من البئر يوم الحديبية وكان ينشد:

قد علمت جارية يمانية أنى أنا المائح واسمى ناجية

قال ابن إسحاق : (فحدثنى بعض أهل العلم عن رجال من أسلم أن الذى نزل فى القليب بسهم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب الأسلمى ،وهو سائق بُدن رسول الله ﷺ) (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٠ .

وناجية من الأعراب الكبار هو وأسلم كلها . فقد كانوا أولاء الركب لرسول الله ﷺ نحو الحديبية ،وهم الذين أوكل لهم حفر البئر والمتح من الماء،وأوكل لهم المسؤولية عن بدن النبي ﷺ.

تقول العرب :اعط القوس باريها .ورسول الله ﷺ يضع المسؤولية فى المكان المناسب للرجل المناسب فى الزمان المناسب.

٥ ـ هذا عن إحرام رسول الله ﷺ. فقد لبس إزاره ورداءه بعد أن اغتسل ثم تعطر وتطيب وجاءه سؤال من رجل من المسلمين : ما يلبس المحرم من الثياب ؟

فجاء الجواب على الملأ من الأمة .وسمعه الفريق الذى كان ينقل للفريق الذى يليه ما سمعه .

(فقال ﷺ :« لا تلبسوا القميص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف إلا أن تكون نعالاً ،فإن لم تكن نعالاً ، فخفين دون الكعبين . . .ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مسه الزعفران ولا الورس إلا أن يكون غسيلاً ،ولا تنتقب المحرمة ،ولا تلبس الفقازين » ،رواه الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر) .

وعوضاً عن أن يكون جواب المصطفى ﷺ إمام المربين عن الذى يلبسه المحرم .جاء الجواب عما لا يلبسه .عن محظورات الإحرام . فإنه إذا توضح المحظور ،أصبح كل شيء دونه مباحاً .وهو أسلوب عظيم من أساليب التربية العملية .حرص رسول الله ﷺ على أن يكون جواباً على سؤال لا أن يكون حديثاً ابتداءً . فعند الأسئلة تشد الأعناق ،وتتجه الأسماع إلى الإجابه وتكون النفوس مهيأة للتلقى.وهذا السؤال والإجابة عليه من أخطر وأهم ما يجب على الحاج التعرف عليه فكلهم الآن مقدمون مهيؤون للإحرام .وهذا أوان تعرفهم عليه . أما لو جاء التوضيح بعد الشروع فى الإحرام والمضى فيه . فكم من الأخطاء سوف تقع ،وكم من الأمور تستحق الفدية ،أو توجبها لو وقعت.

٦ـ أسماء بنت عميس رضي الله عنها . هذا النموذج الفذ من النساء هى على وشك الولادة. كما يقول المثل العامى « بطنها إلى حلقها ». فهى حامل فى الشهر التاسع. وتعرف المرأة أيام شهرها المرشحة فيه للولادة .ومع ذلك تتناسى هذا كله وتمضى مع ركب الحجيج إلى مكة .إنهما أسماءتان والله .

أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها التى تحمل الزاد إلى الغار .والتى تمضى مهاجرة إلى الله

ورسوله إلى المدينة المنورة. وتلد عبد الله بن الزبير بعيد وصولها المدينة . فكان أول مولود يولد فى الإسلام .

وأسماء بنت عميس تمضى بحملها ؛ جنينها فى بطنها رغبة وشوقًا فى مرافقة رسول الله ﷺ مع زوجها الصديق.حتى لا تفوتها هذه الرحلة الخالدة ورأى الصديق هذه الرغبة العارمة عندها ،فلم يمنعها من مرافقته.وهو يرى أنها على وشك النفاس والولادة.

وكان ما خشيه الصديق ،وخشيته أسماء ،وكانت الولادة فى ذى الحليفة قبل إحرامها بالحج .ولدت محمد بن أبى بكر والشىء الطبيعى والمنطقى أن يعود زوجها إلى المدينة .حتى ترتاح وتهدأ . مثل نساء أيامنا هذه . حيث تهيأ لها الغرفة الوثيرة فى المستشفى،وحولها الممرضات والأطباء يتابعونها بعناية فائقة ساعة بعد ساعة .قبل الولادة. ثم يتابعون العناية بعدها ،ليوم أو يومين ، وتنقل إلى بيتها محفوفة بكل العناية والرعاية . وتجلس فى فراشها الوثير على السرير المناسب ،وتقدم لها الخدمات الكاملة لأسبوع على الأقل بعد الولادة ، تستقبل الزائرات والمهنئات دون أن يدعنها تتحرك إلا لقضاء الحاجة.يناولنها طعامها وكأس الماء . والدواء والمناديل ،وهى فى أوج سعادتها بهذه المناسبة السعيدة ، تتقبل التهانى والتبريكات ،وأسماؤنا هذه رضي الله عنها من الطبيعى والمنطقى أن تعود محفوفة بالرعاية والعناية إلى بيتها من ذى الحليفة ويسجل لها هذا الشرف العظيم الكبير أنها رافقت المصطفى إلى ذى الحليفة .وولدت هناك أو ليست هذه المأثرة كافية لتجعلها من المجاهدات الكبيرات .وتذكر فى كتب التاريخ أنها المرأة الوحيدة التى ولدت برفقة حبيبها الصديق . ورفقة نبيها المصطفى . ثم عادت معززة مكرمة إلى المدينة المنورة. لتهدأ وتعافى من آلام الولادة ولأوائها وجراحاتها .حتى تشفى تلك الجراح.

ذلك لعمرى والله يكفيها فخراً ومجداً وثناء أن تناله ،وتفخر به على جميع صويحباتها .

ولكننا كما قلت . أمام نموذج فذ وطراز رفيع لا يبلغ شأوه أحد ويعلم رسول الله ﷺ مَن الصحابية أسماء؛ إنها البحرية .إنها التى قال لها رسول الله ﷺ: « لهم هجرة ولكم هجرتان».إنها زوج ابن عمه الحبيب جعفر بن أبى طالب . وهو الذى نقل لها نبأ استشهاد زوجها جعفر ، ودموعه الغزار تنسكب ويغمر أولاده بصدره الحنون ؛عبد الله

ومحمد ، وينتقل بهم حيث ينتقل من بيت إلى بيت فى بيوت نسائه يبيتون معه . وهو الذى قال :

« اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد جاءهم ما يشغلهم » .

إنها أسماء . أسماء نفسها التى رأى الصديق فيها رمزاً عظيماً من رموز الجهاد . فتقدم لخطبتها . وهو الوزير الأول لرسول الله ﷺ . وانتقلت زوجاً للصديق بعد أن كانت زوجاً لجعفر الطيار . كل هذا فى السنوات الثلاث الأخيرة . وها هى الآن يصل إلى مسامعه ﷺ خبر ولادتها . فماذا كان الموقف النبوى .

(وولدت أسماء بنت عميس زوجة أبى بكر ـ بذى الحليفة محمد بن أبى بكر . . .) .

أين ولدت . هل هناك غرفة تسترها على الأقل . إنها فى البيداء . وفى الهودج وفوق الجمل أو على الأرض ، وليس حولها أحد يحففن بها . لقد كان أبو بكر رضي الله عنه هو دايتها . وهو مولدها . هذا على الظاهر . ولا بد أن تقدمت بعض النسوة لمساعدتها فى ذلك . لكن هل نصبر حتى نتابع الحديث ؟

(فأرسلت أبا بكر إلى رسول الله ﷺ . تقول : كيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اغتسلى واستثفرى بثوب وأهلى » وفى رواية فأحرمى . رواه مسلم من حديث جابر الطويل . زاد النسائى وابن ماجه عن أبى بكر : « وتصنع ما يصنع الناس إلا أنها لا تطوف بالبيت » .

رضى الله عنك يا ابنة عميس ، فليس السؤال . هو الاستئذان لأبى بكر أن يعود بها إلى المدينة . ثم يلحق بالحجيج إنما ماذا تعمل من أجل الحج وهى لم تحرم به بعد وأمامها خمسمائة كيلاً تمضيها فى البيداء أو على ظهر الجمل فى الهودج فى ثيابها الملطخة بالدم . ليس فى ذهنها لحظة أن تعود ، أو ألا تحج ، أو ألا ترافق المسلمين فى حجهم ، فكل سؤالها . ماذا تفعل فى حالتها هذه حتى تمضى فى حجها مع الطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود ؟

يا سبحان الله . من أنت من النساء ؟

وجاء الجواب النبوى على مستوى السؤال . ومستوى المرأة العظيمة . أن تغتسل أولاً ، ثم تشد وسطها بثوب وتهل مع الحجيج . وتحرم معهن . وتؤدى المناسك كلها مثلهم . غير أنها لا تطوف بالبيت حتى تطهر . وطويت القصة كلها . وكأنما ليس معنا

نفساء حاجةً .

٧ـ صلاة ركعتين :

ها نحن نتهيأ مع رسول الله ﷺ لمغادرة ذى الحليفة . فقد تجمع الناس ، واستجموا من التعب واستراحوا الاستراحة الأولى عند ميقات ذى الحليفة الذى لا يجوز أن يغادروه جميعاً إلا محرمين . وقد شهدنا رسول الله ﷺ يلبس ثياب الإحرام بعد الغسل والطيب .

وثم إنه صلى ركعتين ، قال فى الاطلاع : صلى ركعتى الإحرام ،وهما الركعتان اللتان كان يودع بهما المنزل .

هذا هو الرأى الأول الذى يوجه فيهما ابن القيم الركعتين إلى أن كان يودع بهما المنزل .ورأيه (ولم ينقل عنه أنه ﷺ صلى للإحرام ركعتين) فهما ليستا للإحرام إنما لوداع المنزل.

لكن المؤلف يسوق حديث البخارى الذى يمثل الرأى الثانى .والذى يربط الركعتين بالإحرام بالحج ويسوق حديث البخارى الذى رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يركع بذى الحليفة ركعتين ، ثم إذا استوت به الناقة قائمة عن مسجد ذى الحليفة أهل .

وإذا كان الحديث ونصه قابلاً للاجتهاد ، فقد جاء بترجيح النووى الذى يمثل الرأى الثانى :

(قال النووى فى شرح مسلم :فيه استحباب صلاة ركعتين عند إرادة الإحرام ويصليهما قبل الإحرام).

وانتهى الأمر خلافياً فى هذه القضية .ففريق يرون صلاة ركعتين من السنة المستحبة.وفريق لا يرى إحداث هاتين الركعتين إلا إذا أحرم بعد صلاة مكتوبة بلا حرج.

٨ ـ من أين أهل ﷺ ؟

أهل من ميقات ذى الحليفة .لكن الخلاف فى مكان الإهلال .واختلف فيه على أقوال ثلاثة :

الأول: من مسجد ذى الحليفة.

الثانى: من البيداء.

الثالث: حين استوت به راحلته. أى من ظهر ناقته .وكل فريق لديه حديث صحيح بذلك .

وجعل أبو جعفر الطحاوى حديث ابن عباس رضي الله عنهما جامعاً بين الأقوال الثلاثة .

(قال ابن عباس :وايم الله لقد أوجب فى مصلاه،وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا على شرف البيداء) .

والواضح أن هذا الإهلال ثلاث مرات ليسمعه ويراه المسلمون جميعًا . فإهلاله فى المسجد ،سمعه ورآه من فى المسجد وإهلاله حين استوت به ناقته يسمعه ويراه من كان فى هذا الموقع قريباً من رسول الله ﷺ . وإهلاله فى البيداء .حين صار فى وسط الناس جميعاً .حتى يقتدى به من يراه ومن يسمعه. وهذه ضريبة التربية الجماعية لعشرات الألوف التى لا بد لها أن تتعلم من سيد ولد آدم مناسك حجها وتنقلها إلى الأمة بعده .

٩ـ الاختلاف فيما أهل به ﷺ :

وقد ورد هذا الاختلاف كله فى روايات صحيحة .وكانت مهمة العلماء الجمع بين هذه الأحاديث الصحيحة وهذه هى الأقوال الأربعة :

الأول: الإفراد بالحج : روى الإمامان الشافعى وأحمد والشيخان والنسائى ومسلم وابن ماجه والبيهقى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم : أنه أهل بالحج مفرداً .

الثانى: القرآن :روى الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى والشيخان والبزار وغيرهم عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وجابر بن عبد الله وسعد بن أبى وقاص وغيرهم : أن رسول الله ﷺ كان قارناً.

الثالث : التمتع : روى الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى ومسلم والبخارى والترمذى عن ابن عمر وعائشة وعمران بن حصين وحفصة وابن عباس ومعاوية وغيرهم : تمتع رسول الله فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى.

الرابع: الإطلاق : روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها .قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر حجًا ولا عمرة . . . حتى إذا دنونا من مكة أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدى إذا طاف بين الصفا والمروة أن يحل .

فهذه أربعة أقوال : الإفراد والقران والتمتع والإطلاق ،ورجح ابن القيم وابن كثير

أنه ﷺ كان قارناً .ورجحه المحب الطبرى.والحافظ وغيرهم . قال(ابن القيم): أهل فى مصلاه .ثم ركب ناقته ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به البيداء .وكان يهل بالحج والعمرة تارة ،وبالعمرة تارة ، وبالحج تارة؛ لأن العمرة جزء منه فمن ثم قيل : قرن ، وقيل : تمتع ، وقيل : أفرد .

وطريق الجمع بين الأحاديث وهو الصحيح أنه كان ﷺ مفرداً بالحج .ثم أحرم بالعمرة بعد ذلك وأدخلها على الحج فصار قارناً .فمن روى الإفراد هو الأصل ،ومن روى القران اعتمد آخر الأمر ، ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوى وهو الانتفاع والارتفاق) (١) .

ومن رحمة الله بهذه الأمة هذا الاختلاف ،حتى إن المذاهب اختلفت فى الأفضل فى هذه الأنواع الأربعة ؛ لأن هذا الاختلاف يجعل التفرق على المناسك لا التجمع عليها، ويعلم الله ماذا سيكثر من هذه الأمة . فهى أكبر الأمم يوم القيامة .فلو اجتمعوا على مشعرٍ واحد فى وقت واحد لقتلوا ، فمع كل هذا التنوع والتفرق .نجد الكثير يقتلون من الازدحام عند رمى جمرة العقبة ،أو غيرها . يعلمُ الله تعالى وفى جيلنا هذا أن الحج سيصل إلى ثلاثة ملايين إنسان فلنتصور أنه لم يكن حج إلا الإفراد وتأجلت العمرة كلها لبعد الحج على المسلمين جميعاً .لم تكن الكوارث البشرية جراء زحام ثلاثة ملايين على نسك واحد فى وقت واحد .وتوزعت الأمة بين هذه المذاهب الأربعة . فالأفضل عند الشافعية الإفراد ،والأفضل عند الحنفية القران ،والأفضل عند الحنابلة التمتع ،وكله مأخوذ من رسول الله ﷺ .وتنتهى بالسعة على المسلمين على اختلاف ديارهم وبلدانهم وأجناسهم .

١٠ـ(لبى ﷺ فقال:« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »،ورفع صوته بالتلبية) .

لقد نسخت إلى الأبد تلبية الجاهلية الوثنية والتى كانت:(لبيك اللهم لبيك ،لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك وما ملك). فهم يحرصون على تعظيم الله .ويشركون به آلهة أخرى ،ويزعمون أنهم يتقربون إلى الله بذلك ،ولا ذنب فى الوجود أعظم من الشرك بالله .

فعن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبى ﷺ :أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك . . . » (٢).

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٢٦ .

(٢) البخارى (ح ٤٤٧٧).

وستتحرك عشرات الألوف هذه بتلبية التوحيد الخالصة . وهى المأثورة عن رسول الله ﷺ ولا تزال تتجاوب بها الآفاق إلى يوم الدين (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وغدت التلبية شعار الحج فلا يذكر الحج إلا بـ لبيك اللهم لبيك . وشرع الإسلام رفع الصوت فيها ، فتجد الحجيج فى كل مكان لا يكاد يصمت فريق حتى يدعو الآخر ، ويضجون بالتلبية، فالله تعالى أمر برفع الصوت ، « أتانى جبريل فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية . . . » وليس أصحابه فقط ، إنما هو على رأسهم كذلك « . . . وقال : يا محمد كن عجاجًا ثجاجا » وإذ الهدوء الذى كان يملأ ركب المائة ألف يتحول إلى عجيج وتلبية. وأصواتٍ مرتفعة كلها تنادى ربها وتناجيه : لبيك اللهم لبيك . والتلبية جواب على أذان إبراهيم بالحج ، وعلى أذان محمد ﷺ بالحج . فهو قد دعاهم ، وأعلمهم فى كل أقطارهم يدعوهم إلى الحج إلى بيت الله . وبما أنهم وصلوا من بلدانهم وأقطارهم فلا بد أن يقول الداعى النداء لبيك قد أجبنا النداء .

والجانب الثانى: إلى جوار هذه التلبية ، هو أن رسول الله ﷺ ترك الفسحة واسعة لهذه التلبية وغيرها (وجاء جبريل وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به، فلم يردُّ رسول الله ﷺ شيئاً منه ، ولزم ﷺ تلبيته) رواه مسلم وعند أبى داود : والناس يزيدون : (ذا المعارج ، ونحوه من الكلام والنبى ﷺ يسمع فلا يقول لهم شيئاً) وفى رواية والناس معه يزيدون فيها وينقصون فيها وهو يقرهم ولا ينكر عليهم ولزم تلبيته .

الجانب الثالث : فى هذه التلبية أن رسول الله ﷺ بعد أن أعلن التعبئة العامة بالتلبية المذكورة . كان من حوله يسمعون إضافات فينقلونها . فهذا أنس أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ يقول : كانت تلبية رسول الله ﷺ : لبيك حجًا تعبداً ورقا . وهذا الغلام الثانى ابن عباس الذى لا يغادر ركاب رسول الله ﷺ يروى ـ بسند حسن ـ كما فى الطبرانى : أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات فلما قال: « لبيك اللهم لبيك ». قال: « إنما الخير خير الآخرة ». عند الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال فى تلبيته : « لبيك إله الحق لبيك . . . »، وروى الطبرانى عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من تلبيته سأل الله عز وجل مغفرته ورضوانه واستعتقه من النار.

رابعاً: مسيره ﷺ ثم نزوله بالعرج

ثم سار رسول الله ﷺ وهو يلبى تلبيته المذكورة ...ومضى يسير المنازل ويؤم أصحابه فى الصلوات فى مساجد له قد بناها الناس وعرفوا مواضعها ،والله أعلم.

فلما كان بالروحاء[1] رأى حماراً وحشياً عقيراً ، قال:

« دعوه يوشك أن يأتى صاحبه » .فجاء صاحبه إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله: « شأنكم بهذا الحمار» .

فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر فقسمه بين الرفاق .ثم مضى رسول الله ﷺ حتى كان بالأُثاية[2] بين الرُّوَيْثَة [3]والعرج[4] إذا ظبى حاقف [5] فى ظل ،وفيه سهم فأمر رجلاً ـ قلت :هو أبو بكر الصديق .فأمر أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوه .

قال: والفرق بين قصة الظبى وقصة الحمار:أن الذى صاد الحمار كان حلالاً ،فلم يمنع أكله ،وهذا لم يعلم أنه حلال،وهم محرمون،فلم يؤذن لهم فى أكله ،ووكّل من يقف عنده لئلا يأخذه أحد حتى يجاوزوه.

ذكر نزوله بالعرج :

ثم سار حتى إذا نزل بالعرج .وكان زمالته وزمالة أبى بكر واحدة .وكانت مع غلام لأبى بكر فجلس رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جانبه وعائشة إلى جانبه الآخر ،وأسماء بنت أبى بكر إلى جانبه وأبو بكر ينتظر غلامه أن يطلع عليه فطلع وليس معه البعير فقال: أين بعيرك ؟ فقال: أضللته البارحة. فقال أبو بكر ـ وكان فيه حدة : بعير واحد تضله؟ فطفق يضرب الغلام بالسوط ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول:« انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع » ومايزيد رسول الله ﷺ على أن يقول ذلك ويبتسم .

ترجم أبو داود على هذه القصة : باب المحرم يؤدب .

---

(١) الروحاء : مكان بين مكة والمدينة ،بينه وبين المدينة ثلاثون أو أربعون ميلاً .

(٢) الأُثاية : بضم الهمزة موضع بطريق الجحفة إلى مكة.

(٣) الرويثة: معشى بين العرج والروحاء .

(٤) العرج : قرية جامعة من أعمال الفرع جنوب المدينة على بعد ١١٣ كيلا .

(٥) حاقف: نائم وقد انحنى فى نومه .

ولما بلغ آل فضالة الأسلمى أن زاملة رسول الله ﷺ ضلت ، حملوا له جفنة من حيس فأقبلوا بها حتى وضعوها بين يدى رسول الله ﷺ ،فجعل رسول الله ﷺ يقول:

« هلُمَّ يا أبا بكر ، فقد جاء الله تعالى بغذاء أطيب » ، وجعل أبو بكر يغتاظ على الغلام ، فقال له رسول الله ﷺ :

« هوِّن عليك يا أبا بكر، فإن الأمر ليس لك ،ولا إلينا معك،وقد كان الغلام حريصاً على ألا يضل بعيره، وهذا خلف مما كان معه».ثم أكل رسول الله ﷺ وأهله . وأبو بكر ومن كان معه يأكل حتى شبعوا .قال: فأقبل صفوان بن المعطل رضى الله تعالى عنه ـ وكان على ساقة الناس والبعير معه ،وعليه الزاملة ،فجاء حتى أناخ على باب منزل رسول الله ﷺ .فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر:«متاعك؟» فقال: ما فقدت شيئاً إلا قعباً كنا نشرب فيه .فقال الغلام :هذا القعب معى .فقال أبو بكر لصفوان: أدى الله عنك الأمانة .

وجاء سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما ومعهما زاملة تحمل زاداً يؤمان رسول الله ﷺ.فوجدا رسول الله ﷺ واقفاً بباب منزله ،قد رد الله عز وجل عليه زاملته. فقال سعد: يا رسول الله ، بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة .وهذه زاملة مكانها .فقال رسول الله ﷺ :« قد جاء الله بزاملتنا .فارجعا بزاملتكما بارك الله فيكما» .

ذكر مروره بالأبواء:

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة حمار وحشى . . . فردّه وقال :« إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم » .

ذكر مروره بوادي عسفان :

فلما مر رسول الله ﷺ بوادى عسفان قال : « يا أبا بكر ، أى وادٍ هذا ؟» قال : وادى عُسفان . قال : « لقد مرّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خطمهما ليف وأزرهم العباء ، وأرديتهم النمار يلبون ،يحجون البيت العتيق » .

ذكر مروره بسرف :

قال ابن سعد : وكان يوم الاثنين بمر الظهران فغربت له الشمس بسرف. فلما كان بسرف حاضت عائشة وقد كانت أهلت بعمرة .فدخل عليها رسول الله ﷺ وهى تبكى.فقال: « ما يبكيك؟ لعلك نفستِ ؟» قالت: نعم . قال: هذا شيء كتبه الله على

بنات أدم .افعلى ما يفعله الحاج غير ألا تطوفى بالبيت » .

وقال ﷺ بسرف لأصحابه: «من لم يكن معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل. ومن كان معه هدى فلا » (١).

* * *

نجد ثغرات فى المسيرة النبوية فى كتاب الصالحى .ولا تسد هذه الثغرات إلا فى المغازى عند الواقدى يقول رحمه الله :

(وأصبح رسول الله ﷺ يوم الأحد بملل(٢).ثم راح فتعشى بشرف السيالة(٣)، وصلى بالشرف المغرب والعشاء ،وصلى الصبح بعرق الظبية(٤) بين الروحاء والسيالة وهو دون الروحاء (٥) ثم نزل رسول الله ﷺ الروحاء)(٦).

ولم تنقل لنا روايات السيرة شيئاً عن هذا المسير إلا وجود التلبية فيه،والصلاة، والطعام .

وكما يقول ابن سعد: ومضى رسول الله ﷺ يسير المنازل ويؤم أصحابه فى الصلوات فى مساجد له .قد بناها الناس،وعرفوا مواضعها .ثم سار رسول الله ﷺ وهو يلبى تلبيته المذكورة ،فلما كان بالروحاء رأى حماراً وحشياً عقيراً قال:

«دعوه يوشك أن يأتى صاحبه»،فأتى صاحبه إلى رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ : «شأنكم بهذا الحمار». فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر فقسم بين الرفاق .

أما الحكمة فى انتظار صاحبه فهو للتعرف على أن صائده كان محرماً أم حالاً . ولأنه حق لصاحبه لا يجوز التصرف فيه إلا بإذنه .وكانت الروح الجماعية هى التى تحكم كل خطوة فى هذه المسيرة .

ولهذا كلف رسول الله ﷺ وزيره الصديق بأن يقسم لحم هذا الحمار الوحشى على الرفاق . ولم يكن هو طعام القيادة العليا .إنما طعام الرفاق والمساكين فى الجيش وأولى الناس بمعرفتهم أبو المساكين ؛أبو بكر رضي الله عنه فهو الذى قام بتقطيع هذه الأوصال،لكنه لم يسلك السبيل نفسه فى الأثاية عندما لقى ظبياً حاقفاً فى ظل وفيه سهم. فأمر رجلاً وهو

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/٦٢٨ ـ ٦٣١ . مقتطفات .

(٢) ملل : واد يمر جنوب المدينة حوالى أربعين كيلاً .

(٣) شرف السيالة : تبعد ٤٧ كيلا عن المدينة .

(٤) عرق الظبية : تبعد ٧٣ كيلا عن المدينة .

(٥) الروحاء: تبعد ٧٥ كيلاً عن المدينة .

(٦) المغازى للواقدى ٣/ ٩٢-١٠ .

أبو بكر أن يقف لا يريبه أحد من الناس حتى جاوزوه) .

إنه الشخص نفسه الذى وزع أوصال لحم حمار الوحشى ، هو نفسه الذى قام بحراسة الظبى الجريح ومنع الناس من الاقتراب منه . والفرق بين الموقفين هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله :

(والفرق بين قصة الظبى وقصة الحمار أن الذى صاد الحمار كان حلالاً فلم يمنع من أكله . وهذا لم يعلم أنه حلال وهم محرمون . فلم يأذن لهم فى أكله ،ووكل من يقف عنده لئلا يأخذه أحد حتى يجاوزوه) وما أشهى الطعام للمتعب المكدود المسافر خاصة إذا كان لحمًا . ولكنها التربية على البعد عن اللذة . والصبر على الفاقة ، والصبر على الجوع ،واللحم الشهى أمامه ؛لأنه محرم فلا يجوز له أكل الصيد من المحرم، كما أنا نلاحظ عدم وجود الموعظة القولية . فلم يذكر لنا أنه خطب ﷺ على الطريق.

وهذا من فقه التربية كذلك . فالحاج الذى أضناه السفر سيكون أول ما يشغله هو إحضار طعامه ثم أخذ حظه من النوم . فأين تكون التربية حيث لا تستطيع النفوس سماع الموعظة . وهو درس لكل الدعاة فى الأرض أن يتحينوا الوقت المناسب . والظرف النفسى المناسب والمستعد للسّماع للموعظة . فالقلوب إذا كلّت عميت . وللجسد حقه من الراحة ،وحقه من الطعام وحقه من النوم ،وللروح حقها فى الوقت المناسب والظرف المناسب من الوعظ والتوجيه والتربية .

(ثم راح رسول الله ﷺ من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف(١) . ثم صلى المغرب والعشاء وتعشى به ،وصلى الصبح بالأثاية (٢). وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج) (٣).

هذه أيام ثلاثة مرت ونحن نرافق رسول الله ﷺ فى كل مسير وكل موطن ولم يصل بعد إلى منتصف الطريق . فهو ليس وحده. إنما معه جيش قوامه مائة ألف ونيف . ولا بد بد أن يتحرك معاً . ويبات معاً . ويستريح معاً .

الحدث الطريف الذى نشهده فى العرج حيث أناخ رسول الله ﷺ. وأناخ الجيش معه. وجلس كل مسلم مع أهله وعائلته يتناول طعامه وزاده الذى أحضره . ورسول الله ﷺ ،

(١) المنصرف: يعرف اليوم بالمسيجيد على بعد ثمانين كيلاً عن المدينة .

(٢) الأثاية : موضع فى طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخاً .

(٣) العرج : واد من أودية الحجاز جنوب المدينة على بعد ١١٣ كم .

قد اختار أبا بكر صديقا ورفيقا من رحلته هذه وهو كواحد من عشرات الألوف هذه يجلس ليتناول طعامه مع رفيق رحلته.

أما وصف الزاد والراحلة وضياعها . فشيء مثير حقاً . يتحدث الواقدى عن جزئياتها مروية عن إحدى شهود الغداء المبارك ؛ أسماء بنت أبى بكر ﵄ تقص علينا قصة تلك اللحظات الطريفة فتقول: (وكان أبو بكر ﵁ قال لرسول ﷺ : إن عندى بعيراً نحمل عليه زادنا . قال رسول الله ﷺ : « فذاك إذن » .

قالت : فكانت زاملة رسول الله ﷺ وأبى بكر واحدة . فأمر النبى ﷺ بزاد دقيق وسويق ،فجعل على بعير أبى بكر .وكان غلامه يركب عليه عقبه ،فلما كان بالأثاية عرّس الغلام. وأناخ بعيره. فغلبته عيناه ، فقام البعير يجر خطامه آخذاً فى الشعب . وقام الغلام فلزم الطريق يظن أنه سلكها وهو ينشِدُه فلا يسمع له بذكر .ونزل رسول الله ﷺ بأبيات بالعرج ، فجاء الغلام مظهراً . فقال أبو بكر ﵁ : أين بعيرك ؟ قال : ضل منى . . .) .

وندع إتمام الرواية لنأخذ رواية ثانية عن أسماء براوٍ آخر تقدم تفصيلات أوضح؛ تحدث ﵄ : أن رسول الله ﷺ لما نزل بالعرْج جلس بفناء منزله ، ثم جاء أبو بكر ﵁ فجلس إلى جنبه . فجاءت عائشة ﵄ فجلست إلى جنبه الآخر ،وجاءت أسماء فجلست إلى جنب أبى بكر (وفى زاد المعاد :فجلستُ إلى جنب أبى) .

ولنعد إلى هذه الذكرى .

ذكرى الرحلة الأولى لهذين الصديقين الحميمين محمد رسول الله ﷺ وأبى بكر ، ومعهما غلام أبى بكر عامر بن فهيرة ،وهما متجهان مطاردان من مكة إلى المدينة يخافان أن يتخطفهما الناس ،وها هما الآن جالسان وحدهما لكن معهما نفران آخران .عائشة زوج النبى ﷺ ؛وابنة أبى بكر واختارت الجلوس إلى جوار زوجها محمد ﷺ .وأسماء بنت أبى بكر اختارت أن تجلس بجوار أبيها .وهناك أسماء ثانية هى أسماء بنت عميس التى استحيت أن تجلس مع زوجها ومع رسول الله ﷺ فهى غارقة بالدم .من آثار ولادتها قبل يومين فى ذى الحليفة ، ومعها وليدها الصغير الذى أسمياه محمداً تيمناً بمحمد ﷺ .هاتان العائلتان المتواصفتان المتآخيتان جلستا. ليتناولا طعامهما بعد إعياء شديد،وجوع فاتك .ومعهم جميعاً غلام أبى بكر أنه ليس عامر بن فهيرة . فقد مضى عامر بن فهيرة إلى ربه شهيداً فى سبيل الله .

لكن الجديد أن مع أبى بكر والنبى ﷺ مائة ألف من فرسان العرب وصناديدهم وشجعانهم وشعرائهم ورجالاتهم من قحطان وعدنان جاؤوا جميعا من كل أنحاء جزيرة العرب يأتمون برسول الله ﷺ الذى كان ملاحقاً مطارداً عشر سنين لا يملك إلا نفسه وصاحبه :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة].

وصدق الله العظيم .فها هى كلمة الله هى العليا . وهذه العرب قاطبة جاءت تأتم برسول الله ﷺ .وبينهم فرسان قريش وصناديدها وزعماؤها الذين بقوا أحياء يفدون رسول الله ﷺ بأرواحهم . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، فلا شرك بعد اليوم فى جزيرة العرب . فلن يحج البيت هذا العام مشرك ،ولن يطوف بالبيت عريان .

ولنعد من هذه الذكرى إلى اللحظة الآتية إلى الصديقين الحميمين محمد ﷺ وأبى بكر الصديق ينتظران الغلام الذى يقود البعير الذى عليه الزاد والطعام أن يصل. فقد تأخر، وبدأت أعصاب أبى بكر تتوتر . فالجوع شديد .والسفر منهك .وعلى بعيره الذى يقوده الغلام الزاد كله للعائلتين المتواضعتين (وأبو بكر ينتظر الغلام أن يطلع عليه . فطلع) ولم تصدقه عيناه ؛ إنه الغلام خالى الوفاض .لا بعير معه ولا زاد معه . فما هى قصته؟ (فطلع وليس معه البعير. فقال: أين بعيرك ؟ فقال : أضللته البارحة . فقال أبو بكر،وكان فيه حدة (لو لم يكن إلا أنا لهان الأمر على، ولكن رسول الله ﷺ) .

وفقد الصديق أعصابه من الغضب (فقال أبو بكر ـ وكان فيه حدة ـ بعير واحد تضله ؟

فطفق يضرب الغلام بالسوط.

وتكهرب الجو . وسيد ولد آدم يرحم الغلام . فيرفع صوته حتى يسمعه الناس قائلاً :

« انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع » وهو يبتسم .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ،بأبى أنت وأمى يا حبيب الله. ماذا تفعل مع أحب الناس إليك فى الوجود يضرب غلامه بالسوط ؛ لأنه أضل بعيره . ولا يمكنك إلا أن

ترحم المسكين والغلام الضعيف والأرملة، فأنت الرحمة المهداة للخلائق كافة .فهل يحرم الغلام المذنب المقصر من رحمتك. لا ، بل يرفع صوته عليه الصلاة والسلام بالنقد لأحب الناس إليه واكتفى برفع صوته حيث يسمعه الناس ،فيأتون وينظرون إلى هذا المحرم يضرب غلامه بسوطه ، أليس هذا مظهراً مثيراً للنقد؟ بلى .ورسول الله ﷺ يتبسم فلا بد للغلام أن يؤدب : « انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع » وهو يتبسم وهو يريد لأبى بكر أن يكف وراح الناس يلغطون :لم يضرب سيد المسلمين غلامه ؟ وعرفوا السبب ؛ الناس جميعاً جلسوا إلى طعامهم يتناولونه ورسول الله ﷺ وأهله ، وصديقه الصديق وأهله لا طعام عندهم ولا زاد .فهل يهنأ لهم طعام ،وهل تنزل فى حلوقهم لقمة ورسول الله ﷺ وأهله جائعون محرومون من الزاد والطعام . لقد أراد رب العزة جل جلاله أن تكون التجربة مع عبده محمد ﷺ سيد خلقه .أن تضيع زاملته وزاملة صديقه . أن تضيع الزاملتين ليحسا بآلام الجوع أكثر . والضياع أكثر .وإلا فبعير الزاد يتمنى لو يحمحم ويذبحه رسول الله ﷺ ويأكله .ويتبارك بيديه الشريفتين .فكل ما فى الوجود فداء لسيد هذا الوجود عبد الله ورسوله محمد ﷺ .ولكنه كالناقة المأمورة التى شرقت وغربت وأناخت أمام بيت أبى أيوب الأنصارى .فالجمل مأمور أن يمضى فى الشعب.وأن تشيع فى المسلمين قصة ضياع زاملة رسول الله ﷺ وأهله،والصديق وأهله،وسرى الحديث فى المسلمين سريان الهشيم .فهم كل مسلم أن يحمل غداءه، ويقدمه لرسول الله ، ليباركه له . لكن الفضل والسبق كان لفضالة الأسلمى فعن آل فضالة الأسلمى أنهم خبروا أن زاملة رسول الله ﷺ ضلت ، فحملوا جفنة من حيس فأقبلوا بها حتى وضعوها بين يدى رسول الله ﷺ) .

ورآها رسول الله ﷺ سانحة ليصرف أبا بكر عن تأديب غلامه فناداه :

فجعل يقول: « هلم يا أبا بكر .فقد جاءك الله بغداء طيب » .

ولم يكن لأبى بكر بد أن يستجيب لنداء سيده ﷺ .لكن الغيظ من غلامه لم يشتف بعد ، وجعل أبو بكر يغتاظ على الغلام .فقال له رسول الله ﷺ :

« هوِّن عليك فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا معك ، فقد كان الغلام حريصاً ألا يضل بعيره . وهذا خلف مما كان معه» .

إنه رسول رب العالمين يربى خليفة رسول رب العالمين .بألا يستجيب إلى حدته ،

وأن يكظم غيظه .وأن يكون صدره رحباً لأخطاء رعيته غداً عندما سيكون خليفة فيها. فلا يستجيب للسوط مع أول بادرة .وأن يراعى نفسيات الناس ، ويغفر زلاتهم ؛ لأنهم كانوا حريصين ألا يزلوا.مثل حرص هذا الغلام ألا يضيع بعيره وأن فى كل هذه الأمور حكمة « فالأمر ليس لك ،ولا إلينا »، فهناك حكمة ربانية عليا فى أن يضيع بعير رسول الله ﷺ،ليصبر كل من يضيع راحلته ،ويُضيِّع زاملته ،ولا يروى غيظه بغلامه أو بولده أو بزوجه إن نسوا شيئاً لم يحضروه معهم فى هذا السفر،أو أضاعوا شيئاً مما أحضروه ، أو اجتهدوا فى إحضار شىء لاحاجة له . لا بد أن يسترفقوا المبدأ دائماً :

المبدأ الذى يقول : « إن الأمر ليس لك وليس إلينا ».

والمبدأ الذى يقول :« إنه كان حريصاً على ألا يضل بعيره » .

مبدأ القدر المقدور ، ومبدأ العذر للمعذور .ثم تمضى بعدها الأمور على هيئتها ويهيئ الله بديلاً للمفقود والمنشود . ومن أجل ذلك ،وبعد أن انتهى الدرس التربوى :

(ثم أكل رسول الله ﷺ وأهله ،وأبو بكر ومن كان معه يأكل حتى شبعوا) .فقد كانت ضيافة نبوية عند آل فضالة الأسلمى أكرمهم الله تعالى بها)؛ لأن البعير والزاملة قد حضرا ،فلم يلبث أن طلع صفوان بن المعطل وكان على ساقة الناس والبعير معه وعليه الزاملة ،فجاء حتى أناخ على باب منزل رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر :« متاعك ».

وقام الصديق فتفقد متاعه كله .ليرى ما فقد منه وما بقى كما وجهه رسول الله ﷺ.

وأبرق وجهه من السرور ،فالمتاع كله موجود .إلا قعب الماء الذى يشربون به . وجاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : (ما فقدت شيئاً إلا قعباً لنا نشرب فيه .فقال الغلام: هذا القعب معى) .

فكل متاعه وزاده ومتاع رسول الله ﷺ وزاده كما هو على ظهر البعير .ونظر الصديق إلى صفوان. أليس هو أثار الناس التهم عليه عندما أحضر عائشة رضي الله عنها من البادية حين تخلفت عن الجيش ،وتذكر أن الله تعالى برأ عائشة وصفوان من إفك الأفاكين. فازداد قدر صفوان فى عينيه . وقال له :

« أدى الله عنك الأمانة » .

لكن المفاجأة أن سيد الخزرج سعد بن عبادة قد حضر . لا ليقدم زاداً لرسول الله ﷺ لهذه الوصية . إنما حضر ومعه ابنه قيس . ومعهما بعير وزاملة. بديلاً عن البعير والزاملة المفقودة .

(وجاء سعد بن عبادة وابنه قيس بن سعد بزاملة تحمل زاداً يؤمان رسول الله ﷺ حتى يجدا رسول الله ﷺ واقفاً عند باب منزله قد أتى الله بزاملته .

ولا يصلح لسعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أجواد العرب الكبار أن يأتى بزاد فقط لمثل هذه الوجبة ، إنه مضيف الإسلام كله . فلا بد أن يكون الحل كاملاً وشاملاً لضياع زاملة سيد الخلق ، وذلك بإحضار زاملة مماثلة زاداً ومتاعاً فهذا الذى يتناسب مع أمجاده العظام هو وابنه قيس. أليس ابنه قيس قد أطعم الجيش كله بالدين ، فاشترى جمالاً وذبحها على أن يعطى ثمنها للأعرابى فى المدينة من التمر ؟ أليست جفنة سعد بن عبادة كانت تدور مع رسول الله ﷺ حيث دار من بيوتات النبى ﷺ مملوءة ثريداً ولحماً للضيافة العامة ؟ ألم يكن سعد ينقلب بثمانين من أهل الصفة إلى بيته فيطعمهم ويعيشهم جميعاً ؟ فهل يرضى سعد رضي الله عنه بوجبة غذاء مباركة وانتهى الأمر. إنه يحس بنفسه أنه مسؤول الضيافة النبوية لرسول الله ﷺ ولضيفانه .

(فقال سعد : يا رسول الله ، قد بلغنا أن زاملتك أضلَّت مع الغلام ، وهذه زاملة مكانها) .

فقال رسول الله ﷺ : « قد جاء الله بزاملتنا . فارجعا بزاملتكما بارك الله عليكما».

وهو درس تربوى لكل الأثرياء الكبار يتعلمونه من سيد الخزرج سعد بن عبادة ، كيف يتصرف العظماء فى الأزمات . أما سعد فقد قرت عينه بهذه الدعوة : « بارك الله عليكما » .

لكن سيد ولد آدم لا يرضى أن يعيد سعدا وابنه بهذه الدعوة فقط . فهذا النموذج العظيم الذى عنده . لا يكتفى برده والدعاء له ولابنه الجواد قيس بن سعد . فهو يذكر جهده المستمر الدؤوب فى استضافة الوفود . واستضافة الفقراء وفى استضافة الأغنياء والفقراء على سواء . فيتابع حديثه ﷺ لسعد: « أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا فى ضيافتك منذ نزولنا المدينة ؟» .

لقد كانا زعيمين من عشيرة واحدة . سعد بن عبادة. وعبد الله بن أبى. أوكل إلى الأول بناء دولة الإسلام ، ورضى الثانى أن يكون الساعى لهدم دولة الإسلام. حتى قبحه الله تعالى فى كتابه الكريم فذكر قوله وصنيعه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧)﴾ [المنافقون]

قال سعد ـ وهو الذى يعلم ما شرفه الله تعالى به أن يكون مضيفاً لرسول الله ﷺ وضيوفه: (يا رسول الله، المنة لله ولرسوله . والله يا رسول الله للذى تأخذ من أموالنا خير من الذى تدع ، وصدق سعد بن عبادة . فقد صدّقه ربه سبحانه حين قال عنه وعن أمثاله : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر].

وشتان شتان بين من يؤثر على نفسه لو كان به خصاصة . ومن يريد أن يمنع رفد المال حتى تستذل الرجال ؟ ولم يكتف رسول الله ﷺ بإيناس سعد بهذا اللقاء. فتابع حديثه معه وهو يعلم كم سيألم سعد أن ردت هديته فقال له .

« صدقتم يا أبا ثابت. أبشر فقد أفلحت. إن الأخلاق بيد الله عز وجل ، ومن أراد أن يمنحه الله خلقاً صالحاً منحه . ولقد منحك الله خلقاً صالحاً »(١).

وأى بشارة فى الدنيا تعدل هذه البشارة . ولو وضع ماله كله « أبشر فقد أفلحت » ولم يكتف رسول الله ﷺ بهذا الوسام إنما اتبعه بثان أعظم من الأول:

«ولقد منحك الله خلقاً صالحاً ».

قال سعد : الحمد لله الذى هو فعل ذلك) دون أن يبطر أو ينتفش أو يأخذه الغرور. فالعطاء من الله . وما أحلى عطاء الله تعالى له .

وجاءته شهادة ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ بجود سعد بن عبادة قائلاً :

(يا رسول الله، إن أهل بيت سعد فى الجاهلية سادتُنا . والمطعمون فى المحل منا).

وكانت السيادة فى الجاهلية والإسلام وسام ثالث من رسول الله ﷺ . وفى حكم أطلقه صلوات عليه لتقوّم البشرية عامة ، والعرب خاصة على ضوئه .

قال رسول الله ﷺ:

---

(١) مسلم (ح ٢٦٣٨) .

« الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، لهم ما أسلموا عليه » [1].

إن الكلمة النبوية الخالدة لتخرج جواباً فى لحظة على أمر أو تعليقاً على موقف،وسرعان ما تنداح فتملأ الزمان والمكان .وتملأ الأرض وتملأ التاريخ ،وتخرج من إطارها المحلى ،ومن ثوبها الآنى . لتصبح دستوراً لأهل الأرض كلهم ، مسلمهم وكافرهم،وتصبح عبر القرون كلها حتى يرث الأرض ومن عليها .تتربى الأجيال عليها. وينهل من معينها حكماء الأرض وعلماؤهم .وتصبح مبدأ ثابتاً من مبادئ هذا الدين العظيم .يتربى المسلمون فى أجيالهم عليه .

وهذه المبادئ الثلاثة التى انطلقت فعمرت الأرض إضافة إلى المبادئ الثلاثة السابقة.

المبدأ الرابع : « إن الأخلاق بيد الله عز وجل ».

المبدأ الخامس: «ومن أراد الله يمنحه منها خلقاً صالحاً منحه » .

المبدأ السادس: « الناس معادن ».

المبدأ السابع : «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . لهم ما أسلموا عليه ».

أسبوع جديد من المسيرة :

(ونزل رسول الله ﷺ السقيا [2]يوم الأربعاء .ثم أصبح رسول الله ﷺ بالأبواء[3] فأهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار يقطر دماً .فرده رسول الله ﷺ وقال: « إنا حرم » .

ونلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ قبل هدية الرجل البهزى الذى صاد حمار الوحشى،ولم يقبل هدية الصعب بن جثامة .والفرق بين الحالتين ؛ أن ذاك الحمار لم يصده صاحبه البهزى للمسلمين ،إنما صاده لنفسه ،وحضر رسول الله ﷺ والمسلمون، فوهبهم له أما فى الحالة الجديدة للصعب بن جثامة وصيده . فقد صيد خصيصاً

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ .

(٢) السقيا : قرب الأبواء .

(٣) الأبواء : قرية من أعمال الفرع بينها وبين الجحفة ثلاثة وعشرون ميلاً ، وبها قبر آمنة أم النبى ﷺ .

لرسول الله ﷺ والمسلمين. وهذا يحرم أكله إن صيد للمحرمين .

يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ:

« صيد البر لكم حلال إلا ما صِدتم أو صيد لكم ».

وأبلغ الصعب رضي الله عنه سبب الرفض وقال: « إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم » .

كما تحدثنا عائشة رضي الله عنها عن حديث خاص بينها وبين حبيبها عليه الصلاة والسلام جرى بين السقيا والأبواء فى مكان اسمه القاحة [1]، فتقول: أحرمت مع رسول الله ﷺ وتطيبت. فلما كنا بالقاحة سال من الصفرة على وجهى فقال: « ما أحسن لونك الآن يا شقيراء » .

إنها ابنة التاسعة عشرة ،وأمثالها لم يتزوجوا بعد ،وقد فازت بالزواج من رسول الله ﷺ منذ عشر سنين .فلم لا تتحدث إلى الخلق كافة عن إعجاب سيد ولد آدم بها وبجمالها ، وبزينتها .وأن ذلك كان وهما محرمان وقد سال الطيب الأصفر على وجهها فزادها تألقاً وجمالاً . ونقلت لنا فى عالم الزينة والجمال هذا النص: «ما أحسن لونك الآن يا شقيراء ».

ونمضى مع ذلك الشاب الآخر عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذى يتتبع أثر رسول الله ﷺ تحت كل ظل شجرة ،وفى قلب كل ذرة رمل .

(فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد الذى ينظر وادى الأبواء ،على يسارك وأنت موجّه إلى مكة .ثم راح النبى ﷺ من الأبواء فصلى تبلعات اليمن. وكان هناك سمرة. كان ابن عمر يخبر أن النبى ﷺ جلس تحتها .وكان ابن عمر يصب الإداوة تحتها إذا مر بها يسقيها). بينما يطالعنا معاوية رضي الله عنه الشاب الثالث بطعام كان يأكله النبى ﷺ ولم يتوضأ من أكله فيقول:(رأيت رسول الله ﷺ يأكل بالأبواء لباءً مقشى [2] أهدى له من ودان .ثم قام فصلى ولم يتوضأ) .

وعن ابن عمر قال:(صلى رسول الله ﷺ فى المسجد الذى هناك حين يهبط من ثنية أراك على الجحفة [3]،ونزل يوم الجمعة الجحفة) .

لقد وصل إلى منتصف الطريق فى الجحفة يوم الجمعة .فقد استغرق سفره أسبوعاً

---

(١) القاحة : واد فيه مدينة السقيا وينتهى بالأبواء .

(٢) لباءً :حب كالحمص والمقشى : المقشور

(٣) الجحفة : تبعد عن رابغ ٢٢ كيلاً وهى منتصف الطريق بين مكة والمدينة .

كاملاً حتى انتهى إليها ، لكنه ﷺ لم ينزل فيها حيث (راح منها فصلى فى المسجد الذى يُحرم منه مشرفاً خارجاً من الجحفة والمسجد الذى دون خم عن يسار الطريق . فكان يوم السبت بقديد . فصلى فى المسجد المشلل ، وصلى فى المسجد الذى أسفل من لفت) (١).

الحادثة الوحيدة التى ذكرت فى هذا المسير هى حادثة المرأة التى تحمل ابنها الصغير. يقول ابن عباس رضي الله عنهما : مر النبى ﷺ يومئذ بامرأة فى محفتها ومعها ابن صغير لها. فأخذت بعضده فقالت : يا رسول الله ، ألهذا حج ؟ فقال : « نعم ولك أجر » . وكان يوم الأحد بعسفان) (٢).

فحتى هذا الطفل الصغير ،حين تحج عنه أمه أو أبوه ،فلهما أجر فى ذلك .مع أنه لم يفرض عليه الحج بعد ولم يبلغ سن البلوغ .فأولياؤه لهم أجر الحج عنه .

أما فى عسفان فيطلع علينا عالم جديد ، هو وصل هذا البيت العتيق بأجداد هذه الأمة حتى قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام،فهو قد رفع القواعد من البيت ،والبيت مكانه معروف لدى إبراهيم .لكنه مغمور .وجاء هو فأعاد بناءه .ولا أدل على ذلك من هذه الشهادة النبوية الخالدة .

فلما مرّ رسول الله ﷺ بوادى عسفان .قال:« يا أبا بكر ، أى واد هذا؟ » ، قال: وادى عسفان قال:

« لقد مر به هود وصالح ،على بكرين أحمرين خطمهما ليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون . يحجون البيت العتيق ».

فالأمر أقدم من إبراهيم ،إنه مع هود وصالح وقومهما الذين تطلق عليهم العرب: العرب البائدة ولئن بادت. فقد ذكرها الله تعالى عنده فى كتابه،وذكر موقفها من أنبيائه . وذكر هلاكها فى حربها لله ورسوله. وها هنا يضيف لنا رسول الله ﷺ الخوالد الأوابد. ويصف لنا إحرامهما وثياب إحرامهما كمن يعرض فيلماً وثائقياً مشهوداً .فلون الجملين أحمر،وخطامهما ليف .أما النبيان العظيمان .فإحرامهما من الإزار والرداء .كان مشهوراً . فأزرهم العباءة ،وأرديتهم النمار.

وإذا الأمة مسلمة من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى النبى الخاتم،وأتباعه على

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٣/١٠٩٦ ، ١٠٩٧ .

نهجه إلى يوم القيامة وآخر مطافنا قبل دخولنا مكة هو بسرف [1] حيث الذكريات العزيزة هناك لإحدى النساء القابعات فى هودجهن؛لميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين ، ذكرى أسعد لحظات حياتها. حيث بنى بها رسول الله وهو عائد من عمرة القضاء قبل سنتين،وها هنا يتوقف الجيش ليستريح. أما هى فتمضى فى نشوتها الحالمة. وبما أكرمها الله تعالى به أن صارت أماً للمؤمنين فى الأرض. وبنى بها رسول الله ﷺ فى هذا المكان.

من هذه السعادة الحالمة ،والفرحة الغامرة ،والنشوة البهيجة لميمونة إلى بكاء وألم وحرقة لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فى المكان نفسه. ندع عائشة رضي الله عنها تنقل لنا هذه المشاعر.

فهى أدبية الإسلام العظيمة التى لا يباريها فى هذا المجال أحد. تقول رضي الله عنها :

خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج .حتى جئنا سرف فطمثت . فدخل علىَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكى . فقال : « ما يبكيك؟» فقلت:

والله ،وددت أنى لم أكن خرجت العام .قال: « مالك ؟ لعلك نفستِ ؟ » قلت:نعم . قال : « هذا شىء كتبه الله تعالى على بنات آدم .افعلى ما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت حتى تطهرى ». قالت: فلما قدمت مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اجعلوها عمرة » فأحل الناس إلا من كان معه هدى . . .) [2].

لقد رأت رضي الله عنها الحيض سوف يفقدها الحج ، وفى سنها المرهف هذا فى التاسعة عشرة من عمرها وقد لا تتكرر لها هذه المناسبة . ففاضت عيناها بالدموع . بعد هذا الجهد الطويل من المدينة إلى سرف. وضاقت الدنيا بعينيها حتى تمنت لو أنها لم تأت ولم تشارك فى هذه المسيرة. وجاء حبيبها فدخل عليها وهى تبكى، وبثته همومها ولواعجها . ومن لها سواه تبثه هذه الهموم .وفتح صدره الشريف لهذا الألم الذى تعانى منه أحب نساء الأرض إليه .فخفف عنها قائلاً: « هذا شىء كتبه الله على بنات آدم ، افعلى ما يفعله الحاج غير ألا تطوفى بالبيت حتى تطهرى » وانفرجت أساريرها وكأنما ملكت الدنيا بحذافيرها .وانضمت إلى ضرتها ميمونة وبقية النسوة التسع اللاتى جئن حاجّات مع محرمهن رسول الله ﷺ تغمرهن السعادة بهذه الرفقة التى هى رفقة العمر .

(ثم نهض رسول الله ﷺ إلى أن نزل بذى طوى ،وهى المعروفة بآبار الزاهر .

---

(١) سرف : واد متوسط الطول من أودية مكة على بعد ١٢ كيلاً شمالى مكة .

(٢) صحيح مسلم (ح ١٢١١) .

فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة ،وصلى الصبح، ثم اغتسل من يومه)(١).

ومن سرف إلى ذى طوى كان الأمر فى العمرة من الاستحباب إلى الوجوب.

وقال ﷺ لما كان بسرف لأصحابه :« من لم يكن معه هدى. فأحب أن يجعلها عمرة ،فليفعل ومن كان معه هدى فلا» (٢).

قال ابن القيم :وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الميقات . فلما كان بمكة أمر أمراً (حتماً) من لم يكن معه هدى أن يجعلها عمرة ، ويحل من إحرامه .ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه .ولم يَنْسَخْ ذلك شىء ألبته ،بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ إليها ، هل هى لعامهم ذلك أم للأبد ؟ فقال:« بل للأبد،وإن العمرة قد دخلت فى الحج إلى يوم القيامة »(٣).

وقد روى عنه ﷺ الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من الصحابة رضى الله تعالى عنهم وأحاديثهم صحاح (٤) ـ قال الصالحى :(وسرد أسماءهم والدليل على صحة مذهبه فى عشر ورقات سيأتى التحقيق فيه بعد تمام القصة) (٥) .

ومن هؤلاء الصحابة الأربعة عشر. نذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فى عرضها المثير الأخاذ.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذى الحجة أو خمس ودخل عليّ وهو غضبان؟ فقلت: من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار .

قال: أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا يترددون (قال الحكم : كأنهم يترددون أحسب) ولو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى معى حتى أشتريه ثم أحل كما أحلوا) (٦) لقد غضب رسول الله ﷺ ممن تردّد فى تنفيذ الأمر .ثم نفذه. فكيف بمن لا ينفذه أبدا .أولئك مأواهم النار وهم ظالمون .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٣١ .

(٢، ٣) المصدر نفسه عن زاد المعاد ١/ ٢٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٢٠٣ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ١٣١ .

(٦) صحيح مسلم (ح ١٢١١) .

خامساً : دخول مكة والعمرة النبوية

أولاً: الطواف:

(ونهض رسول الله ﷺ إلى مكة من أعلاها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون ،وكان فى العمرة يدخل من أسفلها ،وفى الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها. ثم صار حتى دخل المسجد ضحى .

وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ ودخلنا معه من باب بنى عبد مناف ـ وهو الذى تسميه الناس باب بنى شيبة . . . فلما نظر إلى البيت كبر وقال:

«اللهم أنت السلام ،ومنك السلام ،فحينا ربنا بالسلام ،اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة،وزد من عظّمه ممن حجه واعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبرّاً».

وروى الطبرانى عن حذيفة بن أسيد: أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر إلى البيت قال: « اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً ومهابة» .

فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عمد إلى البيت ،ولم يركع تحية المسجد،فإن تحية المسجد الحرام الطواف .

وكان طوافه ﷺ فى هذه المرة ماشياً .فقد روى البيهقى بإسناد جيد ـ كما قال ابن كثير ـ عن جابر بن عبد الله قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى . فأتى النبى ﷺ باب المسجد فأناخ راحلته،ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه ولم يزاحم عليه،قلت: وقال لعمر: « يا عمر ، إنك رجل قوى لا تزاحمْ على الحجر تؤذى الضعيف . إن وجدت خلوة فاستلمه ،وإلا فاستقبله» وهلل وكبر.رواه الإمام أحمد وغيره،والله تعالى أعلم.

قلت :وروى ابن سعد عن عبد الله بن السائب رضى الله تعالى عنه قال:

كان رسول الله ﷺ يقول بين الركنين:اليمانى ،والحجر الأسود: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ [البقرة] .

ورمل ﷺ فى طوافه هذه الثلاثة أشواط .قلت: من الحجر إلى الحجر ،رواه الإمام أحمد وأبو يعلى.

وكان يسرع مشيه ،ويقارب بين خطاه . واضطبع بردائه فجعله على أحد كتفيه ، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه. وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه واستلمه بمحجنه وقبَّل المحجن. وهو عصا محسنية الرأس .

وروى الطبراني بإسناد جيد أنه ﷺ كان إذا استلم الركن اليماني قال: « بسم الله والله أكبر » ،وكان كلما أتى الحجر الأسود قال: « الله أكبر » .

قلت : واستسقى رسول الله ﷺ في طوافه. رواه الطبراني عن ابن عباس.

فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ [البقرة :١٢٥] . فصلى ركعتين ،والمقام بينه وبين البيت ـ قرأ فيهما بعد الفاتحة .

قلت في حديث جابر: أنه قرأ فيهما ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ و ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ والله تعالى أعلم فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله) (١) .

ثانيا : السعي :

ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله ، فلما دنا منه قرأ ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلما دنا منه قرأ ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾ أبدأ بما بدأ الله به » ، وفي رواية النسائي : « ابدؤوا على الأمر ثم رقى عليه حتى إذا رأى البيت فاستقبل البيت فوحد الله تعالى وكبره وقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم دعا بين ذلك ، قال مثل ذلك ثلاث مرات.

وقام ابن مسعود على الصدع وهو الشق الذي في الصفا .فقيل له : ها هنا يا أبا عبد الرحمن ، قال: هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة .ثم نزل إلى المروة يمشي .فلما أنصبت قدماه في بطن الوادي سعى ،حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى ـ كما في حديث جابر ـ عند الإمام أحمد ومسلم من طريق جعفر بن محمد .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٨/ ٦٣١ ـ ٦٣٦ ، مقتطفات .

قالا (ابن القيم وابن كثير) لكن روى الإمام أحمد ومسلم،عن جابر:أن رسول الله ﷺ طاف في حجة الوداع على راحلته بالبيت،وبين الصفا والمروة ليراه الناس . قلت : ويكون رسول الله ﷺ سعى راكباً جزم ابن حزم . . .

قالا: وفي الجمع بينهما وجه أحسن من هذا وهو أنه سعى ماشياً أولاً ، ثم أتم سعيه راكباً ،وقد جاء مصرحاً به . ففي صحيح مسلم عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس:أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً : أسنة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة . قال:صدقوا وكذبوا . قال: قلت: ما قولك صدقوا وكذبوا ؟ قال:

إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون : هذا محمد ـ حتى خرج عليه العواتق من البيوت ـ قال : وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه . فلما كثر عليه الناس ركب ، والمشي أفضل.

قلت: وفي حديث يعلى بن أمية عند الإمام أحمد أنه رأى رسول الله ﷺ مضطبعاً بين الصفا والمروة ببرد نجراني .

وروى البيهقي عن قدامة بن عمار قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة على بعير ،لا ضرب ،ولا طرد،ولا إليك إليك .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد والبزار برجال ثقات عن علي رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ كاشفا عن ثوبه حتى بلغ ركبتيه .

وروى الإمام أحمد والطبراني عن حبيبة بنت أبي تجراة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ،والناس بين يديه ،وهو وراءهم ،وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: « اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي» .وفي الكبير قال : رأيته من شدة السعي يدور الإزار حول بطنه وفخذيه حتى رأيت بياض فخذيه .

قلت :وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أنه كان إذا سعى في بطن المسيل قال : « اللهم اغفر وارحم ،وأنت الأعز الأكرم» رواه الطبراني .

وفي حديث ابن علقمة عن عمه : أنه ﷺ كان إذا جاء مكاناً من دار يعلى استقبل البيت ودعا ، رواه الإمام أحمد .

قال ابن حزم : وطاف رسول الله ﷺ راكباً على بعير يخب ثلاثاً ويمشي أربعاً .

قالا: وكونه خب ثلاثة أشواط بين الصفا والمروة ومشى أربعاً لم يتابع على هذا

القول ،ولم يتفوه به أحد قبله .وإنما هذا فى الطواف فى البيت .

وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة رقى عليها واستقبل البيت وكبَّر الله وحده ، وفعل كما فعل على الصفا . فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتماً ولا بد قارنًا كان أو مفردًا . وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية .ولم يحل هو من أجل هديه . فحل الناس كلهم إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى .ومنهم أبو بكر وعمر ، وطلحة والزبير قال : « ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة ». وهناك سأله سراقة بن مالك بن جعشم وهو فى أسفل الوادى لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة والإحلال : يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى فقال : « لا » . ثلاث مرات . « دخلت العمرة فى الحج » مرتين أو ثلاثاً « بل الأبد بل الأبد . فحل الناس كلهم إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى .

قلت : وأمْرُهُ ﷺ من لم يسق الهدى بفسخ الحج إلى العمرة رواه عنه خلائق من الصحابة وقد اختلف العلماء فى ذلك . فقال مالك والشافعى :كأن ذلك من خصائص الصحابة . ثم نسخ جواز الفسخ كغيرهم وتمسكوا بما رواه مسلم عن أبى ذر : لم يكن فسخ الحج إلى العمرة إلا إلى أصحاب محمد ﷺ . وأما الإمام أحمد فردَّ ذلك ، وجوَّز الفسخ لغير الصحابة .

وهنا دعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً وللمقصرين مرة .

فأما نساؤه فأحللن وكن قارنات إلا عائشة ﵂ فإنها لم تحل من أجل تعذر الحل عليها بحيضتها. وفاطمة حلت؛ لأنها لم يكن معها هدى ،وعلىٌ لم يحل من أجل هديه. وأمر من أهل كإهلاله ﷺ أن يقيم على إحرامه إن كان معه هدى .وأن يحل من لم يكن معه هدى .

رواه الطبرانى برجال ثقات والله أعلم .

وسار رسول الله ﷺ قبل التروية بيوم . فقلنا غداً إن شاء الله بالخيف حيث تقاسم المشركون. ثم سار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقى مكة فى قبة حمراء من أدم ضربت له هناك .وهناك كما قال ابن كثير : قدم علىٌ من اليمن ببدن رسول الله ﷺ محرشاً لفاطمة ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ـ ثلاثاً ـ أنا أمرتها يا على بم أهللت ؟» قال : قلت:اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك . قال : ومعى

هدى. قال: « فلا تحل » .

فكان جملة الهدى الذى قدم به علىٌ من اليمن والذى ساقة رسول الله ﷺ من المدينة مائة بدنة. وكان يصلى مدة مقامه هنا إلى يوم التروية بمنزله الذى هو نازل فيه بالمسلمين بظاهر مكة، فأقام بظاهر مكة أربعة أيام يقصر الصلاة: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء.

قلت: ولم يعد إلى الكعبة كما فى الصحيح عن ابن عباس .

وفى حديث أبى جحيفة عند الإمام أحمد والشيخين : أنه أتى رسول الله ﷺ بالأبطح وهو فى قبة له حمراء، فخرج بلال بفضل وضوئه، فمن ناضح ومن نائل قال : فأذن بلال. فكنت أتتبع فاه ها هنا وها هنا يعنى: يميناً وشمالاً .ثم خرج بلال بالعنزة بين يديه . فخرج رسول الله ﷺ وعلى حلة حمراء .فكأنى أنظر إلى بريق ساقية . فصلى بنا الظهر والعصر ركعتين ركعتين تمر المرأة والكلب والحمار من وراء العنزة . فقام الناس فجعلوا يأخذون بيده فيمسون بها وجوههم .قال : فأخذت يده فوضعتها على وجهى ، فإذا هى أبرد من الثلج .وأطيب ريحاً من المسك، والله تعالى أعلم .

قلت: قال ابن سعد .فلما كان قبل التروية بيوم خطب بمكة بعد الظهر (١) .

أولاً :دخول مكة والبيت الحرام :

لقد كانت ذى طوى آنذاك خارج مكة المكرمة .وتهيأ رسول الله ﷺ مع الحجيج الإسلامى لدخول مكة .فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة .وصلى بها الصبح .ثم اغتسل من يومه ،ونهض إلى مكة من أعلاها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون(٢) . . ثم صار حتى دخل المسجد.

إنه غسل خاص لدخول مكة والبيت الحرام .رغم أنهم قادمون شعثاً غبراً ملبين فى ثياب الإحرام . فهذا لا يتعارض أبداً مع النظافة .والإسلام دين النظافة، والبيت العتيق، إضافة إلى دخوله بمناسك العمرة ، مضت سنة أن يغتسل المسلم كل مسلم على وجه الأرض إذا أراد دخول مكة والبيت العتيق.

ودخل ﷺ مكة من الثنية العليا التى تشرف على الحجون ، ويده على قلبه الذى يخفق فها هنا قبر زوجه خديجة بنت خويلد. التى عاشت فترة المحنة وتوفيت رضي الله عنها

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى مقتطفات ص ٦٣١ ـ ٦٤١ .

(٢) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها ، وقال السكرى : مكان من البيت على ميل ونصف، وقال الأصمعى: هو الجبل المشرف بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين .معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

والمسلمون محاصرون فى الشعب ،وها هم اليوم يدخل زوجها عليه الصلاة والسلام وخلفه العرب كلهم. والذين مثلوا بهذا الوفد ، مائة ألف حاج وعشر سنين فقط غيرت هذا التاريخ كله ،من حصار الشعب إلى إسلام العرب .

وكانت السُّنة الثانية ، هى دخول البيت العتيق من باب بنى عبد مناف ، أليس بنو عبد مناف أهله عليه الصلاة والسلام ، ألم يكن منذ أن كان صغيراً يدرج حتى الثالثة والخمسين من عمره وهو يدخل من هذا الباب .والذى تغير مع مر الزمن وصار اسمه باب بنى شيبة .وبرزت الكعبة للناظرين ،وترقرقت الدموع فى المآقى وهطلت الدموع من المهاجر. هذا بيت الله العتيق ،بيت الله القديم قدم الإنسان على هذه الأرض.

فلما نظر إلى البيت واستقبله ،رفع يديه وكبر وقال: « اللهم أنت السلام ،ومنك السلام . فحينا ربنا بالسلام » .

يالها من كلمات خالدة على مر الزمن .الله أكبر ، اللهم أنت السلام .فقد اختار النبى ﷺ من بين أسماء الله الحسنى السلام ، السلام فى الأرض ، والسلام فى الجنة . ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس] أليس هدف البشرية اليوم السلام ـ كما تدعى وتزعم .حتى وهى تقذف قنابلها وصواريخها لماذا ؟ من أجل السلام. فهذا هدى نبوى خالد فى بلد السلام بلد الأمن الذى يأمن فيه الطير والشجر والإنسان « اللهم أنت السلام ومنك السلام . فحينا ربنا بالسلام » فى الدنيا والآخرة فليس الموقع موقف حرب ورعب وضرب . هو موقف استسلام لله عزوجل . سيد ولد آدم وخلفه سيدة الأمم ، وسيدة الأجيال يتجهون بقلوبهم إلى الله تعالى ،الله السلام ومنه السلام .وتحيتهم فى الجنة سلام . ومنذ ذلك الوقت غدا هذا الباب،باب بنى عبد مناف ، باب بنى شيبة ،غدا باب السلام ،ومنه يسن الدخول،ومنه يسن الدعاء عند رؤية الكعبة المشرفة .

«اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ،وتكريماً ومهابة وزد من عظمه ممن حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفا وتعظيماً وبرا» إنه التعظيم للبيت حتى عند فتح مكة .حتى عند الحرب ،ودخولها بثياب المحارب .كان سعد بن عبادة يقول: اليوم يوم الملحمة ،اليوم تستحل الحرمة، اليوم تذل قريشاً. كان الموقف النبوى والرد النبوى:

« اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة ،اليوم أعز الله قريشاً ». فكيف اليوم وقد جاء الحجيج كله معظماً لهذا البيت .فلا بد أن يفتتح دخوله بالسلام ، ثم الدعاء لكل من يعظم هذا البيت ويشرفه ويكرمه شرفاً وكرامة ومهابة وبرا .وانتقل هذا النص

من هنا . ليملأ آفاق الزمان والمكان فيمضى سنة خالدة لكل حاجٍّ أو معتمر مهما كانت جنسيته ولونه أو ثقافته أو عرقه، يسن له أن يقول هذا الكلام وهذا الدعاء .

ومن التعظيم اللفظى إلى التعظيم العملى إلى المسير مباشرة للحجر الأسود وتقبيله دون صلاة ركعتين سنة تحية المسجد فهو وحده من دون مساجد الأرض كلها يفتتح بالحب والتقبيل ، إنه حب رمزى للحجر الأسود لا يملك هذا العز غيره . لكن أن يتحول هذا الحب إلى وثنية جديدة بتصارع القوم من أجل تقبيله .فلا.

فتكفى عندها الإشارة المعنوية إلى هذا التقبيل ،الإشارة باليد وتقبيلها ،ويا لها من ذكرى عزيزة كذلك أليس هذا الحجر الأسود هو الذى وضعه رسول الله ﷺ بيده الشريفة فى هذا المكان .يوم اختلفت قريش من يفوز بهذا الفخر العظيم .وكادت تقع حرب تفنى قريشاً .ولتكن الحرب فى المفهوم الجاهلى على ثرى البيت الحرام ،ولا تفوز إحدى قبائل قريش بهذا اللقب ،وأعيدت التحالفات من جديد وأعيدت العصبية القبلية من جديد . لولا أن دخل رسول الله ﷺ الكعبة ، ويترك له أمر حل هذه القضية فى محاولة أخيرة قبل حرب فاجعة مفجعة ، ودعا بثوب أخذ بأطرافه سادة القبائل بعد أن وضع الحجر فيه .وحل الصادق الأمين مشكلة الحرب بالسلام فكان سيد قريش آنذاك وها هو الآن سيد العرب يخاطب عمر رضي الله عنه : « يا عمر ، إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر تؤذى الضعيف.إن وجدت خلوة فاستلمه ،وإلا فاستقبله وهلل وكبر» رواه الإمام أحمد وغيره .

لكن اللقطة التليفزيونية للحظات التقبيل للحجر الأسود ،ثم التركيز فيها على وجه الحبيب المصطفى ﷺ .« وفاضت عيناه بالبكاء ».

وألهبت هذه المشاعر الولهى شاعرالإسلام العظيم الأميرى ـ رحمه الله ـ فراح يحدثنا عن مغزى تقبيلنا لهذا الحجر الذى قبله رسول الله ﷺ وصار سنة متبعة .يقول:

الحجـر الأسـود قبلتـه	يشفـى قلبى وكلى ولـه
لا لاعتقـادى أنـه نافـع	بـل لهيامـى بالـذى قبله
محمـد أطهـر أنفاسـه	كانت على صفحاته مرسله
قبّلتُ ما قبّلهُ ثغره الناطق	بالوحى ابتغاء الصله (١)

ورواية البيهقى تعطينا التسلسل فى الأمر:

(١) ديوان :مع الله ، للشاعر عمر بهاء الأميرى .

(دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى. فأتى النبى ﷺ باب المسجد فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه ، وفاضت عيناه بالبكاء. ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً حتى فرغ قَبَّلَ الحجر ووضع يديه عليه ، ومسح بهما وجهه) .

وقبل أن ننطلق مع الحبيب المصطفى فى طوافه لابد أن نشهده وقد اضطبع بردائه. فأدخل رداءه تحت كتفه الأيمن وأرخى طرف الرداء الآخر على كتفه استعداداً للسعى.

إنه ﷺ تتكاثف عليه المشاعر. فها هو فى عمرة القضاء قبل ستين أو ثلاث يضطبع كما يضطبع اليوم ويقول لجنده : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة ». إذ كانت قريش تنظر من أعلى الجبال أو من بيوتها إلى جند محمد ﷺ يشمتون بهم قائلين: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب (١).

فلما رأوا ذلك التشمير والاستعداد للسعى والاضطباع بهرهم ذلك .(ورمل رسول ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم . هؤلاء أجلد من كذا وكذا)(٢).

ومع أن المشركين الشامتين لا وجود لهم اليوم .لكن رسول الله ﷺ. علمهم أن الإسلام دين القوة .وأن المحافظة على هذه الشعيرة تعنى تربية أعظم لهذا الجيل النبوى المعاصر وللأجيال التى تلته : أن نرى المشركين منا قوة ؛ لأن إرهاب عدو الله هدف يحول دون تجرئه على حرمات المسلمين ، ويوقف الحرب وويلاتها خوفا منها .

وبقيت هذه الشعيرة سنة طبقها عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع .فاضطبع ورمل ثلاثاً .لتحفظها الأجيال من بعده. ويحفظوا مدلولاتها من إظهار القوة لأعداء الله المحاربين ﴿ **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ونعنى من طرف آخر أن يكون المؤمن جاهزاً فى كل وقت لمواجهة عدوه من خلال التدريب المستمر والتهيؤ الدائم ﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ [النساء: ١٠٢] .

ومعنى ثالث تتربى الأجيال عليه هو أننا ونحن نعبد الله لا نغفل عن عدونا . وعدونا اليوم يصف المؤمنين بالمتماوتين الذين يقومون بصلاتهم فى المسجد . ويمضون إلى الحج هاربين من ذنوبهم ، وأن الحج للآخرة فقط . ويغفل المؤمنون عن أسرار هذه الشعائر التى استمرت رغم انتهاء مناسباتها. وبقى الاضطباع سنة ، وبقى رمل الأشواط

---

(١) البخارى ١/ ٢١٨ .
(٢) مسلم ١/ ٤١٢ .

الثلاثة سنة؛لتعلم الأمانة أننا ونحن نعبد نجاهد،ونحن نصلى نجاهد ،ونحن نحج نجاهد ونحن نطوف نجاهد . أو نتمثل أعمال المجاهدين.

والمعنى الرابع الذى يحضر من خلال أداء هذه الشعيرة : هو معنى صرف المسلمين عن السياسة والجهاد ، وإشغالهم فى العبادة والعمل للآخرة.إنه تصور مثير للإشفاق والسخرية عند الذين لا يعرفون طبيعة هذا الدين .ولا يعرفون أن السياسة والجهاد جزء من شعيرة العبادة نفسها ،نؤديها بكل التلاحم والتكامل دون أى تفريق بينها .

لقد كسب الإسلام أعظم أبطال التاريخ فى شعيرة عبادة رأى المسلمين عليها ـ فى شعيرة صلاة الخوف ـ وكان هذا البطل هو خالد بن الوليد:

يقول خالد رضي الله عنه :(فلقيت رسول الله وأصحابه بعسفان . فقمت بإزائه وتعرضت له. فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا . فاطلع على ما فى أنفسنا من الهموم (١) فصلى بأصحابه صلاة الخوف.فوقع ذلك منى موقعاً وقلت: الرجل ممنوع) (٢).ليس بين يدينا أثناء الطواف من شىء يذكر إلا ثلاث نقاط خارج إطار الطواف العملى:

الأولى : هى أن رسول الله ﷺ كان يقول بين الركنين :﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (٢٠١)﴾ [البقرة] .

ورب العزة جل جلاله يعلم لم كانت السنة فى ذكرهذه الآية بالدعاء فى هذا المكان بين الركن اليمانى والحجر الأسود .وفى هذا المكان كان مصلى رسول الله ﷺ فى مكة عندما كانت القبلة للمسجد الأقصى .وذلك حرصاً منه ﷺ الا يستدبر البيت ، ففى هذا المكان من الكعبة يستقبل عليه الصلاة والسلام الحرمين؛الكعبة والمسجد الأقصى. والذى نعرفه أن الإسلام دين الحياة ؛ ودين ما بعد الحياة فليس للآخرة فقط ، ولكنه للدنيا كذلك . وإن كان بعض الناس يريدون الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٢٠٢)﴾[البقرة] .

الثانية: وثبت عنه أنه استلم الركن اليمانى ،ولم يثبت عنه أنه قبّله،ولا قبل يده

---

(١) الهموم: هنا بمعنى الاستعداد للمهاجمة .

(٢) المغازى للواقدى ٢/٧٤٦.

حين استلامه. فالحجر الأسود مقامه التقبيل .والتمسح به لقول ابن عباس ﷺ :(كان رسول الله ﷺ يقبل الركن اليمانى ويضع خده عليه) رواه الدارقطنى. قال ابن القيم: المراد بالركن اليمانى هنا الحجر الأسود.

فإنه يسمى الركن اليمانى مع الركن الآخر يقال لهما: اليمانيان. . . ولكن ثبت أنه قبّل الحجر الأسود، وثبت عنه أنه استلمه بيده ، فوضع يده عليه ثم قبلها،وثبت عنه أنه استلمه بمحجنه ،فهذه ثلاث صفات .وروى عنه أنه وضع شفته عليه طويلاً يبكى .

إنه الحجر الوحيد فى الأرض الذى له هذه القداسة. تقبيلاً واستلاماً وتمسحا وبكاء. لم ذلك؟ لم يثبت فى الأحاديث الصحيحة سبباً لذلك .وقد روى أنه من الجنة .

الثالثة :وكان التحقيق بعد ذلك فى الاختلاف حول طواف النبى ﷺ الذى ورد فى أحاديث صحيحة .من أنه طاف راكباً .

قال ابن كثير :(حجة الوداع كان فيها ثلاثة أطواف؛هذا الأول. والثانى: طواف الإفاضة وهو طواف الفرض ،وكان يوم النحر. والثالث: طواف الوداع. فلعل ركوبه ﷺ كان فى أحد الأخيرين ،أو فى كليهما .فأما الأول. فكان طواف القدوم فكان ماشياً فيه. وقد مضى على هذا الإمام الشافعى - ﷺ - والدليل على ذلك ما رواه البيهقى بإسناد جيد عن جابر ﷺ قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى .فأتى النبى ﷺ باب المسجد ،فأناخ راحلته ثم دخل المسجد، فبدأ بالحجر ، فاستلمه ،وفاضت عيناه بالبكاء، ثم رمل ثلاثاً ،ومشى أربعاً حتى فرغ ، وقبل الحجر ، ووضع يديه عليه،ومسح بهما وجهه) (١).

(فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥] فصلى ركعتين - والمقام بينه وبين البيت - قرأ فيهما بعد الفاتحة : بسورة الإخلاص ؛قلت فى حديث جابر: إنه قرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ والله تعالى أعلم. فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذى يقابله .

إنها أول الصلة التعبدية مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام بانى البيت. فقد كانت المرحلة الأولى تعظيم بيت الله عز وجل بالطواف حوله، ثم كانت المرحلة الثانية إعلان الصلة مع الأب الروحى للإسلام ؛ مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو استجابة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٣٣.

للدعوة الصادقة :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وأثمرت الدعوة بعد ألفى عام ،وها هو الابن البار ﷺ ؛ يذكر مقام أبيه فى بناء الكعبة،ويقوم بأمر من ربه وراء هذا المقام ليصلى ركعتين . وقرّت عين إبراهيم بولده ﷺ ووراءه مائة ألف من المسلمين ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم:٣٧] وقبل أن يشرّع رسول الله ﷺ بالصلاة خلف المقام . تلا قول الله عز وجل ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥] .

فهى شعيرة تعبدية تفرض على المسلم الصلة بتاريخه الإيمانى العريق ،الممتد جذوره فى أعماق الزمن ليكون الناس المؤمنون أمة واحدة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[الحج: ٧٨] إنها حلقة الإيمان بين الماضى والحاضر والمستقبل ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج:٧٨] يجمعكم أنكم تمثلون ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ومن كان عنده أعرق وأعظم من هذا التاريخ فليدل بدلائه !

ولم يقرأ عليه الصلاة والسلام آية ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وما تلاها من الآيات .إنما قرأ بـ (الإخلاص) و (الكافرون) وذلك لجعل العقيدة ،هى الأساس الوثيق للرابطة .وليس الامتداد العاطفى فقط. وعندما تكون الرابطة هى العقيدة وهى التوحيد. فعندئذ تكون بنت الساعة لا بنت الامتداد التاريخى .

فقد سقطت الأصنام . قالها عليه الصلاة والسلام فى مكة معلنا التمايز على أساس العقيدة،وهو عاجز عن أن يفعل شيئاً مع الطغاة إلا إعلان التميزوالمفاصلة،ويعلن بعدها التوحيد أساس الحياة وأس الروابط،وها هو يقولها اليوم بعد رحلة ثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد والكفاح حتى غدت واقعاً عملياً وسقطت الأصنام ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء].وكانت هذه استراحة المحارب فى ظلال المقام واستراحة الداعية الذى يقود جحافل التوحيد وقوافل الحجيج.بهذا النداء الخالد والتوحيد الخالص.

ثانياً : سعى النبى ﷺ :

(ثم خرج إلى الصفا من الباب الذى يقابله ، فلما دنا منه قرأ: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨] .بدأ بما بدأ الله به ، وفى رواية النسائى :« ابدؤوا بما بدأ

الله به»،ثم رقى عليه حتى إذا رأى البيت فاستقبل البيت فوحد الله تعالى وكبره وقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ،ونصر عبده ،وهزم الأحزاب وحده ». ثم دعا بين ذلك ، قال: مثل ذلك ثلاث مرات . . .) .

ومن ذكريات أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ذكر أمنا هاجر عليها الصلاة والسلام،لقد كانت هاجر رضي الله عنها فى أعماق الحبيب المصطفى ﷺ،فهى أمه ، أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام .ولذلك لما جاءته مارية القبطية رضي الله عنها هدية من مقوقس مصر ، تذكر هدية هاجر من فرعون لإبراهيم أبيه .

وقال :« استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحمًا »[1].

هذا الرحم أن هاجر رضي الله عنها هى أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام

وبين الصفا والمروة شهد تاريخنا العريق سعى هاجر باحثة عن الماء لابنها إسماعيل كما فى الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما (وقد تقدم فى حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددادها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤهما، وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ،وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت عن ولدها الضيعة هنالك ، ونفذ ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عزوجل. فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها ، وفرّج شدتها،وأنبع لها زمزم التى ماؤها طعام طعم وسقاء سقم، فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه) [2].

وتكتمل الصورة يوم نرى الرمل فى الأشواط الثلاثة الأولى ، كانت ترمل أمنا هاجر فتسرع فى الوادى بين الجبلين . فكان من السنة هذا الرمل والاضطباع ـ فإذا كان الرمل والاضطباع عند الطواف فى أساسه ليريهم من نفسه قوة ، ثم مضت سنة متبعة . فكذلك الرمل والاضطباع عند هبوط الوادى تيمناً بأمنا هاجر عليها السلام وغدت سنة متبعة .وكانت كما روى عن النبى ﷺ (فقد روى الطبرانى والنسائى برجال الصحيح عن أم ولد شيبة بن عثمان: أنها أبصرت رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول :« لا يقطع الأبطح إلا شدا » وروى عبد الله بن الإمام أحمد والبزار برجال ثقات عن على رضي الله عنه أنه رأى النبى ﷺ كاشفا عن ثوبه حتى بلغ ركبتيه) وفى الكبير:

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦٣/١٠ وقال فيه : « رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح » .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩٩/١.

ولقد رأيته من شدة السعى يُدوِّر الإزار حول بطنه وفخذيه حتى رأيت بياض فخذيه .

إنه الاهتمام الشديد بالتاسى بالأم العظيمة هاجر، وتحول الذكرى إلى تاريخ، والحدث إلى عبادة منذ أيام إبراهيم إمام الأنبياء وزوجه هاجر إلى يومنا هذا إلى قيام الساعة .

الجديد الذى نتعلمه فى آداب نسك السعى:

١ـ ابدؤوا بما بدأ الله به .

٢ـ حتى إذا رأى البيت فاستقبل البيت .

٣ـ فوحد الله وكبّره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده .

٤ـ ثم دعا بين ذلك .

٥ـ قال: مثل ذلك ثلاث مرات .

لقد كان لنزول الآية الكريمة ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٥٨] سبب غير الأمر بالسعى .فمن هذه الأسباب:

١ـ تخرج الأنصار من الطواف بينهما :

فقد أخرج الإمام أحمد عن عروة عن عائشة قال: قلت: أرأيت قول الله عز وجل ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**. . .﴾ .

قلت : فوالله ، ما على أحد جناح إلا يتطوف بهما ، فقالت عائشة :

بئسما قلت يا بن أختى ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما . ولكنها أنزلت فى الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها من المشلل . وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ (١) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٨.

فتعظيم الأنصار لصنم مناة أدخل فى روعهم عدم الطواف بين الصفا والمروة. وعندما جاء الإسلام . أصبح ماضى الجاهلية كله موطن إعادة النظر لا بد من شرع جديد فيه يقره أو يلغيه أو يعدله .وليس الأمر بناء على الماضى .إنه شرع جديد أعلنه رسول رب العالمين حيث أمر المسلمين بقوله : خذوا عنى مناسككم .فكل شعيرة فى الماضى. يحتمل أن يكون دخلها من هوى الجاهلية ،وشرع الجاهلية ما أفسدها ، وصرفها عن التوحيد لله عز وجل .ولهذا كان المنطلق : «خذوا عنى مناسككم» .وليس حجوا كما كنتم تحجون فى الجاهلية.إلا كذا وكذا.ومن أجل هذا كان الأنصار قبل نزول فريضة الحج يقصدون البيت ويعظمون كما كان يقصده العرب ويحجون ويعتمرون. وعلموا أن الله تعالى قد أبطل الجاهلية .وعندما قام أحد الأنصار سعد بن زيد الأشهلى بهدم مناة الطاغية آلهة الأنصار التى كانوا يعبدونها ويهلون منها .وهدمت الطاغية مناة . بأمر رسول الله ﷺ بعد فتح مكة .هدمت مناة ولم يهدم الحرج من التطواف بين الصفا والمروة. ونقلوا حرجهم إلى رسول الله ﷺ ،الذى يأخذون دينهم منه .فنزل قول الله عز وجل ألا حرج بالطواف فى الآية المذكورة .

٢ـ الأمر بالطواف بالبيت ،لا بالطواف بين الصفا والمروة :

(وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة.فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ . . .﴾ قال أبو بكر ابن عبد الرحمن :فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء) (١) فكما أنزل الله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] ففهموا منها شعيرة الطواف بالبيت .كان لا بد من حكم آخر يتناول الطواف بين الصفا والمروة ،خاصة .وأن بعضهم كان يتحرج من الطواف بينهما ويعتبره من أمر الجاهلية .فنزل قول الله عز وجل الذى ينفى هذا الفهم ويؤكد أن الطواف بين الصفا والمروة هو من شعائر الله. فجاء التعبير القرآنى المعجز :﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾. فكأنما الجبلان هما الشعيرة .وليس الطواف بهما لإثبات هذا الحكم .والآية الكريمة هى التى أكدت شرعية هذا الطواف .

٣ـ كنا نراهما من أمر الجاهلية :

(ثم قال البخارى :حدثنا محمد بن يوسف عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية .فلما جاء الإسلام أمسكنا عنها ،فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (٢) .

(١، ٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٩ .

٤ـ التحرج من الطواف لوجود الآلهة عندهما :

(ذكر القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس : قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة . فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية . وقال الشعبى: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة . وكانوا يستلمونها . فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينها فنزلت هذه الآية. وذكر محمد بن إسحاق فى كتاب السيرة: أن أسافاً ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة، فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس . فلما طال عهدهما عُبدا ، ثم حُولا إلى الصفا والمروة . فنصبا هنالك. فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعريون ركبهم   لمفضى السيول من إساف ونائل[١]

المهم أن كل الروايات التى تتحدث عن سبب نزول الآية تنتهى إلى تحرج المسلمين من الطواف بين الصفا والمروة لاختلاط ذلك بأمر الجاهلية . وحيث جاء الإسلام ليربى هذه النفوس تربية جديدة ، ويصوغها صياغة خاصة . كان نزول الآية قبل حجة الوداع بقدسية الطواف بين الصفا والمروة . بأنهما من شعائر الله .

وجاءت حجة الوداع . لتقدم الصياغة النهائية لهذا الطواف . والمسلمون جميعاً ينتظرون من فم رسول الله ﷺ الأمر، ومن شخصه الشروع بالعبادة؛ ليكونوا خلفه قولاً وعملاً.

فعلمهم أولاً: الابتداء بما بدأ الله به بالصفا حيث لم يكتف ﷺ بتلاوة الآية ، إنما قدم للأمة سبب الابتداء ، وتابع القول بالفعل حيث صعد على الصفا ، فصعدوا عليه فهو من شعائر الله .

ثم علمهم ثانياً : الانطلاق فى الطواف بين الصفا والمروة من البيت العتيق، حيث تبرز هذه الشعيرة تابعة لشعيرة تقديس البيت الحرام . ويستقبل رسول الله ﷺ البيت العتيق ، فيستقبله المسلمون معه.

ثم علمهم ثالثا: إلغاء كل آثار الجاهلية وضلالاتها وعفونتها بإعلان التوحيد الخالص لله.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير.

ثم علمهم رابعاً: الانطلاقة من هذه الأمة الأساس، الانطلاقة من سيد الخلق الآن. رسول رب العالمين بعد الانطلاقة من ملة إبراهيم المتمثلة بالتهليل السابق . حيث جاء القول الثانى :

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٩

لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

فجهاد ثلاثة وعشرين عاماً ، ثم بعدها إنجاز وعد الله بالنصر، وتم النصر لعبد الله تعالى ؛ وسيد عباد أهل الأرض. فهو الذى نصره مِمن؟ من الأحزاب الذين جاؤوا ليجتثوا الإسلام . فهزمهم رب العزة جل جلاله .

إنه عرض للتاريخ الإسلامى كله بالصياغة التوحيدية الخالصة .نصر عبده. وليس رباً أو ابناً أو آلهة .كما يقول المتآلون على الله ،وأنجز له وعده بالنصر ،وأنجز له وعده وحده بهزيمة الأحزاب .وأعاد مكة نقية خالصة من شوائب الشرك والوثنية الجاهلية كما كانت أيام إبراهيم عليه السلام.وحيث يشعر كل جندى من هؤلاء المائة ألف أنهم جند فى بناء العقيدة .وأن هذا التوحيد الخالص ثمرة جهاد دؤوب مستمر.والفضل كله لله وحده الذى ألهم والذى هدى والذى أعان والذى وفق والذى نصر.

وحتى تثبت هذه المعانى لم يكتف عليه الصلاة والسلام بقولها مرة واحدة، إنما أعلنها مرات ثلاث .لتتناقلها أفواج المسلمين آنذاك وتتناقلها الأجيال من بعدهم عن هذا الجيل المكلف بالتبليغ .

* * *

ومن تشريع الشرائع ،إلى هتافات القلوب .

فهذا عبد الله بن مسعود أولاً رضي الله عنه حفظ أين وقف رسول الله ﷺ عند الصفا. وحفر المكان فى قلبه شقاً كشق الصفا الذى وقف رسول الله ﷺ عنده ،ومن أجل ذلك عندما دعى فيما بعد ليقف عند الصفا معهم فى مكان بعيد أبى فهو المعلق قلبه بالحبيب المصطفى ،فوقف حيث وقف حبيبه عليه الصلاة والسلام ، حيث كان شق قلبه بشق الصفا ممتزجين .

(وقام ابن مسعود على الصدع ـ وهو الشق الذى فى الصفا . فقيل له: ها هنا يا أبا عبد الرحمن ،فقال: هذا والذى لا إله غيره مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة) فهو يقوم ويقف عنده .

وتطالعنا من جهة ثانية عواطف الحجيج كله.فهذا هو أنسب مكان لرؤية رسول الله ﷺ رسول رب العالمين . وكل فرد من هؤلاء المائة ألف حريص على رؤية حبيبه ﷺ ليطوف مقتدياً به كما يطوف .ولكن هناك أكثر من ثلثى الجيش يهمه فقط أن يرى محمداً ﷺ فلن يكتفى أنه سمع صوته ،إنه يريد أن يراه بعينه. فسوف يمضى كل واحد من هؤلاء إلى قومه وعشيرته ويسألونه عن رسول الله ﷺ ، وسيكون أول سؤال يواجهه: هل رأيت رسول الله ؟ هل رأيت محمداً ؟ هل رأيت رسول رب العالمين ؟

فماذا يجيب ؟ولو قال لهم لم أره. فستفقد نصف الثقة على الأقل بكلامه، ونصف الثقة بنقوله. أما إن اكتحلت عينه بمرآه. فهذا هو عين اليقين ينفى كل شك بما سينقله لقومه عما تعلمه من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. كما قلت أكثر من ثلثى الجيش يتدافعون: يريدون أن يروا رسول الله . لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء . وكادت تكون كارثة عند قدمى النبى ﷺ. فلن يتراجعوا عن الحرص على رؤيته .وسوف يتدافعون ويحطم بعضهم بعضًا وتكون الكارثة .وكما أنقذ رسول الله ﷺ قريشاً من كارثة يوم حمل سادة العشائر بأطراف الثوب الذى وضع به الحجر الأسود .وأخذه رسول الله ﷺ ووضعه فى مكانه بيديه الشريفتين. أنقذ الأمة من كارثة محققة حين تتدافع بين يديه تريد أن تراه فدعا براحلته ،وصعد عليها بحيث يراه المسلمون جميعاً . فهو وحده يطوف على راحلته. وهذا ما يحدثنا به ابن عباس رضي الله عنهما؛ليزيل الاختلاف فى الروايات التى تحدثت عن طوافه راكباً، والتى تحدثت عن طوافه ماشيا فى الرواية التى وردت فى صحيح مسلم.

قالا (ابن القيم وابن كثير) :

(وفى الجمع بينهما وجه أحسن من هذا وهو أنه سعى ماشياً أولاً ، ثم أتم سعيه راكباً وقد جاء ذلك مصرحاً به . ففى صحيح مسلم عن أبى الطفيل قال:

قلت لابن عباس : أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً سنة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة ، قال : صدقوا وكذبوا . قلت : ما قولك : صدقوا وكذبوا.

قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون :هذا محمد، حتى خرج عليه العواتق من البيوت ،وكان رسول الله ﷺ لا يُضرب الناس بين يديه .قال: فلما كثر عليه الناس ركب والمشى أفضل) (١).

وفى مكان العبودية والإذعان لله عز وجل لا يرضى رسول الله ﷺ أن يكون له ميزة على أصحابه .وأصحابه يفدونه بالأرواح والمهج وإنما يسعى كأحدهم ، كما فى رواية أحمد والطبرانى: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ،والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى، يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا ، فإن الله كتب عليكم السعى » .ولقد رأيته من شدة السعى يدور الإزار حول بطنه وفخذيه حتى رأيت بياض فخذيه) ،وتعلم الناس القدوة من نبيهم كما فى رواية البيهقى (رأيت رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة على بعير لا ضرب ولاطرد ولا إليك إليك) فلا يبعد الناس عن طريقه .ولا يحبس الناس ليمر ،ولا يجلدون ليبتعدوا عنه .هذا كله لم يكن عند رسول الله ﷺ فى قلب مشاعر العبودية لله .وإنما اكتفى بركب البعير ليراه الناس، وينقلوا الأمانة عنه بالشهادة والغيب .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٣٨ .

ثالثاً : إحلال المسلمين وإقامة النبى ﷺ :

إنه من الصعب على هذا الجيل العظيم أن يفعل شيئاً لم يفعله النبى ﷺ وقد مضى ليقتدى به فى كل صغيرة وكبيرة .وها هنا نجد افتراقاً فى الموقف، فرسول الله ﷺ يبقى على إحرامه بعد السعى، بينما يطالب المسلمين آمراً إياهم أن يحلوا من الإحرام .

وكان الأمر بعد الانتهاء من السعى (وكان إذا وصل إلى المروة رقى عليها واستقبل البيت ، وكبر الله ووحده كما فعل على الصفا .فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتماً ولا بد ، قارنا كان أو مفرداً ،وأمرهم أن يحل الحل كله من وطء النساء والطيب ولبس المخيط ،وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية) .

والمروة من شعائر الله كالصفا .وعند الوصول إليها يتم انتهاء شوط .وابتداء شوط جديد بالهدى نفسه عند الصفا ،يصعد عليها . يستقبل البيت ،يوحد الله ويكبره . ويباشر بالشوط الجديد من السعى .

وحيث إن السعى سبعة أشواط .كان من الطبيعى أن ينتهى عند المروة .حيث أصدر أمره ﷺ لجميع الحجيج بأن يحلوا بالحلق أو التقصير .ويدعوا كل ما منعه عليهم الإحرام من الطيب وإتيان النساء أن يمارسوه فهو الإحلال الأكبر . فالعبودية فى الإحلال مثل العبودية فى الإحرام ،طاعة كاملة . نمتنع عن الطيب بأمر الله ، ونتطيب بأمره . نمتنع عن النساء.ونقربهن بأمره ،ونمتنع عن حلق شعرنا.ونحلقه بأمره. وننحر بأمره ، ونمتنع عن كل محرمات الإحرام بأمره .

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج] .

إنه التدريب على التقوى والطاعة والانضباط والامتثال لأمر الله عز وجل ونهيه . من دون أن يكون للرأى البشرى مدخل ولا للهوى البشرى مطمع ، ولا للشهرة والذكر وجود . وهم يطيعون أمر المصطفى الحبيب ولو فعل غير ذلك . فهم متقيدون بكلامه لا بفعله .لكن يبقى التحرج عندهم أن يطيعوا أمره ويخالفوا فعله .فيعلن لهم عليه الصلاة والسلام . إنه لو لم يسق الهدى لأحل مثلهم ، فهو يعلم أدق مشاعر أصحابه فقال معلنا أمامهم: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة » لكنه لا يملك ذلك فهو مبلغ عن ربه ، وهو منفذ لأمر ربه مثلهم، والغريب أن يكون محرماً ، وزوجاته جميعاً محلات .فلم يسقن الهدى . فهن مع بقية المسلمين بالإحلال وعائشة رضي الله عنها وحدها وأمثالها لم يحللن .

فهن سعين لكنهن لم يتمكن من الطواف لأنهن حائضات . ينتظرن أن يطهرن فيطفن ويسعين ويحللن .

إنها العبودية الخالصة لله سبحانه . (فحل الناس كلهم إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى) .

ثم سعى رسول الله والناس معه حتى نزل الأبطح شرقى مكة فى قبة حمراء من أدم ضربت له هناك .

صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله . فأنت ابن مكة منذ خلقت. عشت بها ثلاثة وخمسين عاماً من عمرك وها أنت تعود إليها . فلا تعود إلا مسافرا . وفاء لجندك وصحبك من الأنصار الذين قلت لهم . « المحيا محياكم والممات مماتكم » .

ولا يمكن لنا أن نتصور الوضع النفسى للمسلمين وهم يحلون وهو محرم إلا من حديث جابر رضي الله عنه الذى ينقله عنه عطاء :

سمعت جابر بن عبد الله فى ناسٍ معى قال: أهللنا أصحاب محمد ﷺ بالحج خالصاً لله وحده ، قال عطاء: قال جابر: فقدم النبى صبح رابعة مضت من ذى الحجة . فأمرنا أن نُحِلَّ. قال عطاء قال : « حِلُّوا وأصيبوا النساء » قال عطاء : ولم يعزم عليهم. ولكن أحل لهم . فقلنا :

لمَّا لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس ، أمرنا أن نفضى إلى نسائنا. فنأتى عرفة تقطر مذاكيرنا المنى، قال: يقول جابر بيده: كأنى أنظر إلى يده يحركها ، قال: فقام النبى ﷺ فينا فقال: «قد علمتم أنى أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم. ولولا هديى لحللت كما تحلون . ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى فحلُّوا » فحللنا وسمعنا وأطعنا [1] .

فالأوامر الأولى لم يستجيبوا لها طالما أن لهم فى الأمر فسحة لم يعزم علينا . وكان هواهم ألا يحلوا فبينهم وبين عرفات خمسة أيام . فلم يأتون نساءهم وشهواتهم تعج بهم عجيجاً وهم مقدمون على الوقوف بعرفة . وعبَّر عن هذا المعنى بقوله: وتقطر مذاكيرنا بالمنى . ولهم برسول الله ﷺ أسوة حسنة وهو لم يحل . حتى دخل رسول الله ﷺ بيته مغضباً كما وصفته عائشة رضي الله عنها قالت :

(دخل علىَّ رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذى الحجة أو خمس فدخل علىَّ

---

(١) البخارى (ح ١٥٥٧) ، ومسلم (ح ١٢١٦) .

وهو غضبان فقلت :من أغضبك يا رسول الله ،أدخله الله النار،قال:« أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون (قال الحكم: كأنهم يترددون أحسب)ولو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت مــا سقت الهدى معى حتى أشتريه ، ثم أحلُّ كما حلوا » (١).

لكنه عندما خرج عليه الصلاة والسلام وعزم عليهم .فما تخلّف منهم أحد . وتحدث لهم عن السبب الذى حال بينه وبين الإحلال. فاستجابوا لأمر الله ورسوله .

إنها الصورة تتكرر ؛صورة الحديبية وهو يأمرهم أن يحلقوا ويحلوا وما يستجيب له منهم أحد . فلا يزالون يأملون بدخوله مكة (فانطلق حتى دخل على أم سلمة زوجته مغضبًا شديد الغضب.وكانت معه فى سفره ذلك . فقالت:ما لك يا رسول الله ؟ مراراً فلا تجيبنى .ثم قال:« عجباً يا أم سلمة ، إنى قلت للناس انحروا واحلقوا وحلُّوا مراراً فلم يجبنى أحد من الناس ،وهم يسمعون كلامى وينظرون فى وجهى » ، قالت: فقلت: يا رسول الله .انطلق أنت إلى هديك فانحره. فإنهم سيقتدون بك.قالت: فاضطبع رسول الله ﷺ بثوبه.ثم خرج وأخذ الحربة بينهم هديه .قالت أم سلمة : فكأنى أنظر إليه حين يهوى بالحربة إلى البدنة رافعا صوته : « بسم الله والله أكبر». قالت:فما هذا إلا رأوه نحر ،فتواثبوا إلى الهدى فازدحموا عليه حتى خشيت أن يغم بعضهم بعضاً)(٢) إنها التربية بالقدوة مع الفارق فى الدافعين .

(ثم سار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزل الأبطح شرقى مكة فى قبة حمراء من أدم ضربت له هناك) صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله فأنت ابن مكة منذ خلقت . عشت بها ثلاثة وخمسين عاماً من عمرك ،وها أنت تعود إليها فلا تعود إلا مسافرا،وفاءً لجندك وصحبك من الأنصار الذين قلت لهم: « المحيا محياكم والممات مماتكم » . هذه هى المرة الثانية التى يدخل فيها مكة ،ويرفض الإقامة فى بيوتها .وكل بيوت مكة تتشرف بنعله وقدمه .

وكلها تتمنى أن تكون مأوى له ؛ ملاكها وترابها وطينها .ولكن ﷺ يأبى أن يتعامل معها إلا أنه من أهل المدينة فيقيم خارجها تحت قبة أو خيمة من جلد نصبت له . ولا ينزل حتى فى بيته الذى هدّه الحنين له ،ولا فى بيت أزواجه وأصحابه وأصهاره.إنما يقيم فى الأبطح فيقيم المسلمون معه . فليس وحده الذى وفى بذلك،إنما كل المهاجرين

---

(١) مسلم (ح ١٢٢١) .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦١٣ .

من أهل مكة تحت رايته وبجوار قبته . تركوا بيوتهم ودورهم وقالوا لإخوانهم الأنصار: المحيا محياكم والممات مماتكم .وهنا يأتى إليه أخوه على بن أبى طالب وقد ابتعثه إلى اليمن فى مهمة دعوية قتالية ، إن اقتضى الأمر ،أو إدارية سياسية اقتصادية .

(وقدم على من اليمن ببدن رسول الله ﷺ . فوجد فاطمة فيمن حل، ولبست ثياباً صبيغًا واكتحلت .فأنكر ذلك عليها ،فقالت : إن أبى أمرنى بهذا .قال : فكان على يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذى صنعت مستفتيًا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه فأخبرته .أنى أنكرت ذلك عليها ، فقال: «صدقت صدقت».

« ماذا قلت حين فرضت الحج »،قال: قلت: اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك . قال: فإن معى الهدى فلا تحل ، فكان جماعة الهدى الذى قدم به على عليه من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مائة) (١) .

نحن لا ننسى أن فاطمة بنت محمد ﷺ زوج على رضي الله عنه .وقد استغرب زينتها وكحلها وثوبها الصبيغ الذى لاقته بها وعلى رضي الله عنه ينكر عليها ذلك وقد فعلت ذلك لتتهيأ له ولاستقباله فتجيبه : إن أبى أمرنى بهذا .ومع ذلك فلم تهدأ أعصابه ومضى إلى رسول الله ﷺ محرشا بها مثيرا لأبيها عليها . فكان جواب المصطفى الحبيب عليه الصلاة والسلام :صدقت ، صدقت .وحيث إنه ساق الهدى وأهل بما أهل به رسول الله ﷺ فيبقى على إحرامه . والذى لا ننساه كذلك أن رسول الله ﷺ ساق الهدى عن نفسه لا عن ابنته ولا عن أهله وأزواجه .ومن أجل هذا أحللن جميعاً .

هذا الحدث الذى شهدناه خلال الأيام الأربعة التى أقام بها رسول الله ﷺ فى الأبطح لا ندرى كم من الخلائق جاء إلى رسول الله ﷺ فى هذه الأيام الأربعة. جاء وسلّم عليه وتعرف عليه وساله .وحاز بشرف همسة منه أو بسمة منه أو نظرة منه .ولا أدل على ذلك من هذا الحب وهذا الوفاء ، وهذا الهوى له ﷺ من هذه الحادثة الفريدة التى يمكن أن تتكرر عشرات المرات . ولكن فعلها ﷺ مرة واحدة ؛ لتتعلم الأمة ومن ورائها البشرية عظمة هذا الحب من الأمة لنبيها .

(ففى حديث أبى جحيفة عند الإمام أحمد والشيخين أنه أتى رسول الله ﷺ بالأبطح وهو فى قبة له حمراء ، فخرج بلال بفضل وضوئه فمن ناضح ومن نائل) .

---

(١) صحيح مسلم (ح ١٢١٨) من حديث جابر الطويل .

إنه بقية الماء الذى توضأ به عليه الصلاة والسلام يتقاتل الناس على كل قطرة منه. هل تنضح على وجهه أم يأخذ قطرات يمضى بهن لأهله وإخوانه فيتقاسمونها . وراع أبا جحيفة هذا المنظر الأخاذ .وحان وقت الصلاة وخرج بلال رضي الله عنه بعد توزيع الثروة الكبرى على الفائزين بها من فضل وضوء النبى ﷺ .خرج يؤذن للصلاة .(ثم خرج بلال بالعنَزَة بين يديه .فخرج رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء(وفى رواية جبة حمراء) فكأنى أنظر إلى بريق ساقيه.فصلى بنا الظهر والعصر ركعتين ركعتين تمر المرأة ، والكلب والحمار من وراء العنَزَة) لقد أذهله كل شيء ؛ فضل الوضوء . تتبع فاه بلال يمنة ويسرة،رسول اله ﷺ فى جبة حمراء ، بريق ساق النبى ﷺ ، العنَزَة التى وضعت بين يديه ،مرور الكلب والحمار والمرأة وراء العنزة .كل شيء أخذ بلبه فراح يذكره لنا ويقدمه لنا .ومن أعظم ما قدم أخيراً :

(فقام رسول الله ﷺ فجعلوا يأخذون بيده فيمسحون بها وجوههم) .

إنهم يتزاحمون على مس يده .فكم يصل إليه من هؤلاء المائة ألف؟ ومن يعطى رسول الله ﷺ ؟ولا يمنع ؟وكم صمم أن يزاحم.وأن يقتتل مع المقتتلين على مس يده، وضعها على وجوههم ؟

(فأخذت يده فوضعتها على وجهى ،فإذا هى أبرد من الثلج ،وأطيب ريحاً من المسك).

وراح إلى رحله كما مضى القوم إلى رحالهم سعيداً كأنما فاز بجنة الدنيا . رأى رسول الله ﷺ وصلى خلفه ، بل زاد على ذلك ، لقد مس يده الشريفة وتشرف بها فمسح بها وجهه ، وها هو يقسم لهم .كما وصلت إلينا روايته بعد مئات القرون : أبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك) (١).

وفى تجمع الناس هذا وقبل التروية بيوم خطب رسول الله ﷺ بالناس .لمن لم يتمكن من رؤيته فلا أقل من سماع صوته ، لكن هذه الخطبة فقدت .فلا أثر لها إطلاقاً ولم تصل إلينا ، لكننا نعلم أنها الخطبة الأولى فى هذا الحجيج يهيئهم ويحثهم على الخروج إلى الحج ، ويعلمهم آدابه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٤١ .

سادسًا :حجة النبى ﷺ

١ـ يوم التروية :

(فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين إلى منى فأحرم بالحج من كان أحل منهم فى رحالهم ولم يدخلوا المسجد فأحرموا منه ، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم . فلما وصل إلى منى نزل بها فصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها وكانت ليلة الجمعة .فلما طلعت الشمس ساروا منها إلى عرفة وأخذ على طريق ضب ، على يمين طريق الناس اليوم ،وكان من الصحابة الملبى والمكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء).

٢ـ مسيره إلى عرفة :

قلت :وفى حديث ابن عباس قال: غدا رسول الله يوم عرفة من مِنى .فلما انبعثت به رحالته وعليها قطيفة قد اشتريت بأربعة دراهم . قال: « اللهم اجعله حجًا مبروراً ، لا رياء فيه ولا سمعة » رواه الطبراني بسند جيد .

وفى حديث جابر : (ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، فسار رسول الله ﷺ حتى أتى نمرة . فوجد القبة قد ضربت له هناك بأمره ، فنزل فيها حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت له .فأتى بطن الوادى من أرض عرفة .

قال ابن سعد : فوقف بالهضبات من عرفات وقال : « كل عرفة موقف إلا بطن عُرنة واد من حدود عرفة » .

٣ـ فخطب الناس وقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا .

ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع .ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث .كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ،وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا ؛ ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إذا اعتصمتم به ، كتاب الله .

وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعُها إلى السماء، وينكتها إلى السماء : «اللهم اشهد » ثلاث مرات ، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر. . .)(١) .

٤ـ الوقوف بعرفة :

(. . . فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف . فجعل بطن ناقته إلى الصخرات . وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه . . .) (٢).

٥ـ النفرة والمبيت بمزدلفة :

(ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب فورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس؛ السكينة السكينة» كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة ، فدعاه وكبّره وهلله ووحّده فلم يزل واقفا حتى أسفر جداً. فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس . وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً) (٣).

٦ـ من المزدلفة إلى الرمى :

(فلما دفع رسول الله ﷺ مرّت به ظُعُنٌ يجرين . فطفق الفضل ينظر إليهن . فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر . فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر فحرّك قليلاً ، ثم سلك الطريق الوسطى التى

(١ ـ ٣) من حديث جابر فى صحيح مسلم (ح ١٢١٨) ص ٤٨٤، ٤٨٥ .

تخرج على الجمرة الكبرى ،حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة . فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها حصى الخذف ، رمى من بطن الوادى [1].

٧ـ إلى المنحر :

(ثم انصرف إلى المنحر .فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر،وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعه فجعلت فى قدر .فطبخت ،فأكلا من لحمها وشربا من مرقها) [2].

٨ ـ إلى البيت :

(ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت . فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم . فقال:« انزعوا بنى عبد المطلب .فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم » . فناولوه دلواً فشرب منه) [3].

وزاد فى الحديث : (وكانت العرب يدفع بهم أبو سيارة على حمار عرى ،فلما أجاز رسول الله ﷺ المزدلفة بالمشعر الحرام لم تشك قريش أنه سيقتصر عليه ويكون منزله ،فأجاز ولم يعرض له حتى أتى عرفات فنزل) [4].

* * *

هذا هو العمود الفقرى لحجة النبى ، وسنعود لنقف مع كل فقرة .وتشهد الروايات الأخرى مع إيحاءات كل فقرة على حدة . فالروايات الأخرى تعطى الإضاءات الكاملة على المشهد حيث نقف لنفقه الدروس التربوية فيه :

١ـ يوم التروية :

ولقد سمى كذلك ؛ لأن الحجيج كانوا يتزودون بالماء حتى يبلغهم موقف عرفة . والمبيت بمزدلفة،وقد جعله الله تعالى تهيئة واستعداداً للمضى إلى ذلك الموقف العظيم، وهو الذى اختاره عليه الصلاة والسلام للمضى للحج مبتدئا منه . والمسلمون الذين أحلوا عندما صدرت الأوامر بالتحرك إلى الحج أحرموا من رحالهم .ومكة خلفهم . ومضوا سعداء مع النبى ﷺ يتوقون إلى لحظة المضى للحج .وقد سمعوا من رسول الله ﷺ الذى خطبهم فيها وهم بالأبطح قبل التروية ما عليهم أن يعملوه فى حجهم هذا ، وكان مكوثهم فى منى مثل مكوثهم فى الأبطح ، لا شىء إلا الصلاة خلف النبى ﷺ. وهى من سعادات العمر أن يأتموا برسول الله ﷺ ،وفى فجر يوم عرفة صلوا الفجر مع

(١ ـ ٣) من حديث جابر فى صحيح مسلم (ح ١٢١٤) ص٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٤) صحيح مسلم (ح ١٢١٨) ص ٤٨٥ .

النبى ﷺ،وتأهبوا للمسير إلى عرفة،ولا يدرون متى يتحركون حتى طلعت الشمس، فسار رسول الله ﷺ ـ وهو قائدهم ـ وساروا معه إلى عرفة،والجيش اليوم كله محرم ، ليس أحد منهم بحلّه .وهذا فارق ما بين الإقامة بالأبطح ،والإقامة بمنى . ويحسن أن نعرض حادثة توضح مثل هذا الفرق بين الموقفين :

فعن أسماء بنت أبى بكر قالت: « قدمنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان معه هدى فليقم على إحرامه ، ومن لم يكن معه هدى فليحلل». فلم يكن معى هدى فحللت،وكان مع الزبير هدى فلم يحلل .قالت: فلبست ثيابى ثم خرجت فجلست إلى الزبير. فقال: قومى عنى. فقلت: أتخشى أن أثب عليك»(١)، وفى رواية قال: استرخى عنى، استرخى عنى . فقلت: أتخشى أن أثب عليك(٢)،فقد كانت محنة عصيبة فى فريق كان يأخذ كامل متعته فى النساء والطيب واللباس. وفريق لا يزال محرماً لا يجوز له من ذلك شيء .أما وقد أحرموا جميعاً بالحج فقد انتهت هذه الفوارق يوم التروية .وما بعدها حيث مضوا مع رسول الله ﷺ إلى عرفة،وهى تربية من نماذج التربية للصف الواحد ،والحكم المختلف .

٢ـ مسيره إلى عرفة :

خرج المسلمون سعداء مع قائدهم عليه الصلاة والسلام إلى عرفة ، فمنهم الملبى ومنهم المكبر ،ورسول الله ﷺ يسمع ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء، وهذا الفقه فى الدعوة نحن بحاجة ماسة إليه ،فما لم يرد نهى محدد فى العبادات فكل مسلم ونشاطه فيما ينشط فيه من ضروب العبادة ، وكل قلب له شعاع يتجه إليه بلا حرج ، وكل يبتغى الفضل والرضا من الله سبحانه ،ولم ينس ابن عباس رضي الله عنهما أن يلفت انتباهنا فى هذا السير إلى رحل رسول الله ﷺ الذى أتى به من المدينة ، والقطيفة التى عليه؛لأن رسول الله ﷺ وقد شرع الآن بالحج .وتحته قطيفته التى اشتريت له بأربعة دراهم أن يقول عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة » رواه الطبرانى بسند جيد .

وحرص حبر الأمة وفتاها هنا على هذه الرواية هى أن المسلم يجب ألا تغيب عن ناظريه لحظة من لحظات الاقتداء بنبيه الحبيب المصطفى ، فمع أن قطيفته بأربعة دراهم ، خشى السمعة والرياء،واتجه بقلبه إلى ربه أن يجعله حجاً مبروراً ،ولن يكون حجًا مبروراً إذا كان فيه ذرة رياء أو ذرة سمعة ،وهو من جهة أخرى هدية إلى فقراء المسلمين

(١ ، ٢) صحيح مسلم (ح ١٢٣٦) ١٩١ ، ١٩٢ .

فى الأرض الذين يأتون إلى الحج ،وقد باعوا ما تحتهم وما فوقهم؛ليؤدوا هذه الفريضة. وليس معهم شروى نقير يتزودون به طعاماً أو ركوباً ،فيتذكروا أن الحبيب المصطفى على رأسهم لم يجد حرجاً من القطيفة ذات الدراهم الأربع ورجا ربَّه أن يكون حجًا مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة وفى كل حركة ونأمة يجد الفقير حاجته إلى المال الكثير للمأوى الفاخر والملبس الفاخر والطعام الفاخر والمركب الفاخر أن يذكر هذه الكلمة النبوية الخالدة مع هذه القطيفة التى تتهاوى بين يديها كل ألبسة الأرض بمئات ملايينها آنذاك وإلى اليوم لأنها هى التى سعدت برفقة النبى ﷺ ، ولمست جسمه وجلده وجسده الشريف .

أما الحدث الأهم فى هذا المسير ، فهو تحطيم فوارق الطبقات الذى كان من نفخ الشيطان فى رؤوس قريش سادة الحرم ومن معهم من الحمس ، فهم أعلى كعباً من أن يتساووا مع الناس وهم إنما يقفون عند مزدلفة ،ولا يحق لهم أن يتجاوزوا إلى الحل ، فذاك للعرب.

ففى حديث جابر :ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، فسار رسول الله ﷺ حتى أتى نمرة ، فوجد القبة قد ضربت له هناك بأمره فنزل فيها ، والحج هو الذى يسوى بين الخلق شريفهم ووضيعهم، غنيهم وفقيرهم على السواء ،فكيف تقف قريش وأضرابها من الحمس فى مزدلفة ويقف العرب فى عرفة والرب واحد ،والعبودية واحدة .لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على غيره إلا بالعمل الصالح لا بالنسب الشريف .ولقد هُدى رسول الله ﷺ إلى الفطرة حتى قبل الرسالة والبعثة،فقد كان يرفض بفطرته الطاهرة التى لم يمسها من لوث الجاهلية شىء أن يقفَ معه قومه قريش فى مزدلفة ،بل كان يفاصلهم ،ويقف مع الناس فى عرفة،(قال البخارى ـ عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله النبى ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة : ١٩٩] . . . وقال الإمام أحمد . . . عن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال: أضللت بعيراً لى بعرفة ، فذهبت أطلبه .فإذا النبى ﷺ واقف فقلت: إن هذا من الحمس ما شأنه هاهنا ؟ أخرجاه فى الصحيحين) (١).

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٢/١ وحديث جبير عند مسلم (ح ١٢٢٠) ص ٤٨٦ .

٣ـ خطبة عرفة:

لقد كانت هذه الخطبة من أهم الخطب النبوية ،والناس قد اجتمعوا فى الوادى ، واختار رسول الله ﷺ مبلّغا ذا صوت عظيم ليصل إلى الناس جميعاً ، وفى هذا الوقت، قد اجتمع الناس كلهم فى صعيد واحد ، وكانت الخطبة مختصرة ،لكن معالم الإسلام كله فى كلماتها تقطع الحلى والجواهر ، لا يستغنى عن فصٍ منه كما لا تستغنى عن حرف واحد أو كلمة واحدة منه .

وهذا هو نص الخطبة بعد حمد الله والثناء عليه :

أ ـ « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » :

ولو وقفنا مليا عند التاريخ العربى لوجدناه كله منذ فجر التاريخ ـ تاريخ حروب وثارات ـ فالقتل هو الأساس فيه والغزو والنهب هو سمته الأساسية ؛ وهذا كتاب أيام العرب بين يدى ، وفيه أشعار المعلقات . فهناك يوم الصفقة ويوم ذى قار بين « العرب والفرس»،وما تبقى أيام القحطانية فيما بينهم ،وأيام القحطانيين والعدنانيين ،وأيام ربيعة فيما بينها ،وأيام ربيعة وتميم ،وأيام قيس فيما بينها،وأيام قيس وكنانة ،وأيام قيس وتميم، وأيام ضبة وغيرهم ، وما من يوم إلا وينتهى بالقتلى بين الفريقين ،والأسرى والنهب للمال والعرض ،وتفاخر الشعراء بوصف هذه الأيام فى ملاحم لا تنتهى ، فالقتل أسهل الأمور وعلى أتفه الأسباب ، وإذا قع مسلسل القتل لا ينتهى.

وتمر أحيانا الأيام والسنون حتى يتفانى الفريقان ويتداعيان للإصلاح ، وتقدم الديات ، وتخلف الحروب الأرامل واليتامى والأيامى والمفقودين والمشوهين .ولا ترف جفن واحد منهم لما وقع ؛ وعلى الثواكل أن يجتمعن ويندبن وينشرن شعورهن . ويخمشن وجوههن ،ويقدن المراثى ويندبن الأبطال، هذا هو تاريخهم فى قتلهم بعضهم بعضا، فلا حرمة لمال ولا حرمة لدم ،ولا حرمة لعرض إذا وقع الغزو بين القبائل ، وشرعة المجتمع هذا كما وصفها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : (ديننا أن يقتل بعضنا بعضا).

وكما وصفها جعفر رضي الله عنه : (ويأكل القوى منا الضعيف) .

وكما يقول ابن الرعلاء الضبابى:

(كم تركنا بالعين عين أباغ ... من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى ... إن فى الموت راحة الأشقياء)(١)

---

(١) أيام العرب ص ٥٣ .

وكما يقول ابن الأسلت:

لا نألم القتل ونجزى به — الأعداء كيل الصاع بالصاع

من يذق الحرب يجد طعمها مرًّا وتحسبه بجعجاع[1]

وقول زهير بن أبى سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم — وما هو بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة — وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها — وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم[2]

جاء هذا النص ليلغى تاريخاً ويقيم تاريخاً آخر مكانه :

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ».

ب ـ وما ينتج انتهاك حرمة المال وحرمة القتل إلا من ثارات الجاهلية ،وآثارها والحرص على مآثرها، فجاء النص الثانى ليدفن تاريخا ويحيى تاريخاً آخر،ليدفن أمة جاهلية ويقيم أمة إسلامية ،فالجاهلية بكل ما فيها من مكارم ومآثر،هى تحت قدمى رسول الله ﷺ « الا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ،ودماء الجاهلية موضوعة . . .» .

وهذا اليوم إذن ابتداء تاريخ جديد للعرب بإلغاء ثارات الجاهلية كلها .

جـ ـ وحتى يكون التنفيذ عملياً منذ التو،ومن هذه اللحظة، فقد أسقط رسول الله ﷺ دم ابن عمه ربيعة بن الحارث فى هزيل،حتى تتابع الناس بإسقاط ثاراته بلا استثناء.

« وإن أول دم أضعه من دمائنا :دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل » .

د ـ وتطبيقاً لحرمة الدم تأتى حرمة المال ، والشىء الذى يسمعه الآن كثير من الناس ولم يعوه من قبل هو حرمة الربا ، فليست حرمة المال فى السرقة والنهب فقط ، كذلك حرمة الربا فى استغلال حاجة الضعيف دون حق ، واقتطاع ماله دون مقابل ، وآيات الربا واضحة وصريحة. ولكن الكثير من المسلمين لم تصلهم،فلا بد من الإعلان

---

(١) أيام العرب ص٨٣ بين الأوس والخزرج .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٤ بين عبس وذبيان ـ حرب داحس .

'نعام على الملأ بإنهاء الربا من المجتمع الإسلامى، إنه قرار رسول الله ﷺ رئيس الدولة المسلمة بإسقاط أموال المرابين جميعاً إلا رؤوس أموالهم ،قد قضى الله أن لا ربا وحتى يكون التنفيذ عملياً وبالتو ، ابتدأ بأكبر المرابين من بنى هاشم من أهله، ابتدأ بربا العباس ابن عبد المطلب المنبث فى أنحاء الحجاز .

« وإن أول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ،فإنه موضوع كله ».

هـ ـ وبعد حرمة الدم وحرمة المال تأتى حرمة المرأة ، فقد أدرك ﷺ أن المرأة فى الجاهلية متاع من المتاع ،ومحرومة من إنسانيتها ،ومسلوبة الإرادة إلا ماندر ، يقتل الناس ذوداً عنها ثم يقتلونها فى إهمالها وظلمها ووأد إنسانيتها فكان ترتيبها فى الأهمية مع حرمة المال وحرمة الدم . ولأول مرة يسمع العرب فى تاريخهم حقوقا متبادلة بين المرأة والرجل ، فله ولها وعليه وعليها ،وبينما كانت تورث مع تركة الأب ،ومن حق الولد نكاحها لحكم وراثتها مع ملك أبيه ، وليس شىء أبلغ من وصف وضع المرأة فى الجاهلية من وصف عمر رضي الله عنه لذلك قوله :

(وكنا لا نعد النساء شيئاً) .حتى أنزل الله فيهن ما أنزل .

« فاتقوا النساء ،فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ».

إنهن أمانة فى أعناقكم ،ولا يجوز التصرف بالأمانة ولا التفريط فيها ولا نقصان شىء منها .وهن أمانة الله تعالى عندكم ولسن أمانة البشر . أخذتموهن بأمانة الله ، وأبحن لكم عرضهن بكلمة الله ، بالزواج الذى شرعه الله ،والزواج تكافؤ ، فكل زوجين متكافئين،وليسا بالضرورة متساويين ،لكنهما متعادلين فى القيمة والأهمية ، ومن أجل ذلك كان تبادل الحقوق بينهما .

إنه معنى إسلامى وأصيل ورد فى نص التنزيل ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة :٢٢٨] ، أما الذى يجب أن يصل إلى كل العرب ـ قادتها وشعرائها ومفكريها وساستها وزعمائها ـ أن وضعاً جديداً قد قام اليوم فى هذه الجزيرة ، وأعلن إعطاء المرأة حقها ،كما أعلن إعطاء الرجل حقه .

و ـ «ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح » .

فحق الرجل الذى حرص رسول الله ﷺ على إبرازه أمام عشرات الألوف من

العرب وفى هذا المكان العظيم فى هذا اليوم العظيم ، هو ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فلا يدخل بيتكم إلا من تحبون ،فالبيت تنتهى صلاحيتكم فيه بأن يكون لكم لا لمن تكرهون ،وجعل لكم عند هذا التجاوز حق الضرب الخفيف غير المبرح .إنهن حارسات بيتكم من كل عدو ودخيل، وإنكم قد استحللتم فروجهن بكلمة الله، فالفروج والبيوت لكم وحدكم .

ز ـ « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . مقابل الحراسة والرعاية فى أعز ما تملكون ، لهن عليكم الرزق بالمعروف، والكساء بالمعروف ، إنهن تركن حقهن فى السعى والعمل وكسب المعيشة وحيازة المال والرزق الحلال ليقمن بأقدس مهمة بأن يكن لكم وحدكم بفروجكم وبيوتكم ،على أن تحفظوا لهن حاجتهن وسعادتهن فى الرزق والكساء.

ونتساءل اليوم بعد مرور خمسة عشر قرناً : هل فاز الرجل بهذا الحق :« ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه؟ ».والجواب : لا ، فلها أن تخالل فى شريعة الغاب من تهوى ومن تحب ، ولها أن تبيع عرضها وجسدها لمن يحب زوجها ومن لا يحب ،ومن أجل هذا هدمت البيوت وضاعت الأسر،واختلطت الأنساب ،وزادت البهيمية .ونسأل كذلك بعد مرور خمسة عشر قرناً : هل وصلت النساء إلى حقوقهن ؟ والجواب : لا .

فأنانية الرجل تأبى عليه أن يحمل مسؤولية الإنفاق عليها ،فقد يهديها هدية ، وقد يتكرم بدعوتها إلى مطعم، لكن يفرض عليها العمل ، ويرفض رزقها وكسوتها بالمعروف جملة وتفصيلاً ، ولو تم ذلك فى مرحلة مؤقتة فمثل الدين عليها أن ترده.وجاء الإسلام قبل خمسة عشر قرناً من الزمان ،ليكفى المرأة مؤونة العمل ، ليخفف عنها واجب العمل ،لا ليحرمها حق العمل، والفرق كبير بين القضيتين،فالعمل حق لا يناقش أحد فيه ، وواجب حين لا تملك المرأة الزوج والمعيل ،ومهمة الزوج أن يرفع عن عاتقها عبء العمل،ويزيح عن كاهلها واجب الكدح لكسب الرزق مقابل أن تتفرغ له، لشهوته ولبيته ولولده،وحين يعجز يمكن أن يعتذر منها ويطلب منها أن تشاركه الكدح والكفاح للقمة الحلال،والسعى والكدح لها لا يعطيه الحق أن يتصرف بها جارية عنده ، وأمة بين يديه أبداً،فهى ملكة بيتها «والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»، ومهمتها قد تكون أقدس من مهمته،فهو يعمل للطعام وهى تعمل لبناء الإنسان،وشتان شتان .

ح ـ والدستور النهائى الذى تحتكم إليه هذه الأمة ،ليس العادات وليس التقاليد ،

وليس قيم الجاهلية ومآثرها، ليس شيئاً مما لدى البشر ، إنه هدية الله تعالى إلى خلقه ، كتاب أنزله رب العزة لهدايتهم وصلاحهم ورشادهم فى الدنيا والآخرة، ولن يضل أبداً من سار بهداه .

« قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده أبدا إن اعتصم به : كتاب الله ».

وفى الرواية الثانية : «فاعلموا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدى أبداً ، إن اعتصمتم به أمرين : كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ »(١).

ط ـ ولأن أهم ما يجب إبلاغه لهذا الجمع بين يديه ، وللبشرية كلها من بعده هذه المعانى الكبرى من حقوق الإنسان فى الأرض ، وليس للمسلمين فحسب، بل لكل أهل الأرض مسلمهم وكافرهم .وجاء الخطاب : « أيها الناس » ،ولم يخصص الخطاب للمؤمنين فقط ،فلا بد من الطمأنينة أن هؤلاء الناس قد سمعوا إعلان الحقوق المقررة من رب العزة لخلقه ،فهو يريد أن يطمئن على ذلك قال لهم:

« فما أنتم قائلون ؟» قالوا : نقول : قد بلغت وأديت ونصحت .

وصدقوا ، فها نحن اليوم فى القرن الحادى والعشرين ، وصلت إلينا موثقة جاهزة نسمعها ونقرؤها ونبلغها للناس كافة ،حتى لنرى إصبعه ﷺ تشير إلى المبلغين وشهادتهم بالتبليغ.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « اللهم اشهد، اللهم اشهد » ثلاثا .

٤ـ الوقوف بعرفة :

(ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه،واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ،وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص) .ونبحث عن معلومات أكثر ،فهل تناهى إلى سمع أحدٍ بعض دعائه عليه الصلاة والسلام؟

نعم ،وجاءتنا صورة حية له وهو يدعو ، فلنجلس بجواره صلوات الله عليه ونستمع إليه ، ونؤمن على دعائه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٤٣ .

(وأمر الناس أن يرتفعوا عن بطن عُرنة ،ووقف ﷺ من لدن الزوال إلى أن غربت الشمس ، وهو يدعو الله تبارك وتعالى ويبتهل ويتضرع إليه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين وأخبرهم أن خير الدعاء يوم عرفة .

ومما حفظ من دعائه ﷺ هناك :

« اللهم لك الحمد كما نقول ،وخيراً مما نقول ، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، وإليك مآبى ،ولك تراثى،اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر،وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يجىء به الريح ،ومن شر ما يلج فى الليل ،وشر ما يلج فى النهار ،وشر بوائق الدهر .

اللهم إنك تسمع كلامى ،وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ،لا يخفى عليك شىء من أمرى ،أنا البائس الفقير ،المستغيث المستجير ،الوجل المشفق،المقر المعترف بذنبه ،أسألك مسألة المسكين ،وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ،وفاضت لك عبرته ، وذل جسده ،ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلنى بدعائك ربى شقيا. وكن بى رؤوفا رحيماً يا خير المسؤولين ويا خير المعطين » (١).

« لا إله إلا الله ،وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد ،بيده الخير ،وهو على كل شىء قدير،اللهم اجعل فى قلبى نورا ،وفى صدرى نورا ،وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ،ويسر لى أمرى » (٢) .

أما ما نقله لنا الرواة فى هذا اليوم فحدثين : محلى وعالمى :

أما الحدث المحلى :

(هناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات ،فأمر رسول الله ﷺ أن يُكفن فى ثوبه ،ولا يمس بطيب ،وأن يغسل بماء وسدر ،ولا يغطى رأسه ولا وجهه،وأخبر أنه يبعث يوم القيامة يلبى) (٣).

أما الحدث الأعظم الذى جلجل فى هذه الأمة إلى يوم القيامة ، فهو قول الله عز وجل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا ﴾ [المائدة:٣]

(١) زاد المعاد ١ / ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢ .

ويحسن بنا أن نقف عند تلك الدعوات الخالدات اللاتى ناجى بهن ربه فى أعظم عبودية ،وأعظم تذلل وأعظم انكسار ،وأعظم خضوع ،فجاءه أعظم مجد ،وأعظم عز، وأعظم خلود ،وأعظم رفعة .

وأجدنى مضطراً إلى معاودة هذا الدعاء الخالد الآبد،الذى يستحق تلك المنزلة العظمى ،والمجد الأسنى .

« اللهم إنك تسمع كلامى ،وترى مكانى ،وتعلم سرى وعلانيتى،لا يخفى عليك شىء من أمرى ،أنا البائس الفقير ،المستغيث المستجير ،الوجل المشفق ،المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ،وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ،وأدعوك دعاء الخائف الضرير،من خضعت لك رقبته،وفاضت لك عبرته،وذلَّ جسده،ورغِم أنفه لك، اللهم لا تجعلنى بدعائك ربى شقيا،وكن بى رؤوفا رحيماً يا خير المسؤولين،ويا خير المعطين ».

يدعو هذا ﷺ وخلفه جزيرة العرب كلها بقياداتها وزعمائها وساداتها وشعرائها، وأبطالها، وأمجادها، فلا يأخذه كبر ولا عجب ولا علو ولا ذرة من استعلاء ، بل يرى نفسه بين يدى ربه ذلك العبد المشفق الوجل المسكين المستغيث المقر المعترف بذنبه، ألا تستحق هذه الذات العليا فى الوجود ـ أعبد أهل الأرض ـ ألا ينصرف حتى ينال هذه الجائزة ؟!

تصف لنا أسماء بنت عميس رضي الله عنها ،والتى تركناها قد وضعت ولدها محمداً بذى الحليفة ،لكنها مع الأسرة المرافقة للنبى ﷺ ، أسرة أبى بكر الصديق فهى زوجه ،وهى أرملة جعفر حبيب المصطفى ﷺ ذى الجناحين ، تصف لنا تلك اللحظات السعيدة فتقول:

(حججت مع النبى ﷺ تلك الحجة ،فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل ،فمال رسول الله ﷺ على الراحلة ،فلم تطق الراحلة من ثقل من عليها من القرآن ، فبركت فسجيت عليه برداً كان على) .

هذه لحظات النزول تبرك الناقة من ثقل الوحى ، ويميل رسول الله ﷺ على الراحلة، فتلقى أسماء بنت عميس عنها البرد الذى كان عليها،وحق للناقة أن تبرك ، وحق للمصطفى أن يميل ،فماذا حمل جبريل؟ (حمل قول الله عز وجل : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

فلن تسعد الأرض بعد رسول الله ﷺ بوحى السماء ، ولكن الإسلام كله قد نزل.

قال ابن جرير وغير واحد : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً. رواهما ابن جرير . وقال أسباط عن السدى : نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله ﷺ فمات .

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة :٣] هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل لهم تعالى دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولذلك جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شىء أخبر عنه فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام :١١٥] أى صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام والأوامر والنواهى ، فلما أكمل عليهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ أى فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ : وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا) (١).

ونعود ثانية لنشهد أبعاد هذه الآية عند أمم الأرض .

قال الإمام أحمد : حدثنا . . . عن طارق بن شهاب قال:

(جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . قال : وأى آية ؟ قال : قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴾ فقال عمر:

والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة فى يوم جمعه) ، ورواه البخارى عن الحسن بن صباح، ورواه أيضا مسلم والترمذى والنسائى أيضا من طرق ، ولفظ البخارى : قالت اليهود لعمر :

والله إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا . فقال عمر: إنى لأعلم حين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢ .

أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة وإنا والله بعرفة.

وقال ابن جرير . . .عن قبيصة بن أبى ذئب قال : قال كعب الأحبار :لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت عليهم فيه فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه. فقال عمر: أى آية يا كعب؟ قال: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم**... ﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: قد علمت اليوم الذى أنزلت فيه ،والمكان الذى أنزلت فيه : نزلت فى يوم الجمعة ويوم عرفة ،وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

وقال ابن جرير . . . عن عمار وهو مولى لبنى هاشم : إن ابن عباس قرأ ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا** ﴾فقال يهودى: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدا .فقال ابن عباس : فإنها نزلت فى يوم عيدين اثنين ،يوم عيد ويوم جمعة .

وقال ابن مردويه : حدثنا . . . عن ابن الحنفية عن على قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ...﴾حتى ختمها فقال: نزلت فى يوم عرفة فى يوم جمعة (١).

فالروايات عن عمر وابن عباس وعلى رضي الله عنهم أنها نزلت فى يوم جمعة يوم عرفة. وهما عيدان عند المسلمين .

٥ـ النفرة والمبيت بمزدلفة :

وها نحن نتجه لنغادر مع رسول الله ﷺ بعد الدعاء المتبتل ، وبعد نزول الآية العظمى عليه وقبل هذا النفير نقدم قطعة من خطبة رسول الله ﷺ مرتبطة بزمان ومكان الإفاضة من عرفة والمزدلفة لقيناها عند الطبرانى بسند صحيح كما ذكر الهيثمى وغيره هذا نصها :

« أما بعد ،فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من هاهنا عند غروب الشمس ؛ حتى تكون الشمس على رؤوس الجبال ، مثل عمائم الرجال على رؤوسها ، هدينا مخالف لهديهم ،وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها ويقولون: أشرق ثبير كيما نغير » (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ١٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٤٤.

هذا هو هدى أهل الشرك ، أما هدى أهل الإيمان والتوحيد فمختلف عن هدى أهل الشرك .

« فأخر الله هذه وقدّم هذه » يعنى قدّم المزدلفة قبل طلوع الشمس وأخر عرفة إلى أن تغيب الشمس ، « وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغيب الشمس ، وندفع من المزدلفة قبل أن تطلع الشمس ، هدينا مخالف لهدى الأوثان والشرك » .

إنه تميز عن أهل الأوثان والشرك أعلنه ﷺ نظريا ، ثم طبقه عملياً بهذه الجموع كلها (فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بالسكينة) .

أفاض بالسكينة عملياً ، ثم عاد فأمر بها نظرياً وهو يرى تدافع الحجيج بين يديه فيقول: « أيها الناس ،عليكم بالسكينة ،فإن البر ليس بالإيضاع أى ليس بالإسراع»(١).

وأفاض من طريق المأزمين ، وكان قد دخل مكة من طريق ضب .

وما هو السر فى إرداف أسامة رضوان الله عليه خلفه،فأسامة الحب ابن الحب مولى رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه،وجميع الحجيج ينظر إليه.ليعلن للدنيا حق هذه الطبقة المضطهدة فى التكريم ورفع الظلم عنها،وأنه مع أنه مولاه فيردفه خلفه وهو الأسود اللون،حتى نرى بعض النصوص تشير إلى أن هذا الأمر حدا بأهل اليمن إلى الردة،وهم يرون أنه أوقف مسير الحج كله حتى لقى أسامة الأسود فرفعه إلى هذا المقام.

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بالتطبيق العملى فى المواساة والتكريم لملك اليمن والعبيد والأرقاء .

وفى رواية من روايات الخطبة النبوية إضافة إلى ذلك التميز فى الإفاضة ،هذه التوصية فى الرقيق «أرقاءكم أرقاءكم ،أطعموهم مما تأكلون ،واكسوهم مما تلبسون ، فإن جاء بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم »(٢).

فما من توجيه نظرى إلا والتنفيذ العملى مباشرة له ،وأمام الناس ،وعلى الملأ ، وأحياناً يسبق التطبيق العملى التوجيه النظرى ويطالبهم بعدها بتبليغ هذه التعاليم للناس كافة ، وحمّلهم مسؤولية ذلك بقوله : « رحم الله امرأ سمع مقالتى حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه وليس بفقيه ،ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »(٣).

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٤٧ .   (٢، ٣) المصدرالسابق ٨ / ٦٤٤ .

(كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ،ولم يسبح بينهما شيئاً ،ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ،وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام .فاستقبل القبلة ، فدعاه وكبّره وهلّلهُ ووحّده ،فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً .فرفع قبل أن تطلع الشمس . . .) .

هذه الناقة موحدة كذلك وما أسعدها أن يكون رسول الله ﷺ هو راكبها. لقد نالت شهرة الدنيا بمرافقة النبى ﷺ ،فاسمها القصواء حبيب إلى كل مسلم ،وحين نذكر أفخر بيت قالته العرب تتشرف الناقة بالذكر :

فما حملت من ناقة فوق رحلها　　　أبر وأوفى ذمة من محمد

فهى سيدة نوق الأرض ، وقد تشرفت بحمل سيد ولد آدم ،وكان رسول الله ﷺ يرخى لها العنان حين تصعد فى الجبل ،وهى سعيدة به ﷺ يوم يشنق لها الزمام حتى لا تسرع ، وسعيدة به يوم يرخى لها الزمام حتى تصعد الجبل ، ولا بأس أن نعرف شيئاً عن هذا المسير غير مسير الناقة .إنه ربح لنا ،وعلم لنا ،ونور لنا .

(ثم جعل يسير العنق ـ وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطىء ـ فإذا وجد فجوة ـ وهو المتسع ـ نصَّ سيره ـ أى رفعه فوق ذلك ، وكلما أتى ربوة من تلك الرُّبى أرخى للناقة زمامها قليلاً حتى تصعد) .

إنه ومن خلال حركة الناقة يقود الأمة ، فلا يسرع بها فيهلكها ،ولا يبطئ بها فيجعلها تتخلف عن ركب الأمم ، إنه مسير العنق ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطىء .لكن هذا المسار النبوى الخالد قد يسرع أحياناً حين تكون الفجوة ، والساحة قابلة للسرعة ، وقد يبطئ حين تقف الحواجز والحدود والسدود دون التقدم ، وبذلك تكون الأمة الوسط التى وصفها الله تعالى فى كتابه :﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

ولم نفقد حتى لحظات الراحة ، فقد نقلت لنا على الطريق ، فلما كان فى أثناء الطريق حال إلى الشعب وهو شعب الأذاخر عن يسار الطريق بين المأزمين ، نزل ﷺ ، فبال وتوضأ خفيفاً .فقال أسامة : الصلاة يارسول الله . فقال : «الصلاة أمامك » ،ثم سار حتى أتى المزدلفة .

إنها ليست محطة استراحة ، إنها محطة ضرورة ، ولكن هذه الضرورة لم تمنع

رسول الله ﷺ من الوضوء بعد البول،ولكنه وضوء خفيف سريع ،نحن بحاجة إلى ذكره ، فكم نسافر فى ركب ،وكم نمضى ، وكم نحتاج إلى توقف مخطط مدروس ، وتحديد محطات النزول ، فالصلاة شرعها الله تعالى جمعاً وقصراً فى المزدلفة جمع تأخير ، إذ لا داعى للوقوف لها على الطريق ،ويأبى رسول الله ﷺ أن يسير لحظة واحدة بدون طهارة، فتوضأ وضوءًا خفيفا ، (وكان يلبى فى مسيره) فذكر الله تعالى لا يفارق لسانه ولا قلبه الشريف، والطهارة من الحدث لا تفارقه لحظة ، فهو مع ربه بكرة وعشيا وفى كل حال.

وهم الأمة يؤرقه ـ رجالها ونساؤها وأطفالها ـ والازدحام على الرمى سيكون شديداً ، فماذا يفعل مع الغلمان وضعفة النساء ؟! وخفق قلبه رحمة بهن وجاء الفرج من الوحى .

وأذن عند السحر لمن استأذنه من أهل الضعف من الذرية والنساء ـ ومنهن سودة وأم حبيبة وأم سلمة ـ أن يتقدموا إلى منى قبل حطمة الناس . . . ورمى من النساء أسماء بنت أبى بكر وأم سلمة قبل الفجر،فالتعامل مع الواقع أمر لا مفر منه ،وها نحن اليوم بعد خمسة عشر قرناً نحضر الحجيج ،ونشهد الليل والنفرة قبل الفجر وبعده ،فنحمد الله عز وجل على هذا الإذن ،ونشهد رحمة الله تعالى فى هذه التوسعة حتى لا تحطم الأمة بعضها،وتقتتل على الرمى فى ساعة واحدة ،فهو تشريع محلى فى تلك اللحظة،لكنه بعيد المدى وعميق الغور يمتد فى آماد الزمان والمكان حتى ييسر على الناس حجته ، كما لا داعى للتظاهر فى الطاعة الزائدة والقيام ، فالقوم منهكون من السير ، هدهم الإعياء ، فلينم سيدهم أمامهم ،وهذا ما يتمنونه لأنه لو قام الليلة لقاموها على جهدهم وتعبهم،لكن هذا الدين قد قام على اليسر﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾[المزمل: ٢٠] .

فقيام ثلث الليل ونصفه يقتضى استقراراً وأمنا،أما فى هذا المسير المنهك المضنى، فإقامة الصلاة، ومن الحكمة الربانية هذه الإقامة للصلاة جمعاً وقصراً ،ليأخذ البدن بعد ذلك حقه فى الراحة،فلا ينازع العبادة منازعة ،حتى التسبيحات تركها بين الصلاتين « ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر» ولم يقُم ليلته تلك تخفيفاً على الناس ورحمة بهم ، فلو فعل ذلك لكان مشقة على المحبين والعشاق للمصطفى ﷺ فى الحرص على الاقتداء به فى كل شىء ، وبعد أن نال الجسم حقه من الراحة التامة ، واستيقظ نشيطا لصلاة الفجر، وكانت الصلاة ثم الوقوف عند المشعر الحرام طويلاً يذكر

الله تعالى حمداً وتكبيراً وتهليلاً ،استعدادا لاستقبال يوم العيد ـ يوم النحر ،لكن عيد الحجيج فى مشاعرهم ومناسكهم،والله تعالى هو الذى دعا نبيه والحجيج معه أن يكثروا من ذكر الله فى هذا الموقف ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾ [البقرة]. نعم فلم يكن التوحيد والتكبير والتهليل قائماً قبل هذا الحج لقد شاركت عقائد الجاهلية والوثنية فيه،ولا بد من إيضاح هذا الانقلاب العربى الذى غير تركيب الأمة كلها من الشرك والوثنية إلى الإسلام والوحدانية .

ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، لكن لا بد من مخالفة هدى المشركين والمغادرة لمزدلفة قبل طلوع الشمس وانتشارها على رؤوس الجبال كعمائم الرجال ،هو ضلال وثنى. والهدى الربانى أن يكون النفير قبل شروق الشمس . (قلت: وكان أهل الجاهلية لا يدفعون حتى تطلع الشمس على ثبير ويقولون: أشرق ثبير كيما نغير. فقال رسول الله ﷺ: « إن قريشاً خالفت هدى إبراهيم فدفع» قبل طلوع الشمس) (١).

ويسعدنا أن نشهد حديث ذلك الفتى الذى كاد يطأ بأخمصه الثريا ،فهو وحده من دون المائة ألف رديف رسول الله ﷺ،ويأتى من يصطاد أسامة الشيخ الجليل بعد ذلك، فيسأله عن تلك الرحلة السعيدة ، فيعيد الحياة للمشهد من جديد .

وأخبرنى كريب أنه سأل أسامة بن زيد :

كيف صنعتم حين ردفت رسول الله ﷺ عشية عرفة؟ فقال :

جئنا الشعب الذى ينيخ الناس فيه للمغرب فأناخ رسول الله ﷺ ناقته وبال (وما قال: اهراق الماء) ثم دعا بالوضوء فتوضأ وضوءا ليس بالبالغ، فقلت : يا رسول الله، الصلاة؟ فقال: «الصلاة أمامك » ، فركب حتى جئنا المزدلفة فأقام المغرب ،ثم أناخ الناس فى منازلهم ولم يحملوا حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ، ثم حلوا فقلت : فكيف فعلتم حين أصبحتم ؟ قال:

ردفه الفضل بن عباس ،وانطلقت أنا فى سباق قريش .

وذاك شاهد آخر هو عطاء مولى ابن سباع (عن أسامة بن زيد أنه كان رديف رسول الله ﷺ حين أفاض من عرفة ،فلما جاء الشعب أناخ راحلته ، ثم ذهب إلى

---

(١) صحيح مسلم (ح-١٢٨٠ ـ ٢٧٩) .

الغائط ، فلما رجع صببت عليه من الأداوة فتوضأ ثم ركب ثم أتى المزدلفة ، فجمع بها بين المغرب والعشاء) (١).

وإنما أحضرت الشاهد الثانى لنرى أسامة الفتى العظيم وهو يصب الماء من الأداوة على يدى رسول الله ﷺ ليتوضأ .

وليس من الصعب الجمع بين (بال) و (ذهب إلى الغائط)؛ إذ إن كل الروايات ـ إلا هذه ـ تتحدث أنه بال ﷺ ، فيكون معنى (ذهب إلى الغائط): ذهب إلى المكان المنخفض المناسب للبول والغائط فبال.

وتظهر فتوة الشاب العظيم يوم سابق فتيان قريش على رجليه ليكون أسبق منهم فى الوصول إلى منى ،فهو المرشح للقيادة العظمى،وهو يتدرب على ذلك ،إذ اختاره رسول الله ﷺ وهو فى السابعة عشرة من عمره ليكون أميراً على الجيش الذى فيه كبار المهاجرين والأنصار،وقد سبق أن كلف بقيادة سرية ،وشارك فى سرية ،فهو الفذ ابن الفذ القائد ابن القائد الحبيب ابن الحبيب أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما.

لدينا حادثة واحدة فردية هذا نصها :

وهنالك سأله عروة بن مضرس الطائى ،فقال : يا رسول الله ،إنى جئت من جبل طيئ،أكللت راحلتى ،وأتعبت نفسى ،والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ،وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد أتم حجه وقضى تفثه » (٢) .

وأخيرا: فلا بد أن يخفق قلبنا مع الصحابى العظيم الذى قطع الفيافى والقفار وحده فى بهيم الليل دون مرافق أو أنيس يحدوه الحب ،ويشخده الإيمان ليلحق برسول الله ﷺ، ويشهد الحج معه ،أحلامه تسبقه ، ناقته تستجيب له ،وقد أضناها وهو يغذ السير (أكللت راحلتى ، وأتعبت نفسى) .لماذا ؟ ليحج مع النبى ﷺ ،ونتعجب من قوله : «والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه» فهو يسمع بالوقوف على جبل عرفة ولا يعرفه، ويلتقى بحبيبه المصطفى ﷺ آملاً أن يكون قد أصاب الحج ، فحدد رسول الله ﷺ جواباً لعروة رضي الله عنه وشرحاً للأمة كلها من جانب آخر: « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ،وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد أتم حجه وقضى تفثه » .

---

(١) صحيح مسلم (ح ١٢٨٠ ـ ٢٨٠) .

(٢) الخبر أخرجه الترمذى واللفظ له وقال : « حسن صحيح » وقال : تفثه : يعنى نسكه

وأدرك عروة رضي الله عنه الجواب الحاسم بأنه إن أدرك الوقوف بعرفة ،فقد أدرك الحج ، وسوف يتم شعائره فيما يأتى ،وإن لم يدركه فلا حج له .

٦ـ من المزدلفة إلى الرمى :

(... فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيمًا ،فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ،فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحوَّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه عن الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر فحرَّك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف ، رمى من بطن الوادى ...) .

* * *

أ ـ ضيفنا الجديد هو الفضل بن عباس رضي الله عنه وهو أكبر أولاد العباس حديث عهد بالإسلام فقد أسلم بعد الفتح لكنه صهر إسلامه مباشرة بحضور غزوة الفتح وعندما انفضت الألوف الاثنا عشر عن رسول الله ﷺ كان أحد العشرة الذين صمدوا للزحف البشرى الهائل يوم حنين .(قال الحافظ فى الفتح: وأما ما ذكره النووى فى شرح مسلم أنه ثبت معه اثنا عشر رجلاً فكأنه أخذه مما ذكره ابن اسحاق فى حديثه أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلى وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد وأخوه من أمه أيمن ابن أم أيمن ،ومن المهاجرين أبو بكر وعمر فهؤلاء تسعة ، وتقدم ذكر ابن مسعود فى مرسل الحاكم،فهؤلاء عشرة ووقع فى شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا عشرة فقط ذلك قوله :

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة ... وقد فرَّ من قـد فرَّ عنه فأقشعوا
وعاشرنا وافـى الحـمام بنفسـه ... لما مسـه فـى الله لا يتوجـع

ولعل هذا هو الثبت ،ومن زاد على ذلك فيكون عجَّل فى الرجوع ،فعد فيمن لم ينهزم) (١) .

إذن عندنا بطلان دخلا تاريخ هذه الأمة وكانا ممن صنعاه ، أولهما : فتانا الأول ، أسامة بن زيد الذى لم ينهزم والذى قاد جيش المسلمين إلى الشام فيما بعد ،وهو الذى

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٣٠ .
والذى وافاه الحمام : أيمن ابن أم أيمن .

أردفه رسول الله ﷺ خلفه من عرفات إلى المزدلفة ، وثانيهما : الفضل بن عباس الذى أردفه رسول الله ﷺ خلفه من مزدلفة إلى منى . وإذا كانت مهمة أسامة أن يصب الماء على يدى رسول الله ﷺ لوضوئه ،فإن مهمة الفضل أن يجمع الحصى لحبيبه وابن عمه محمد ﷺ (ثم سار بمزدلفة مردفًا للفضل بن عباس ،وفى طريقه ذلك أمر الفضل بن عباس أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات ، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف فجعل ينقضهن فى كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين)[1] .

ونقل لنا الفضل رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ما زال يلبى فى مسيره ، وتكبر الأحداث حتى تتجاوز النطاق المحلى عندما رأى رسول الله ﷺ ذلك الحصى الصغير فسر به وقال :

(فلما وضعهن فى يده قال: «نعم بأمثال هؤلاء،نعم بأمثال هؤلاء،نعم بأمثال هؤلاء»).

لأن الذى يتبادر إلى الذهن أن رمى الجمار هو رجم للشيطان ، فلا بد من الحصى الكبار للمبالغة فى رجم الشيطان والمبالغة فى حربه ، فكانت الإشارة النبوية الخالدة إلى المحافظة على الحصى الصغير كحبة الباقلاء ، فهو رمز وليس حقيقة ،وامتد الحديث إلى مرض تعانى منه الأمة إلى يوم القيامة ، ورسول الله ﷺ يحذر هذه الأمة منه : «وإياكم والغلو فى الدين» فلا حاجة إلى الورع الزائد البارد عن الهدى النبوى ، والذى يقود إلى الغلو والتشديد،التنفير من هذا الغلو حتى برمى الجمار ، وخطورة الغلو هلاك الأمم ، وهذا أخطر تحذير من هذا الغلو ، فهو سبب الدمار والهلاك للأمم . إن هذا الدين الوسط الذى اكتمل على يدى رسول الله ﷺ ليس بحاجة إلى أية إضافات بشرية بحجة تثبيته أو بحجة تقويته ،فالهلاك من الأمم حين تدع الهدى النبوى للغلو فى الدين مثل هلاكها حين تدع هذا الدين سواء بسواء .

ومن الفضل البطل أحد العشرة الكبار فى تاريخنا الإسلامى ، إلى الفضل الخادم للنبى ﷺ،يلتقط الحصى لنبيه ﷺ ويعطيه إياه،إلى الفضل الشاب الوسيم الجميل الفاتن الأخاذ . وأين ؟ فى الحج ، وفى طريقه كما فى رواية جابر رضي الله عنه :(مرت به ظعن يجرين فطفق ينظر إليهن) .

إنهن مجموعة نسوة يمشين مسرعات حاجات ،فاسترق العباس النظر إليهن بعاطفة الشباب الوثابة (فوضع الرسول ﷺ يده على وجه الفضل) فهو حاج والنظر حرام ، وهو رديف النبى ﷺ ، ولم تأت الأوامر بطرده وسجنه ، فقد أساء إلى سيد الخلق حين

(١) زاد المعاد ١/ ٢٢٨ .

ينظر إلى الفتيات الجميلات الحاجات اللاتى أسفرن عن وجوههن للحج .

والرواية الثانية أبين :

وفى طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم جميلة ، فسألته عن الحج عن أبيها وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على الراحلة ، فأمرها أن تحج عنه .

فالفتنة اقتربت منه ومنها ، إنها قدمت سائلة فأخذ بلبها ذلك الشاب الوسيم الأبيض الجميل وهو محرم ، فشعره كذلك قد بدا فى جماله وحسن تصفيفه ، وجمال تسريحه ، والفتاة جميلة لم تعد بعيدة ليتابعها فى نظره، فقد جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله،وأخذت بلب الفتى الوسيم فراح يحدق فى النظر إليها ،وأين؟ فى وضح النهار . ورسول الله ﷺ أمامه وأدرك رسول الله ﷺ شرارة الهوى التى انطلقت بين الشاب والفتاة (وجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ،فوضع يده على وجهه فصرفه إلى الشق الآخر) ولا بد من العمل مباشرة على إطفاء هذه النار قبل أن تهب ،وراع العباس عم النبى ﷺ ما فعله عليه الصلاة والسلام بوجه ابنه الفضل . فقال : (لويت عنق ابن عمك ؟ قال : «رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما ») .

يقول النووى رحمه الله (فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل) فيه الحث على غض البصر عن الأجنبيات وغضهن عن الرجال الأجانب وهذا معنى قوله : وكان أبيض وسيماً حسن الشعر ، يعنى أنه بصفة من تفتتن به النساء ؛ لحسنه . وفى رواية الترمذى وغيره فى هذا الحديث:أن النبى ﷺ لوى عنق الفضل فقال له العباس : لويت عنق ابن عمك قال :

«رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما ». فهذا يدل على أن وضعه ﷺ يده على وجه الفضل كان لدفع الفتنة عنه وعنها . وفيه أن من رأى منكراً وأمكنه إزالته بيده لزمه إزالته، فإن قال بلسانه ولم ينكف المقول له وأمكنه بيده ثم مادام مقتصرا على اللسان والله أعلم) (١) .

المهم الذى يحسن أن نفقهه من هذه الحادثة :هو أن الإنسان فى الإسلام إنسان يحمل طاقات متفجرة من الإبداع والغرائز والمثل وليس نصف إنسان،والفضل بن عباس رضي الله عنه هو هذا النموذج الذى كان أحد العشرة الخالدين فى التاريخ فى قلب اللظى وأتون الحرب ، وهو هو نفسه الذى تحركت لظى الغريزة فى نفسه وهو فى الحج فلم يتمالك من الافتتان بالشابة الجميلة حتى ليدير رسول الله ﷺ وجهه عنها فلا يفتأ ينظر

---

(١) صحيح مسلم ، بشرح النووى م٣ / ٦ / ١٩٠ .

من الوجه الآخر . والجمال فتنة والوسامة فتنة ، واكتفى سيد الخلق بصرف وجه الفضل ليصرف بصره عن الحسناء السائلة قائلاً : « رأيت شاباً وشابة ،فلم آمن الشيطان عليهما ». وندعو علماء الدين وعلماء التربية وعلماء الأخلاق إلى فهم هذه الحادثة ، والتصرف المناسب معها من إمام المربين عليه الصلاة والسلام ، ولم يفقد تكريمه وتشريفه بأن يكون رديف رسول الله ﷺ على ناقته .

أما الشاب جاء ليسأل النبى ﷺ عن أمه وقال :(إنها عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها . فجاءه الجواب بسؤال آخر : « أرأيت إن كان على أمك دين أكنت قاضيه ؟ قال:نعم.قال:«فحج عن أمك » (١) ليتجاوز الجواب آفاق نهار منى فى منى إلى آباد» التاريخ فى وفاء دين كل عاجز عن الحج من الأهل . ولم يكن سؤال الفتاة الخثعمية يختلف عن سؤال الشاب،ولم يطل الرسول ﷺ الجواب ، ويسأل الفتاة السؤال الذى وجهه للشاب لما رأى ذلك السعار بين الشابين ،وأجابها بسرعة وأمرها بأن تحج عنه، وتعود إلى ظعنها ، مخلفة وراءها الشاب الوسيم الأبيض الذى بادلها النظر،ماضية إلى مناسكها مع أهلها وذويها بعيداً عن إثارة الشيطان وكيده .

ب ـ وتأتينا إضافة فقهية جديدة حين أسرع رسول الله ﷺ وهو يمر ببطن محسر (فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير ، وهذه كانت عادته ﷺ فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه ، فإن هنالك أصاب الفيل ما قص الله علينا؛ ولذلك سمى الوادى: وادى محسّر ، لأن الفيل حُسِر فيه: أى أعيا وانقطع عن الذهاب) (٢) .

ومع أنها ذكرى غالية وعزيزة جداً ، ذكرى ما فعل الله تعالى بأصحاب الفيل فى هذا الموقع ، وذكرى عام ولادة النبى ﷺ ، لكن الأدب النبوى والخوف من بأس الله عز وجل جعل هذا الموقع موقع سرعة لا موقع متعة ، كما يفعل عشاق الآثار الذين يأتون من كل مكان ليشهدوا الفن المعمارى ، لهؤلاء الذين أنزل الله بهم بأسه ، فدعاة القومية العلمانية يرونها وطناً للفخر بهؤلاء الطغاة وأقوامهم الذين أهلكهم الله ، ويربون الأجيال على الفخر بهم ، والإسلام يلعنهم ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود] ويدعو إلى الفرار من مواقعهم حتى لا يتنزل بنا بأس الله ،وشتان شتان، وها هى مناهج التعليم فى العالمين العربى والإسلامى تعج بالفخر بهؤلاء الطغاة والاعتزاز بالانتساب إليهم. وبما خلفوا من آثار عظيمة تدل على عبقريتهم ، بينما يوجه القرآن إلى جبروتهم،وكيف أن هذا الطغيان لم يحمهم من انتقام الله وعذابه،فمثلاً جمعت المناهج

(١ ، ٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٠

على الأقل بين المعنيين، وهؤلاء العلمانيون يدعون أنهم حملة لواء حرب الظلم والظالمين.

فأتى جمرة العقبة، فوقف فى أسفل الوادى وجعل البيت عن يساره ، ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة وهو على راحلته فرماها راكباً بعد طلوع الشمس ، واحدة بعد واحدة ، يكبر مع كل حصاة ، وحينئذ قطع التلبية ـ وكان فى مسيره ذلك يلبى حتى شرع فى الرمى ، وبلال وأسامة معه ،أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوب من الحر ، قلت : الذى كان يظله بلال كما فى حديث أمامة .

هذه الصورة الأولى للمشهد منصبة كلها على شخص رسول الله ﷺ ، موقفه ، رميه ، قطعه التلبية بعد الرمى ، أخذ خطام ناقته . وتظليله من الحر .

جـ ـ ونستمع إلى إذاعة أخرى تقدم لنا وقائع جديدة أخرى على هذا المشهد . مروية عن جابر ﷺ كما رواها مسلم وابن سعد والبيهقى قال :

رأيت رسول ﷺ على راحلته يوم النحر ويقول لنا :

« خذوا عنى مناسككم . فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه »

وهذه أول مرة نسمع لهذه الإشارة . أما طلب أخذ المناسك عنه ﷺ فقد تكرر من قبل . لكن « لعلى لا أحج بعد حجتى هذه » . والله أعلم أنها جاءت بعد قول الله عز وجل ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣]

فقد أُدّيت الأمانة وبُلّغت الرسالة . وهذا يعنى اقتراب انتهاء أجله صلوات الله وسلامه عليه . بينما تأتينا رواية جديدة تلقى الضوء على المشهد كاملاً ، على المسلمين، وعلى رسول الله صلوات الله عليه ومذيعتنا هنا امرأة إنها أم جندب الأزدية. لم تكتف بتصوير رسول الله ﷺ على راحلته وهو يرمى ويقول ما يقول . بل أرتنا الناس كيف يزدحمون على الرمى يكاد يقتل بعضهم بعضا ، وهو المنظر الذى يتكرر كل عام والناس يقتتلون على الرمى . بل ونسمع من الإذاعات أعداداً يموتون من الزحام هناك . ويأتى الإنذار النبوى المبكر قائلاً : « يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضا .وإذا رميتم الجمرة . فارموا بمثل حصا الخذف » .

وتودعنا بروايتها قائلة : «ورأيت بين أصابعه حجراً فرمى ورمى الناس » وذلك بعد أن أعلمتنا (فازدحم الناس فقال رسول الله ﷺ:«يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضا . واذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصا الخذف ») (١) . وحصى الخذف: هو الرمى بالحصى بالأصابع . وكانت العرب ترمى بها على وجه اللعب تجعلها بين السبابة والإبهام فى اليد

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٢

اليسرى ثم تقذف بالسبابة اليمنى ،زاد الليث : أو تجعلها بين سبابتيك واختلف فى قدرها،فقيل: مثل: الباقلاء،وقيل: مثل النواة ، وقيل : دون الأنملة طولاً وعرضاً (١) .

د ـ وبين الرمى والنحر ننظر ونستمع إلى صورة صوتية ومرئية إلى حدث مهم لا يقل أهمية عن حدث الرمى نفسه عثرنا عليها عند الإمام أحمد ﷺ مع تفصيلات هامة لم نلقها إلا عنده .

(قلت : (أى الصالحى) ولم يقف عند جمرة العقبة ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة) (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : خطب رسول الله ﷺ الناس بمنى وأنزلهم منازلهم فقال :« لينزل المهاجرون ها هنا»،وأشار إلى يمين القبلة،«والأنصار ها هنا» وأشار إلى ميسرة القبلة،«ثم لينزل الناس حولهم » ، وعلمهم مناسكهم . ففتحت أسماع أهل منى حتى سمعوه فى منازلهم(٣).

لقد كان الترتيب لسماع الخطبة النبوية بهتاف ربيعه بن أمية بن خلف بصوته الضخم يبلغ الناس ما يقوله رسول الله ﷺ . أما الترتيب اليوم فقد اختلف . وكان رسول الله ﷺ مشرفاً بشخصه الشريف على ترتيب القاعة . فأمر بالمهاجرين أن يكونوا عن يمينه ، وبالأنصار أن يكونوا عن يساره . ثم أمر الناس بالتحلق حول أى من الفريقين : بحيث يتمكن الجميع من سماع الخطبة النبوية العظيمة . فقد تكون أهم حدث فى الحجة كلها. ولا بد أن يسمعها المائة ألف على الإطلاق،وأبلغ الناس جميعاً أن النبى ﷺ سيخطب . فأصغى الناس جميعاً وتركوا كل أعمالهم وأشغالهم . منصتين لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ولعل المعانى التى سيطرقها هى المعانى نفسها التى طرقها فى خطبة عرفة . لكن أهمية هذه الخطبة هى فى الترتيب والتنظيم الذى يهيئ الجميع للتفرغ للسماع والإنصات للخطبة . ولا يبعد أن تكون هناك معجزة ربانية فى أن تصل كل كلمة من الخطبة إلى كل أذن . كما يقول النص :

(ففتحت أسماع أهل منى حتى سمعوه فى منازلهم) .

فالنساء والصبيان والرجال الذين فى خيامهم تناهى إليهم صوت النبى ﷺ بمكبرات

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٨٣ . (٢) زاد المعاد لابن القيم ١ / ٢٢٨.

(٣) مسند أحمد ٤ / ٦١ .

ربانية لهذا الصوت لا يعرف حقيقتها إلا الله سبحانه .

أما زمان الخطبة . فإن كان الإمام ابن كثير قد حار فى زمانها ووقتها فإن ابن القيم أنهى هذه الحيرة . (قال ابن كثير : ولست أدرى أكانت قبل ذهابه إلى البيت . أو بعد رجوعه منه إلى منى ؟

قلت : جزم صاحب الهدى (ابن القيم) بأنها كانت قبل ذهابه إلى البيت) (١).

وقد أخذنا برأى ابن القيم فاستعرضناها بعد الرمى مباشرة كما ذكر ابن القيم (ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة)

ونتابع البحث لنعلم الصحابى الذى نقل لنا الخطبة الكبرى فنجد ضالتنا عند الحافظ ابن حجر إذ يقول : قال بعض الشراح : إنه بلال . والصواب أنه أبو بكرة . ونجلس صامتين مصغين مع صحابة رسول الله ﷺ نستمع للخطبة الخالدة .

والعجيب أنها ابتدأت بأسئلة وانتهت بإشهاد .

(فقال ﷺ وهو على ناقتة العضباء :

« ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، والسنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم - ثلاث متواليات ؛ ذو القعدة ، وذوالحجة - والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . . . » .

ويفسر معنى هذا القول النبوى ما ورد فى خطبته الثالثة حيث بدأ فيها بقوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧] . فهذا التأخير والتلاعب بالأشهر فى التقديم والتأخير جعل الواقع فى الحرمة للأشهر يختلف كثيراً عن اعتبارات الناس وأهوائهم . أما الآن فقد شاءت إرادة الله أن يوافق هذا العام الحقيقة الخالدة التى أقام الله تعالى عليها هذا الزمان وأشهره . ومن أجل هذا جاء القول النبوى « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » والأشهر الحرم فيه الأربعة هى الأشهر الحقيقية كما سماها الله تعالى . وانتهى التلاعب بها بعد هذا التاريخ إلى يوم القيامة . والأشهر الحرم مظان الطاعة والقربى من الله سبحانه) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٢ ، ٦٥٣ .

وهنا تتوقف الخطبة وتبدأ الأسئلة :

« أتدرون أى يوم هذا ؟ »قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه فقال : « أليس هذا يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال :« أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «أليس هذا شهر ذى الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال : «فأى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «أليس البلدة ؟ » قلنا . بلى) .

وحين يسأل رسول الله ﷺ عن اليوم والشهر والبلد . تتوقف هذه الجماهير كلها عن الإجابة مع أن اليوم والشهر والبلد ليس نكرة فالسؤال إذن له أهمية فى حس كل مسلم . وكان جوابهم فى كل مرة : الله ورسوله أعلم . فقد كان قادة المهاجرين والأنصار على رأس هذه الجماهير . واكتفوا بالأدب بين يدى رسول الله أن يقولوا : الله ورسوله أعلم . إنهم يتوقعون تشريعاً جديداً عقب هذه الأسئلة (فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه) . خاصة وقد حدثهم قبل قليل عن استدارة الزمان وانتهاء التضليل فى النسىء وحافظوا على أدبهم فى السؤال الثانى والثالث . فلم يبق مسلم إلا وهو شاد عنقه على رأسه الطير يريد أن يعرف ما وراء هذه الأسئلة . وتكرار الأسئلة . وتكرار الإجابة تجعل الصحابة كأن على رؤوسهم الطير مكتفين بالإجابة : الله ورسوله أعلم . وعندما يجيبهم « أليس هذا يوم النحر ؟ أليس هذا البلد الحرام ؟ أليس هذا شهر ذى الحجة ؟ » . فيقولون:بلى . فإذن لم يسم هذا اليوم والشهر والبلدة بغير اسمهم . فما الهدف إذن من هذه التساؤلات . إنه صلوات الله عليه إمام المربين لا يجد حرجاً فى توجيه هذه الأسئلة الستة . واستماع الإجابة من عشرات الألوف من المسلمين وهذا هو الذى يريده عليه الصلاة والسلام أن يضعهم فى أشد حالات الانتباه والانشداد لما سيذيعه عليهم بعد هذا السيل من الأسئلة . وبعد الإجابات الجماعية لعشرات الآلاف منهم . فقد غدوا أذناً واحدة صاغية للتقرير النبوى :

قال : « فإن دماءكم وأموالكم » قال محمد : وأحسبه قال : وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا » والعرب يحرمون القتل والقتال فى الأشهر الحرم وفى البلد الحرام وفى يوم الحج الأكبر حيث اجتمعت الحرم الثلاثة المغلظة اليوم والشهر والبلدة . ليقابلها الحرم الثلاثة المغلظة . الدم والمال والعرض سواء بسواء . فلا ثأر بعد اليوم ، ولا ربا بعد اليوم ، ولا سبى بعد اليوم . إنها الحرمة الدائمة لهذه الحرم الثلاثة مثل حرمة اليوم والشهر والسنة « كحرمة يومكم هذا فى

بلدكم هذا فى شهركم هذا » ولم يعد يمكن لواحد من هؤلاء المائة ألف بعد هذا الترتيب للسماع ، ويعد هذا الشد للانتباه بالأسئلة المتتالية أن يقول : ما سمعت بذلك . وهو ما يهدفه عليه الصلاة والسلام . أن يبلغ كل فرد من هؤلاء الحاضرين .

واتبع خطبته ﷺ بعد ذلك . بفقرتين اثنتين :

الفقرة الأولى : « إنكم ستلقون ربكم فسائلكم عن أعمالكم » .

الفقرة الثانية : ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

فاعتبر رسول الله ﷺ أن من سمات الكفر ضرب بعضكم رقاب بعض فهى ردة إلى الجاهلية ردة إلى الكفر ، والعودة إلى الثأر والغزو والسلب الذى كان قوام حياة العرب فى القرون الطويلة إنه الانتقال من حال البادية إلى حال الدولة الحديثة المقننة ذات السلطة المسيطرة على جميع أفرادها بلا استثناء ثم تطالعنا آخر التكليفات فى الفقرة الأخيرة من الخطبة :

« ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب . فليست المهمة السماع فقط ،التبليغ كذلك أمانة، التبليغ لكل غائب : « فلعل من يبلِّغه أو يسمعه يكون أوعى ممن يبلِّغه : « فلرب مبلَّغ أوعى من سامع » .

لقد استمع المائة ألف . فأشهد الله ثانية عليهم :

« اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد » رواه الإمام أحمد والشيخان (١).

إنها المعانى الواحدة المكررة التى يطلب منها تفسير جيل كامل بجيل جديد ، وفهم جديد ، وعقل جديد ، ودين جديد . من رب العالمين إلى خلقه . يبلغها لهم رسوله الكريم .

٧ ـ إلى المنحر :

« ثم انصرف إلى المنحر . فنحر ثلاثاً وستين بدنة . ثم أعطى علياً فنحر ما غبر ، وأشركه فى هديه . ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت فى قدر فطبخت . فأكلا من لحمها وشربا من مائها » .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٢ ، ٦٥٣ وهو فى مسند أحمد ٥ / ٣٧ من حديث أبى بكرة، وفتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ١٠٨ ، ومسلم بشرح النووى .

فقد رمى عليه الصلاة والسلام ، وقد خطب ووعظ . ثم آن أوان عبادة النحر . (فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده . . .) .

إنه أعظم الخلق قوة وأعظمهم طاقة فى الجنس ، وأعظمهم عبادة لله ، وأعظمهم خُلُقاً . إنه الذى زاده بسطة فى العلم والجسم . فإذا كان طالوت قد اختاره الله لقيادة فصيل من بنى إسرائيل ملكاً يقاتلون وراءه فأعطاه بسطة فى العلم والجسم . فكيف بمن توكل إليه قيادة البشرية كلها فهو رسول الله تعالى إلى خلقه كافة ونحر ثلاثٍ وستين بدنة لا يقدر عليه إلا أعاظم الرجال . إن نحر بدنتين ينهك الإنسان ويتعبه فكيف إذا أضفنا إليها واحداً وستين أخرى . وجاء فتاه العظيم ليتم المهمة فنحر بمقدار نصف ما نحر عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وثلاثين بدنة .

وبطبيعتنا الطُّلِعة وحرصنا على أن نرى ونعرف كل شىء ونشهد هذا النحر بأعيننا فلنمض مع ابن عمر ﵄ . إذ أن رفقته ممتعة غاية المتعه . فهو الرفيق الدائم لرسول الله ﷺ والحريص على صحبته وتقليده فى كل شىء ، نستمع له يقول :

(وكان ينحرها قائمة معقولة اليسرة . وكان عدد هذا الذى نحره بعدد سنى عمره ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقى من المائة) ونحر على ﵁ قريباً من سنى عمره كذلك. فقد كان فى الحادية والثلاثين من عمره .

وعلى رضوان الله عليه ابن عمه وأخوه وزوج ابنته وحبيبه فعندما حضر انضم إلى الركب النبوى ، وهو شريكه الوحيد فى الهدى فقد جاء بقسم منه من اليمن . وشارك معه فى هذه المائة (وأمر علياً أن يتصدق بجلالها وجلودها ولحومها فى المساكين . وأمره أن لا يعطى الجزار فى جزارتها شيئاً منها ، وقال : « نحن نعطيه من عندنا » ، وقال : «من شاء اقتطع » .

واكتفى عليه الصلاة والسلام ببضعة من كل بدنة . فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ولم ينس رسول الله ﷺ نساءه فضحى عنهن بالبقر . إنها أضحية وليست هدياً .

وأعلمهم أن منى كلها منحر . وأن فجاج مكة طريق ومنحر .

إنه يوم العيد ، ومن حق الأمة أن تحتفل وتبتهج بهذا العيد . فتأكل وتشرب وتنعم حمداً لله على تأدية هذا النسك العظيم ، نسك الحج . وكان هذا الأمر إعلاناً نبوياً . وليس تصرفاً شخصياً .

فهذا توجيه خاص ليوم النحر بأنه يوم الطعام والبهجة ، كما روى لنا أبو عبيد مولى ابن أزهر أنه قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب فخطب الناس فقال : إن هذين يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم ، والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم) (١) .

فهذه الذبائح كلها شكراً لله تعالى . ولابد أن يتناولها الغنى والفقير .

ثم جاء التوجيه لأيام منى كلها (فعن ابن كعب بن مالك عن أبيه أنه حدثه :

أن رسول الله ﷺ بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق فناديا :

« أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن . وأيام منى أيام أكل وشرب » (٢) .

ويرفض الإسلام الورع البارد . للذى يريد أن يظهر تقاه فى هذه الأيام فيصوم والناس مفطرون مقدمون على تناول اللحم الشهى الذى يملأ كل فج ؛ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام هو القدوة فى هذا حين ترك المائة بدنة للفقراء وللأغنياء. فالأمة كلها فى حفلة عامة أقامها لهم رب العزة فى منى . وأخذ عليه الصلاة والسلام من كل بدنة قطعة هو وشريكه على رضي الله عنه . وأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

تطالعنا رواية أخرى تضيف إلى الطعام والشراب عنصراً آخر هو ذكر الله وعن أبى المليح ، وزاد فيها « وذكر لله » (٣) .

وأى عجب فى ذلك فهذا هو التوجيه الربانى عن الحج :

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ [الحج] فالذكر باسم الله على الذبح . والشكر لله على ما رزق ، والتكبير على ماهدى ، والتهليل لتعظيم الرب .

---

(١) صحيح مسلم (ح ١١٣٧) ، والبخارى (ح ١٩٩٠) .
(٢) مسلم (ح ١١٤٢) . (٣) مسلم (ح ١١٤١) .

وهنا تختلط البهجة والمسرة والطعام والشراب والذكر فى نسيج واحد « أيام أكل وشرب وذكر لله » .

وتأتينا رواية ثالثة ، وتضيف إلى هذا العيد فى منى بهجة جديدة إلى الأكل والشرب والذكر :

(قلت : ونادى مناديه بمنى : « إنها أيام أكل وشرب وباءة » ذكره ابن سعد) .

ولم لا . فهؤلاء الذين امتنعوا عن أزواجهم طاعة لله . ورأينا كيف طرد الزبير أسماء عندما عرضت له وهو محرم وهى فى حل . وقالت له نكتتها المشهورة : أخفت أن أثب عليك . أليس من حقهم وحقهن أن يستمتعن بنعمة الجماع . فقد انتهى الإحرام . لكن هذه المتعة متأخرة لا تتم إلا بعد الطواف فى البيت . ونحن هنا مع رسول الله ﷺ لم يحلل بعد. إنما رمى ونحر وأكل وكان الإحلال بالحلق من رسول الله ﷺ . فماذا عن هذه الشعيرة .

(فلما أكل رسول الله ﷺ نحره ، استدعى بالحلاق فحلق رأسه . فقال للحلاق وهو معمر بن عبد الله بن نضلة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف . وحضر المسلمون يطلبون من شعره وهو قائم على رأسه بالموسى . ونظر فى وجهه وقال : « يا معمر . أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه ، وفى يدك الموسى » . قال معمر :

فقلت : أما والله يا رسول الله إن ذلك من نعم الله عليٍّ ومنّه) (١) .

أما الحلاق فهو :(معمر بن عبد الله . . . بن عدى بن كعب القرشى العدوى. . . أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية . وتأخرت هجرته إلى المدينة ، وقدمها مع أصحاب السفينتين من الحبشة ، وعاش عمراً طويلاً ، يعُد فى أهل المدينة ، وهو الذى حلق شعر رسول الله ﷺ فى حجة الوداع) (٢) .

فالحلاق إذن مهاجرى من الرعيل الأول والمجاهدين العريقين من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب . وها هو رسول الله ﷺ يخصه بهذه المأثرة فتغدو أعظم مآثره على الإطلاق . ولهذا حرص رسول الله على تذكيره بهذا الفوز العظيم بهذه الخصوصية قائلاً له :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٦ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٤٠٠.

« يا معمر أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه ، وفي يدك الموسى » .

فهو لم يفز برأس زعيم من قومه ، أو قائد عربي أو شاعر ملهم . إنما فاز بأن مكنه الله تعالى من رأس نبيه المجتبى من خلقه ليكون رسولاً إلى عباده . والموسى في يده فهو موطن ثقة السماء به ، وحُقَّ لمعمر أن يعبر عن مدى سعادته بهذه الدعوة ، ومدى فرحه بهذا التكريم الرباني له فقال :

أما والله يا رسول الله إن ذلك من نعم الله عليَّ ومنه .

وحتى نعلم مدى فضل الله على معمر ، وهو يمسك بشعر رسول الله ﷺ . أن اجتمعت قوافل الناس كلها تنتظر حصتها من شعر رسول الله ﷺ ، ولو شعرة واحدة تحتفظ بها ذكرى عزيزة وغالية يحفظونها لأجيالهم وأحفادهم ، يتبركون بها وتدمع عيونهم لرؤياها . أليست هي صلة الأرض بالسماء . فهي شعر رسول رب العالمين .

أما فضل التوزيع . فكان لأبي طلحة رضي الله عنه الأنصاري العظيم . الذي أوكلت إليه مهمة تقسيم شعر رسول الله ﷺ بين الناس .

لقد كان أبو طلحة رضي الله عنه أول الفائزين بشعرات من رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن ابن سرين عن أنس رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره) (١) .

ونحن بحاجة إلى أن نستذكر أبا طلحة رضي الله عنه كما استذكرنا معمر بن عبد الله .

فإذا كان عظماء العرب ينالون زعامتهم بأعظم فضيلتين عندهم: بالكرم والشجاعة . فمن يجاريه في العظمة ؟

أولاً : هو هدية أم سليم إلى المسلمين : فقد خطبها وهو مشرك .فقالت له (يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد ، ينبت من الأرض ، ينجرها حبشي بني فلان ؟ قال : بلى . قالت : أفلا تستحي تعبد خشبة ؟ إن أنت أسلمت فإني لا أريد منك الصداق غيره . قال : حتى أنظر في أمري . فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال : يا أنس زوج أبا طلحة . فتزوجها (٢) .

ثانياً : كرمه:عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك. يقول:

---

(١) البخاري (ح ١٧١) .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٥٩١ .

(كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالاً . وكان أحب أمواله إليه بيرحى . وكانت مستقبلة المسجد . وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : إن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى بيرحى ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله . فضعها يا رسول الله حيث شئت . قال رسول الله ﷺ:

« بخ بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح . قد سمعت ما قلت فيها ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه) (١) .

ثالثاً : شجاعته : (كان من الرماة المذكورين من الصحابة وهو من الشجعان المذكورين وله يوم أحد مقام مشهود كان يقى رسول الله ﷺ بنفسه ، ويرمى بين يديه ، ويتطاول بصدره ليقى رسول الله ﷺ ويقول : نحرى دون نحرك ، ونفسى دون نفسك وكان رسول الله ﷺ يقول : صوت أبى طلحة فى الجيش خير من مائة رجل . وقَتل يوم حنين عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم) (٢) .

هذا صاحبنا أبو طلحة العظيم الذى اختاره رسول الله ﷺ ليكون مسؤولاً عن توزيع الغنائم للمسلمين من شعر الحبيب المصطفى ﷺ .

ويحدثنا أنس فى حديثه الثانى (أن رسول الله ﷺ أتى منى . فأتى الجمرة فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر ثم قال للحلاق: « خذ » . وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ـ ثم جعل يعطيه للناس) (٣) .

والرواية الثالثة لأنس رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة ، ثم انصرف إلى البدن فنحرها ، والحجام جالس وقال بيده عن رأسه ،فحلق شقه الأيمن فقسم فيمن يليه . ثم قال :« احلق الشق الآخر ». فقال :« أين أبو طلحة» . فأعطاه إياه)(٤) .

والرواية الرابعة لأنس رضي الله عنه :(عن أنس بن مالك قال :لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة، ونحر نسكه وحلق ، ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه : ثم دعا أبا طلحة

---

(١) البخارى (ح ١٤٦١) ومسلم (ح ٩٩٨) .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٢٢٥ .
(٣، ٤) مسلم (ح ١٣٠٥) .

الأنصارى فأعطاه إياه . ثم ناوله الشق الأيسر فقال : « احلق فحلقه» ، فأعطاه أبا طلحة فقال : اقسمه بين الناس) (١) .

واخترنا هذه الروايات الأربع لأنس رضي الله عنه ؛لأنه أقرب الناس إلى الحقيقة . فهو ربيب أبى طلحة وأبو طلحة بمثابة أبيه الذى رباه وأمه أم سليم . وللجمع بين الروايات. يمكن القول أن الشق الأيمن كان يوزعه رسول الله ﷺ الشعرة والشعرتين بين الناس . ولما رأى ذلك يطول سأل عن أبى طلحة فكانت أم سليم زوجه حاضرة . فدفعه إليها لتسلمه لأبى طلحة . أما الشق الثانى الأيسر . فكان أبو طلحة جاهزاً حين ناداه رسول الله ﷺ . وأخذ الشق الأيسر من شعر رسول الله ﷺ ووزعه بين الناس تنفيذاً للأمر النبوى : « اقسمه بين الناس » .

واكتمل العيد عند جماهير المسلمين فقد كان فوزهم بشعيرات من شعرات الحبيب المصطفى أعظم ثروة جنوها فى ذلك اليوم يؤكد ذلك . ما روى عن خالد رضي الله عنه (سيف الله) .

(وكلّمه خالد بن الوليد فى ناحيته حين حلق . فدفعها إليه . فكان يجعلها فى مقدم قلنسوته ، فلا يلقى جمعاً إلا فضه) (٢) .

يا ألله ، خالد بن الوليد الذى ورث العداوة للإسلام والمسلمين عن أبيه والذى حارب رسول الله ﷺ حياته كلها قبل أن يعلن إسلامه فى سنة ثمان للهجرة . وأمضى ما ينوف عن عشرين عاماً فى حرب النبى ﷺ الفكرية والعسكرية نراه الآن يطمح وبالوساطة إلى أن يهبه رسول الله ﷺ ناصية شعره ـ أى مقدمته ـ ويكرم رسول الله ﷺ جنديه العظيم،وقائده العظيم الذى أسبغ عليه لقب ـ سيف الله ـ بعد مؤتة. يكرمه بهذه الناصية فماذا يفعل بها أعظم أبطال التاريخ القديم والذى لم يهزم فى معركة قط ؟

وإذاً كان العجب .

عمد بهذا الشعيرات فوضعها فى مقدمة قلنسوته ، وخاط القلنسوة عليها . وقرر أن تكون رفيقة حياته حتى يموت . وبعد سنتين ونيف غادر رسول الله ﷺ الدنيا إلى الرفيق الأعلى فى الجنة وبقيت الناصية من رسول الله ﷺ ترافق خالد بن الوليد وكانت هذه الناصية أهم عنده من درعه وسيفه ورمحه وسلاحه كله . فقد يتخلى فى الحرب

---

(١) مسلم (ح ١٣٠٥ ـ ٣٢٦) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٧ .

عن واحد من هؤلاء . لكن القلنسوة التى تشرف وتسعد وتزهو بالناصية لا يمكن أن يتخلى عنها ، ولا يمكن أن يخوض الحرب بدونها .

هـذا البطـل العظيـم الـذى نعـرف عنـه أنـه لـم يهـزم فى معركة قط . ونحن نعيد ـ والدارسون والعلماء والمحققون ـ هذه الانتصارات إلى عبقريته الحربية ـ والتى لا يشك أحد فيها ـ وتقوم كل الدراسات فى الشرق والغرب على السواء ـ وفى المدارس العسكرية عند العرب والإفرنج والعجم والغرب حول هذه العبقرية الفذة،إنها تحتفظ بها كلها على أنها حقائق ، ونفخر بها على أنها حقائق . ونضع على رأسها مقولة الخليفة العظيم أبى بكر : (لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد) ومقولة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب . وهو يترحم على الصديق من أجل خالد :

(رحم اللّٰه أبا بكر ، لقد كان أعلم منى بالرجال ، ومقولته يوم سمع أمه ترثيه بقولها :

أنت خير من ألف ألف إذا كبن وجوه الرجال

فقال لها : وهل قامت النساء عن مثل خالد ؟) .

ونحتفظ فـى هـذه الدراسات بمقولة نابليون بونابرت عن خالد الذى وصفه بقوله : (أعظم قواد التاريخ القديم) . نذكر هذا كله ، ونحتفظ به ونمضى إلى أعماق خالد بن الوليد ، وإلى شغاف قلبه ، وإلى شعوره وهو يحرز النصر تلو النصر :

ولم يجز بلدة إلا سمعت بها الله أكبر تدوى فى نواحيها

نمضى إلى خبايا نفسه فى اليرموك التى كان قائدها الفذ ، والتى أنهت وجود الروم فى الشام ، نمضى مع حناياه ، وجيوش الروم تحيط بالمسلمين ، وهو يصدر أوامره للبحث عن القلنسوة التى اعتاد ألا يخوض حرباً إلا بها ، لا يسأل عن الرماح والسيوف والدروع ، ويسأل عن القلنسوة ، ويلح على جنده أن يعثروا عليها ، ورآها بعضهم فلم يرفعها من الأرض ، أيعقل أن تكون هذه القلنسوة التى يبحث عنها أمير الجيش ؟ إنها خلقة بالية،ويرفعها بعضهم ، ويريه إياها فيتهلل وجهه بالفرح ، وتحوطه سعادة غامرة ، نعم إنها هى هى ،إنها ما يريد ، ويلبسها على رأسه ، ويقود جيشه ويخطط ويحارب ، ويضع خطط المواجهة ويأذن اللّٰه بالنصر .

وتمضى اليرموك فى تاريخنا الخالد ، أعلى أمجاد خالد وأثراها .

ونقترب من القائد العظيم ، لنتحسس شعوره بعد هذا النصر المؤزر ، هل وصل شموخه إلى السماء فخراً بهذا النصر ؟ هل بلغ الجبال طولاً بهذا المجد ؟ هل أخذته عزة القادة الكبار فى العالم ، وهم ينشئون دولاً ويزيلون دولاً ؟

روى الطبرانى وأبو يعلى برجال الصحيح عن جعفر بن عبد اللّٰه بن الحكم أن خالد ابن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ، فلم يجدوها ، فقال : اطلبوها ، فإذا هى قلنسوة خلقة ، فقال خالد : اعتمر رسول اللّٰه ﷺ فحلق رأسه ، فابتدر الناس جوانب شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته ، فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا رزقت النصر .

ونحن هنا أسعد مع هذه الرواية أن يسابق الناس على شعر رسول اللّٰه ﷺ بعد حلقه .

فيفوز بالناصية ، أو أن يهديها له رسول اللّٰه ﷺ فى الرواية الأولى ، لكننا فى كليهما مع الشامخ العظيم الخالد الذى يتواضع حتى يرى النصر ببركة هذه الشعيرات :

ففى الرواية الأولى:(فكان يجعلها فى مقدمة قلنسوته فلا يلقى جمعاً إلا فضه) .

وفى الرواية الثانية : (فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا رزقت النصر) .

يا أهل الأرض هل عندكم مثل هذه النفوس من قادة الفتوح وصانعى المجد ؟ أبداً.

إن المعنى الأعمق والدلالة الأعظم فى هذه الناصية هى أن خالداً رضي الله عنه ، وهو يخوض الحرب وتتكسر السيوف فى يديه يرى بالناصية النبوية رسول اللّٰه ﷺ أمامه يخوض الحرب ، إنه هو هو بين عينيه بناصيته فى حياته ، فيخفق قلبه ويرتعش وجدانه، ويمضى قدماً يقتل ويقاتل ، ويستبسل خلف نبيه ﷺ الذى أمره بالجهاد ، وإنه لتغمره السعادة ،وحين يتحقق النصر ، إنه إنما تحقق بالحضور النبوى المتمثل بهذه الناصية الحية التى يرى فيها وجه نبيه الشريف ، وقائده العظيم ، فلقد رزق النصر به أو بأى شىء يمت بالصلة إليه .

إنها العودة إلى الجذور ، فهو وإخوانه ثمرة الزارع البصير محمد ﷺ ، وأحد غرساته ﴿ . . . وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] (١) .

فقد كان حب المصطفى يغمر كل ذرة فى كيانهم ، وما مثل حب الحبيب يفعل الأعاجيب ، حتى لو كانت شعيرات تمت إليه بنسب قريب . . .

وتسارع الناس للإحلال ما بين حالق ومقصر ، وينظر رسول الله ﷺ إلى جنده وأمته المائه ألف يقومون بهذا النسك فقال :

« اللهم اغفر للمحلقين » قالوا : يا رسول الله : وللمقصرين ؟ . قال : « اللهم اغفر للمحلقين ». قالوا : يا رسول الله : وللمقصرين ؟ قال : « اللهم اغفر للمحلقين» قالوا : يا رسول الله : وللمقصرين ؟ قال : « وللمقصرين » (٢) .

فالذى حلق تخلى عن شعره كله تذللاً لله سبحانه ، وهو أغلى ما لديه بينما لم يفعل ذلك المقصر لكن كلاهما مشمول برحمة الله .

* * *

وفى هذه الأفواج المائجة . وكلهم مندفع للرمى والحلق والتقصير والنحر . ويستعدون للمضى إلى الطواف فى مكة مع رسول الله ﷺ . وقد اعتلى رسول الله ﷺ ناقته . وعيون عبد الله بن عمرو بن العاص شاخصة له وللمؤمنين حوله يسألون . فينقل لنا هذه اللقطات :

(فعن عيسى بن طلحة التيمى أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول :

وقف رسول الله ﷺ على راحلته ، فطفق ناس يسألونه . فيقول القائل منهم يا رسول الله ، إنى لم أكن أشعر أن الرمى قبل النحر . فنحرت قبل الرمى . فقال رسول الله ﷺ : « فارم ولا حرج » وطفق آخر يقول : إنى لم أشعر أن النحر قبل الحلق ، فحلقت قبل أن أنحر. قال : « انحر ولا حرج ». قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء ويجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعضها وأشباهها إلا قال رسول الله ﷺ: « افعلوا ذلك ولا حرج ») (٣) .

ومناسك منى الثلاثة هى الرمى والنحر والحلق ثم الطواف بالبيت . لا يدرى

---

(١) وفى قراءة من القراءات (يعجب الزارع) وهو محمد ﷺ .
(٢) مسلم (ح / ١٣٠٢) . (٣) مسلم (ح ١٣٠٦) .

المسلمون الحكم النبوى الذى يصدر فيها فهم الآن ولأول مرة يتعلمون هذه المناسك . وجاءهم الفرج « ارم ولا حرج »، « اذبح ولا حرج » « احلق ولا حرج » . ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . فاطمأن المسلمون يبشرون بعضهم بعضا ، ويعلمون بعضهم بعضا ، ينقلون لمن بعدهم هذا العلم . فالتقديم والتأخير جائز فيها بحيث لا يحطم المسلمون بعضهم بعضا . من الازدحام ، وتتنوع الأعمال ويخف الازدحام . وفقهها عبد الله بن عمرو رضي الله عنه حكماً عاماً فيمن نسى أو جهل شيئاً من هذه المناسك فقدم أو أخر فلا حرج عليه ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ [البقرة] .

٨ ـ من منى إلى الطواف بالبيت :

(ثـم ركـب رسول اللـه ﷺ فأفاض إلـى البيت ، فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه) .

ونتابع مع رسول الله ﷺ إلى الحرم .

(إننا معه ﷺ وهو الآن (أصاب الطيب بعد أن حلق ، ولبس القميص ، وحلَّ الناس) فمضى إلى مكة بثيابه العادية . ومضى الناس بثيابهم الجديدة ، أو العادية . بعد أن خلعوا ثياب الإحرام ثم أفاض ﷺ إلى مكة قبل الظهر راكباً ، وأردف معاوية بن أبى سفيان من منى إلى مكة) فطاف طواف الإفاضة .

فصار معاوية رضي الله عنه ثالث الثلاثة ، أسامه بن زيد ، والفضل بن عباس .

ويحدثنا جابر رضي الله عنه عن هذا الطواف بقوله حيث كان قريباً منه يراه :

(طاف رسول الله ﷺ بالبيت فى حجة الوداع على راحلته ، يستلم الركن بمحجنه، لأن يراه الناس ، وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه) (١) .

وكان له ﷺ جولة مع أهله بنى عبد المطلب جولة يبل بها ظمأه بعد الطواف ، وأقر عينه أن يجد أهله من آل عبد المطلب ينزعون من بئر زمزم ليسقوا الناس . فاقترب منهم وعبرَّ لهم عن مشاعره الفياضة نحوهم بقوله :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٥٩ .

« انزعوا يا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم».

وكيف يغلبهم الناس ؟

يغلبونهم حين يرون أن هذا النزع سنة فيتسابقون على النزع . فينتزعون منهم السقاء ليشاركوا فى سقاية الحجيج فتضيع السقاية التى شرفهم الله بها ويكتفى بأن يأخذ دلوا فيشرب منه ويبل ريقه ، ويروى ظمأه .

وصلى الظهر بمكة كما روى مسلم ، وإن كان البخارى قد حدثنا أنه صلى الظهر بمنى . وأما تعارض الروايتين الصحيحتين . يقول ابن كثير :

(فإن عملنا بها أمكن أن يقال : إنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمكة ، ثم رجع إلى منى ، فوجد الناس ينتظرونه فصلى بأصحابه بمنى أيضاً) (١) .

ولا ننسى رفض رسول الله ﷺ التميز عن أصحابه حين أراد أن يشرب من زمزم . .

(ففى حديث ابن عباس عند البخارى : أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس : يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها فقال ﷺ : « اسقنى » . قال : يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه . قال : «اسقنى» فشرب منه . ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها . فقال : « اعملوا ، فإنكم على صالح » .ثم قال :« لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه » (٢) يعنى عاتقه ، وأشار إلى عاتقه .

إنه سيد الخلق يرفض أن يتميز بشراب خاص له من بيت عمه . وهو يطمح أن يشارك فى إسقاء الحجيج ونزح الماء من بئر زمزم ، ووضع حبل السقاية على عاتقه . لكنه يخشى أن تعتبرها الأمة سنة فيأتى عشرات الألوف من الحجيج ليشاركوا فى هذه السقاية .

ويريد الله تعالى أن يظهر فضل بنى هاشم على لسان هذا الأعرابى الذى جاء ينتقدهم على سقايتهم (فعن بكر بن عبد الله المزنى . قال : كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة . فأتاه أعرابى فقال : مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل ، واللبن ، وأنتم تسقون النبيذ ؟ أمن حاجة بكم أم من بخل ؟ فقال ابن عباس :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٦٠ .

(٢) البخارى (ح ١٦٣٥) ص ٣١٤ .

الحمد لله ، مابنا من حاجة ولا بخل . قدم النبى ﷺ على راحلته ، وخلفه أسامة فاستسقى ، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب ، وسقى فضله أسامه . وقال : « أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا » . فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ) (١) .

إنها المأثرة الواحدة من المأثرتين اللتين أبقاهما رسول الله ﷺ من مآثر الجاهلية السقاية والحجابة . وبقيت السقاية فى أهله بنى هاشم . بينما كانت الحجابة فى بنى عبد الدار (مفاتيح الكعبة)

« خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم » . وتطالعنا حول البيت هذه الأسئلة التى شغلت بال عائشة أم المؤمنين . وعلى الأغلب أنها كانت فى أيام منى . فعنها قالت :

(سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (الحجر) أمن البيت هو ؟ قال :« نعم » . قلت : فلم لم يدخلوه فى البيت . قال : « إن قومك قصَّرت بهم النفقة ». قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال :« فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ، ولولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية . فأخاف أن تنكر قلوبهم . لنظرت أن أدخل الجَدْر فى البيت ، وأن ألزق بابه بالأرض » (٢) .

وفى رواية : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، وجعلت لها بابين ؛ باباً شرقياً وباباً غربياً . وزدت فيها ستة أذرع من الحجر . فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة » (٣) .

وهذا قلب صحابى يخفق . فهو يأمل أن يكون رأى رسول الله ﷺ (فعن أبى الطفيل قال : قلت لابن عباس أرانى قد رأيت رسول الله ﷺ . قال : فصفه لى . قلت : رأيته عند المروه على ناقة وقد كثر الناس عليه فقال ابن عباس : ذاك رسول الله ﷺ . إنهم كانوا لا يُدعون عنه ولا يكرهون) (٤) .

فمن حق الحجيج كله أن يرى رسول الله ﷺ ، ولا يدفع عنه .

---

(١) مسلم (ح ٣٤٧) ص ٥١٨ .
(٢) مسلم (ح ١٣٣٣) ص ٥٢٨ ،والبخارى (ح ١٥٨٤) .
(٣) مسلم (ح ١٣٣٣ ـ ٤٠١) ص ٥٢٦ .
(٤) مسلم (ح ١٢٦٥) ص ٥٠١ .

سابعًا : أيام منى

لقد كان حديثنا عن اليوم الأول يوم النحر . عن الرمى والنحر والحلق والطواف والخطبة فيه فماذا عن اليومين الآخرين من الأحاديث التى بين أيدينا ؟

أ ـ اليوم الثانى من أيام التشريق :

(ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مِنى من يومه ذاك فبات بها . فلما أصبح انتظر زوال الشمس . فلما زالت الشمس مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب. فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة: الله أكبر. ثم يقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل . فقام مستقبل القبلة . ثم رفع يديه ودعا دعاءً طويلاً بقدر سورة البقرة . ثم أتى ﷺ إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك،ثم انحدر ذات اليسار . مما يلى الوادى فوقف مستقبل القبلة ، رافعًا يديه يدعو قريبًا من وقوفه الأول . ثم أتى الجمرة الثالثة ، وهى جمرة العقبة فاستبطن الوادى واستعرض الجمرة ،فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه فرماها بسبع حصيات كذلك ، ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ،ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمى كما ذكر غير واحد من الفقهاء . فلما أكمل الرمى رجع من فوره . فقيل : لضيق المكان بالجبل . وقد قيل وهو الأصح أن دعاءه كان فى نفس العبادة قبل الفراغ منها .

وروى الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يرمى الجمار إذا زالت الشمس ، زاد ابن ماجه : قدر ما إذا فرغ من رميه صلى الظهر .

* * *

وأى شىء نضيفه إلى هذا المشهد الذى نراه ونسمعه فقد حدَّد زمان الرمى بأنه بعد الزوال من يوم ثانى أيام منى . وأنه جاء الآن ماشيًا ولم يأت راكبًا كما فعل فى رمى الأول، فقد نزل الناس منازلهم واستقروا فى بيوتهم ، وتابع الناطق الرسمى المسيرة . وها هو يصف رمى الجمار واحدة تلو الأخرى يرافقها مع كل رمية تكبيرة ، وبعد رمى كل جمرة يعقبه دعاء طويل طويل قدر سورة البقرة . أليس هذا ما يستلفت الانتباه .

دعاء قد يصل إلى الساعة ، وتبتل إلى الله ، وتضرع إليه . ترى ما هذه الأدعية الحرى التى علمها الله تعالى لمصطفاه وأحب خلقه إليه يدعوه فيها . هذا العالم الذى لا نعرف منه إلا مظاهره فقط . ولا ندرك كنهه مثلما أنا لا ندرك كنه عظمة عبد الله ورسوله .

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجومَ الماءُ .

ونحن حين نؤدى هذه الشعيرة . فالمجيد منا يكبر ، والسابق بالخيرات يدعو دعاءً لدقيقة أو دقيقتين . ثم نمضى إلى الجمرة الوسطى . فتتشابه المظاهر ، نرمى كما يرمى إمام المرسلين ، ونكبر مع كل حصاة . لكن أنى لنا هذه العبودية بحيث نقف بعيداً وندعو . ذاك سيد الخلق يناجى ربه ، ويدعو دعاء طويلاً أقل من الأول . نحن لسنا هناك . إنما كان معه رواة الحدث يتشابهون معه على الأقل فى المظاهر . ولا يرقى لرقيه أحد .

ونمضى مع رسول رب العالمين إلى الجمرة الثالثة . حيث الرمى ولادعاء بعدها . وماذا بعد الرمى ؟

ب ـ الخطبة الثالثة :

حدث تجاويت الدنيا معه ولم نحس به . حدا برسول الله ﷺ أن يدعو المسلمين جميعًا لاجتماع طارئ يلقى عليهم التعليمات الربانية الكبرى النازلة توًا مع جبريل الأمين عليه الصلاة والسلام .

(وسببها أنه ﷺ أنزلت عليه سورة النصر فى هذا اليوم فعرف أنه الوداع . . .).

وما أجمل هذا الوداع بالنصر ، ومن هنا أسميت الحجة بحجة الوداع ، وكانت آخر سورة أنزلت عليه ﷺ سورة النصر .

وسنحاول أن نرصد هذا الحدث العالمى الضخم مع نزول هذه السورة :

١ ـ ابن عمر : (روى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى . . . عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع . فأمر براحلته القصواء فرحلت . ثم قام فخطب الناس . فذكر خطبته الشهيرة) (١) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٦١ ، ٥٦٢.

٢ ـ ابن عباس : (روى البيهقى . . . عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إنه قد نعيت إلىَّ نفسى ». فبكيت ثم ضحكت وقالت : أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال :« اصبرى فإنك أول أهلى لحاقًا بى فضحكت ») (١) .

٣ ـ أبو سعيد الخدرى :(روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : لما نزلت هذه السورة: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال: « الناس خير ، وأنا وأصحابى خير » ، وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ») (٢) .

٤ ـ ابن عباس : (روى الطبرانى عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة. قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت . قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً فى أمر الآخرة) (٣) .

٥ ـ ابن عباس : (روى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم. فما رأيت أن دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لى : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ فقلت : لا، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول) (٤) .

٦ ـ ابن كثير:(وأما ما فسر ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نعى فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهى قريتك التى أخرجتك ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا . فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾) (٥) .

(١ ـ ٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦١ ، ٥٦٢. وحديث البخارى الأخير هو فى البخارى (ح ٤٩٧٠).

(٥) ابن كثير ، التفسير / ٤/ ٥٦٢ .

هؤلاء الصحفيون الثلاثة ابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدرى رضي الله عنهم وكانوا فتيانًا دون العشرين هم الذين قدموا لنا هذا السبق الصحفى ، والتعرف على أخطر حدث يدهم المسلمين ،وهو نعى رسول الله ﷺ نفسه لهم فى هذه السورة الكريمة التى تتحدث قمة النصر ، والفتح ، والاستعداد للرحيل للآخرة . فقد أديت الأمانة ، وبلغت الرسالة ، ونصحت الأمة ، وعلى هذه الأمة الممثلة بعشرات الألوف هنا أن يحملوا مسؤولية هذه الرسالة بعدك ، فلابد أن تبلغ لهم ثالثة أهم مبادئها الكبرى التى قدمتها للبشرية فكرًا نظريًا وواقعًا عمليًا .

وعندنا صحفى رابع نقل لنا وقائع الخطبة ؛ لأنه كان جالسًا تحت عنق ناقة النبى ﷺ، ولعابها يسيل على عاتقه وهى تجتر طعامها (قال عمرو بن خارجة : وإن لعابها ليسيل بين كتفى فى وسط أيام التشريق . . . فأمر براحلته القصواء فرحلت له . فوقف للناس بالعقبة فاجتمع إليه الناس - وفى رواية : ما شاء الله من المسلمين ، فحمد الله فأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، ألا وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت؟ » قالوا: بلغ رسول الله ﷺ . قال : « فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

الروح الجديدة التى تسرى فى هذه الخطبة ، وتشير إلى أهميتها الكبرى هى قوله ﷺ : « فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » كما فى النص « اسمعوا من قولى فاعقلوه ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف » (١) .

فهذه الإشارة لم ترد فى الخطبتين السابقتين،إذ لم تكن سورة النصر قد نزلت بعد . أما بعد نزولها التو ، فكانت الإشارة المباشرة والدعوة إلى الخطبة ، وتهيئة النفوس لوداع هذه الدنيا حبيبها العظيم الذى لم تسعد بمثله ، ولم يمش على الأرض أحد مثله ، ولا وطئ الثرى أحد مثله، فالدنيا كلها تتجاوب معه وتحن إليه، فقد كان من الأساسيات الكبرى فى هذا الدين أن يعلم حملته أن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] . ولو كان لبشر الخلود لكان لسيد البشر ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء] . والعرب حديثو عهد بجاهلية .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١١١١ .

فلابد أن تتهيأ قلوبهم وعقولهم لتلقى مثل هذا النبأ المفجع كما وردت الإشارة فى أحد فى سورة آل عمران : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

[آل عمران]

وكان المبدأ الثانى : هو إعلان إقامة دولة العقيدة العالمية :

فلم يأت رسول الله ﷺ ليقيم إمبراطورية قرشية يحكم بها العرب ، ولا ليقيم إمبراطورية عربية يحكم بها العالم ، لم يأت بسيادة قوم على قوم ولا جنس على جنس ولا قبيل على قبيل إنما جاء بعالمية هذا الدين وعالمية هذه الرسالة ، بمساواة واحدة بين بنى البشر جميعًا ، فليست حضارة الرجل الأبيض ، وليست حضارة دول الشمال ، وليست حضارة العرب ، إنها الحضارة التى تقوم على أساس الرب الخالق الواحد ، وعلى أساس الأصل الواحد .

ولخص هذا كله بكلمة واحدة : « ألا إن ربكم واحد ، ألا وإن أباكم واحد » .

وحتى لا يأتى باسم محمد جيل ولا قبيل يزعم أن محمدًا جاء لبعث أمجاده ، ولتمثيل نقاء عنصره كما يشير دعاة القومية دائمًا بأن محمدًا هو تعبير عن الإنسان العربى، عن القيم العربية ، عن أصالة الجنس العربى ، حتى لا يأتى أحد يزعم ذلك ، جاء النص من الوضوح والأصالة ، وفى أكبر حشد شهدته الأمة العربية ، وحضره رجالات العرب وقادتها وسادتها وشعراؤها وعظماؤها وخطباؤها فى مختلف قبائلها لم يتخلف منهم أحد .

جاء هذا الإعلان فى أكبر حشد ، وأضخم حشد ، وفى أطهر بقعة من الأرض فى مكة المكرمة ، وفى أفضل أيام العام ، فى أيام التشريق جاء هذا الإعلان ليقول بوضوح لا تدخله لجلجة . وبيان لا يكتنفه غموض : إن ما تم الآن ليس المجد المحمدى ، إنما المجد الإلهى والإنعام الربانى على عبده محمد ﷺ صدق وعده ، جاء ليقول :

« ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت ؟ » قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ، قال : « فليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » .

فالدرجات والطبقات فى هذا المجتمع الربانى منطلقة من الله تعالى فقط . فليس بين الله تعالى وبين أحد من خلقه نسب إلا التقى ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] .

المبدأ الثالث : التأكيد والإصرار على حرمة الدم والمال والعرض للمرة الثالثة وبأساليب مختلفة :

ثم قال : «أى شهر هذا ؟» فسكتوا فقال : «هذا شهر حرام »، «أى بلد هذا ؟» فسكتوا فقال : « بلد حرام . أى يوم هذا ؟» فسكتوا . قال : «يوم حرام» . ثم قال : «إن الله تعالى قد حرَّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا فى بلدكم هذا فى يومكم هذا إلى أن تلقوا ربكم،ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم . « قال : اللهم اشهد» .

أو ليس قوام الدنيا كلها والتعايش فيها ينطلق من هذه الحرمات الثلاث . والإسلام فى تشريعاته تفصيل لتطبيق هذا المبدأ ؟ والقوانين التى تسن فى العالم اليوم هى فى ظاهر الأمر لحماية هذه الحرم الثلاث ، لكن سمتها الهوى والجهل والضلال حين تفر من شريعة الله. الأعلم بنظام خلقه من الخلق أنفسهم مهما قدموا من ادعاءات .

المبدأ الرابع : اليوم الآخر :

ثم قال : « إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا هل بلغت ؟ » قال الناس: نعم ، قال : « اللهم اشهد » .

المبدأ الخامس : المساواة فى إلغاء الظلم وإنهاء الثارات :

فالأحكام لا تمييز فيها بين شريف ووضيع ، وأمير وسوقة . فكلهم فى حد الله سواء .

« ألا وإن من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » .

« ألا وإن كل ربًا فى الجاهلية موضوع ، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعًا فى بنى سعد بن ليث فقتلته هذيل ، ألا هل بلغت ؟» قالوا : نعم . قال : «اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم » ثم قال :« اسمعوا منى تعيشوا ألا لا تظلموا ، ألا لا تظلموا ، ألا لا تظلموا » .

فلم يكن يُقلق رسول الله ﷺ فى هذه الأمة كما يُقلقه الظلم . ومهما تعددت أسماؤه وأنواعه وأشكاله فهو مرفوض عند الله تعالى .

« ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسٍ منه .

فقال عمرو بن يثربى : يا رسول الله ،أرأيت إن لقيت غنم ابن عمى فأخذت شاة فاحتزرتها . فقال :« إن لقيتها تحمل شفرة وأزنادًا بخبت الجميش [1] فلا تهجها » .

والناس جميعًا يستمعون لرسول الله ﷺ ويعجب أن يكون أخذ اليسير والكثير بحاجة إلى طيب نفس الآخذ منه مما حدا بالصحابى ابن يثربى أن يسأل عن شاة لقيها بالفلاة لابن عمه من بين غنم ابن عمه أما يحق له احتيازها وذبحها ، فكان الجواب حتى ولو كانت فى فلاة من غنم ابن عمك وكان على ظهرها سكينًا حادة إشارة إلى أن صاحبها قد وهبها للقتل .

المبدأ السادس : حرمة النسيء والأشهر الحرم :

(ثم قال:« أيها الناس ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ...﴾ الا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض . ثم قرأ ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾ ثلاث متواليات : ذو القعدة ، ذو الحجة ، محرم ، ورجب الذى يدعى شهر مضر الذى بين جمادى وشعبان،والشهر تسعة وعشرون وثلاثون. ألا هل بلغت »؟ قال الناس : نعم . فقال :« اللهم اشهد ».

المبدأ السابع : حقوق المرأة وواجباتها :

ثم قال :« أيها الناس ، إن للنساء عليكم حقًا ، وإن لكم عليهن حقًا . فعليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا ولا يدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه إلا بإذنكم ، فإن فعلن ذلك فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الحقوق والواجبات فى خطبة عرفات . إنما الإضافة الجديدة هنا قوله ﷺ :

---

(١) خبت الجميش : أرض بين مكة والمدينة ليس بها أنيس .

« وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟» قال الناس : نعم . قال:« اللهم اشهد » .

ووصف النساء بالأسرى وصف بليغ معبر . والأسير حر وليس عبدًا . ساقته ظروفه ليكون فى هذا الأسر بإرادته ، وهن عندكم بحكم الأمانة ، والأصل المحافظة على الأمانة من المس والأذى . وألا يصل إليها ذرة أذى ، وقد أعطينكم أغلى ما عندهن ، أعطينكم فروجهن بكلمة الله تعالى ، بالزواج الذى أباحه الله تعالى ، فإذا أعطينكم أغلى ما عندهن ، وكن عندكم أسارى بحكم الأمانة ، أفلا تتقون الله فيهن ، وتستوصوا بهن خيراً ؟!

إنهن ليسوا إماء عندكم ، ولسن جاريات لديكم ، إنهن حرائر أسرى بحكم الأمانة عندكم ، فهن وصية رسول الله ﷺ ، فاتقوا الله فيهن .

المبدأ الثامن : أخوة الإسلام ومرجعية الكتاب المبين :

« أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه رضى به ، إن المسلم أخو المسلم ، إنما المسلمون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه ، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، لا تظلموا أنفسكم . لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض:إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا؛كتاب الله تعالى ،ألا هل بلغت ؟» ، قال الناس : نعم . قال :« اللهم اشهد » (1) .

إنه إعلان هام أن الوحدانية لله تعالى ستبقى فى جزيرة العرب لها السيادة العليا . فالشيطان قد يئس أن يعبد فيها . ولن تعود للشرك والوثنية والإلحاد مرة ثانية ، لكن لا يعنى ذلك أن الشيطان قد مات . فسيحاول على المستوى الفردى والجماعى ما أمكن أن يدخل الشرك الخفى والرياء والانحراف فى كثير من الأعمال والممارسات اليومية مما لا تنتبهون له . « ورضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم » فهذه لا بد من الوعى والحذر المستمر منها ، هذا على صعيد جزيرة العرب . فماذا عن التوحيد خارجها ؟

---

(1) الخطبة كاملة فى سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨ / ٦٤٣ ـ ٦٤٥، وهى عند الواقدى فى المغازى ٣/ ١١١١ ـ ١١١٣ .

استمرار الجهاد فى الأرض حتى تعلو كلمة التوحيد فى الأرض . « إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » وبإعلان قبولها أو قبول سلطانها . فتكون عصمة دمائهم وأموالهم بعدها فالأرض لله تعالى . ومهمة عباده المؤمنين . أن ينقلوا البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . فالمعسكر الإسلامى المسلمون فيه إخوة لا تحل دماؤهم ولا أموالهم إلا بطيب نفس . والمعسكر غير الإسلامى لابد أن يقر بسلطان التوحيد ، فالقتال لفتح الحوار بين الدعاة إلى الإسلام وبين الناس ؛ لأن الدين لا يتم بالإكراه ، والدخول فيه لا يتم بالقوة ، فإن فتح باب الحوار، وكان المعسكر الثانى قابلاً لسلطان التوحيد هذا فـ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . و﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس] . ويبقى المعسكر كله معصوم الدم والمال . وحسابهم على الله تعالى .

والبند الثالث فى هذا المبدأ . هو ربط الكفر بالقتل الحرام « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ،ففى سلسلة الكبار ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان : ٦٨] . والعودة إلى الثارات والصراعات عودة إلى الجاهلية والكفر .

والبند الرابع فى هذا المبدأ ؛ مبدأ سيادة التوحيد هو الاعتصام بكتاب الله ، وأن تكون له المرجعية العليا لا للعادات والتقاليد وأحكام الجاهلية . فالتمسك بالكتاب هو العاصم من الزلل ، والتخلى عن الكتاب هو الضلال المبين .

جـ ـ اليوم الثالث من منى واليوم الرابع :

(ولم يتعجل ﷺ فى يومين، بل تأخر حتى أكمل ورمى أيام التشريق، وأفاض ﷺ يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب وهو الأبطح، وهو خيف بنى كنانة ، فوجد أبا رافع قد ضرب فيه قباءً هنالك ، وكان على ثقله توفيقًا من الله سبحانه دون أن يأمره به رسول الله ﷺ. فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلاً سحرا ولم يرمل فى هذا الطواف . ثم خرج إلى أسفل مكة ، قلت: من المسجد من باب الحرورية وهو باب الخياطين ، رواه الطبرانى عن ابن عمر) (١) .

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٨/ ٦٦٥ عن زاد المعاد لابن القيم ١/ ٢٣٨.

انتهت خطبة يوم النحر فى اليوم الثانى ، ولا تزال آثار سورة النصر فى كل قلب . فقد ألمح عليه الصلاة والسلام إلى أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا ، وقد يكون اللقاء الأخير ، وألقى إليهم وإلى البشرية من خلفهم المبادئ الكبرى لهذا الدين ، ومضى الناس بعدها لطعامهم وأكلهم وشربهم ومبيتهم فى الليلة الثالثة ، لمن شاء أن يتم ، وكان رسول الله ﷺ ممن بات وأتم . ومضى الناس للرمى عند الزوال فى اليوم الثالث ، وانتهت أعمال الحج ومضى الناس من مِنى ، وهذه بعض اللقطات والأحداث بعد النفرة من منى ، إذ لم نجد شيئًا خلال أربع وعشرين ساعة من الرمى والخطبة فى اليوم الثانى إلى الرمى فى اليوم الثالث لم نجد حدثًا نقف عنده .

أ ـ النزول فى المحصب :

يحدثنا عنه أبو رافع رضي الله عنه وهو الذى أوكل بثقل رسول الله ﷺ : لم يأمرنى رسول الله ﷺ أن أنزل الأبطح حين خرج من منى ، ولكنى جئت فضربت فيه قبته . فجاء فنزل (١) .

ب ـ عمرة عائشة :

نحن ماضون مع رسول الله ﷺ حيث نفر يوم الثلاثاء بعد الظهر من مِنى ، ونزل بالأبطح بعد خروجه من منى ، حيث يتجمع الناس فى هذا المكان ، ودخل ليل يوم الأربعاء . والمسلمون لم يصلوا بعد إلى الحرم لطواف الوداع .

وندع الحديث لعائشة رضي الله عنها كذلك :

لما كانت ليلة الحصبة (٢) قلت : يا رسول الله، يرجع الناس بعمرة وحجة ، وأرجع أنا بحجة ؟ قال : « أو ما كنت طفت ليالى قدمنا مكة (٣) ؟»، قلت : لا . قال : «فاذهبى مع أخيك إلى التنعيم ، فأهلى بعمرة ثم موعدك مكان كذا وكذا » (٤) .

إنها الزوجة الأثيرة الحبيبة عائشة رضوان الله عليها . بكت يوم حاضت قبيل دخول مكة ، فهدأ روعها ﷺ أنها تقوم لشعائر الحج غير أنها لا تطوف بالبيت حتى تطهر ، وطهرت بعد عرفة .

---

(١) مسلم (ح ١٣١٣).
(٢) ليلة الحصبة : فى البخارى ليلة النفر (أى :من الأبطح) حيث مضى الحجيج للوداع فى آخرها .
(٣) لم تطف بالبيت لأنها كانت حائضًا فبقيت حاجّة فقط .
(٤) مسلم (ح ١٢١١ ـ ١٢٨).

وطافت طواف الإفاضة مع رسول الله ﷺ ، وأنهت حجها معها، لكنها تحس بغبن شديد أن يعود الناس بنسكين؛ الحج والعمرة ، وتعود هى بنسك واحد،وقال لها ﷺ : « يسعك طوافك لحجك وعمرتك » [(١)] فأبت . وتطييبًا لخاطرها وهى ابنة التاسعة عشرة أمر رسول الله ﷺ أخاها عبد الرحمن بن أبى بكر أن يمضى بها إلى التنعيم لتعتمر . وتعود بنسكين مثل بقية الحجيج الذين اعتمروا قبل الحج ، ثم أهلوا بالحج . ونمضى معها فى رحلتها السعيدة هذه . ونستمع إلى حديثها مباشرة فى الرواح إلى التنعيم :

(قالت : فأردفنى خلفه على جمل له ،قالت : فجعلت أرفع خمارى أحسره عن عنقى . فيضرب رجلى بعلة الراحلة . قلت له : وهل ترى من أحد ؟ قالت : فأهللت بعمرة) [(٢)] .

إنها بطبيعة الأنثى حيث لم تجد أحدًا فحسرت خمارها ورفعته عن عنقها ، وبطبيعة غيرة الرجل يضرب رجلها لتغطى عنقها ووجهها ،فتقول له ـ وهى السعيدة بعد الحزن والكآبة ، فرسول الله ﷺ سوف يؤخر مسير الحجيج كله حتى تعود إليه فى المحصب ـ وتقول لأخيها : (وهل ترى من أحد ؟) فالطريق خالٍ من المارة ، والمسلمون جميعًا فى الأبطح بجوار رسول الله ﷺ ، ولا ننسى لقطة أخرى ذكرتها لنا عن تعبها ونعاسها خلف أخيها الذى رافقته فى هذه الليلة ، وهى تركب خلف أخيها عبد الرحمن تقول : (فإنى لأذكر وأنا جارية حديثة السن أنعس فيصيب وجهى مؤخرة الرحل ، حتى جئت إلى التنعيم فأهللت منها بعمرة ، جزاء بعمرة الناس التى اعتمروا) [(٣)] .

لقد أخذ عليها التعب رضوان الله عليها . فراحت تخفق ناعسة حتى تكاد تمس الرحل . لكنها كانت تنتظرها سعادة ألذ فى طريق العودة ؛ فها هو رسول الله ﷺ هابط ليراها وقد تأخرت ، وها هى مصعدة قدمت فتلقاها عليه الصلاة والسلام . فلم ينتظر وصولها، إنما قدم ليراها، قالت عائشة: (فلقينى رسول الله ﷺ وهو مصعد من مكة وأنا منهبطة عليها أو أنا مصعدة وهو منهبط منها) [(٤)] ، فهى لا يهمها من الأمر أين التقيا. لكن الذى تعرفه أنه التقى معها فى الطريق وهو يبحث عنها ، ولم تكن تدرى ﵂ أن هذه العمرة سوف تخلدها إلى الأبد ، فيعتمر المسلمون خلال خمسة عشر قرنًا من التنعيم ، من المكان الذى اعتمرت به عائشة بعد الحج أو من المقيمين فى مكة بعد عمرتهم الأولى ، وأصبح اسم المسجد مسجد عائشة ﵂ . لم تكن تدرى ، ولم تكن

(١) مسلم (ح ١٢١١ ـ ١٣٢).
(٢) مسلم (ح ١٢١١ ـ ١٣٤) .
(٣) مسلم (ح ١٢١١ ـ ١٢٠).
(٤) مسلم (ح ١٢١١ ـ ١٢٨).

تقصد تلك الشهرة الربانية التى أعطاها الله تعالى لها بهذه العمرة . لأنها الأثيرة المحببة عند رسول الله ﷺ . فهى محببة إلى الله عز وجل ولم تفت جابر رضي الله عنه هذه اللقطة وهو ينقل لنا حج النبى ﷺ فقال : وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشىء تابعها عليه فأرسلها مع عبد الرحمن فأهلت بعمرة من التنعيم) (١) .

جـ ـ صفية رضي الله عنها وحيضها :

وصلت عائشة رضي الله عنها فى النصف الثانى من الليل. (فارتحل وأذن الناس بالرحيل) فهم ماضون إلى طواف الوداع بالبيت العتيق إذ جاء صفية رضي الله عنها زوجه الأخرى الأثيرة عنده الحيض . وندع عائشة رضي الله عنها تحدثنا كذلك عن ضرتها صفية :

عن عائشة قالت : لما أراد رسول الله ﷺ أن ينفر إذا صفية على باب خبائها كئيبة حزينة . فقال : « عقرى ، حلقى ، إنك لحابستنا؟ » إنها أزمة أقل من دقيقة . فالحيض لا يقتضى تأخير الجيش لأسبوع من أجلها . فتدارك رسول الله ﷺ الأمر بعد أن رآها وقد حلقت ، وأدت المناسك . فقال لها :« أكنت أفضت يوم النحر ؟» قالت : نعم . قال :« فانفرى » (٢) .

وفى الرواية الأخرى عن عائشة رضي الله عنها :

قال :« فاذهبى مع أخيك إلى التنعيم فأهلى بعمرة ثم موعدك مكان كذا »، قالت صفية: ما أرانى إلا حابستكم ؟ قال:«عقرى ، حلقى ، أو ما كنت طفت يوم النحر ؟»، قالت : بلى . قال :« لا بأس ، انفرى » (٣) .

د ـ الوداع :

وهكذا تأهب الحجيج للرحيل. ومضى إلى الكعبة ليكون آخر عهده من مكة البيت العتيق ، لكن عشرات الألوف من القلوب التى شهدت رسول الله ﷺ ، وعاشت معه، وأحبته ، وتلقت تعليماته سوف تسير فى طريق آخر سوف تودع النبى ﷺ . إنها سعيدة وحزينة فى الوقت نفسه . سعيدة أن عاشت أيامًا من حياتها مع سيد الخلق ؛ الموحى إليه من رب العالمين . تتعلم وتستمع وتتربى ، وتدفئ قلوبها بحبه العظيم الذى خالط كل ذرات كيانها، وحزينة أن هذا آخر عهدها بالنبى المصطفى ، وقد تكون الدنيا كذلك على وشك وداعه إلى الرفيق الأعلى . ما أصعب لحظات الفراق ، وأشدها وجدًا .

---

(١) مسلم (ح ١٢١٣).
(٢) مسلم (ح ١٢١١ ـ ٣٨٧).
(٣) مسلم (ح ١٢٨ ـ ١٢١١).

بعد لقاء الأحبة .

لكن عقول عشرات الألوف هؤلاء تدرك عظم المسؤولية ، وعظم الرسالة التى حملها إياهم رسول الله علمًا وعملاً وتربية ، وتمضى إلى أقوامها مصممة على متابعة الطريق ، والسير على الهدى الإلهى مهما كلف الثمن ،وأن عليها أن تنقل لأبناء عشائرها الصورة الحية عن هذا اللقاء ، فتحرص على أن تستذكر كل خبر . وكل ملاحظة ، وكل حديث ، وكل كلمة ، وكل شىء عائشة وشهدته مع رسول الله ﷺ .

هـ ـ زيارة سعد بن أبى وقاص :

لقد كانت الزيارة النبوية ـ والله أعلم ـ فى نهار اليوم الثالث من مِنى ، وندع الحديث عنها لسعد رضي الله عنه : (عادنى رسول الله ﷺ فى حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت فقلت : يا رسول الله بى ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا ابنة فأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : «لا »، قلت : فالشطر ؟ قال :« لا» ، قال : «الثلث والثلث كثير . إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ، إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجرت بها حتى ما تجعله فى فىّ امرأتك » . فقال : يا رسول الله أخلف بعد أصحابى ؟ فقال :« إنك لن تخلَّف فتعمل عملاً صالحًا إلا تزداد خيراً ورفعة . ثم لعلك تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون ، اللهم امض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم . لكن البائس سعد ابن خولة (يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة). وخلَّف على سعد بن أبى وقاص رجلاً ، وقال :« إن مات بمكة فلا تدفنه بها» . يكره أن يموت الرجل فى الأرض التى هاجر منها) (١) .نذكر سعدًا رضي الله عنه بأنه أول من أراق دمًا فى مكة فى شجار مع المشركين . ونذكر أنه أول من رمى بسهم فى سبيل الله . وخلَّد ذلك شعراً بقوله :

ألا هــل أتى رسـول الله أنى ... حـميت صحـابتى بصدور نبلى
أذود بهــــــا أوائلهم ذياداً ... بكل حـــــزونة وبكل ســهل
فمـــــا يعتــد رامٍ فى عدوٍ ... بسهم يا رسول اللـه قبلى (٢)

وهو خامس خمسة فى الإسلام،فهو من الرعيل الأول. وهو الذى فداه رسول الله ﷺ بأبيه وأمه فى أحد . كما روى علىّ رضي الله عنه فى ذلك :

---

(١) البخارى (ح ١٢٩٥) ، ومسلم (ح ١٦٢٨) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢/١٧٨ .

(ما سمعت النبى ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك فإنى سمعته يقول يوم أحد : « ارم يا سعد فداك أبى وأمى » (١) .

لقد كان محببًا إلى رسول الله ﷺ ، وأقلقه أن يمضى عائدًا إلى المدينة وليس معه أخلص خلصائه سعد رضي الله عنه . وسجله حافل فى البطولات يوم أحد والخندق ، وها هو سعد رضي الله عنه فى التاسعة والثلاثين يحس أن المرض الذى نزل به هو مرض الموت ، وقد ترك فى المدينة أغلى ما عنده ، زوجه وابنته إذ لم يكن قد رزق إلا إياها آنذاك ، وهو عاجز عن المتابعة مع النبى ﷺ ، وجاءه حبيبه المصطفى يعوده من مرضه الذى نزل به .

لقد بكى الجندى العظيم وهو يرى قائده يدخل عليه كما فى الرواية الأخرى :

(أن النبى ﷺ دخل على سعد يعود يعوده بمكة . فبكى . قال : « ما يبكيك ؟ ».

فقال: خشيت أن أموت بالأرض التى هاجرت منها كما مات سعد بن خولة. . .)(٢).

فهو يتلظى ألمًا أن يموت فى الأرض التى هاجر منها ولو كانت أحب أرض الله إلى الله؛ مكة المكرمة. وأمام هذه العواطف الحرى . قام رسول الله ﷺ يدعو ربه أن يشفى سعدًا. (فقال النبى ﷺ : « اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا ، اللهم اشف سعدًا » ثلاث مرات) (٣) .

وكان الهم الثانى الذى يشغل سعدًا رضي الله عنه ، هَمَّ ماله ولا ولد له إلا عائشة ابنته ، فهل يوصى بماله كله فى سبيل الخير ؟ وجاء الجواب النبوى بالنفى بالتصدق بكل المال وبثلثيه وبنصفه ، والثلث كثير ، فقد جاء التوجيه النبوى ليربط المسلم ببيته وأهله . ويجعل أساس الانطلاق منه ، لا أن يكون للناس فقط ، وتابع النبى ﷺ تربيته لجنديه سعد . ليؤكد أن الصدقة على الفقير ليست أعلى باعًا من الإنفاق على البيت : « إن صدقتك من مالك صدقة ، وإن نفقتك على عيالك صدقة ، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك إن تدع أهلك بخير خير من أن تدعهم يتكففون الناس » (٤) .

بينما تطالعنا رواية أخرى تبرز مدى اهتمام النبى ﷺ بربط المسلم ببيته وأهله ، مروية عن سعد كذلك قال :

عادنى رسول الله ﷺ فى مرضى فقال : « أوصيت ؟ ». قلت : نعم . قال : «بكم ؟ » . قلت : بمالى كله فى سبيل الله . قال : « فما تركت لولدك ». قال : هم

---

(١) البخارى (ح ٢٩٠٥). (٢ ، ٣) مسند أحمد ١/ ١٦٨.
(٤) مسند أحمد ١/ ١٦٨، ومسلم ٥/ ٧٢.

أغنياء . قال : « أوصى بالعشر » . فما زال يقول وأقول حتى قال : « أوصى بالثلث ، والثلث كثير أو كبير » [1] .

ولا شك أن هذا النص يدل من طرف آخر على مدى سماحة سعد وكرمه حتى ليوصى بماله كله فى سبيل الله . وعادت القضية الأولى تقلقه ؛ هل هو مقدم على الموت . ووداع هذه الحياة . أم هناك أمل فى أن يحيا ويتابع جهاده فى سبيل الله ؟

(فقلت : يا رسول الله ، أخلَّف بعد أصحابى ؟

قال : « إنك لن تخلَّف فتعمل عملاً صالحًا إلا ازددت به درجة ورفعة » .

وهذا معنى ثالث من معانى التربية النبوية . فليس الهدف للمسلم فقط أن يموت فى سبيل الله . بل هناك هدف له أسمى أن يحيا به فى سبيل الله ، ويعمل العمل الصالح فى مجتمعه ويزيده الله رفعة ودرجة . إنه تصحيح لمفهوم خاطئ سائد عند شباب الإسلام فى استعجاله الشهادة ، والتخلى عن الدنيا ،إنه موقف انفعالى عاطفى طيب ، لكنه ليس الموقف الإيجابى المطلوب من كل أبناء الأمة ، فالشخصيات القيادية ، والشخصيات الفاعلة فى الحياة . لابد من أن تؤدى رسالتها فيها .

وهذا نموذج سعد ﷺ ، وهو يأمل أن يكون له شرف الجهاد والبناء فى المستقبل الإسلامى فيسأل بإلحاح هل يخلَّف مع أصحابه . ويأتيه الجواب : أن هذا قدر الله . وعسى الله أن تخلف مع أصحابك فينفع الله بك أقوامًا ويضر آخرين .

وخلَّفه الله تعالى مع أصحابه . وكان قائد الجيوش الإسلامية التى أنهت الوجود الفارسى فى الأرض فى معركة القادسية . وقاد الأمة فى أحلك ظروفها إلى أعظم انتصاراتها على الفرس . وكان الوارث لحضارتها عندما صلى صلاة الفتح فى إيوان كسرى. وتلا قول الله عز وجل: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الدخان]. (ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها ، وانتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان]. وصلى فيه صلاة الفتح فصلى ثمانى ركعات لا يفصل بينهن ، وكانت أول جمعة بالعراق جمعت جماعة بالمدائن فى صفر سنة ستة عشرة) [2] .

فقط ست سنوات عوضًا عن أن ينتهى سعد بن أبى وقاص متوفًّى فى مكة بائسًا .

---

(١) مسند أحمد ١/ ١٧٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٦٤ .

متخلفًا فى مكة . يموت كما يحلم مئات الملايين من المسلمين اليوم فى أن يموتوا بمكة والمدينة . إذا به يرث ملك كسرى باسم الإسلام . وينفع الله به أقوامًا وهم المؤمنون ، ويضر به أقوامًا وهم الكافرون ، ويكون حجة من حجج الله تعالى على خلقه . لا يكتفى بالفتح العسكرى ؛ بل يشرف على وراثة الإسلام للأرض . حين يكون والى الكوفة. ويكون أحد الستة المرشحين للخلافة العظمى فى الأمة .

ثامنًا : العودة إلى المدينة

ومن سعد بن أبى وقاص إلى على بن أبى طالب ، من ابن التاسعة والثلاثين ، إلى ابن الواحدة والثلاثين . لقد تركنا عائشة رضي الله عنها وقد وصلت من توها من العمرة (وفرغنا من طوافنا فى جوف الليل ، فأتيناه بالمحصب ،قال: « فرغتما » . قلنا :نعم . فأذن فى الناس بالرحيل . فمر بالبيت فطاف به ، ثم ارتحل متوجهًا إلى المدينة) (١) .

(ثم ارتحل راجعًا إلى المدينة . فلما كان بالروحاء لقى ركبًا فسلم عليهم . وقال : «من القوم ؟ »، فقالوا : المسلمون . فقالوا : « فمن القوم ؟» فقال : رسول الله ﷺ فرفعت امرأة صبيًا لها من محفتها .فقالت : يا رسول الله ؟ ألهذا حج ؟ قال :« نعم ، ولك أجر » .

فلما أتى ذا الحليفة بات بها . فلما رأى المدينة كبَّر ثلاث مرات وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم دخلها نهاراً من طريق المعرَّس ، وخرج من طريق الشجرة . والله أعلم) (٢) .

وقبل أن نصل إلى المدينة ، وقبل الوصول إلى الروحاء كان هناك موقف عظيم على الطريق فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة قرب الجحفة خاص بعلى بن أبى طالب . نستعرضه تفصيلاً مع مقدماته .

١ ـ لقد كان علىٌّ شابًا فى مقتبل شبابه ، وقد خاض أعظم أمجاده العسكرية قبل الثلاثين من عمره ، وكان أعظمها وآخرها قتله أربعة من أبطال يهود فى خيبر . ووقوع النصر على يديه كما قال عليه الصلاة والسلام : « لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » (٣) .

ونستمع لهذه الأمجاد فى هذا الحديث الشامل الذى أخرجه مسلم عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه .

---

(١) البخارى ٣/ ٣٦١ فى الحج ،ومسلم (ح ١٣١٤).

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٣٠٠.

(٣) مسلم (ح ٢٤٠٥).

(عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال : ما منعك أن تسب أبا التراب . فقال : أما ما ذكرتُ ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه . لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلىَّ من حُمْرِ النَّعَم .

سمعت رسول الله ﷺ يقول له خلَّفهُ فى بعض مغازيه ، فقال له على : يا رسول الله ، خلفتنى مع النساء والصبيان . فقال له رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدى » .

وسمعته يقول يوم خيبر : « لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » .

قال: فتطاولنا لها فقال: « ادعوا لى عليًا » فأتى به أرمد ، فبصق فى عينه ، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ... ﴾ [آل عمران : ٦١] . دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا . فقال : «اللهم هؤلاء أهلى » (١) .

هذه الأمجاد لا يعرفها إلا قلة قليلة من المسلمين لا تتجاوز الألفى رجل ، والذين عادوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة قد يصل عددهم إلى خمسين ألفًا ، فإذا غابت هذه المعلومات عن معاوية رضي الله عنه بعد ثلاثين عامًا . فكيف لا تغيب عن بقية المسلمين .

٢ ـ كان هناك تيار خفى ضد على رضي الله عنه حيث كانوا يشهدون إكرام رسول الله ﷺ له وتعظيمه له . (قال عبد الله بن بريدة ، حدثنى أبى بريدة قال : أبغضت عليًا بغضًا لم أبغضه أحدًا قط . قال : وأحببت رجلاً من قريش لم أحبه إلا على بغضه عليًا . قال : فبُعث ذلك الرجل على خيلٍ فصحبته ، ما أصحبه إلا على بغضه عليًا . قال : فأصبنا سبيًا. فكتب إلى رسول الله ﷺ ابعث إلينا من يخمسه . قال : فبعث إلينا عليًا. وفى السبى وصيفة هى أفضل من السبى. فخمَّسَ وقسم ، فخرج رأسه مغطى . فقلنا: يا أبا الحسن ، ما هذا ؟ قال : ألم تروا إلى الوصيفة التى كانت فى السبى فإنى قسمت، وخمَّسَتُ فصارت فى الخمس . ثم صارت فى أهل بيت النبى ﷺ ثم صارت فى آل على ووقعتُ بها ، فكتب الرجل إلى نبى الله ﷺ فقلتُ : ابعثنى . فبعثنى مصدقًا . قال : فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق. قال : فأمسك يدى والكتاب وقال :« أتبغض عليًا ؟» قال : قلت :نعم . قال : «فلا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبًا ، فوالذى

---

(١) مسلم (ح ٢٤٠٤).

نفس محمد بيده لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة » ، قال : فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحب إلىَّ من على) (١) .

وفى رواية أخرى عن بريدة : (فقال رسول الله ﷺ : « لا تقع فى على ، فإنه منى وأنا منه ، وهو وليكم بعدى ، وإنه منى وأنا منه وهو وليكم من بعدى ») (٢) .

٣ ـ وما مر معنا قناعة فرد من صحابة رسول الله ﷺ ومن الرعيل الأول . إذ شهد كل أمجاد على رضي الله عنه . وذكر بعضها مروية عنه فى خيبر . لكن الحادثة التى كونت تياراً ضد على رضي الله عنه هى ما رواه ابن إسحاق فى سياق حجة الوداع :

(لما أقبل على من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة ، تعجل إلى رسول الله ﷺ، واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه. فعمد ذلك الرجل فكسى كل رجل من القوم حِلة من البز الذى كان مع على . فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل . قال : ويلك ما هذا ؟ قال :

كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا على الناس. قال :

ويلك ، انزع قبل أن ينتهى به إلى رسول الله ﷺ . قال : فانتزع الحلل من الناس فى البز. قال : وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم . قال ابن إسحاق : فحدثنى . . . عن أبى سعيد الخدرى قال : اشتكى الناس عليًا فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا فسمعته يقول : « أيها الناس ، لا تشكوا عليًا فوالله إنه لأخشن فى ذات الله أو فى سبيل الله » (٣) .

٤ ـ ولم يكتف رسول الله ﷺ بالدفاع عن على فى عطيته هذه أمام الجيش الإسلامى ، بل قرر عليه الصلاة والسلام أن يعلم المسلمين بقيمة هذا الشاب الذى لا يعرف معظم الناس قدره وعظمته .

لقد جعله رسول الله ﷺ ممثله الشخصى قبل عام عندما بعث به بصدر براءة يقرأها على الناس فى الحج وقال: «لا يبلغ عنى إلا رجل من أهل بيتى» ، وها هو عليه الصلاة والسلام بعد أن نزل الناس عند غدير خم، وارتاحوا واستجموا من وعثاء السفر، وكانوا قد نزلوا عند شجيرات هناك ، نودى بالناس فاجتمعوا ليصيخوا إلى خطبة النبى ﷺ .

يحدثنا عن هذا الاجتماع الحاشد . وهذا الخطاب الهام زيد بن أرقم رضي الله عنه قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد (ح ٢٣٣٥٥) ص ١٧٠٥ . (٢) المسند (ح ٢٣٤٠٠) ص ١٧٠٨ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ١٨٤ .

(لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ، ونزل غدير خم. أمر بدوحات (١) فقمن (٢) ثم قال :

« كأنى قد دعيت فأجبت ، إنى قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتى أهل بيتى . « فانظرونى كيف تخلفونى فيهما . فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض » .

ثم قال : « الله مولاى وأنا ولى كل مؤمن » .

ثم أخذ بيد على فقال : « من كنت مولاه فهذا وليه : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

فقلت لزيد : سمعته من رسول الله ﷺ . فقال : ما كان فى الدوحات أحد إلا رآه بعينيه ، وسمعه بأذنيه) (٣) .

وفى رواية لابن ماجه عن البراء بن عازب قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع التى حج فنزل فى الطريق . فأمر : الصلاة جامعة . فأخذ بيد على . فقال : « ألست أولى بكل مؤمن من نفسه ؟» قالوا : بلى . قال : « فهذا ولى من أنا مولاه اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » (٤) . (وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن على بن زيد بن جدعان عن عدى عن البراء ،قال الحافظ أبو يعلى الموصلى والحسن ابن سفيان : حدثنا هدبة ثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد وأبى هارون عن عدى بن ثابت عن البراء قال :

كنا مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع، فلما أتينا على غدير خم كشح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين ، ونودى فى الناس : الصلاة جامعة ، ودعا رسول الله ﷺ عليًا ، وأخذ بيده وأقامه عن يمينه . فقال : « ألست أولى بكل امرئ من نفسه » ، قالوا : بلى ، قال : « فإن هذا مولى من أنا مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » فلقيه عمر بن الخطاب فقال :

هنيئًا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة) (٥) .

هذا الشاب الغمر عند معظم المسلمين آنذاك أراد رسول الله ﷺ أن يعلم الأمة

---

(١) الدوحات : شجرات عظيمات . (٢) قمن : قطعن .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير وقال فيه :« تفرد به النسائى من هذا الوجه ،قال شيخنا أبو عبد الله الذهبى،وقال : هذا حديث صحيح » .

(٤) ابن ماجه ، السنن ، (ح ١١٦) ،ص ٤٣ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ١٨٥ .

مقامه فيها وفضله العظيم. فهو من رسول الله ﷺ بمنزلة هارون من موسى بدون نبوة. فهو أخوه فى الدنيا والآخرة . ومن نسله ستكون ذرية رسول الله ﷺ فكان هذا الاجتماع الكبير الذى دعا فيه المسلمين جميعًا إليه بقوله : الصلاة جامعة ؟ إن هذا لا يكون إلا لتلقى الوحى ، أو القرارات النبوية الخطيرة . واجتمع المؤمنون ولم يعلموا سر هذه الدعوة . وقد أمر رسول الله ﷺ بقطع فروع الدوحات حتى يراه المسلمون كلهم .

وكانت أشد الكلمات وقعًا على المسلمين ، وأكثرها إيلامًا لهم هى قوله ـ بعد حمد الله ، والثناء عليه :

« كأنى قد دعيت فأجبت » .

ترى هل يمكن أن يتصور المسلمون حياتهم بدون رسول الله ﷺ الذى تضىء الدنيا بنوره ،أليس هو النور نفسه الذى سماه ربه : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

[المائدة]

أما الكتاب فباق إلى يوم الدين ، وماذا عن النور ؟ النور سوف يدعى إلى ربه ويغيب عن الدنيا شخصه العظيم ، ولكنه يخفف عن المسلمين بما سوف يخلِّفُه فيهم .

« إنى قد تركت فيكم الثقلين » ، فهما يعادلان الثقلين الإنس والجن . بل هما هدايتهما وحياتهما :

أولهما : كتاب الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وثانيهما : أهل بيت النبى ﷺ وعترته الطاهرة .

فهما وصيته إلى المؤمنين فى الأرض إلى قيام الساعة . وهما أثقل ما فى الوجود . ولن يفترقا حتى يردا .

لكن من الذى يمثل هذه العترة الطاهرة ؟ ومن هو أساسها ؟

سيأتى الجواب بعد لأى .

ثم قال :« الله مولاى . وأنا مولى كل مؤمن » .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] .

لقد عرف المؤمنون فى الأرض من أمهاتهم، أنهن أزواجه الطاهرات المطهرات. لكن

من هو وليهم من بعده . وإنما دعى هؤلاء المؤمنون ليتعرفوا على وليهم بعد رسول الله ﷺ . ويبلغوا من وراءهم بذلك . ويحمل هذا الجيل كله نقل هذه الأمانة لمن بعده من الأجيال .

إنه هو هذا الشاب ابن الحادية والثلاثين . هو مولى المؤمنين إلى قيام الساعة .

ثم أخذ بيد على وقال : «من كنت مولاه فعلى مولاه ».

فهو رمز الحق بعد رسول الله ﷺ . والحق معه بجوار كتاب الله ، وعلى المؤمنين جميعًا أن يكونوا أولياءه ونصراءه وحزبه . « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ». وعلى المسلمين إلى قيام الساعة حيث يقف . وجاءته أول تهنئة من وزير رسول الله ﷺ الثانى عمر بن الخطاب بعد الصديق :

(هنيئًا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة) .

ووقف هذا الشاب أخو رسول الله ﷺ جنديًا بجوار الصديق ، وجنديًا وزعيمًا وقائدًا بجوار عمر رضي الله عنه . وجنديًا وزعيمًا وقائدًا بجوار عثمان رضي الله عنه بايعهم وقدم كل طاقاته بين أيديهم . وكان المسلمون جميعًا باختلاف مشاربهم معه وبجواره ، وبجوار الخليفة المنتخب . ثم اختارته الأمة إمامًا لها بعد استشهاد عثمان ، واختلفت المواقف ، فما عاداه طلحة والزبير وعائشة ، وما تعرضوا لإمامته وولايته . إنما طالبوه بقتل قتلة عثمان ، وأقر لهم بهذا الحق ، وبايعوه على ذلك ، واستطاع دعاة الفتنة أن يشعلوا نار الحرب فأطفأها على رضي الله عنه بقتل جمل أم المؤمنين ، ونادى بأخوة الجميع : لا يجهز على جريح ، ولا يتبع مدبر ، وقتلانا وقتلاهم فى الجنة ، وادفنوا قتلانا وقتلاهم ، فمن يخرج على موقفه هذا فهو عدوه . وقال عن طلحة والزبير : إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر] . وكان الاختلاف مع جيش معاوية ، وتجلى الحق ، وارتضى على رضي الله عنه الاحتكام إلى كتاب الله مع مخالفيه المؤمنين ، وكيف لا يرتضيه وهو وكتاب الله سيردان على رسول الله ﷺ الحوض ، ولا يفترقان أبدًا . ولم ينته الحكمان إلى رأى . وكان أعداؤه الحقيقيون الذين رفضوا موقفه وتحكيمه ، وكفروه وأعلنوا الخروج عليه . وكان دليل حربه لهم أنه الذى يمثل الحق فى كل موقف كما يقول عليه الصلاة والسلام:

«تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، يقاتلها أولى الطائفتين بالحق ، أو

لأدناهما إلى الحق » وكما كان على رضي الله عنه دائمًا مولى كل مؤمن ومؤمنة فهو الأولى بالحق دائمًا ، وهو الذى قاتل الخوارج وهذا القتال الوحيد الذى خاضه رضي الله عنه بوحى من رسول الله ﷺ . لا باجتهاده برأيه حين قتل الرجل المخدج فيهم . وندع لسلمة بن كهيل رضي الله عنه يحدثنا عن ذلك :

(حدثنا سلمة بن كهيل قال : حدثنى زيد بن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش الذين كانوا مع على الذين ساروا إلى الخوارج . فقال على :

أيها الناس ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج قوم من أمتى يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم شيء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم شيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء . يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم،يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا عن العمل ، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض» . فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم ، والله إنى لأرجو أن يكون هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا فى سرح الناس ، فسيروا على اسم الله) (١) .

لقد انتهت خطبة على رضي الله عنه ، واعتبر الخروج إلى هؤلاء بأمر رسول الله ﷺ ، ويعجب من خروج المؤمنين إلى أهل الشام بالاجتهاد الشخصى ، ولا يخرجون إلى هؤلاء بالأمر والحض النبوى . ونتابع الحرب بعد الخطبة كما يحدثنا سلمة بن كهيل يقول :

(قال سلمة بن كهيل : فنزّلنى زيد بن وهب منزلاً حتى قال : مررنا على قنطرة ، فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبى فقال لهم : ألقوا الرماح ، وسلوا سيوفكم من جفونها ، فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء . فرجعوا فوحشوا برماحهم ، وسلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم ، وقُتِل بعضهم على بعض، وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان ، فقال على : التمسوا فيهم الرجل المخدج ، فالتمسوه فلم يجدوه . فقام على بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتِل بعضهم على بعض . قال: أخِّروهم . فوجدوه مما يلى الأرض . فكبَّر . ثم قال : صدق الله وبلغ

---

(١) صحيح مسلم (ح ١٠٦٦) ص ٤١٢ .

رسوله ، فقام إليه عبيدة السلماني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، آلله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، فقال : إى والله الذى لا إله إلا هو . حتى استحلفه ثلاثًا وهو يحلف له) (١) وفى حديث آخر : «هم شر الخلق والخليقة » (٢) .

واستشهد على رضي الله عنه على أيديهم ، وبقى وسيبقى إلى قيام الساعة مولى كل مؤمن ومؤمنة ويمضى دعاء النبى ﷺ خالدًا إلى يوم القيامة : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

ويقضى الله تعالى أن تحصر ذرية أهل البيت من فاطمة وعلى رضوان الله عليهما، وتبقى هذه الذرية وصية رسول الله ﷺ إلى الأمة « فانظرونى كيف تخلفونى فيهما » .

وبقيت العترة الطاهرة وأئمة أهل البيت من ولد على وفاطمة رضي الله عنهما خلال التاريخ مصابيح هدى ونور للأمة كلما ادلهم الظلام .

انفض الاجتماع ، ومضى جيش الإسلام العظيم ، وعلىٌّ العظيم فى قلبه ولبه ، وكان هذا فى الثامن عشر من ذى الحجة ، وليس لدينا أى وقائع على الطريق من الصحفيين والمذيعين إلا ذلك اللقاء الذى تم بين فريق من الأمة ورسول الله ﷺ ، وسألته المرأة : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر »، فلما أتى ذا الحليفة بات بها حتى أصبح ، وصلى فى بطن الوادى .

(وعن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه : أن رسول الله ﷺ أُتِىَ فِى معرَّسه بذى الحليفة فقيل له : إنك ببطحاء مباركة) (٣) .

(قال موسى بن عقبة : وقد أناخ بنا سالم بالمُناخ من المسجد الذى كان عبد الله ينيخ به ، يتحرَّى معرَّس رسول الله ﷺ وهو أسفل من المسجد الذى ببطن الوادى بينه وبين القبلة وسطًا من ذلك) (٤) .

(ولما نزل المعرّس نهى أن يطرقوا النساء ليلاً ، فطرق رجلان أهليهما ، فكلاهما وجد ما يكره ، وأناخ بالبطحاء ، وكان إذا خرج إلى الحج سلك على الشجرة ، وإذا رجع من مكة دخل المدينة من معرَّس الأبطح ، وكان معرّسه فى بطن الوادى ، وكان

---

(١) صحيح مسلم (ح ٦٦ ١٠) ص ٤١٢.
(٢) صحيح مسلم (ح ٦٧ ١٠ ـ ١٥٨) ص ٤١٣.
(٣) صحيح مسلم (ح ٤٣٣ ـ ١٣٤٦) ص ٥٣٢، والبخارى (ح ١٥٣٥).
(٤) صحيح مسلم (ح ١٣٤٦ ـ ٤٣٤).

فيه عامة الليل .

وتهيأت المدينة فى عرسها القشيب ، وتهيأت نسوة المدينة للقاء أزواجهن بعد هذا الغياب قرابة شهرٍ عنهن، لتستحد المغيبة، وتغتسل الشعثة ، فلابد أن تزدان المدينة وتهفو إلى لقاء حبيبها الذى غادرها هذا الشهر ، كما يشتاق لها رسول الله ﷺ ، ويحن إليها، هو وصحبه جميعًا (فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ») (١) .

وآخر مشهد نودعه فى هذه الرحلة الميمونة المباركة ، ينقله لنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(أقبلنا مع النبى ﷺ أنا وأبو طلحة (زوج أمه أم سليم) ، وصفية رديفته على ناقته حتى إذا كنا بظهر المدينة قال :« آيبون ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون » ، فلم يزل يقول حتى قدمنا المدينة) (٢) .

(أى صفية بنت حيى زوج النبى ﷺ هى رديفته على ناقته ، وهى التى تركناها كئيبة حزينة لأنه فاتها طواف الوداع)، وهذا الجيش كله يعيش أعراسه، ويعيش أعياده، سُعدوا فى الدنيا والآخرة ، لا يعكر صفوهم إلا ما تناهى إليهم من نبيهم الحبيب : « كأنى قد دعيت وأجبت » .

وإذا قسنا رحلة العودة برحلة الذهاب، وإذا كان فى الثامن عشر من ذى الحجة فى الجحفة فيكون قد وصل المدينة بعد ستة أيام أى: فى الرابع والعشرين من ذى الحجة ، وتكون الرحلة كلها شهراً إلا يومين؛ لأن خروجه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، إنه شهر من أعظم شهور التاريخ .

(١ ، ٢) مسلم (ح ١٣٤٥) ، والبخارى (ح ٣٠٨٥) .

الأيام الأخيرة

من حياة النبى ﷺ

الأيام الأخيرة من حياة النبى ﷺ

لقد كانت هذه الأيام حوالى خمسة وسبعين يومًا ، وكانت تعج بالأحداث الهامة .

وفاة باذان والولاة العشرة على اليمن

يقول ابن جرير ـ رحمه الله: (كان رسول الله ﷺ جمع ـ فيما بلغنا ـ لباذام حين أسلم وأسلمت اليمن ، عمل اليمن كلها ، وأمره على جميع مخاليفها . فلم يعزله عنها، ولا عن شيء منها ، ولا أشرك معه فيها شريكًا حتى مات باذام . فلما مات ، فرق عملها بين جماعة من أصحابه .

حدثنى عبيد الله بن سعد الزهرى قال : أخبرنى عمى قال : أخبرنى سيف عن أبى عمرو مولى إبراهيم بن طلحة عن عبادة بن قرص الليثى عن قرص الليثى :

أن النبى ﷺ رجع إلى المدينة بعد ما قضى حجة الإسلام ، وقد وجَّه إمارة اليمن وفرَّقها بين رجال ، وأفرد كل رجل بحيِّزه ، ووجَّهَ إمارة حضرموت، وفرَّقها بين ثلاثة، وأفرد كل واحد منهم بحيِّزه ، واستعمل :

١ ـ عمرو بن حزم على نجران .

٢ ـ وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورِمع وزبيد .

٣ ـ وعامر بن شهر على همدان .

٤ ـ وعلى صنعاء ابن باذام .

٥ ـ وعلى عكِ والأشعريين الطاهر بن أبى هالة .

٦ ـ وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى .

٧ ـ وعلى الجَند يعلى بن أمية . وكان معاذ معلمًا يتنقل فى عمالة كل عامل باليمن وحضرموت ، واستعمل على أعمال حضرموت .

٨ ـ على السكاسك والسكون عكاشة بن ثور .

٩ ـ وعلى بنى معاوية بن كندة عبد الله أو المهاجر بن أبى أمية ـ فاشتكى فلم

يذهب حتى وجهه أبو بكر .

١٠ ـ وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضى [(١)] .

فمات رسول الله ﷺ وهؤلاء عماله على اليمن وحضرموت إلا من قُتِل فى قتال الأسود أو مات وهو باذام . مات ففرّق النبى ﷺ العمل من أجله ، وشهر ابنه ـ يعنى ابن باذام ـ فسار إليه الأسود فقاتله فقتله .

ولا ننسى أن فروة بن مسيك المرادى قد ولاه رسول الله ﷺ على مذحج كلها ، زبيد ومراد وبقية مذحج ، كما لا ننسى أن على بن أبى طالب رضي الله عنه كان آخر عهده بمذحج يوم واجههم وحاربهم ، وأمر عشرين رجلاً منهم ، ثم أعلنوا دخولهم فى الإسلام ، وأعطوا عليّا صدقات أموالهم .

ثم غادرهم إلى مكة حيث لقى رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، كما لا ننسى أن عمرو بن معد يكرب قد أسلم بعد حرب ، وآذاه أن يكون فروة بن مسيك أميرًا عليه ، فكتمها فى نفسه .

خروج الأسود العنسى

أخرج ابن جرير عن الضحاك بن فيروز الديلمى عن أبيه قال : إن أول ردة كانت فى الإسلام باليمن ، كانت على عهد رسول الله ﷺ على يدى ذى الخمار عبهلة بن كعب ـ وهو الأسود ـ فى عامة مذحج ، خرج بعد الوداع ، كان الأسود كاهنًا شعباذًا وكان يريهم الأعاجيب ، ويسبى قلوب من سمع مَنْطِقه ، وكان أول ما خرج أن خرج من كهف خبَّان ، وهى كانت داره ، وبها ولد ونشأ ، فكاتبته مذحج، وواعدته نجران، فوثبوا بها .

وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وأنزلوه منزلهما ، ووثب قيس ابن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلاه ونزل منزله ، فلم ينشب عبهلة أن سار إلى صنعاء فأخذها ، وكُتب بذلك إلى النبى ﷺ من فعله ونزوله صنعاء ، وكان أول خبر وقع به عنه من قبل فروة بن مسيك ، ولحق بفروة من تمَّ على الإسلام من مذحج . فكانوا بالأحسية ، ولم يكاتبه الأسود ولم يرسل إليه؛ لأنه لم يكن معه

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٧.

أحد يشاغبه ، وصفا له ملك اليمن) (١) .

لقد كان العامل الأول الذى شجّع الأسود على خروجه هو وفاة باذام رضي الله عنه ، فقد كان ضابطًا لليمن وحضرموت، وله هيبته، وسلطانه، لكن وفاته نقضت اليمن كلها، ومما يدل على ذلك هو الكتاب الذى بعثه الأسود مباشرة عند خروجه إلى الفرس الموجودين فى اليمن وكان يُطلق عليهم الأبناء ، بعث إليهم فيما روى عبيد بن صخر قال:

(فبينا نحن بالجَنَدَ قد أقمناهم على ما ينبغى ، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب إذ جاءنا كتاب من الأسود : أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه ، فقلنا للرسول : من أين جئت ؟ قال : من كهف خبَّان . ثم كان وجهه إلى نجران حتى أخذها فى عشر لمخرجه ، وطابقه عوام مذحج . فبينا نحن ننظر فى أمرنا ، ونجمع جمعنا إذ أُتينا فقيل لنا : هذا الأسود بشعوب ، وقد خرج إليه شهر بن باذام (والى صنعاء) ، وذلك لعشرين ليلة من منجمه ، فبينا نحن ننتظر الخبر على من تكون الدبْرة إذ أتانا أنه قتل شهراً ، وهزم الأبناء . وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من منجمه) (٢) .

وكان العامل الثانى هو ما بلغهم من شكاة رسول الله ﷺ عقب عودته من الحج (فعن أبى مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال : رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بعد ما قضى حجة التمام فتحلل به السير . . . فطارت الأخبار بتحلل السير بالنبى ﷺ . أن النبى قد اشتكى ، فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة ، وجاء الخبر عنهما للنبى ﷺ ثم وثب طليحة فى بنى أسد بعد ما أفاق النبى ﷺ ثم اشتكى فى المحرم وجعه الذى قبضه الله فيه ، وقال الواقدى : بدئ برسول الله وجعه لليلتين بقيتا من صفر) (٣) .

خطة المواجهة النبوية

لقد كان فروة بن مسيك رضي الله عنه هو أول من واجه ، وأول من أبلغ النبى ﷺ بما وقع. والذى أضعف موقف فروة ، هو انضمام عمرو بن معد يكرب وقيس بن عبد يغوث. أكبر زعماء مذحج إلى الأسود حيث غلبت النزعة الجاهلية عليهما، وارتدا معه.

(ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلاه ، ونزل

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٢٤.

منزله ، فلم ينشب عبهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها ، وكتب بذلك إلى النبى ﷺ من فعله ونزوله صنعاء ، وكان أول خبر وقع به عنه من قبل فروة بن مسيك ، ولحق بفروة من تمَّ على الإسلام من مذحج ، فكانوا بالأحسية) .

فقد غادر فروة نجران إلى موقع آخر يعتصم به مع المسلمين الصادقين من مذحج.

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : حاربهم رسول الله ﷺ بالرسل .

١ ـ فارسل إلى نفر من الأبناء رسولاً ، وكتب إليهم أن يحاولوه . . . فبعث وبر ابن يُحنَّس إلى فيروز وجُشيش الديلمى وداذويه الإصطخرى . . .

وعن جشيش قال : قدم علينا وبْرُ بن يُحنَّس بكتاب النبى ﷺ يأمرنا فيه بالقيام على ديننا ، والنهوض فى الحرب ، والعمل فى الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وأن نبلغ عنه من رأينا أن عنده نجدة ودينًا فعملنا فى ذلك . فرأينا أمرًا كثيفًا .

فقد كان هؤلاء القادة الثلاثة ، فيروز وداذويه وجشيش . هم قادة الأبناء من فارس بعد استشهاد شهر بن باذام على يدى الأسود، وكانوا غير قادرين على المواجهة للجيوش الكثيفة التى مع الأسود والتى أعلنت تأييدها له ، فتناقشوا فيما بينهم ، وقلَّبوا وجوه الرأى ، ورأوا أن المصادمة والمواجهة المباشرة غير ممكنة ، والحل أن ينفذوا إليه من الداخل ويأخذوا الخيار الأول الذى طرحه عليهم رسول الله ﷺ وهو اغتياله ، يساعد على هذا الأمر زوجه التى هى ابنة عم فيروز أحد هؤلاء الثلاثة وأملهم بقائد جيوشه قيس بن عبد يغوث .

(وعامله أهل الردة بالكفر والرجوع عن الإسلام ، وعامله المسلمون بالتقية ، وكان خليفته فى مذحج عمرو بن معد يكرب . وأسند أمره إلى نفر ، فأما أمر جنده فإلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذويه) .

وهكذا أصبح ظاهر الأمر أن الأبناء معه بقيادتهم داذويه وفيروز ، وهم فى السر يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ ، وحدد لهم مهمتهم فى الوصول غيلة إليه .

٢ ـ النجدة من الخارج : وأمرهم (داذويه وفيروز) أن يستنجدوا رجالاً قد سماهم من تميم وقيس وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم ، ففعلوا ذلك ، وانقطعت سبل المرتدة ،وطعنوا فى نقصان ،وأغلقهم .

وبعث فرات بن حيان العجلى إلى ثمامة بن أثال ، وبعث زياد بن حنظلة

التميمى ثم العمرى إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبرة العنبرى ووكيع الدارمى ، وإلى عمرو بن المحجوب العامرى ، وإلى عمرو بن الخفاجى من بنى عامر ، وبعث ضرار بن الأزور الأسدى إلى عوف الزرقانى من بنى الصيداء ، وسنان الأسدى ، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعى إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيرى .

فثمامة بن أثال زعيم بن حنيفة ، بعد مسيلمة ، وسادة بنى تميم ، قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وسبرة العنبرى ووكيع الدارمى ، وإن كان قيس والزبرقان متصلة زعامتهما فى الجاهلية والإسلام ، لكن سبرة العنبرى ووكيع الدارمى من القيادات الشابة التى رباها رسول الله ﷺ من بين أعضاء الوفود الواردة عليه ، ومثل ذلك عمرو ابن المحجوب ، وعمرو بن الخفاجى من بنى عامر ، فليسا من الزعماء الكبار ، إنما هم قيادات وسطى شابة ، ومثل ذلك سنان الأسدى ، وعوف الزرقانى فى بنى أسد . وعلى غرار ذلك ابن ذى اللحية وابن مشيمصة ، أسماء لا نعرف عنها شيئًا ، غير أن رسول الله ﷺ يعرف بأسهم ونجدتهم ، واستعدادهم للموت والجهاد فى سبيل الله ، إنه جيل جديد نشأ فى ظل الزعامات الكبرى يعهد إليه بحماية الإسلام فى أرض اليمن إضافة إلى الزعامات الموثوقة الأصيلة ، وكان دور هؤلاء هو إيقاف تسرب المرتدين إلى اليمن، وإغلاق الطرق فى وجوههم ، وإمداد المسلمين داخل اليمن بأمثال هذه الطاقات الشابة الجريئة. ونقضت المهمة تمامًا كما ذكر ابن جرير فى روايته :

(وانقطعت سبل المرتدة ، وطعنوا فى نقصان ،وأغلقهم ، واشتغلوا فى أنفسهم).

٣ ـ التجمع الداخلى : ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بهؤلاء الرسل ، فقد بعث الرسل إلى عيون المسلمين فى الدين . إن عجزت المجموعة الفدائية عن اغتياله وهى (فيروز وجشيش وداذويه) .

ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه .

فبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم، وبعث الأقرع بن عبد الله الحميرى إلى ذود وذى مران .

وكان مما وجَّه به النبى ﷺ لداذويه وفيروز (وأن نُبلغَ عنه من رأينا أن عنده نجدة ودينًا . فعملنا فى ذلك ، وكاتبنا الناس ودعوناهم) .

فقد كانت الخطة ذات شقين ؛ تجمع ظاهر فى اليمن على رأسه قادة النبى ﷺ ،

وأمداد داخلية ؛ سرية إلى صنعاء تستعد للمواجهة إذا اقتضى الأمر .

٤ ـ **دور القيادات النبوية** : لقد كان معاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعرى هما الرائدان الأولان فى اليمن ، وكانت خطتهما هى جمع القوى القبلية التى يمكن أن تستجب لهما ، وتكون معاقل إسلامية خالصة .

(وخرج معاذ هاربًا حتى مر بأبى موسى وهو بمأرب ، فاقتحما حضرموت ، فأما معاذ فإنه نزل فى السكون ، وأما أبو موسى فنزل فى السكاسك . . تزوج معاذ من بنى بكرة ؛ حى من السكون ، فحدبوا لصهره علينا ، وهى امرأة أخوالها بنو زنكبيل يقال لها: رملة ، وكان معاذ بهم معجبًا فإنه كان ليقول فيما يدعو الله به : اللهم ابعثنى يوم القيامة مع السكون ، وجاءتنا كتب النبى ﷺ يأمرنا فيه أن نبعث الرجل لمصاولته . ونبلغ كل رجل رجا عنده شيئًا فقد تحمله من ذلك عن النبى ﷺ بالزى يأمر به ، فعرفنا القوة ووثقنا بالنصر) .

أما بقية القواد فقد تجمعوا فى عك .

(وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر إلا عمراً وخالداً فإنهما رجعا إلى المدينة والطاهر يومئذ فى وسط بلاد عك بحيال صنعاء وغلب الأسود على ما بين صهيد - مفازة حضرموت إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن وطابقت عليه اليمن، وعك بتهامة معترضون عليه ، وجعل يستطير استطارة الحريق .

لقد كانت مراكز التجمع أربعة؛مركزان معلنان هما:عك وفيها الطاهر بن أبى هالة، وسائر أمراء اليمن . وهمدان على رأسها عامر بن شهر رضي الله عنه أحد القادة العشرة ، ومركزان سريّان هما : السكاسك ، وفيها أبو موسى الأشعرى ،والسكون وفيها معاذ ابن جبل .

أما المركز الحساس الرئيسى الخامس فكان الأبناء وعلى رأسهم داذويه وجشيش وفيروز وهو المركز المتقدم المعد ظاهراً مع الأسود وهو الذى سيقوم بعملية الاغتيال وفى صفوفه الكثير من الأفراد المسلمين من جميع جهات اليمن وخارجها لمواجهة الموقف بعد الاغتيال أو المصادمة إن اقتضى الأمر .

وكان المركز السادس بالأحسية والتى لجأ إليها فروة بن مسيك والمسلمون معه لقد كان رسول الله ﷺ يدير المعركة،وهو على فراش مرضه ،ويحرك طاقات الأمة كلها لمواجهة هذه الموجة العاتية من الردة،والتى قادها الأسود العنسى ،وجمع طاقات المرتدين

فى اليمن إليه. (وكان قواده قيس بن عبد يغوث المرادى، ومعاوية بن قيس الجنبى، ويزيد ابن محرم ويزيد بن حصين الحارثى ويزيد بن الأفكل الأزدى وثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل من السواحل . حاز عثر والشرجة والحرود وغلافقة وعدن والجند ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسية وعُلَيْب، وعامله المسلمون بالتقية وعامله أهل الردة بالكفر والرجوع عن الإسلام وكان خليفته فى مذحج عمرو بن معد يكرب وأسند أمره إلى نفر فأما أمرر جنده فإلى قيس بن عبد يغوث وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذويه) (١) .

تنفيذ الخطة النبوية :

لقد كانت لسرعة المبادرة والاستجابة الفورية للأوامر النبوية ، الدور الأكبر فى تحقيق الانتصار على الأسود العنسى ، إذ استطاع الأسود أن يملك الأرض ويحقق انتصاراته بسرعة مبادرته ، وأصاب المسلمون الذهول فى بداية الأمر . ومثل هذا الموقف فى رواية ابن جرير عن عبيد بن صخر كما سبق وذكرناها : (فبينا نحن بالجند قد أقمناهم على ما ينبغى وكتبنا بينهم الكتب إذ جاءنا كتاب من الأسود : أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه فقلنا للرسول : من أين جئت ؟ قال : من كهف خبَّان ثم كان وجهه إلى نجران حتى أخذها فى عشر لمخرجه ،وطابقه عوام مذحج فبينا نحن ننظر فى أمرنا ونجمع جمعنا إذا أتينا فقيل : إن الأسود بشعوب وقد خرج إليه شهر بن باذام وذلك لعشرين ليلة من منجمه فبينا نحن ننتظر الخبر العام من تكون الدبرة إذا أتانا أنه قتل شهراً وهزم الأبناء ، وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه . . . وغلب الأسود على ما بين صهيد - مفازة حضرموت إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن وطابقت عليه اليمن ، وعك بتهامة معترضة عليه، وجعل يستطير استطارة الحريق وكان معه سبعمائة فارس يوم لقى شهراً سوى الركبان) .

والذى أربك القيادات الإسلامية منذ البداية أنها جديدة على الساحة لم يمر عليها سوى أيام قليلة بعد وفاة باذام رحمه الله . ولم تتفرق بعد على ساحة عملها ، بينا كان الأسود عارفاً بالأرض خبيراً بأهلها وخلال شهر واحد سقطت بيديه مذحج ونجران وصنعاء ، وشعوب وبلغ ذروة انتصاراته بعد احتلال صنعاء فلما أثخن فى الأرض

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٤٨ .

استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وتزوج امرأة شهر هى ابنة عم فيروز .

والذى عبأ الهمم ودفع لسرعة المواجهة كتب رسول الله ﷺ،والتى ترفض الاستسلام وترفض الاعتماد على المدد ، إنما حدد المسؤولية مباشرة ما ذكرته رواية جشيش الدبلمى رحمه الله قال: قدم علينا وبرُ بن يحنَّس بكتاب النبى ﷺ يأمرنا فيه .

- بالقيام على ديننا .

- والنهوض فى الحرب .

- والعمل فى الأسود ، إما غيلة ، وإما مصادمة .

- وإن نبلغ عَنْهُ من رأينا أن عنده نجدة أو ديناً.

إنها أوامر أربعة لا تقبل التأجيل أو التأخير وقام القادة الثلاثة جشيش وفيروز وداذويه ، وهم ظاهرو فى جيش الأسود قاموا بالتنفيذ الفورى .

- فعملنا فى ذلك فرأينا أمراً كثيفاً .

وحيث إنهم يرقبون الأحداث كلها كانوا قد لاحظوا بعض الجفاء بين الأسود العنسى ،وقائده قيس بن عبد يغوث،وهو نفسه قيس بن مكشوح ، ووصف جشيش هذه الفجوة والجفاء بقوله :

(ورأيناه قد تغير لقيس بن عبد يغوث وكان على جنده فقلنا : يخُاف على دمه ، فهو لأول دعوة). وكان لابد من استغلال هذه الثغرة. فلو نجحت لكانت مركز الانهيار للأسود ولم يتلكؤوا فى ذلك (فدعوناه وأنبأناه الشأن ، وأبلغناه عن النبى ﷺ فكأنما وقعنا عليه من السماء وكان فى غم وضيق بأمره فأجابنا إلى ما أجبنا من ذلك) .

وكان من الممكن أمام هذه المغامرة الجريئة أن يجبن قيس ، أو يتخاذل ، فيخبر الأسود يخبر قادة الأبناء ويكون مقتله فى ذلك . ولابد فى الحرب من المغامرة .

ومضوا بعد أن غدوا صفاً واحداً إلى الاتصالات السرية بمن يظنون به الخير من الجيش وغيره (وجاءنا وبر بن يحنس ، وكاتبنا الناس ودعوناهم .) .

الشيطان يكشف التحرك الإسلامى :

(وأخبره الشيطان بشىء (أى أخبر الأسود) فأرسل إلى قيس وقال : يا قيس ، وما يقول هذا ؟ (أى ما يسميه الملكُ والوحى ، وهو الشيطان) .

قال : وما يقول ؟

قال : يقول : عمدت إلى قيس فأكرمتَهُ ،حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار فى العز مثلك مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر ، إنه يقول : يا أسود ، يا أسود ، يا أسود يا سوأة ، يا سوأة ، اقطف قُنَّته ، وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف قُنَّتك) لقد بلغ الأمر حد قطع الرؤوس بين قيس والأسود .

وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف قُنَّتك .

ولكن قيساً تدارك الأمر بسرعة خاطفة (وحلف به) .

كذب لأنت أعظم فى نفسى وأجل عندى من أن أحدث بك نفسى قال: ما أجفاك ، أتكذب الملك ؟ قد صدق الملك ، وعرفت الآن أنك تائب مما اطلَّع عليه منك .

ثم خرج فأتانا فقال: يا جشيش ويا فيروز ويا داذويه،إنه قد قال وقلت فما الرأى ؟

فقلنا : نحن على حذر .

فإنا فى ذلك إذا أرسل إلينا فقال : ألم أشرِّفكم على قومكم ؟ ألم يبلغنى عنكم ؟ فقلنا :

أقلنا مرتنا هذه فقال :(لا يبلغنى عنكم فأقيلكم ، فنجونا ولم نكد ، وهو فى ارتياب فى أمرنا وأمر قيس ، ونحن فى ارتياب وعلى خطر عظيم) .

كان التصرف المناسب بعد اطلاع الأسود على تغير قيس والثلاثى داذويه وقيس وجشيش أن يحاولوا الفرار فهم مقتولون لا محالة ، أو يعودوا للولاء ، والإخلاص إليه ، فإن نجوا الآن من الموت بأعجوبة فلن ينجوا فى المرة الثانية وقد أبلغه الشيطان خطة القادة الأربعة .

ما العامل الجديد الذى دخل على الساحة فثبَّت أمرهم من جديد ؟ إنها كتب رسول الله ﷺ التى فعلت فعلها ، والرسل الذين أرسلوا إلى قيادات اليمن المسلمة فى كل مكان ، تطالبهم بالمواجهة والحرب والخروج على الأسود .

تحرك القيادات الإسلامية :

يقول جشيش : (ونحن فى ارتياب وعلى خطر عظيم ، إذ جاءنا اعتراض عامر ابن شهر،وذى زود وذى مران وذى القلاع وذى ظليم عليه،وكاتبونا وبذلوا لنا النصر ،

وكاتبناهم وأمرناهم ألا يحركوا شيئاً حتى نبرم الأمر ، وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبى ﷺ، وكتب النبى ﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكنى الأرض من غير العرب فثبتوا وتنحوا ، وانضموا إلى مكان واحد، وبلغه ذلك ، وأحس بالهلاك ، وفرق لنا الرأى) .

وكما سبق وعرضنا فلم يكتف رسول الله ﷺ بالكتب فقد بعث رجالاً خُلَّصاً عنده من أهل اليمن إلى هذه الزعامات يستحثها على الثورة ضد الأسود .

(فبعث وبر بن يحنس إلى فيروز وجشيش وداذويه الإصطخرى .

وبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم .

وبعث الأقرع بن عبد الله الحميرى إلى ذى زود وذى مران .

وشعر الأسود أن الأرض تنتقض به من كل مكان وهؤلاء أقيال حضرموت وزعماؤها كلهم قد أعلنوا الثورة والخروج عليه، وحتى نجران أقرب الأرض إليه انتقضت إلى عامر بن شهر فى همدان وقواده الذين يعتمد عليهم قائد العرب قيس ، وقادة الفرس الثلاثة كلهم يعملون فى الخفاء للانقضاض عليه .

آزاد المرأة البطلة :

(وفرَّق لنا الرأى ، فدخلت على آزاد ـ والداخل جشيش الديلمى وهو الذى ينقل لنا الحديث وهى امرأته ـ فقلت :

يا ابنة عم، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قولك، قتل زوجك (شهر بن باذام) وطأطأ فى قومك القتل، وسفل بمن بقى منهم وفضح النساء، فهل لك من ممالأة عليه).

فقالت : على أى أمره ؟

قلت : إخراجه .

قالت : أو قتله ؟

قلت : أو قتله ؟

قالت : نعم ، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إلى منه ، ما يقوم لله على حق ، ولا ينتهى له عن حرمة فإذا عزمتم فأعلمونى أخبركم بمأتى هذا الأمر) .

رسول الله ﷺ يدير المعركة من المدينة المنورة من فراش المرض، أو الموت، والخطر

وصل إلى فراش الأسود. وتبييت قتله من أهله التى آمنت بالله وأخلصت لدينه، والشيطان يكاد يقتل نفسه من الغيظ، ويوسوس للأسود أن يقتل قادته قيس وداذويه ورفاقه .

خطر الموت يكشر عن نابه من جديد :

يقول جشيش : (فأخرج ـ من عند آزاد – فإذا فيروز وداذويه ينتظرانى ، وجاء قيس ونحن نريد أى نناهضه فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا : الملك يدعوك .

فدخل فى عشرة من مذحج وهمدان فلم يقدر على قتله معهم فقال : (يخاطب نفسه) :

يا عبهلة بن كعب بن غوث ، أمنى تحصن بالرجال ؟ ألم أخبرك الحق وتخبرنى الكذابة إنه يقول : يا سوأة يا سوأة إلا تقطع من قيس يده ، يقطع قُنَّتَك العليا .

حتى ظن أنه قاتله فقال له :

إنه ليس من الحق أن أقتلك وأنت رسول الله فمر بى بما أحببت فأما الخوف والفزع فأنا فيهما مخافة أن تقتلنى، فإما قتلتنى فموتة واحدة أهون علىَّ من موتات أموتها كل يوم.

فرق له فأخرجه فخرج علينا فأخبرنا وواطأنا ،وقال : اعملوا عملكم .

وخرج علينا (الأسود) فى جمع فقمنا مثولاً له ، وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير فقام وخط خطا فأقيمت من ورائه وقام من دونها فنحرها غير محبسة ولا مُعقلة ما يقتحم الخط منها شيء ثم خلاها فجالت إلى أن زهقت فما رأيت أمراً كان أفظع منه ولا يوماً أوحش منه ثم قال :

أحق ما بلغنى عنك يا فيروز ؟وبوأ له الحربة :

لقد هممت أن أنحرك فأتبعك هذه البهيمة :

فقال : اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبياً ما بعنا نصيبنا منك بشيء فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا ، لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك ، فإنا حيث تحب .

فقال : اقسم هذه ؛ فأنت أعلم بمن هنا .

فاجتمع إلىَّ أهل صنعاء ، وجعلت آمر للرهط بالجزور ، ولأهل البيت بالبقرة ،

ولأهل الخلَّة بعدَّة حتى أخذ أهل كل ناحية بقسطهم فلحق به قبل أن يصل إلى داره وهو واقف علىَّ رجل يسعى إليه بفيروز فاستمع له ، واستمع له فيروز وهو يقول : أنا قاتله غدا وأصحابه .

نجد هناك رواية أخرى عن فيروز الديلمى رحمه الله توضح تفصيلات أكثر وفيها وذلك ، بعد أن نحر الجزر والبقر :

(ثم أمسك بحربته في يده،ثم أكب على الأرض ورفع رأسه فقال:إنه يقول أى شيطان الذى معه ويسميه ملكاً) إن ابن المكشوح من الطغاة،يا أسود ، اقطع قنة رأسه العليا ثم أكب رأسه أيضًا ينظر ثم وضع رأسه فقال:إنه يقول: إن ابن الديلمى من الطغاة ، يا أسود اقطع يده اليمنى ، ورجله اليمنى . فلما سمعت قوله قلت :والله ما آمنت أن يدعو بى فينحرنى بحربته كما نحر هذه الجزر،فجعلت أستتر بالناس لئلا يرانى، حتى خرجت ولا أدرى من حذرى كيف آخذ. فلما دنوت من منزلى لقينى رجل من قومه فدق فى رقبتى ، فقال:إن الملك يدعوك وأنت تروغ ارجع،فردنى فلما رأيت ذلك خشيت أن يقتلنى قال:وكنا لا يكاد يفارق رجلاً منا أبداً خنجره فأدس يدى فى خفى فأخذت خنجرى ، ثم وأنا أريد أن أحمل عليه،فأطعنه به حتى أقتله، ثم أقتل من معه، فلما دنوت رأى فى وجهى الشر فقال : مكانك ! فوقفت، فقال : إنك أكبر من هاهنا وأعلمهم بأشراف أهلها فاقسم هذه الجزر بينهم وركب فانطلق ، وعلقت أقسم اللحم بين أهل صنعاء فأتانى ذلك الذى دقَّ فى رقبتى فقال:أعطنى منها ، فقلت : لا والله ولا بضعة واحدة ؛ ألست الذى دققت فى رقبتى؟! فانطلق غضبان حتى أتى الأسود فأخبره بما لقى منه منى وما قلتُ له، فلما فرغتُ أتيت الأسود أمشى إليه ، وسمعت الرجل وهو يشكونى إليه ، فقال له الأسود :

أما والله لأذبحنه ذبحاً :

فقلت له : إنى قد فرغت مما أمرتنى به ، وقسمته بين الناس قال : قد أحسنت فانصرف فانصرفت) .

إنه سباق على الموت،لا يُعلم من الذى سبق إليه فالأسود قد بيت قتل قادته الأربعة وهم قد بيتوا قتله ، والشيطان يقود الأسود ويدفعه لذلك ، والله تعالى يرعى عبادة الأربعة.

آزاد تضع الخطة :

(فأرسلنا إلى قيس والرواية هنا لجشيش الديلمى) فجاءنا فأجمع ملؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر فأتيت المرأة فقلت : ما عندك ؟ .

فقالت:هو متحرز متحرس،وليس من القصر شىء إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإن أمسيتم فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس ،وليس دون قتله شىء ،وقالت :إنكم ستجدون سراجاً وسلاحاً).

إنها الخطة العبقرية فقد عرفت الثغرة الوحيدة التى يمكن التسلل منها إلى القصر وأهم ما فى جدار هذا البيت هو أن الحرس بعيدون عنه ، وهو المكان الوحيد من جهات القصر الذى يمكن النفاذ منه ولا يمكن النفاذ إلا بالتنقيب من الجدار ، وكانت هذه مسؤولية الرجال فى الحفر أما هى فسوف تضع لهم السراج والسلاح إذا داهمهم عدو وهم بعيدون عن أعين الحرس واستدع جشيش إلى الخطة كاملة من البطلة العظيمة آزاد، ومضى إلى المؤمنين من إخوانه الثلاثة ليبلغهم بالخطة فهى سرية للغاية وكانت المفاجأة المذهلة .

الأسود يقبض على جشيش فى الجرم المشهود داخل بيته :

(فخرجت فتلقانى الأسود خارجاً من بعض منازله فقال لى : ما أدخلك على ؟ ووجأ رأسى حتى سقطت ـ وكان شديداً ـ وصاحت المرأة فأدهشته عنى،ولولا ذلك لقتلنى،وقالت : ابن عمى جاءنى زائراً فقصَّرت بى فقال : اسكتى لا أبا لك ، فقد وهبته لك ، فتزايلت عنى فأتيت أصحابى فقلت: النجاء ! الهرب ! وأخبرتهم الخبر) .

لقد كشفت الخطة وهؤلاء الثلاثة جشيش وداذويه وفيروز،ومعهم قيس هم فى الأصل موطن شك عنده ويتوعدهم بذبحهم والقضاء عليهم،وشيطانه يحذره منهم ، وها هو يكشفهم،يدخلون بيته دون إذنه فهى فرصة مناسبة لقتلهم ، وجشيش وحده فلن يثأر له أحد وحين يعرف أنه دخل بيت الأسود من دون إذنه فقتله ، فمن ذا الذى يلومه بما صنع . لقد انتهى كل شىء وكشفت المؤامرة .

فمن الذى أنقذ الموقف؟ إنها المرأة العظيمة فلو كانت غيرها لارتمت على أقدامه تطلب منه العفو ولقتلها قبل قيس ،لكن ثبات قلبها صغرت أمامه قلوب الرجال وحكمة تصرفها ، ونفاذ عقلها ـ وكان فى القمة ـ وببديهة حاضرة تقدمت من زوجها برباطة جأش قائلة : ابن عمى جاءنى زائراً ولم تكتف بذلك،بل دخلت بين جشيش، والأسود

وراحت تصرخ فى وجهه أن يتعامل مع ابن عمها بهذه الصورة وعيونها تلمع بالغضب والحقد ، وعلى قوته ، وعلى شراسته ضعف أمامها ولان بين يديها وقال :

اسكتى لا أبا لك ، قد وهبته لك .

وأطلق سراح جشيش الذى قام من بين يدى الموت ، وفر مذعوراً إلى المجموعة الفدائية يدعوهم إلى الفرار والنجاة فهم لابد مذبوحون الساعة وليجدوا ملجأ يبحثون عنه يختفون فيه قبل أن يأتيهم الطلب .

المرأة العظيمة تنقذ الموقف ثانية :

(فقلت : النجاء، الهرب، وأخبرتُهم الخبر ، فإنا على ذلك حيارى إذ جاءنى رسولها: لا تدعن ما فارقتك عليه ، فإنى لم أزل به حتى اطمأن .

فقلنا لفيروز : ائتها فتثبت منها ، فأما أنا فلا سبيل لى إلى الدخول بعد النهى .

ففعل ، وإذا كان هو أفطن منى فلما أخبرتُه قال : وكيف ينبغى لنا أن ننقب على بيوت مبطنة، ينبغى لنا أن نقلع بطانة البيت ، فدخلا فاقتلعا البطانة ، ثم أغلقاه وجلس عندها كالزائر فدخل عليها الأسود ، فاستخفته غيرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده فصاح به وأخرجه) .

لقد بقيت رضوان الله عليها محافظة على رباطة جاشها واستعملت دَلَّ الأنثى فى تهدئة روعه وكسب ثقته ، وتوقعت أن القوم قد يجزعون ويضعفون بعد هذا الحدث فأرسلت رسولها إليهم تطمئنهم وتدعوهم إلى متابعة الخطة وعدم التراجع عنها ، وهى تعلم أن الأمر لو كشف فلا أقل من ذبحها . إننا نرى الأمر معكوساً تماماً فعوضاً أن تبعث إليهم عن براءتها منهم ورجائها منهم ألا يترددوا عليها أبداً لأن فى ذلك نهايتها، كانت أربط منهم جاشاً وأقوى إيمانا بما نزرت حياتها من أجله ، ولو أدى ذلك إلى استشهادها، فكانت هى التى ثبتتهم، ودعتهم إلى متابعة تنفيذ الخطة وجاء فيروز رضي الله عنه وكان أشد بأساً من جشيش فدخل عليها ، وبحثا تفاصيل الخطة وكشفا ثغرة كبيرة فيها ، فلا يمكن الوصول إلى البيت بالتنقيب من الخارج طالما أن بطانة الجدار من الداخل قائمة ، وعوضاً عن أن يبحثا استدعاء العمال لذلك ، وتحديد موعد لاقتلاع البطانة وتمديد عملية التنفيذ قامت آزاد وفيروز ، واقتلعا بطانة البيت ثم أغلقاه ، وعاد لتتابع دراسة التفاصيل وزمان ومكان التنفيذ للدخول عليه .

المرأة العظيمة تنقذ الموقف ثالثة :

(وجلس عندها كالزائر فدخل عليها الأسود فاستخفته غيرة ،وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده فصاح به وأخرجه وجاءنا بالخبر، فلما أمسينا عملنا فى أمرنا ، وقد واطأنا أشياعنا وعجلنا عن مراسلة الهمدانيين والحميريين فنقبنا البيت من الخارج ثم دخلنا وفيه سراج تحت جفنة واتقينا بفيروز وكان أنجدنا وأشدنا فقلنا : انظر ماذا ترى . . .).

ونعود لفيروز وروايته وهو بطل الساحة الآن ليقول :

(فقلت: إنا نقتله الليلة،فقالت:تعالوا فما شعرت بشىء حتى إذا الأسود قد دخل البيت وإذا هو معنا فأخذته غيرة شديدة فجعل يدق فى رقبتى وكفكفته عنى ، وخرجت فأتيت أصحابى بالذى صنعت وأيقنت بانقطاع الحيلة عنا فيه، إذ جاءنا رسول المرأة ؛ ألا يكسرن عليكم أمركم ما رأيتم فإنى قد قلت له بعد ما خرجت:ألستم تزعمون أنكم أقوام أحرار لكم أحساب، ؟! قال: بلى. فقلت:جاءنى أخى يسلم علىَّ ويكرمنى،فوقعت عليه تدق فى رقبته ،حتى أخرجته فكانت هذه كرامتك إياه فلم أزل ألومه حتى لام نفسه وقال : أهو أخوك ؟ فقلت : نعم . فقال : ما شعرتُ .

فأقبلوا الليلة لما أردتم .

ساعة الصفر :

(قال الديلمى (فيروز) فاطمأنت أنفسنا واجتمع لنا أمرنا فأقبلنا من الليل أنا وداذويه وقيس حتى ندخل البيت الأقصى من النقب الذى نقبنا،فقلت : يا قيس ، أنت فارس العرب ، ادخل فاقتل الرجل ،قال: إنى تأخذنى رعدة شديدة عند البأس، فأخاف أن أضرب الرجل ضربة لا تغنى شيئا ، ولكن ادخل أنت يا فيروز فإنك أشبنا وأقوانا قال: فوضعت سيفى عند القوم ، ودخلت لأنظر أين رأس الرجل ،فإذا السراج يزهر وإذا هو رقد على فرش قد غاب فيها لا أدرى أين رأسه من رجليه وإذا المرأة جالسة عنده كانت تطعمه رماناً حتى رقد فأشرت إليها :أين رأسه ؟ فأشارت إليه فأقبلت أمشى حتى قمت عند رأسه لأنظر فما أدرى أنظرت فى وجهه أم لا ، فإذا هو قد فتح عينيه ؛ فنظر إلى فقلتُ : إن رجعت إلى سيفى خفت أن يفوتنى ، ويأخذ عدة يمتنع بها منى ، وإذا شيطانه قد أنزره بمكانى ، وقد أيقظه فلما أبطأ كلمنى فى لسانه ، وإنه لينظر ويغط فأضرب بيدى إلى رأسه فأخذت رأسه بيد ولحيته بيد ثم ألوى عنقه فدققتها ، ثم أقبلت إلى أصحابى فأخذت المرأة بثوبى فقالت :

أختكم ، نصيحتكم قلت : قد والله قد قتلته ، وأرحتك منه قال : فدخلت على صاحبيّ فأخبرتهما قالا : فارجع ، فاحتز رأسه وائتنا به ، فدخلت، فبربر فألجمته .

المرأة البطلة تنقذ الموقف مرة رابعة :

(وفى رواية حشيش: فأتانا فقمنا معه، فأردنا حز رأسه فحركه الشيطان فاضطرب فلم بضبطه، فقلت: اجلسوا على صدره فجلس اثنان على صدره وأخذت المرأة بشعره ، وسمعنا بربرة فألجمته بمئلاة وأمرّ الشفرة على حلقه فخار كأشد خوار ثور سمعته قط فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا ؟ ما هذا ؟ فقالت المرأة : النبى يوحى إليه فخمد ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا ،ليس غيرنا ثلاثتنا ، (فيروز وداذويه وقيس) لقد كان فيروز رضي الله عنه هو البطل المجلى والذى استطاع فى اللحظة الحاسمة أن يقتله وكان تقديره فى مكانه فخشى إن مضى ليحضر السيف ، أن يقوم الأسود ويمتنع بشىء ، أو أن يكون مخفياً سيفاً فى ركن من غرفته، والأمر بقرار حاسم وتنفيذ دقيق وأدنى تلكؤ قد يفشل الخطة كاملة، فكان أن استعمل يديه عوضاً عن السيف ولوى عنقه حتى دقه ومات وقام ليمضى ولم تدر المسلمة العظيمة أن الأمر قد انتهى وأن الشيطان قد قتل فتعلقت بثيابه أين تترك أختكم فبشرها بقوله: قد والله قتلته، وعاد إلى صاحبيه لكنهم يبحثون كل شىء، ويبحثون ما بعد موته فرأوا أنه لابد من احتزاز رأسه، والشيطان جالس يتلمظ غيظا كيف يكشف مؤامرتهم على الأسود، صرخ فى لسانه وهو يغط فى النوم وخار خوار الثور المذبوح، وأقدم الحرس إلى نبيهم آمين نحو الصوت ليروا إن مسّ نبيهم سوءا فى هذه الليلة واستطاعت رضي الله عنها أن تصرف الحرس لا بالسيوف المشهورة والدماء المراقة ، والمذابح المشهورة ولكن بالحكمة القاتلة حيث قالت لهم :

لا شىء ،النبى يوحى إليه .

إنها امرأة الملك،وهى أدرى به، فعادوا إلى حراستهم، وحيث لم تستغث المرأة ، ولم يستغث النبى فلا يمكن دخولهم إليه ، واقتحامهم البيت وهى الأميرة الساهرة على راحة الملك، صرفتهم، بقولها : النبى يوحى إليه ، فعادوا إلى محارسهم ،وعاد القوم يسمرون ويخططون ماذا بعد قتله؟

إلقاء رأس المتنبئ والأذان وكلمة السر :

(ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا، ليس غيرنا ثلاثتنا ؛فيروز وداذويه وقيس ،فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذى بيننا وبين أشياعنا، ثم ينادى بالأذان فلما طلع

الفجر نادى داذويه بالشعار ففزع المسلمون والكافرون وتجمع الحرس وأحاطوا بنا ثم ناديت بالأذان وتوافت خيولهم إلى الحرس فناديتهم أشهد أن محمداً رسول الله ، وأن عبهلة كذاب ، وألقينا إليهم رأسه فأقام وبر الصلاة وشنها القوم غارة وندينا : يا أهل صنعاء من دخل عليه داخل فتعلقوا به ،ومن كان عنده أحد منهم فتعلقوا به وناديناً بمن في الطريق تعلقوا بمن استطعتم فاختطفوا صبيانا كثرين، وانتهبوا ما انتهبوا ثم مضوا خارجين فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارساً ركبانا وإذا أهل الدور والطرق وقد وافونا بهم وفقدنا سبعمائة عيِّل ،فراسلونا وراسلناهم أن يتركوا لنا ما فى أيديهم ، ونترك لهم ما فى أيدينا ففعلوا ، وخرجوا لم يظفروا منا بشيء فترددوا فيما بين صنعاء ونجران وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وتنافسنا الإمارة وتراجع أصحاب النبى ﷺ إلى أعمالهم ،فاصطلحنا على معاذ بن جبل فكان يصلى بنا وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، وذلك فى حياة النبى ﷺ فأتاه الخبر من ليلته وقدمت رسلنا ،وقد مات النبى ﷺ صبيحة تلك الليلة فأجابنا أبو بكر رحمه الله) (١) .

رسول الله ﷺ يتحدث عن المعركة ليلة وفاته

لقد كان رسول الله ﷺ يعيش واقع المسلمين فى كل ذرة من أعصابه ، حتى يعيش معه فى يقظته ونومه عليه الصلاة والسلام ،فقد خرج النبى ﷺ على الناس عاصباً رأسه من الصداع لذلك الشأن وانتشاره ، لرؤيا رآها فى بيت عائشة فقال :

« إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم أن فى عضدى سوارين من ذهب ؛ فكرهتهما فنفختها ، فطارا فأولتهما هذين الكذابين ؛ صاحب اليمامه وصاحب اليمن . . . » .

أما صاحب اليمامة فمسيلمة الكذاب ؛ وهو لم يعلن ثورته وخروجه على الإسلام ودولته إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ ،وانتهى بمعركة اليمامة فى عهد الصديق رضي الله عنه ، وإن كان أعلن تنبؤه وردته فى حياه النبى ﷺ .

لكن صاحب اليمن الأسود العنسى ، كما رأينا ثار واحتل ديار الإسلام ،وقتل ولاتها وسيطر على صنعاء العاصمة ،وامتد سلطانه إلى أطراف الطائف .

فالانتهاء منه،انتهاء من ثائر مرتد متنبئ خرج على دولة الإسلام،وشهدنا رسول الله ﷺ يدير المعركة ضده بالرسل والتوجيهات والخطط والأوامر ،وهو على فراش الموت، وأقر الله تعالى عينه قبل أن يغادر هذه الدنيا بالقضاء على هذه الفتنة التى خططت لفصل

---

(١) الروايتان فى تاريخ الطبرى عن جشيش وعن فيروز ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٢ .

اليمن كلها عن دار الإسلام وطارت الرسل بنبأ مقتل الأسود إلى رسول الله ﷺ فى المدينة وخرج رسول الله ﷺ على الناس بهذه البشارة قائلاً :

« إن الله قتل الأسود الكذاب العنسى،قتله بيد رجل من إخوانكم ، وقوم أسلموا وصدقوا » فقد نجحت الخطة كاملة،وكان فيروز البطل العظيم الذى دق عُنق الأسود بيديه قبل أن يحزه بسيفه ممن اختاره رسول الله ﷺ بشخصه لهذه المهمة ، وبعث له ولداذويه وجشيش رسالة خاصة مع وبر بن يُحنّسْ يستحثهم فيها على قتل الأسود مصادمة أو غيلة كما يذكر جشيش ﷺ :(قدم علينا وبر بن يحنس بكتاب النبى ﷺ ، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا ، والنهوض فى الحرب والعمل فى الأسود : إما غيلة ؛وإما مصادمة وأن نبلغ عنه من رأينا أن عنده نجدة أو ديناً فعملنا فى ذلك ، ومن أجل هذا كان القول النبوى الصادق :

« قتله بيد رجل من إخوانكم وقوم أسلموا وصدقوا » .

لأن هذا القتل لم يكن لنهى سلطانه لو لم يكن التنظيم السرى للقواعد الإسلامية أن تكون حاضرة للمواجهة بعد مقتله ، والتى قدمت من سائر أنحاء اليمن واضعة أرواحها على أكفها ، مستعدة للجهاد وللشهادة والموت إن اقتضى الأمر ، ولذلك عندما رأى جيش الأسود كتائب الإسلام قد أحاطت به ولى مذعوراً هاربا إلى الصحراء تاركاً رأس نبيه تداس بالأرجل وكانت المرأة العظيمة البطلة صورة خالدة من صور الجهاد فى سبيل الله والتى قتلت زوجها الكافر ، ووضعت الخطة وقامت على تنفيذها مع الرجال الذين أسلموا وصدقوا ،ولله جهاد شباب الإسلام وشاباته ماذا يفعل يوم تتأجج هذه الطاقات وتتوجه فى سبيل الله .

الفتى الثائر : أسامة بن زيد قائد لجيش الإسلام

فى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ يعد الخطة للقضاء على ردة الأسود العنسى فى اليمن ، لم يكن ليغيب عن ذهنه ﷺ سلامة أرض الإسلام فى شمالى الجزيرة العربية حيث الحدود المتاخمة مع الروم ، وحيث الحدود مفتوحة للهجوم الرومانى على ديار الإسلام . وكان لغزوة مؤتة صدى عظيم فجع الروم ، وجعلهم يفكرون كثيراً قبل التفكير بأى هجوم على المدينة ، ومع أن القادة الثلاثة للغزوة قد استشهدوا ، لكن النصر قد تحقق على يدى سيف الله خالد بن الوليد ، وتم الفتح على يديه بالرغم من هذا كله . فلا يزال دم حبيبه زيد بن حارثة والثأر له يشغل بال النبى المصطفى ، ولابد من غارة مثل غارة مؤتة تبث الرعب فى قلب الروم ،وتجعلهم يفكرون كثيراً قبل الإقدام على حماقة غزو المدينة وسلطان المسلمين الذى امتد إلى تبوك .

كان رسول الله لا يهدأ لحظة من ليل أو نهار وهو يوطد أركان هذه الدولة ، إنه يحس بدنو أجله فلابد من الخطوات الحاسمة التى تضمن سلامة حدود الشمال ، وتنهى تمرد الجنوب .

وقالوا : لم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه ، ووجد عليهم وجداً شديداً . فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم . وأمرهم بالانكماش فى غزوهم، فتفرق المسلمون من عند رسول الله ﷺ وهم مجدون فى الجهاد (١) .

كان هذا قبل أسبوعين من وفاته،وبعد شهرين من العودة من حجة التمام،فلا يجوز للأمة أن تسترخى عن جهادها ، وهى معدة لتقود العالم بهذا الدين ،وتربية الشهر فى حجة الوداع لا تعنى القعود عن الجهاد والمواجهة،بل تعنى الإعداد بالتربية للانطلاق إلى الجهاد، والتحام التربيـة بالجهاد لا يمن أن ينفصل أحدهـا عـن الآخـر ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (١٢٢) ﴾ [التوبة] نفير وفقه وجهاد وإنذار وحذر ، هذه هى الحياة الإسلامية الحقيقية .

---

(١) المغازى للواقدى ٣ / ١١١٧ .

وراح المسلمون يتهيؤون للجهاد لغزو الروم على كل مستوياتهم . حتى كبار المهاجرين والأنصار الذين أمضوا حياتهم وسلخوا عمرهم فى الجهاد هاهم الآن يتهيؤون لتنفيذ أمر رسول الله ﷺ إلى أبعد من تبوك إلى أرض الروم .

التربية على الثأر :

هـا هـو فتانا أسامـة القصير الأسود الـذى أردفـه رسول الله ﷺ خلفه فى حجة الوداع وأوقف مسيرة الجيش كله بانتظار وصوله لينفر بالمسلمين من عرفات إلى منى وكان فى الثامنة عشرة من عمره آنذاك وقد ابتدأ حياته فى المدينة بمرض الجُدَرى .

فعن عطاء بن يسار قال : كان أسامة بن زيد قد أصابه الجدرى أول ما قدم المدينة وهو غلام ، مخاطه يسيل على أنفه فتتقذر به عائشة رضي الله عنها فدخل على رسول الله ﷺ فطفق يغسل وجهه ويقبله ، قالت عائشة : أما والله بعد هذا فلا أقصيه أبدا (١).

وكانت التربية لفتاتين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما فى الاهتمام بأسامة :

(فعن يحيى بن جعدة: أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة وهى تمسح عن وجه أسامة شيئاً فكأنها تأذت به فاجتذبه رسول الله ﷺ وانتهرها ، فقالت :لا أتأذى به أبدا) (٢).

وعن ابن قسيط عن محمد بن زيد قال : سقط أسامة ،فأصاب وجهه شجة .فكان رسول الله ﷺ يمص الدم ويبصقه) (٣) .

وعندما غدا عمره خمس عشرة سنة زوجه رسول الله ﷺ لكن السنة التى تلت زواجه فى السادسة عشرة من عمره كان على رأس جيش إلى الحرقات من جهينة وذلك ليعد إعداد الأبطال لا إعداد أولاد الدلال ونترك أسامة رضي الله عنه يحدثنا عن هذه المعركة خاصة وأنها جاءت بعد مقتل أبيه فى مؤتة فالدم ثائر فى عروقه يتلمظ للجهاد ويتحرق له، ويتمنى لو كانت هذه المعركة إلى أرض الشام ليثأر من قاتل أبيه لكنه الجهاد ، فليكن فى أى أرض ولا كيان للرجل فى الإسلام إلا من خلال الجهاد ، فيعرف من خلال حضوره مشاهدة .

وروى الإمام أحمـد ، وابن أبـى شيبة والشيخان وأبو داود والنسائى عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ،وابن جرير وابن سعد عن غيره .

قال أسامة: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبَّحناهم وكان رجل

(١ ـ ٣) المغازى للواقدى ٣ / ١١٢٦ .

منهم من أشدهم علينا وإذا أويروا كان حاميتهم فهزمناهم فغشيته أنا ورجل من الأنصار .

«وقال السدى» وكان مع مرداس بن نهيك غنيمة له وجمل أحمر فلما رآهم آوى إلى كهف جبل،وتبعه أسامة فلما غشينا ـ قال السدى ـ قال : السلام عليكم ،قال أسامة فى رواية: فرفعت عليه السيف فقال: لا إله إلا الله فكف الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله ﷺ ،فلما أصبت الرجل وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى رأتينى ما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت على رسول الله ﷺ،فقبلنى واعتنقنى ـ وقال السدى : وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أسامة أحب أن يثنى عليه خيراً ويسأل عنه أصحابه فلما رجعوا لم يسألهم عنه فجعل القوم يحدثون رسول الله ﷺ ويقولون :

يا رسول الله ، لو رأيت أسامة ولقيه رجل ، فقال الرجل: لا إله إلا الله ، فشد عليه فقتله .

يقول أسامة : فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال لى : « يا أسامة أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟»،قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً وفى رواية: إنما قالها خوفاً من السلاح ، قال : « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟!»، قال : أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله » ، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم (١) .

إنها أول حرب خاضها وقد بعثه رسول الله ﷺ ليشد عوده ، ويتعلم فنون الحرب وكان على مستوى ثقة نبيه به فى صبره وجلده وشجاعته حتى ليلاحق وهو ابن السادسة عشرة ذلك البطل المشرك إلى الغار ليقتله ،فهو الذى كان من أشدهم على المسلمين ومضى مع الأنصارى للقضاء عليه . وحين رآهم المشرك الفاتك خرج إليهم مستسلما قائلاً : لا إله إلا الله . فكف الأنصارى عنه بينما طعنه أسامة برمحه، هو فى عنفوان شبابه أو مراهقته يتقد حماساً وعنفاً للجهاد فى سبيل الله وقتل أعداء الله .

وفى البداية ، لم يعن الأمر شيئاً له ، فهو متأكد من أن هذا المشرك إنما استسلم وقال: لا إله إلا الله خوفاً من القتل وخوفاً من السلاح . لكن التربية النبوية الشديدة هزت كيانه قبل أن يلقى رسول الله ﷺ فقد كان لقاؤه الأول فى قمة السعادة حيث قبله وعانقه . لكن بعدما علم بقتل الرجل ،تغير وجهه عليه وصار فى حالة وصفها بقوله :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٢٩٩ ،وهى عند مسلم (ح ١٥٩) ،والبخارى (ح ٢٦٩) .

فلما أصبت الرجل وجدت فى نفسى موجدة شديدة حتى رأيتنى ما أقدر على أكل الطعام ورسول الله ﷺ يقرعه :« أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله »، ولم يُجْدِ دفاعه أن المشرك إنما قالها خوفاً من الموت . فكان الجواب أقسى عليه من الاعتذار : هلا شققت عن قلبه فعلمت أنه قالها أم لا .

ولم يكتف رسول الله ﷺ بتأنيبه مرة واحدة . إنما ثانية وثالثة ورابعة . حتى تمنى أن لـم يكـن أسلـم . حتى لا تكون فى صفحته هذه الكبيرة ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله . وتصور أنه قد تستمر عقوبته فيبعد عن ساحة الحرب إلى الأبد . . وعندما سمع أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ إلى قتال الروم وغزوهم سارع وشد عليه سلاحه آملاً أن تغسل هذه الغزوة خطيئته تلك ولعله يستشهد فيها . ولا يغسل خطيئته تلك إلا الدم ، لكن يخشى أن يمنعه رسول الله ﷺ من المشاركة جندياً فيها عقوبة على قتل من قال : لا إله إلا الله .

أسامة بن زيد أمير الجيش :

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر دعا أسامة بن زيد فقال :

« يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك . فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش . فاغر صباحاً على أهل أبنى ، وحرق عليهم ، وأسرع السير تسبق الخبر ؛ فإن أظفرك الله عليهم فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون أمامك والطلائع . . . ».

ترى هل صدق توقعه فى منعه من الحرب لما اقترفت يداه من قبل ، لكن الدعوة هزت كيانه كله، ولم يكن يصدق ما يسمع :« سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك» .

فليس لجعفر ابن يثأر له ، وأولاده أيتام صغار ، وليس لابن رواحة فتى يثأر له ، أما زيد الحب فهذا ابن الثامنة عشرة صار مهيأ للثأر لأبيه وأين ؟! فى أرض الشام ، ومن جنوده ؟! كبار المهاجرين والأنصار وخشى أن يكون فى حلم . هل هو اليوم قائد أعظم جيوش الإسلام التى ستمضى إلى الشام لتثأر للشهداء والعظام ؟

لم يكتف رسول الله ﷺ بتقليده القيادة ، إنما وضع له خطة التحرك والمواجهة والعودة . تماماً كما وضع خطة مواجهة الأسود العنسى فى الجنوب .

وكانت الخطة من ثمانية بنود شملت الانطلاق والمواجهة والعودة :

١ ـ « سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك .

٢ ـ فأوطئهم الخيل.

٣ ـ فقد وليتك على هذا الجيش .

٤ ـ فأغر صباحاً على أهل أُبنى .

٥ ـ وحرق عليهم .

٦ ـ فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم .

٧ ـ وخذ معك الأدلاء .

٨ ـ وقدم العيون أمامك والطلائع» .

يوم الأربعاء :

وكان ذلك لليلتين بقيتا من صفر . بدئ برسول الله ﷺ فصدع وحم .

واشتعلت المدينة خوفاً على رسول الله ﷺ . وانشغل الناس بين مرض رسول الله ﷺ ، وبين الاستعداد للغزو والجهاد إلى أقصى الأرض فى الشام .

يوم الخميس :

(فلما أصبح يوم الخميس لليلة بقيت من صفر عقد له رسول الله ﷺ بيده لواء) فإذن لايزال رسول الله ﷺ على عزمه على توجيه هذا الجيش ، غير أن الناس فوجئوا بالقائد . فهمهموا فى أنفسهم دون أن يجرؤوا على السؤال فهو رسول الله ﷺ الموحى إليه .

تعليمات القتال :

عقد له رسول الله ﷺ بيده لواء ثم قال :

١ ـ « يا أسامة . اغز باسم الله فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله .

٢ ـ اغزوا ولا تغدروا .

٣ ـ ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة .

٤ ـ ولا تمنوا لقاء العدو .

٥ ـ فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم .

٦ ـ ولكن قولوا : اللهم أكفناهم ، واكفف بأسهم عنا .

٧ ـ فإن لقوكم قد أجلبوا وصيحوا .

٨ ـ فعليكم بالسكينة والصمت .

٩ ـ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

١٠ ـ وقولوا : اللهم نحن عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت .

١١ ـ واعلموا أن الجنة تحت البارقة » .

لقد كانت هذه التعليمات تلقى لقائد الجيش أسامة بن زيد ابن الثامنة عشرة . والجيش كله يصيخ ويستمع إليها ، فهى تعليمات ومبادئ عامة ، على كل فرد فى الجيش أن يكون مسؤولاً على تنفيذها ،(قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ لأسامة : « امض على اسم الله »، فخرج بلوائه معقود فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمى فخرج به إلى بيت أسامة) .

الجرف مكان التجمع :

(وأمر رسول الله ﷺ أسامة ، فعسكر بالجرف ، وضرب عسكره فى سقاية سليمان اليوم ، وجعل الناس يجدون فى الخروج إلى المعسكر ، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره ، ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ) .

إنه ليس عرضاً قريباً ولا سفراً قاصداً ، لقد قيل هذا من رب العزة جل جلاله عندما كان الهدف تبوكاً ،أما اليوم ، فيكاد يكون ضعف المسافة ، فليس التحضير لغزو يوم أو يومين . إنما التحضير لشهر كامل فى الذهاب والإياب .

الأيام العشرة :

ومن أجل هذا استمر الإعداد والتجمع فى المعسكر عشرة أيام .

كبار المحاربين والقادة العظام جنود فى الجيش :

(ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب فى تلك الغزوة ؛ عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح ،وسعد بن أبى وقاص ، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن

عمرو بن نفيل فى رجال من المهاجرين والأنصار عدة ؛ قتادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم بن قريش) .

أربعة من المرشحين للخلافة العظمى ، ومن المبشرين بالجنة كانوا جنوداً فى هذا الجيش تحت إمرة أسامة بن زيد ؛ القصير الأفطس الأسود ، وكل مؤهلاته حرب الحرقات ، ويحمل فيها خطأه الشهير فى قتل من قال: لا إله إلا الله .

تذمر فى الجيش :

(فقال رجال من المهاجرين ـ وكان أشدهم فى ذلك قولاً عياش بن أبى ربيعة : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فكثرت القالة فى ذلك . فسمع عمر بن الخطاب ﷺ بعض ذلك القول فرده على من تكلم به ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقول من قال).

والأصل أن يكون عمر ﷺ أول المعترضين على القيادة ، أفليس عمر ﷺ وزير رسول الله ﷺ الثانى بعد أبى بكر ؟ أو ليس عمر الرجل الثالث فى الدولة ؟ والتى تنصاع لهم الرقاب كلها ، فكيف تنصاع إلى غلام أسود أفطس فى الثامنة عشرة من عمره ؟ وها هو يدلف إلى التاسعة عشرة ،إنها تربية من أقسى التربيات التى يتلقاها الجيل القيادى الأول فى الأمة من كبار المهاجرين والأنصار وهو أعسر تدريب وأشده على السمع والطاعة « ولو ولى عليكم عبد حبشى أجدع كأن رأسه زبيبة » . ويكاد يكون هذا هو الحال اليوم .

رسول الله ﷺ يلقى درسه العظيم :

(فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد :

١ ـ يا أيها الناس . فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة بن زيد ؟

٢ ـ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة ، لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله .

٣ ـ وايم الله، إن كان للإمارة خليقا،وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة .

٤ ـ وإن كان لمن أحب الناس إلى، وإن هذا (أى أسامة) لمن أحب الناس إلى .

٥ ـ وإنهما لمخيلان لكل خير .

٦ ـ فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم » .

ثم نزل ﷺ فدخل بيته . وذلك يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الأول وما أسعد أسامة بهذا النقد من الأمة لقيادته ؛ لأنه لولا ذلك النقد لما كان هذا الثناء النبوى الخالد .

يوم السبت العاشر من ربيع الأول :

انتهت الأزمة (وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وكان ذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بيومين .

محاولة أم أسامة تأجيل تحرك الجيش :

(ورسول الله ﷺ يقول :« أنفذوا بعث أسامة، ودخلت أم أيمن ، فقالت :أى رسول الله ، لو تركت أسامة يقيم فى معسكره حتى تتماثل ، فإن أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « أنفذوا بعث أسامة» .

الناس يمضون إلى المعسكر استعداداً للخروج :

لقد فشلت كل محاولات التأجيل ، ورسول الله ﷺ يؤكد فى كل مرة ، وعقب كل محاولة :« أنفذوا بعث أسامة »، (فمضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد ، ونزل أسامة يوم الأحد ، ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور ، وهو اليوم الذى لدوه فيه ، فدخل على رسول الله ﷺ وعيناه تهملان ، وعنده العباس - والنساء حوله - فطأطأ عليه أسامة فقبله ، ورسول الله ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبهما على أسامة، قال أسامة: فأعرف أنه كان يدعو لى ، قال أسامة : فرجعت إلى عسكرى .

فلابد للقائد الشاب الذى لم يناهز العشرين من وداع سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ قبل أن يمضى فى مجاهيل البيد نحو أقاصى الأرض فى بلاد الروم ، وتحت لهيب النار الحارقة فى هذه الصحراء الموحشة .

ورسول الله ﷺ ، لا يستطيع الكلام ، وقلبه معلق بالأمة ؛ فى شمالها ببعث أسامة ،وفى جنوبها بردة الأسود ، حتى لو كان فى مرض الموت ، فلن تقف الحياة « انفذوا بعث أسامة » كلاماً وإشارة ودعاء .

يوم الاثنين صباح الوفاة :

فلما أصبح يوم الاثنين غدا من معسكره ، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً ، فجاءه أسامة ،فقال :« اغد على بركة الله » . فودعه أسامه ،ورسول الله ﷺ مفيق مريح ،

وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته ، وركب أسامة إلى معسكره وصاح فى الناس أصحابه باللحوق بالمعسكر ، فانتهى إلى معسكره ، ونزل وأمر الناس بالرحيل وقد متع النهار وكان عليه الصلاة والسلام سعيداً فى ذلك الصباح ، فقد جاءت رسل اليمن بمقتل الأسود العنسى . وانتهت جبهة الجنوب بالنصر ولابد أن يمضى أسامة بجيشه لتكلل جبهة الشمال كذلك بأكاليل النصر .

لحظة الوفاة :

(فبينا أسامة يريد أن يركب من الجرف أتاه رسول أم أيمن - وهى أمه - تخبره أن رسول الله ﷺ يموت ، فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ ، فتوفى رسول الله حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف المدينة ، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عنده) .

بعث أسامة بعد خلافة الصديق :

فلما بويع لأبى بكر أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، وألا يحله أبداً حتى يغزوهم أسامة ، قال بريدة :

فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة ، ثم خرجت به إلى الشام معقوداً مع أسامة ، ثم رجعت به إلى بيت أسامة، فما زال فى بيت أسامة حتى توفى أسامة .

فلما بلغ العرب وفاة رسول الله ﷺ ، وارتد من ارتد عن الإسلام قال أبو بكر رضي الله عنه لأسامة :

أنفذ فى وجهك الذى وجهك فيه رسول الله ﷺ .

وأخذ الناس بالخروج ، وعسكروا فى معسكرهم الأول ، وخرج بريدة باللواء حتى انتهى إلى معسكرهم الأول .

كبار المهاجرين والأنصار يعارضون بعث أسامة :

فشق على كبار المهاجرين الأولين ، ودخل على أبى بكر ، عمر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ،وسعيد بن زيد فقالوا :

يا خليفة رسول الله،إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب ، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلهم عدة لأهل الردة ، ترمى بهم فى نحورهم ،

وأخرى لا نأمن على أهل المدينة أن يغار عليها وفيها الذرارى والنساء ، فلو استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه، وتعود الردة إلى ما خرجوا منه ، أو يفنيهم السيف ، ثم تبعث أسامة حينئذ ،فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا .

أبو بكر ﷺ مصمم على إنفاذ الجيش :

(فلما استوعب أبو بكر ﷺ كلامهم قال: هل منكم من أحد يريد أن يقول شيئاً ؟ قالوا : لا ، قد سمعت مقالتنا ، فقال :

والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة لأنفذت هذا البعث ،ولا بدأت بأول منه،ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى من السماء يقول: « أنفذوا جيش أسامة» .

استثناء وتغيير واحد :

ولكن خصلة ؛ أكلم أسامة فى عمر يخلفه يقيم عندنا ،فإنه لا غناء بنا عنه ،والله ما أدرى يفعل أسامة أم لا ، والله إن رأى لا أكرهه .

فعرف القوم أن أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعث أسامة .

ومضى أبو بكر إلى أسامة فى بيته ـ وهو الخليفة ـ وكلمه أن يترك عمر ، ففعل أسامة ، وجعل يقول له : أذنت ونفسك طيبة ؟ فقال أسامة : نعم .

الأمر بتحرك الجيش بكل من كان اكتتب فيه :

(وأمر مناديه ينادى :

عزمة منى ألا يتخلف عن أسامة من بعثه من كان انتدب معه فى حياة رسول الله ﷺ . فإنى لن أوتى بأحد أبطأ عن الخروج معه إلا ألحقته به ماشياً ، وأرسل إلى النفر من المهاجرين الذين كانوا تكلموا فى إمارة أسامة ، فغلظ عليهم وأمرهم بالخروج ، فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد) .

أبو بكر يشيع الجيش :

(وخرج أبو بكر ﷺ يشيع أسامة والمسلمين ، فلما ركب أسامة من الجرف فى أصحابه وهم ثلاثة آلاف رجل ، وفيهم ألف فرس، فسار أبو بكر ﷺ إلى جنب أسامة ساعة) .

أما أسامة فتانا ، فيكاد قلبه ينخلع من بين جنبيه ، أيبقى راكباً على فرسه والخليفة

العظيم يمشى على قدميه ؟ فيقسم أن ينزل ويجيبه الخليفة :

والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ،وما علىَّ أن أُغَبِّر قدماى ساعة فى سبيل الله.

إنه يعلم الناس الطاعة للأمير ، فهو الخليفة يستأذنه فى عمر ، وهو الخليفة يشيعه ماشياً خارج المدينة .

ثم قال : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يوصيك ، فانفذ لأمر رسول الله ﷺ ، فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه ، وإنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله ﷺ .

القائد أسامة ماض فى غزوته :

فخرج سريعاً ، فوطئ بلاداً هادئة لم يرجعوا عن الإسلام ـ جهينة وغيرها من قضاعة ـ فلا حاجة لسل السيوف على الطريق ، والانشغال بحرب أخرى عن الهدف الرئيسى الذى حدده رسول الله ﷺ .

قدم العيون أمامك :

وهذه إحدى الوصايا الكبرى لأسامة من رسول الله ﷺ ولابد من تنفيذها :

فلما نزل وادى القرى قدم عنيا له من بنى عذرة يقال له: حريث،فخرج على صدر راحلته أمامه مفذاً حتى انتهى إلى أبنى . فنظر إلى ما هناك ، وارتاد الطريق ثم رجع سريعاً على مسيرة ليلتين من أبنى ، فأخبره أن الناس غارون ولا جموع لهم ، وأمره أن يسرع السير قبل أن تجتمع الجموع وأن يشنها غارة .

أسرع السير ، واسبق الأخبار، وشن الغارة بغير دعاء ، وحرِّق وخرِّب :

تعليمات محددة من رسول الله ﷺ . وخطة وضعها إمام المجاهدين عليه الصلاة والسلام أسرع السير ، اسبق الأخبار ، شن الغارة بغير دعاء ، حرق وخرب .

وحيث إن الخطة كانت عند القائد الفتى العظيم أسامة ، ورأى بريدة قائد لوائه اتجاه أسامة للغزو دون دعوة القوم إلى الإسلام ، كان لابد له أن يطرح خبرته العسكرية والدعوية بين يدى قائده أسامة .(فعن المنذر بن جهم قال : قال بريدة لأسامة :

يا أبا محمد ، إنى شهدت رسول الله ﷺ يوصى أباك أن يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أطاعوه خيرهم ، فإن أحبوا أن يقيموا فى دارهم ويكونوا كأعراب المسلمين ،

ولا شىء لهم فى الفيء ولا فى الغنيمة إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، وإن تحولوا إلى دار الإسلام كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين .قال أسامة : هكذا وصية رسول الله ﷺ لأبى .

ولكن رسول الله ﷺ أمرنى ،وهو آخر عهده إلى ، أن أُسرِعَ السير ، وأسبق الأخبار وأن أشن الغارة عليهم بغير دعاء فأحرق وأخرب .

فقال بريدة : سمعا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ .

أوامر القائد أسامة قبيل المعركة :

فلما انتهى إلى أُبنى فنظر إليها منظر العين عبأ أصحابه وقال :

١ ـ لا تمعنوا فى الطلب .

٢ ـ ولا تفترقوا .

٣ ـ واجتمعوا .

٤ ـ وأخفوا الصوت .

٥ ـ واذكروا الله فى أنفسكم .

٦ ـ وجردوا سيوفكم .

٧ ـ وضعوها فيمن أشرف لكم .

وهى أوامر محددة مستقاة من التوجيهات النبوية الخاصة له رضوان الله عليه .

تنفيذ الخطة كاملة :

ثم دفع عليهم الغارة ، فما نبح كلب ، ولا تحرك أحد ، وما شعروا إلا بالقوم قد شنوا عليهم الغارة ينادون بشعارهم : يا منصور أمت ، فقتل من أشرف لهم ـ وسبى من قدر عليه وحرق فى طوائفهم بالنار ، وحرّق منازلهم وحرثهم ونخلهم ، فصارت أعاصير من الدخاخين . وأجال الخيل فى عرصاتهم ، ولم يمعنوا فى الطلب؛ أصابوا ما قرب منهم ، وأقاموا يومهم ذلك فى تعبئة ما أصابوا من الغنائم .

أسامة يقتل قاتل أبيه على فرس أبيه :

وكان أسامة خرج على فرس أبيه التى قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، كانت تدعى :

سبحة . وقتل قاتل أبيه خبَّرَه به بعض من سبى، وأسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك .

خذ معك الأدلاء وقدم العيون أمامك والطلائع :

فلما أمسوا أمر الناس بالرحيل، ومضى الدليل أمامه ، حويث العذرى ، فأخذوا الطريق التى جاء منها ودانوا ليلتهم حتى انتهوا بأرض بعيدة ، ثم طوى البلاد حتى انتهى إلى وادى القرى فى تسع ليال ، ثم قصد بعد السير فسار إلى المدينة ، وما أصيب من المسلمين أحد .

هرقل يجن جنونه لهذه الغارة :

(فبلغ ذلك هرقل وهو بحمص ، فدعا بطارقته فقال :

هذا الذى حذرتكم فأبيتم أن تقبلوه منى ، قد صارت العرب تأتى مسيرة شهر تغير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تكلم ، قال أخوه :

سأقوم فأبعث رابطة تكون بالبلقاء .

فبعث رابطة واستعمل عليها رجلاً من أصحابه ، فلم يزل مقيماً حتى قدمت البعوث من الشام فى خلافة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما) .

لقد تحول إمبراطور الروم من الهجوم للدفاع ، وكان جل همه ألا تتكرر الغارات عليه ، فوضع تلك الرابطة بالبلقاء تحرس الحدود خوفاً من الغزو الإسلامى .

معركة جانبية مفروضة :

(قالوا : واعترض لأسامة فى منصرفه قوم من أهل كثكث ـ قرية هناك ـ قد كانوا اعترضوا لأبيه فى بدأته، فأصابوا من أطرافه ، فناهضهم أسامة بمن معه وظفر بهم ، وحرق عليهم وساق نعماً من نعمهم ، وأسر منهم أسيرين فأوثقهما وهرب من بقى ، فقدم بهما المدينة ، فضربت أعناقهما .

عرس المدينة بعودة القائد الفتى أسامة :

قال : فحدثنى أبو بكر بن يحيى بن النضر عن أبيه : أن أسامة بن زيد بعث بشيره من وادى القرى بسلامة المسلمين ، وأنهم قد أغاروا على العدو فأصابوهم ، فلما سمع المسلمون بقدومهم خرج أبو بكر رضي الله عنه فى المهاجرين وخرج أهل المدينة ، حتى العواتق

سروراً بسلامة أسامة ، ومن معه من المسلمين ،ودخل يومئذ على فرسه سبحة كأنما خرجت من ذى خشب ، عليه الدرع ، واللواء أمامه يحمله بريدة حتى انتهى به إلى المسجد، فدخل ، فصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته معه اللواء .

وكان مخرجه من الجرف لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة فغاب خمسة وثلاثين يوماً؛ عشرين فى بدأته ، وخمسة عشر فى رجعته .

القائد المظفر ابن التاسعة عشرة :

(فحدثنى محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله ، قال : توفى رسول الله ﷺ وأسامة ابن تسع عشرة سنة ، وكان رسول الله ﷺ زوجه وهو ابن خمس عشرة سنة امرأة من طيئ ففارقها،وزوّجه ووُلِد له فى عهد رسول الله ﷺ ،وأولم رسول الله ﷺ على بناته بأهله) (١) .

ورضى الله تعالى عن أسامة فى الخالدين .

(١) المغازى للواقدى ٣ / ١١١٧ ـ ١١٢٥ .

ابتداء مرض رسول ﷺ ووفاته

الاثنين ٢٦ صفر :

نستمع إلى بداية تلك الليلة من عائشة رضوان الله عليها تقول :

ألا أحدثكم عنى وعن رسول الله ﷺ ؟ قلنا : بلى . قالت :

لما كانت ليلتى التى كان النبى ﷺ فيها عندى انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع ، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت ، فأخذ رداءه رويداً ، وانتقل رويداً ، وفتح الباب فخرج .

شيء لم يسبق أن فعله رسول الله ﷺ ، وطار صواب أم المؤمنين . أين يمضى فى هذا الليل البهيم ، وهذه ليلتى؟ لا يمكن إلا أنه ذاهب إلى بيت بعض نسائه ، فعلى من يطرق البيت فى هذا الليل ؟ ولم تتمالك أن تبقى فى فراشها لحظة واحدة .

(فجعلت درعى فى رأسى ، واختمرت،وتقنعت إزارى ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع ، فقام فأطال القيام ، ثم رفع يديه ثلاث مرات ، ثم انحرف فانحرفت ، فأسرع فأسرعت ، فهرول فهرولت فأحضر فأحضرت (١) ، فسبقته فدخلت ، فليس إلا أن اضطجعت فدخل . فقال :

« مالك يا عائش ؟ حشيا رابية (٢) » . قالت : قلت : لا شيء) .

إنها عملية ملاحقة كاملة ، بحثت عنه فوجدته فى البقيع ، وأطال الوقوف ، وشعرت بعظم خطئها وسوء ظنها ، واستصغرت نفسها بين اهتماماتها ، واهتمامات سيد ولد آدم رسول الله ﷺ ، كيف حاولت أن تخفى خروجها لكن أنى يُخفى ؟ (ثم نحرف فانحرفت ، فأسرع فأسرعت ، فهرول فهرولت ، فأحضر فأحضرت) وقاد هذا إلى لهاث جديد عندها ، وسرعان ما دخلت غرفتها وانسلت فى فراشها كأن لم تعمل شيئاً ، غير أن اللهاث قد أخذ منها مأخذه ، ودخل رسول الله ﷺ والفراش يصعد

---

(١) أحضر فأحضرت : الإحضار : العدو .

(٢) حشيا رابية : الحشا وهو الربو والتهييج الذى يعرض للمسرع فى مشيته ، والمحتد فى كلامه من ارتفاع النفس وتواتره .

ويهبط من لهاثها . فقال :

« مالك يا عائش : حشيا رابية ؟ » . قلت : لا شىء .

فقد تركها راقدة فى فراشها ، ولم يزعجها عند خروجه .

قال: « لتخبرنى أو ليخبرنى اللطيف الخبير» . قالت ، قلت : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى ، فأخبرته ، قال : « فأنت السواد الذى رأيت أمامى ؟ » قلت : نعم . فلهدنى (١) فى صدرى لهدة أوجعتنى ثم قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ . قلت : مهما يكتم الناس يعلمه الله . نعم .

قال: « فإن جبريل أتانى حين رأيت فنادانى فأخفاه منك ، فأجبته ، فأخفيته منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك،وظننت أن قد رقدت ، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحش ، فقال : إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فستغفر لهم » ، قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : « قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ورحم الله المستقدمين منا والمستأخرين و إنا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وكان لابد من هذه الضربة النبوية فى صدر جبيبته عائشة ، أن يخطر على بالها أن يمضى رسول الله ﷺ فى ليلتها إلى بيت من بيوت ضرائرها قائلاً لها : « أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ » لنرى بعد ذلك عظمة الخلق النبوى وهو يعرض القصة كاملة لهذا الخروج وأنها أمر من رب العزة بالاستغفار لأهل البقيع ،وخشية رسول الله ﷺ وحشتها إن خرج من البيت هو الذى دفعه لإخفاء أمر خروجه ، وأن جبريل ينادى رسول الله ﷺ من الخارج ؛ لأن عائشة قد وضعت ثيابها ، ولن يدخل جبريل عليها وهى كذلك ، أما الزيارة للقبور فيحدثنا أبو مويهبة رضي الله عنه حديث الهزيع الأول من الليل .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبى مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال : (بعثنى رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال لى : « يا أبا مويهبة ، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معى » .

فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال :

---

(١) لهده : دفعه .

« السلام عليكم أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى » (١).

فلأهل البقيع السابقين الأولين من المجاهدين حق من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم ، فهم أحبابه فى الدنيا ، وأحبابه فى الآخرة ، مضوا بين يدى رسول الله ﷺ ، ولم يشهدوا أى فتنة والمسلمون مقبلون على أعظم فتنة ، على وفاة رسول الله ﷺ ، وما يليها من فتن بعد ، ثم أقبل عليٍّ فقال :

« يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ، ثم الجنة خيِّرت بين ذلك ، وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة ». قال : بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح الحياة الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة . قال : « لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة » .

فقد ملك شوقه لربه عليه كيانه ، وقد أدى رسالته مع الناس ، وأتم الله عليه النعمة، وأكمل له الدين فهل يؤثر الخلد فى الدنيا على لقاء الله ؟ معاذ الله ، وهو أول المحبين لله فى الدنيا والآخرة وإمامهم فقد اختار لقاء ربه والجنة .

ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف . فبدئ برسول الله ﷺ بوجعه الذى قبض فيه) أى عظيم فى هذا الوجود أقلته الأرض تتصاغر أمامه كل عظمات الأرض بلغ من مقامه عند ربه أن يخبره بين خزائن الأرض كلها تكون له والخلد فيها ، ثم ينتهى مع انتهائها ويكون أعز أهلها فيها؟ فقد ملك مفاتيح خزائنها ، ولا ينقص هذا من أجره شىء ، ولا مقامه عند ربه شىء ، فله الجنة ولو اختار الموت ليمضى إلى ربه ، فله الجنة ،ورمى بمفاتيح خزائن الدنيا وراء ظهره ثم الجنة ، واختار رسول الله ﷺ لقاء ربه والجنة، فها هو قد ودع أهل البقيع مؤقتا.وما هى إلا قلائل،حيث يودع أعظم ذخيرة عنده فى الدنيا؛أصحابه،وأنصاره ، وأحبابه،وآله، يمضى إلى جوار الله جل جلاله .

وتم تنفيذ ما اختار فابتُدِئ بنقطة الانطلاق الأولى نحو الله تعالى ، ابتدئ بوجعه الذى قبض فيه .

نهار الاثنين ٢٧ صفر :

لقد مر على غزو تبوك قرابة سنة ونصف ، فقد عاد ﷺ منها فى أوائل رمضان سنة تسع ، ورأى المسلمون أن نصر الله قد غمر الأرض العربية كلها ،ودخل الناس فى

(١) مسلم (ح ١٠٣ ـ ٩٧٤) ص ٣٧٦ .

دين الله أفواجا ، وأن الجهاد قد ألقى عصاه ،فماذا بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها فى الإسلام، وخشى رسول الله ﷺ أن تتثاقل الأمة عن الجهاد .(ولم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه ، ووجد عليهم وجداً شديداً ، فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم،وأمرهم بالانكماش فى غزوهم ،فتفرق المسلمون من عند رسول الله ﷺ وهم مجدون فى الجهاد).

الثلاثاء ٢٨ صفر :

(فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد؛ يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر دعا أسامة بن زيد فقال: « يا أسامة سر على اسم الله وبركته ، حتى تنتهى إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك على هذا الجيش ») .

الأربعاء ٢٩ صفر :

(فلما كان يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر ، بدئ برسول الله ﷺ فصدع وحُمّ، وكان ابتداء وجعه ﷺ فى بيت ميمونة رضي الله عنها ، فقد روى ابن سعد من طريق عمر بن على بن أبى طالب قال : اشتكى رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر فاشتكى ثلاث عشرة ليلة ، ومات يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول) (١).

الخميس (١) ربيع الأول :

عقد رسول الله ﷺ لأسامة لواء ثم قال :

« يا أسامة ، اغز باسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا تمنوا لقاء العدو . . . ».

من الخميس (١) ربيع الأول إلى الأحد (٤) ربيع الأول :

المسلمون يستعدون للغزو ، ورسول الله ﷺ يتنقل بين نسائه وهو مريض (ثم قال رسول الله ﷺ لأسامة : « امض على بركة الله » فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة ابن الحصيب الأسلمى ،فخرج به إلى بيت أسامة ، وأمر رسول الله ﷺ أسامه فعسكر بالجرف ،وضرب عسكره فى سقاية سليمان اليوم ، وجعل الناس يجدون بالخروج إلى

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٤٧٤ ،(ح ٤٤٢٨) .

العسكر ، فيخرج من فرغ لحاجته إلى معسكره ، ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ ، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب فى تلك الغزوة ؛ عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى قاص وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى رجال من المهاجرين والأنصار عدة ، قتادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم بن حريش ، فقال رجال من المهاجرين : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ، فكثرت القالة عند ذلك . . .) .

الأحد (٤) ربيع الأول :

لقد حمل يوم الأحد إشارة خطيرة إلى ازدياد وجع رسول الله ﷺ ، وذلك من خلال استئذانه فيه أزواجه فى الاستقرار فى بيت واحد ، وصعوبة تنقله بين بيوتهن .

(فعن هشام بن عروة ، أخبرنى أبى عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه يقول : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث يشاء ، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها) (١) .

(وفى رواية يزيد بن بابنوس عن عائشة عند أحمد أنه قال لنسائه ﷺ : « إنى لا أستطيع أن أدور بيوتكن ، فإذا شئتن أذنتن لى ») (٢) ،وفى رواية ثالثة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لما ثقل رسول الله ﷺ ، واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذنَّ له) (٣) .

(وذكر ابن سعد بإسناد صحيح عن الزهرى : أن فاطمة رضي الله عنها هى التى خاطبت أمهات المؤمنين بذلك) (٤) .

الاثنين (٥) ربيع الأول :

(ففى رواية ابن أبى مليكة عن عائشة :أن دخوله بيتها كان يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين الذى يليه) (٥) .

أما دخوله عليها فتصفه رضوان الله عليها قائلة :

(لما ثقل رسول الله ﷺ ،واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه فى الأرض؛ بين عباس بن عبد المطلب وبين

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى (ح ٤٤٥٠) . (٢) فتح البارى ٨ / ٤٨٨ .
(٣) البخارى (ح ٤٤٤٢).
(٤، ٥) فتح البارى ٨ / ٤٨٨ .

رجل آخر ، قال عبيد الله فأخبرت عبد الله (ابن عباس) بالذى قالت عائشة . فقال لى عبد الله بن عباس ، هل تدرى من الرجل الآخر الذى لم تسم عائشة ؟ قلت : لا ، قال ابن عباس : هو على بن أبى طالب) (١) .

ولايزال أمر النبى ﷺ سراً لم يعلم به أحد ، وهو اشتداد وجعه ، وحرص رسول الله ﷺ على كتمانه حتى لا يعكر على المسلمين جو استعدادهم للجهاد والخروج إلى أرض الروم تحت إمرة أسامة بن زيد ولا تزال الأوامر النبوية تحث الناس على الخروج والجهاز والتأهب للمسير، لكن رسول الله ﷺ اختار أن يفشى سره لأحب خلق الله إلى نفسه إلى ابنته فاطمة رضي الله عنها ، وهو فى بيت أحب الناس إليه زوجه عائشة أم المؤمنين ، وقد أسعده رضا نسائه استئذانه ﷺ وبالاستقرار فى بيت عائشة رضوان الله عليها .

الثلاثاء (٦) ربيع الأول :

(عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دعا النبى ﷺ فاطمة عليها السلام فى شكواه الذى قبض فيه ، فسارها بشىء، فبكت ، ثم دعاها فسارها بشىء فضحكت . . .) (٢) .

وقد أصبح المصدر الرئيسى للأخبار اليوم عائشة ، فهو فى بيتها ﷺ وهى الناقلة الأمينة الثقة التى لا تدع شيئاً إلا وتحدثنا عنه ، فكان أن حدثتنا فى هذه الرواية عن دعوة فاطمة ، وها هى تفصل لنا فى حديث آخر تفاصيل هذا اللقاء الخطير المثير وذلك بعد قدومها لتلبية لدعوة أبيها الحبيب :

عن عائشة قالت : (كن أزواج النبى ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة ، فأقبلت فاطمة تمشى ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً، فلما رآها رحب بها فقال : « مرحباً بابنتى » ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم سارها فبكت بكاء شديداً ، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت ، فقلت لها : خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين) (٣) .

وفى رواية : فقلت لها: ما يبكيك ؟ فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ .

فقلت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن ، فقلت لها حين بكت : أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين ؟) وسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشى

---

(١) البخارى (ح ٤٤٤٢) . (٢) البخارى (ح ٤٤٣٤) .

(٣) البخارى (ح ٣٦٢٣) ، ومسلم ح (٢٤٥٠) .

سر رسول الله ﷺ حتى إذا قبض سألتها فقالت :

إنه حدثنى : أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة ، وأنه عارضه به فى العام مرتين « ولا أرانى إلا قد حضر أجلى وإنك أول أهلى لحوقاً بى ، ونعم السلف أنا لك» فبكيت لذلك : ثم إنه سارنى فقال :« ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين ـ أو سيدة نساء هذه الأمة » فضحكت لذلك) (١) .

إنه سر خاص برسول الله ﷺ أعطاه لابنته فاطمة لم يعرفه بعد أحد من الخلق،إنه سيتوفى وجعه الذى هو فيه ، ولقد اعتبرت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ أن اختيار رسول الله ﷺ لفاطمة أن تكون موطن سره من دون الناس أجمعين كاف لأن تكون أسعد خلق الله ، فكيف تبكى ، وقد اختارها رسول الله ﷺ لذلك؟ (فقلت لها : خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين؟) .

وبقيت عائشة رضي الله عنها تتحرق لتتعرف على هذا السر الذى أبكاها أولاً وأضحكها ثانياً، فقد كانت ترى فى فاطمة رضي الله عنها أنها أعلى من جميع نساء عصرها لكنها حين بكت وضحكت فى وقت واحد ، اعتبرت أنها مثل النساء ، لكنها عندما عرفت السر أدركت أنه فعلاً يحتاج البكاء ويحتاج الضحك فى آن واحد خلال مسارتين من سيد ولد آدم فإذا كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ،فهذه فاطمة الزهراء سيدة بنات آدم ، أو سيدة نساء أهل الجنة،أو سيدة نساء العالمين ـ حاشا مريم عليها السلام كما ورد فى نصوص أخرى ـ أفلا تضحك لذلك ؟ وهو سر إذن يخص نساء المؤمنين فى الأرض إلى قيام الساعة أن علمن من هى سيدتهن .

لكن العجب الذى لا ينقضى كذلك ، أن هذا السر لم تبثه فاطمة إلا لعائشة رضي الله عنها. وما الذى يدفعها لنشره وما أحد من الخلق يعرف به أو اطلع عليه ، وفاطمة توفيت بعد أبيها بستة أشهر ، فما الذى دفع بعائشة أم المؤمنين إلى كشف هذا السر وبثه للعالمين ، وليست مكلفة بذلك ؟ فلم يكن هو علم أعطاها إياه رسول الله ﷺ لنشره ، وإنما كتمه عنها ،وقد يكون هذا الكتمان مراعاة لمشاعرها من الغيرة ، لكننا أمام أعظم نساء الأرض بعد فاطمة وأمها خديجة ، والتى تعالت على عاطفتها، ونقلت مأثرة فاطمة الخالدة إلى الدنيا كلها ، وأنها خير منها ، ولولاها لما عرفنا ذلك السر ، أليس فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام أما ؟ ضرتها خديجة وابنة ضرتها فاطمة هى التى تنقل

---

(١) مسلم (ح ٢٤٥٠ ـ ٩٩)، والبخارى (ح ٦٢٨٥) .

لأهل الأرض عظمتهن وفضلهن ، وأنهما من النساء الأربع اللاتى كملن ، وهى ليست بينهن . هل فى الدنيا مثيل لذلك ؟

الأربعاء (٧) ربيع الأول :

(وكانت عائشة زوج النبى ﷺ تحدث : أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتى واشتد به وجعه قال : « هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن ؛ لعلى أعهد إلى الناس»، فأجلسناه فى مخضب لحفصة زوج النبى ﷺ ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب ، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن ، قالت : ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم) (١) .

رسول الله ﷺ يود أن يهيئ الناس لخبر وفاته ، وخاصة بعد أن اشتد به وجعه ويريد سيد الخلق الذى قال له ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم] أن يتحلل من أمته ، ويطلب السماح منها إن أساء إلى أحد منها ، ويريد أن يضع بين يديها بعض الخطوط العامة ، والوصايا الهامة . أما ما يخص الأمة كلها فقد قدمه فى حجة الوداع قبل قرابة ثمانين يوماً ،والمسلمون مائة ألف أو يزيدون،وألمح إلى أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا، واستشهدهم بقوله : « اللهم قد بلغت ،اللهم اشهد »، لكنه اليوم وعند اقتراب أجله ، وبين يديه قيادات الأمة من المهاجرين والأنصار ، لاشك أن لهم حديثاً خاصاً يختلف عن غيرهم ، فهؤلاء فيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر وأهل الحديبية ،والمهاجرون والأنصار جميعاً أصحاب رسول ﷺ ، والذين اتبعوهم بإحسان ، ولهذا طلب ابتداء من نسائه جميعاً أن يهرقن عليه سبع قرب ملأى لم تحلل أوكيتهن بعد، وسارعن للاستجابة ، ومخضب حفصة هو أنسب مكان لذلك ، ورحن يتسابقن لتلبية دعوة النبى ﷺ ، ليقمن بتغسيله أليس شرفاً عظيماً لكل واحدة منهن أن تشارك فى هذا الطلب وتفخر على نساء الأرض بهذه المشاركة ؟ و أمام هذا الاندفاع الكبير قال رسول الله ﷺ لهن : « حسبكم حسبكن » ، وأحس بنشاطه رغم شدة وجعه فخرج وأمامه هذه المهمة العظمى فى تبليغ هذه الرسالة إلى قيادات أمته ، ونعود إلى الطبرى .

الجولة الأولى :

عن ابن عباس عن أخيه الفضل بن عباس قال :

جاءنى رسول الله ﷺ ، فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه فقال :

---

(١) البخارى ، من حديث (٤٤٢٢) .

« خذ بيدى يا فضل » فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ،ثم قال : « ناد فى الناس»، فاجتمعوا إليه ،فقال: « أما بعد : أيها الناس فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم،فمن كنت جلدت له ظهراً ،فهذا ظهرى فليستقد منه،ومن كنت شتمت له عرضاً ، فهذا عرضى فليستقد منه ،ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب نفس ، وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مراراً) (١) .

لقد سمعنا عن عظماء الدنيا وقاداتها وساداتها وحكامها ،لكننا لم نسمع أبداً مثل هذا النموذج الخالد ، ولا عجب ولا غرابة فهو سيد الخلق و إمام الرسل وسيد ولد آدم، إنه وهو على المنبر يعلن أن ظهره جاهز للجلد لمن جلد ظهره ، وعرضه مباح لمن نال من عرضه ، وأن أحب الناس إليه من أخذ منه حقه ، وأنه يريد أن يلقى ربه ولا حق لمخلوق عليه فى مال، أو عرض ،أو أذى .

أى قلب هذا يسع أصحابه جميعاً ،ويدعو من له حق أن يأخذ حقه منه على المنبر. وهو دعوة مباشرة لكل حكام الدنيا وملوكها وساستها أن يفعلوا مع شعوبهم مثل ما فعل، فالسلطة والمنصب لا تبيح الظلم ولو بكلمة شتيمة ، ولو بلكزة بغير حق ، كما يدعو قادة العالم وسادته وحكامه أن ينصب تفكيرهم على ذاتهم ونجاتهم يوم القيامة فى تعاملهم مع شعوبهم لا أن ينصب على الحفاظ على السلطة بالتضحية بحقوق شعوبهم أو بشعوبهم كلها ، ولا يمسون بسوء .

ويعلم ﷺ أن البشر لا يمكن أن يتصوروا جدية هذه العدالة من حاكم فى الأرض؛ ولهذا يؤكد : « وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم مراراً » وذلك ليجرئهم على المطالبة بهذه الحقوق إن كان لها وجود .

الجولة الثانية :

ولم تثمر الجولة الأولى شيئاً . وكانت الجولة الثانية :

(قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، فعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها،فقام رجل فقال : يا رسول الله ، إن لى عندك ثلاثة دراهم. قال : « أعطه يا فضل » فأمره فجلس ،ثم قال : « أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة »،

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٢٧ .

فقال رجل فقال : يا رسول الله عندى ثلاث دراهم غللتها فى سبيل الله ، قال : «ولم غللتها؟» قال : كنت إليها محتاجاً ، قال : «خذها منه يا فضل »، ثم قال :

« يا أيها الناس من خشى على نفسه شيئاً ، فليقم أدْعُ له » . فقام رجل فقال :

يا رسول الله ، إنى لكذاب ،وإنى لفاحش ، وإنى لنؤوم ، فقال :

« اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً ، وأذهب عنه النوم إذا أراد » .

ثم قام رجل فقال :

والله يا رسول الله ،إنى لكذاب وإنى لمنافق ، وما من شىء إلا جنيته .

فقام عمر بن الخطاب ،فقال : فضحت نفسك أيها الرجل ، فقال النبى ﷺ :

« يا بن الخطاب ،فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصبراً ، وصير أمره إلى خير » ، فقال عمر كلمة،فضحك رسول الله ، ثم قال:« عمر معى ، وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان » (١) .

بعد أن استبرأ رسول الله ﷺ لدينه وعرضه عاد ليدفع الناس أن يكونوا كذلك ويقتدوا به ، لكنه قبل الانتقال إلى هذه الجولة ـ وبعد أن صلى بالناس الظهر ـ عاد إلى المنبر ثانية ، وهذا ما لم يألفه المسلمون ورسول الله مريض دنف ، عاد ليؤكد للناس ما أكده أولاً: « ألا إن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى» ، وذلك ليفى بما وعد به أن يعود مراراً إلى الموضوع ، وهو أخذ حق الأمة من نبيها وقائدها ، مؤكداً أن هذا الأمر لو تم لا يغير من قلب رسول الله ﷺ ؛ لأن قلبه الشريف أطهر قلوب بنى آدم ، لا يمكن أن يشتمل على الشحناء والبغضاء أبداً ،بل عنده الصورة المعاكسة أن يكون أحب الناس إليه من أخذ حقه منه أو سامحه فيه ؛ ليلقى ربه عز وجل نظيفاً من حقوق العباد ، ونتيجة هذا الإلحاح والرغبة تشجع رجل من المسلمين وطالب بثلاثة دراهم كانت له عند رسول الله ﷺ،وبدون أن يتحقق رسول الله ذلك قال:«أعطه يا فضل» .

وكانت الجولة الثانية : وهى أن يدفع الأمة إلى هذا التحرى وهذا التسامى فيعلن من أكل حقاً أو جار على مسلم أو آذى أخاه أن يقوم ليضع ظهره وعرضه تحت تصرف نبيه ليقتاد منه خصمه ، وكما تجرأ فى الجولة الأولى رجل واحد فقد تجرأ فى الجولة الثانية واحد وقام فقال :

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٢٧ .

يا رسول الله ، عندى ثلاثة دراهم غللتها فى سبيل الله .

إنها تربية كاملة للأمة على المنبر ، وعلى الملأ ، يشهدها كل أفراد الأمة ، وكل قياداتها ، ولم يكتف رسول الله ﷺ هنا بقول الرجل ، بل سأله : لم غلها ؟ إنها الثلاثة دراهم هنا وهناك ، فهناك تعطى لصاحب الحق وهنا تعود لبيت المال ، بعد أن علم أن الرجل غلها للحاجة .

الجولة الثالثة :

إنه إمام الرسل وطبيب القلوب ، وهى فرصة لن تتكرر ، ووجد نفسه مقاداً إليها عليه الصلاة والسلام خوفاً من ربه عز وجل أن يكون قد أخل خلال حياته بحق فرد من هذه الأمة ، وخوفاً على هذه الأمة وحباً لها أن تنقذ نفسها من النار بتصاف الحقوق بين أفرادها ، أما الجولة الثالثة ، فكانت الفرصة الذهبية الأخيرة لأبناء الأمة ؛من أراد أن يفوز بدعوة صالحة له من رسول الله ﷺ ؟ .

ثم قال :« يا أيها الناس من خشى من نفسه شيئاً فليقم أَدْعُ له » .

وهو على غير المنهج السابق :

«من أتى من هذه القاذورات شيئاً فليستتر ».

أما اليوم ، فلعل هذه الدعوة النبوية قبل الوفاة تصيب فرداً من أفراد الأمة فتنقذه من الهلاك ، وهو من جهة ثانية بناء نفسى وتكوين نفسى جديد ، أن يكون الحق أعز من النفس وأعز من الشهرة ، والرغبة فى الخير أشهى من التستر على الشر ، واستجاب رجلان لهذه الدعوة :

فقام رجل، فقال : يا رسول الله ، إنى لكذاب، إنى لفاحش ، إنى لنؤوم .

كيف كان هذا الإنسان قبل قيامه وإعلانه؟ وكيف صار بعد دعاء رسول الله ﷺ له؟ إنه قام وقد استحثت هذه الكلمة النبوية كل جوانب الخير فى نفسه ، وحطمت كل دواعى التملق الكاذب الذى يظهر فيه أمام الناس ،وأعلن فاضحاً نفسه : يا رسول الله، إنى لكذاب ، إنى لفاحش ، إنى لنؤوم .

ليس رغبة بفضوح الدنيا ، ولكن طمعاً فى أن تناله دعوة من سيد الخلق ، فتغير بناءه كله ،فقال :

« اللهم ارزقه صدقاً ـ وذلك مقابل وصفه نفسه الكذاب ـ وإيماناً ـ مقابل وصفه نفسه الفاحش ـ وأذهب عنه النوم إذا أراد ـ مقابل وصفه نفسه النؤوم » ، وكم كانت

الحكمة النبوية الخالدة فى الدعاء له « وأذهب عنه النوم إذ أراد »، فلو لم يكن الاستثناء هذا « إذا أراد » لكانت الكارثة الكبرى عليه أن يفقد النوم طيلة حياته .

وتشجع المسلم الثانى ، فقام من الجانب الآخر من المسجد فقال :

والله يا رسول الله، إنى لكذاب ، وإنى لمنافق ، وما من شيء إلا وجنيته .

فلم يكن هناك أفحش من هذا الوصف لنفسه كذاب ومنافق ومرتكب لكل الفواحش ، ولم يتمالك عمر رضي الله عنه، ويلا وعى منه أن يقول للرجل :

فضحت نفسك أيها الرجل .

وكاد الدرس التربوى أن يذهب ، فحتى لا تتم الفضيحة ، لن يقوم أحد بعده ، وتدارك سيد ولد آدم الأمر ، واتجه إلى وزيره قائلاً :

« يابن الخطاب ، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

فلا يجوز أن تفوت هذه الفرصة التى لن تتكرر بعد الآن وهى الفوز بدعاء رسول الله ﷺ وهو على أهبة الموت ، لكن عمر لا يدرك ذلك ، وكان الرد علنيا على الوزير الثانى ، وتابع بعدها ﷺ الدعاء للرجل :

« اللهم ارزقه صدقاً (مقابل الكذب) وإيماناً (مقابل النفاق) وصير أمره إلى خير (مقابل ما من شيء إلا جنيته) » .

ليست التربية للأفراد ، إنما التربية للقادة فلا أحد فوق التربية ، ولا ندرى الكلمة التى قالها عمر ، ولا شك أنها لوم لنفسه على التقدم بين يدى رسول ﷺ أضحكت رسول الله ﷺ ، واختارها رسول الله مناسبة لتعريف الناس بهذا الوزير العظيم وحقه للأمة ، فهو من المخطط أن يعرف الأمة بقياداتها الكبرى ، فقد سبق وعرفها بسعد ، وسبق وعرفها بعلى وهذه فرصة مناسبة ليعرفها بعمر ، حتى لا يفهم عامة الناس أن هذه الكلمة تنقص من قدر العبقرى الفاروق العظيم ، ثم قال :

«عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان ».

ويالـه من مجد تليد ساقه رسول الله ﷺ لجنديه عمر بن الخطاب ، على الأمة أن تتعرف عليه وتؤمن به ، فعمر ورسول الله ﷺ لهما المعية الواحدة فى الحياة ، وعندما تفقد الأمة نبيها ورسولها محمداً ﷺ ، فعلم الهدى لهذه الأمة عمر .

«والحق بعدى مع عمر حيث كان» .

الجولة الرابعة :

(عن أيوب بن بشير : أن رسول الله ﷺ خرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، وأكثر الصلاة عليهم ثم قال :

«إن عبداً خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء،وبين ما عنده فاختار ما عنده». قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر ، قال : فديناك بآبائنا،وأمهاتنا فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ،يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله تعالى أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول : فديناك بآبائنا ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا) (١) .

ثم قال رسول الله ﷺ :« إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لايبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر ») (٢) .

وكان لا بد من تهيئة النفوس للوداع الأخير .

فافتتح رسول الله ﷺ حديثه عن شهداء أحد ، والاستغفار لهم والصلاة عليهم ، وهى نقلة نفسية حسية بعيدة إلى أجواء أحد وإلى أجواء الشهادة وإلى أجواء اللحظات الحاسمة الرهيبة التى قيل فيها : قتل رسول ﷺ ، وكيف انقلب المسلمون على أعقابهم وثبت القليل منهم ؟ .

وعودة إلى أجواء الآية الكريمة : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] . إنه تذكير بالموت أو القتل وليس الموت العادى لامرئ من الناس إنه الموت لمحمد ، لسيد الخلق ، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ؟ ﴾ .

وأتبعها رسول الله ﷺ بقوله :

« إن عبداً خيره الله تعالى أن يؤتيه من زهرة الحياة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده فاختار عنده »، قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر .

لقد أدرك الصديق رضي الله عنه ببصيرته النافذة وإيمانه الراسخ أن هذا لن يكون لأحد من

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه وهو عند البخارى (ح ٣٦٥٤).

الخلق إلا لرسول الله ﷺ ، وها هو قد اختار ما عند الله ، واختار مغادرة الحياة الدنيا وزهرتها ، واختار جوار ربه ، فبكى ،وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا .

لقد كان الصديق يعيش بحسه وأعصابه أجواء البيت النبوى ، وأجواء الانتقال للتمرض عند عائشة ، وأجواء المرض الشديد الذى نزل بحبيبه المصطفى ﷺ ، ويرى ملامح الموت قادمة ، فبقيت فى وعيه للمستقبل القادم ، وجاءت هذه الخطبة إعلاناً رسمياً بأن هذا مرض الموت ،وأن الأمر قد بت فيه وأن رسول الله ﷺ خُيِّرَ فاختار ، وأنه ماض إلى ربه ، وأنه مودع هذه الحياة الدنيا ، وما هذه الخطبة إلا إيذاناً بذلك ، وتعجب الناس للشيخ يبكى ويقول : نفديك بآبائنا وأمهاتنا ، ما علاقة هذا البكاء وهذا الكلام بالحديث عن العبد المخير بين زهرة الحياة الدنيا ، وبين لقاء الله تعالى واختيار ما عنده ؟ وختم أبو سعيد رضي الله عنه حديثه بقوله:

(فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا) .

وكما كانت مناسبة استهلها عليه الصلاة والسلام بالحديث عن وزيره الثانى رضي الله عنه ساعة تقحَّمَ الحديث وقال للرجل :فضحت نفسك أيها الرجل ، فهذه مناسبة غالية لالتقاط كلمة الصديق : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ليعرف الأمة بحق وزيرها الأول بحق الصديق ، فقد توجهت أنظار الناس كلهم للصديق وهو يزرف الدموع الحرى . وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ؛ ليسمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقول :

« إن من أمنّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر » ؛ فأبو بكر رضي الله عنه هو مخزن الدعوة، وهو صاحب المصطفى ﷺ بنص القرآن الذى لم ينص لأحد غيره ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

ويرضى سيد الخلق أن يقول عنه :« إن من أمنّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر » ولو كان أحد من الخلق أهلاً لأن يكون خليلاً لرسول رب العالمين لكان أبو بكر ، فهو الذى ارتفع إلى هذه القمة ، ولم يرق إليها أحد ، ولكن الله تعالى اختار رسوله خليلاً عن الخلق كافة ، إنما هى أخوة الإسلام ومودته ، وأدرك الناس أن الصديق قد رقى إلى مقام لم يصله بشر بعد النبيين والمرسلين ، وتعبيراً عن هذا المرقى، قال عليه الصلاة والسلام :« لا يبقين فى المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبى بكر » .

وفى رواية :« انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة فى المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبى بكر فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل عندى فى الصحبة يداً منه » (١) .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٢٧ .

الجولة الخامسة :

ثم أوصى بالأنصار قائلاً .

« أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتى وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ») (١) وفى رواية أنه قال:

(« إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار حتى تكون كالملح فى الطعام ، فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ») (٢) .

فالأنصار هم جيل العطاء لا الأخذ ،والجيل الذى قدم كل شيء بلا مقابل ، ولا ثمن إلا الجنة .

قال : « تمنعونى مما تمنعون منه أزركم وأولادكم ؟»، قالوا : يا رسول الله ، فما لنا إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة ». قالوا :ربح البيع ،لا نقيل ولا نستقيل .

«فإنهم كرشي وعيبتى» أى: بطانتي وخاصتى ، وموضع سره وأمانته .

لقد كان هذا الإعلان بمثابة توصية خاصة للأمة بأحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

لقد أوصى بأحب الأفراد إليه ؛ بأبى بكر الصديق،وها هو يوصى بأحب الجماعات إليه كما فى نص الحديث النبوى ، فعن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ معها صبى لها ، فكلمها رسول الله ﷺ فقال : « والذى نفسى بيده، إنكم أحب الناس إلى » مرتين (٣) .

وجعل حبهم علامة الإيمان ، وبغضهم علامة النفاق :

فعن أنس أن النبى ﷺ قال : « آية الإيمان حب الأنصار ،وآية النفاق بغض الأنصار » (٤) .

فلا عجب أن تكون آخر وصاته ﷺ على المنبر هى بالأنصار خاصته وأهله .

ولم يكن يدر بخلد المسلمين بعد هذه الوصايا والخطب أن هذا هو آخر مقام رسول الله ﷺ على المنبر كما يقول، أنس رضي الله عنه: (مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون. فقال:ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس رسول الله منا ، فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك ، قال : فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه

(١) البخارى (ح ٣٧٩٩) .
(٢) البخارى (ح ٣٨٠٠) .
(٣) البخارى (ح ٣٧٨٦) .
(٤) البخارى (ح ٣٧٨٤) .

حاشية برد ، قال : فصعد المنبر ، ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بالأنصار » (١) ،ولا يبعد أن يكون هذا صعوداً ثانياً بعد الصعود الأول والجولات الأربعة ؛ وذلك حين أحس الأنصار أن رسول الله ﷺ قد دنا أجله .

الخميس (٨) ربيع الأول :

يحدثنا ابن عباس عن يوم الخميس فيقول :

يوم الخميس ، وما يوم الخميس ؟! اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال : « ائتونى أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً » .

فتنازعوا ـ ولا ينبغى عند نبى تنازع ـ فقالوا : ما شأنه ؟ أهجر ؟ استفهموه ؟ فذهبوا يردون عليه فقال : « دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعوننى إليه »، وأوصاهم بثلاث :

« أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» ، وسكت عن الثالثة أو قال : فنسيتها (٢) .

ويحدثنا عن هذا الاختلاف فى رواية أخرى فيقول :

لما حضر رسول الله ﷺ ـ وفى البيت رجال ـ فقال النبى ﷺ : « هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » .

فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك،فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ:«قوموا».

قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم) (٣) .

فلا يزال أمر الأمة هو الشغل الشاغل لرسول الله ﷺ ، ويخشى الاختلاف على الأمة وبعد أن أبلغهم أمس على المنبر ما يود إبلاغهم إياه ، ها هو يطلب اليوم أن يكتب لهم كتاباً لا يختلفوا بعده . وحالة المعاناة النبوية دفعت بفريق من المؤمنين أن يخففوا

---

(١) البخارى (ح ٣٧٩٩).

(٢) البخارى (ح ٤٤٣١) .

(٣) البخارى (ح ٤٤٣٢) .

عـن رسول الله ﷺ ألمه من خلال الكتابة خاصة وأنهم يرونه يغمى عليه ﷺ ، وفريق آخر يرى الاستجابة للطلب النبوى ،وأمام هذا الاختلاف والتنازع أمرهم رسول الله ﷺ أن يقوموا عنه. واكتفى بكتاب الله بينهم ، وكان ابن عباس رضي الله عنه يرى ضرورة الاستجابة الملحة من المؤمنين لطلب رسولهم عليه الصلاة والسلام ، وكان يعتبر المصيبة الكبرى هو هذا الاختلاف الذى حال دون هذا الكتاب،تشير بعض الروايات إلى أنه رضي الله عنه بكى بكاء مراً وهو يذكر هذا الحديث .

زاد فى أواخر الجهاد من هذا الوجه : ثم بكى حتى خضب دمعه الحصى ، كما تشير بعض الروايات الأخرى إلى أن عمر رضي الله عنه كان من الفريق المكتفى بكتاب الله حتى لا يثقل على النبى ﷺ ، لكن النبى ﷺ واستبدل ذلك بوصايا ثلاث ، نقل لنا منهما اثنتان :

« أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد على نحو ما كنت أجيزه ».

فرسول الله ﷺ يوصى أمته من بعده أن تكون جزيرة العرب حصن الإسلام ومركزه الرئيسى وخالصة للمسلمين وحدهم لقد أنهى رسول الله ﷺ مظاهر الشرك كلها من جزيرة العرب ،لكنه يطالب أمته من بعده أن يخرج المشركون نهائياً منها ؛ فهى قلعة التوحيد فى الأرض، وهو لم يفرض على المشركين الإسلام إنما أفسح لهم الأمر إذا لم يختاروه أن يغادروها إلى مكان آخر بعد أن اختارها الله تعالى مهداً للرسالة الخاتمة والنبى الخاتم، ومركزاً لانطلاقة الإسلام وسياحته فى الأرض .

والعجب أن تقرن إجازة الوفد بإخراج المشركين ، فهل له من الأهمية ما للأمر الثانى ؟ نعم ،فالإسلام الذى يدع قاعدته خالصة للمسلمين ولشريعة الله . ها هو عليه أن يستقبل وفود الأرض ويحسن استقبالهم ، فيشرح لهم مبادئ الدعوة ويكرمهم وهو يقدم لهم هذه المبادئ لقد رأينا رسول الله ﷺ قد أعد لباسًا خاصاً للوفود ، ودارا خاصة للضيافة والمنزل ،وفتح الباب واسعا للدور الإضافية ، فليس المهم الانغلاق بهذا الدين بعد وفاة المصطفى ﷺ بل الانفتاح به على أمم الأرض .

ويلحظ من خلال العرض والشروح فى روايات أخرى: أن الفهم العام الذى ساد للرغبة النبوية الخالصة بكتابة الكتاب هو تحديد الخليفة من بعده ، وهو استنتاج راجح وليس استنتاجا قاطعا، ونحن مع عمر رضي الله عنه الذى يحمل الأمة مسؤولية أمرها ،فهى

راشدة واعية ، وإن مضى عنها سيد الخلق فقد تركها رشيدة قادرة على تدبير أمرها . وليست عاجزة عن ذلك .

أما الوصية الثالثة فقد اختلفت الآراء فيها كما يقول ابن حجر رحمه الله :

(قال الداودى : الثالثة : الوصية بالقرآن وبه جزم ابن التين ،وقال المهلب : بل هو تجهيز جيش أسامة، وقواه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على أبى بكر فى تنفيذ جيش أسامة قال لهم أبو بكر : إن النبى ﷺ عهد بذلك عند موته ، وقال عياض : يحتمل أن تكون هى قوله : «لا تتخذوا اقبرى وثناً » فإنها ثبتت فى الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود ، ويحتمل أن يكون ما وقع فى حديث أنس أنها قوله :« الصلاة وما ملكت أيمانكم ») (١) .

خرج الناس عن رسول الله ﷺ واشتد وجع النبى ﷺ ، وفتاتنا عائشة رضي الله عنها ابنة التاسعة عشرة لا تدرى ما تفعل ، لكنها تذكر أن رسول الله ﷺ وسلم كان إذا نزل به الوجع نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده ، فماذا تفعل ؟ وأين بركة يدها من يد حبيبها المصطفى صلوات الله عليه ؟ إن قلبها الحانى لا يحمل ثقل هذه المصيبة ، ولم تعرف مثل هذه المعاناة من قبل،وقد اختار حبيبها رسول رب العالمين أن يتمرض عندها ، مؤثراً إياها على ضرائرها جميعاً رغم أنهن ذوات خبرة أكثر منها فى عمرهن وتجاربهن ، وترى رسول الله يصعب عليه الكلام . وانقدح ذهنها عن حل ممتاز ؛ هى تقرأ المعوذات وتأخذ بيد حبيبها فتمسح بها وجهه ورأسه ، فتنال بركة يده وتخفف عنه بالقراءة ،تحدثنا عن هذه التجربة فتقول كما يحدثنا عروة ابن اختها :

أخبرتنى عائشة رضي الله عنها:أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ،فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه ،طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التى كان ينفث وأمسح بيد النبى ﷺ عنه) (٢) .

وفى رواية معمر :(وأمسح بيده نفسه لبركتها) وفى رواية مالك:(وأمسح بيده رجاء بركتها) ولمسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : (فلما مرض مرضه الذى مات فيه جعلت أنفث عليه،وأمسح بيده نفسه؛لأنها كانت أعظم بركة من يدى) (٣) .

ومع هذا كان ﷺ يخرج للصلاة ، فقد خرج لصلاة العصر ، ثم خرج لصلاة

---

(١) فتح البارى لابن حجر ٨ / ٤٨٠ .
(٢) البخارى (ح ٤٤٣٩) .
(٣) فتح البارى ٨ / ٤٧٦ .

المغرب بصعوبة ، وقرأ بالمرسلات عرفا .

ولم يكن يدور بخلد أحد ، أنها المرة الأخيرة التى يسمع فيها الناس صوت نبيهم ﷺ كما لم يدر بخلدهم أنها المرة الأخيرة أمس التى يرون فيها حبيبهم ﷺ على المنبر .

تحدثنا أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوج العباس بن عبد المطلب كما نقل ابنها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قالت : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفا ، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله) (١) .

وحتى صلاة المغرب،فالأمة كلها تعيش مأساة مرض نبيها ، وترى اشتداد مرضه ، لكن القليل جداً منهم من خطر خاطر الموت على قلبه ، وكان عمر رضي الله عنه من طرد خاطر موت النبى ﷺ على قلبه كلما ورد .

فهو الذى لا يرى ضرورة كتابة الكتاب من النبى ﷺ ؛ لأنه مقيم معهم ، وهو عجب لبكاء أبى بكر يوم تحدث رسول الله ﷺ عن رجل خيره الله تعالى بين زهرة الحياة الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ، وهو الذى احتج على ذلك الرجل الذى قام يفضح نفسه بين يدى النبى ﷺ وهو على المنبر فلم يفعل ذلك ؟ وأى جديد اقتضى هذا الحديث والفضوح ؟ وما خطر بذهنة أن تكون هذه هى المرة الأخيرة التى يرى فيها حبيبه المصطفى ﷺ على المنبر،نعم اشتد وجعه،لكنه سيعافى ويدير أمر المسلمين إلى أن كانت المفاجأة الكبرى التى هزت المدينة ليلة الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول .

الجمعة (٩) ربيع الأول :

وعند العشاء زاد ثقل المرض بحيث لم يستطع الرسول ﷺ الخروج إلى المسجد (قالت عائشة : فقال النبى ﷺ : « أصلى الناس ؟ » ، قلنا : لا يا رسول الله ، وهم ينتظرونك قال : «ضعوا لى ماء فى المخضب ». ففعلنا فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمى عليه . ثم أفاق فقال :« أصلى الناس ؟»، قلنا :لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله، فقال : « ضعوا لى ماء فى المخضب» ، ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق . فقال :« أصلى الناس ؟» قلنا : لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله ، فقال : « ضعوا لى ماء فى المخضب » ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال: « أصلى الناس ؟ »،قلنا : لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله . قالت : والناس عكوف فى المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة . . .) (٢) .

---

(١) البخارى (ح ٤٤٢٩) .

(٢) مسلم (ح ٤١٨) ص ١٧٨ .

وندع تتمة الحديث الآخر عن عائشة رضي الله عنها يقدم لنا تفصيلاً مثيراً ومحببا من جانب آخر:

(عن عائشة قالت : لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» ، فقلت : يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيف (١) وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمراً فليصل بالناس ، قالت : فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمعه الناس فلو أمرت عمر ، فقالت له ، فقال رسول الله ﷺ : « وإنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » ، قالت : فأمروا أبا بكر يصلى بالناس) (٢) .

ونعود ثانية إلى الحديث السابق :

(قالت : فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى بكر أن يصلى بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقاً : يا عمر ، صل بالناس ، فقال عمر : أنت أحق بذلك ، قالت : فصلى بهم أبو بكر فى تلك الأيام ، ثم إن رسول الله ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر . وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه النبى ﷺ الا يتأخر ، وقال لهما : « أجلسانى إلى جنبه»، فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، وكان أبو بكر يصلى بالناس وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر ، والنبى ﷺ قاعد) (٣) .

وتنقل لنا عائشة رضوان الله عليها خبايا نفسها فى مراجعة النبى ﷺ بصلاة أبيها فى الناس (فعن عبيد الله بن عبد الله بن مسعود أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت :

لقد راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبدا، وإنى كنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبى بكر) (٤) .

إنه تطور كبير فى مرض النبى ﷺ حيث يحاول مرات ثلاث أن يخرج إلى الصلاة؛ يغتسل ليتنشط ولا يستطيع ذلك ، إنها المرة الأولى فى حياته ﷺ التى لا يخرج فيها إلى الصلاة ليؤم الناس ، والأمة كلها مجتمعة تنتظر خروجه ، ولأول مرة تصدر

---

(١) أسيف : سريع الحزن والبكاء .

(٢) مسلم (ح ٩٥ ـ ٤١٨) ص ١٧٩ .

(٣) مسلم (ح ٩٠ ـ ٤١٨) ص ١٧٨ ، والبخارى (ح ٦٨٧) . (٤) مسلم (ح٤١٨) ص١٧٩ .

الأوامر أن يصلى أبو بكر رضي الله عنه بالناس ولا شك أن القلق والفزع انتاب الجميع ؛ فبين البيت النبوى والمسجد خطوات ، وهذا يعنى أن المرض قد أخذ مداه ، ولكن الأزمة لم تستمر طويلاً ، فها هو يخرج عليه الصلاة والسلام بعد أن دخل الناس فى الصلاة ، وَهمَّ أبو بكر أن يتراجع ، فأشار له رسول الله ﷺ بالبقاء مكانه ، وصلى عليه الصلاة والسلام جالساً ؛ أبو بكر يأتم به ، والمسلمون يأتمون بأبى بكر ، وعرف الناس مَنْ إمامهم إذا غاب رسول الله ﷺ . والشيء الذى راود نفوس الكثير منهم ظهر الخميس حول الكتاب والتكهنات عن الخليفة من خلاله قد تبدد الآن ؛ فرسول الله ﷺ إمامهم فى الصلاة وفى الحكم ، فمن الطبيعى أن يكون أبو بكر كذلك .

لكن عائشة رضي الله عنها تنظر للقضية من جانب آخر ، ولا تنظر إليه من باب سعادتها باختيار رسول الله ﷺ لأبيها على الناس جميعاً . إنما تنظر إليه من أن الناس يتشاءمون من أبيها ،فمنذ أن صار إماماً فَقَدَ الناس رسولهم وحبيبهم وحياتهم وصفيهم رسول الله ﷺ ، وأى عظيم مهما كان شأنه ما هو إلا ذرة تائهة أمام عظمة سيد الخلائق أجمعين ، ولن يحب الناس من يأتى عوضاً عن رسول الله ﷺ ، لكنها لا تجرؤ على أن تعلن هذه المشاعر ، فتلجأ إلى سبب ظاهرى تدعى أنه هو الذى يحركها .

وتناقش رسول الله ﷺ به وتدفع حفصة دفعاً إلى المناقشة به ؛ وهو أن أبا بكر رجل أسيف أى : سريع الحزن والبكاء تغلبه الدمعة ، فلا يسمع الناس صوته ، ويسمع النبى ﷺ الحجة وليس على وضعة العادى ليناقش ويقنع فاكتفى بتكرار الأمر،وعادت المناقشة من حفصة رضي الله عنها واكتفى ﷺ بتأنيبهن بقوله: « إنكن صواحب يوسف ». اللاتى تواطأن على اتهامه . حتى صرف الله كيدهن .

وأحست حفصة أنها ضحية دفع عائشة لها ، لتتجرأ على عرض فكرة ضرتها عائشة أن يكون عمر هو الإمام .

ومضى المسلمون إلى بيوتهم ، والهم والألم يعتصرهم اعتصارا، ترى هل يفتقدون رسول الله ﷺ ،ومن أجل ذلك تم اختيار أبى بكر بوجود النبى ﷺ ؟ وقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً ، ولما كان صباح الجمعة خرج على بن أبى طالب من عند رسول الله ﷺ ، فتهافت الناس يسألونه عن رسول الله ﷺ ، فبشرهم أنه بخير ، لكن العباس عم النبى ﷺ كان أبعد غوراً وأعمق نظراً من ابن أخيه على ، ورأى صلاة أبى بكر بالناس ، فأراد أن ينهى أمراً يحس به فى أعماقه ، ويسأل عنه ابن أخيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، وندع شرح هذا الأمر لابنه عبد الله كما حدث به

عبد الله بن كعب بن مالك :

(أن ابن عباس أخبره أن على بن أبى طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى أرى رسول الله ﷺ سيتوفى فى وجعه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ فسله فيمن يكون هذا الأمر ؟ فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا ، قال على : والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ، والله لا أسألها رسول الله ﷺ أبداً) (١) .

إن عباس ـ رضوان الله عليه ـ بخبرته الطويلة فى حياته يدرك الجانبين ؛ الشخصى والسياسى فى هذه القضية فخبرته الشخصية :يعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، ووجه رسول الله ﷺ هو كذلك ، وليس بارئاً كما توهم على رضي الله عنه ، بل يدرك العباس أن الأمر جد قريب (إنك عبد العصا بعد ثلاث) عندئذ لا يمكن سؤال رسول الله ﷺ عن شىء .

أما الجانب السياسى ، وعمق نفاذ بصيرته وبصره فى الأمر : أن يسأل ابن أخيه محمداً ﷺ عن الخلافة إن كانت فى بنى هاشم أو غيرهم ، فإن كانت الخلافة فيهم اطمأنوا لذلك وعلموا علم اليقين هذا الأمر ، وإن كانت فى غيرهم أوصى رسول الله ﷺ الأمير بهم فهم أهل النبى وخاصته .

لكنْ لعلى رضي الله عنه اجتهاد آخر ، لا يقل عمقاً ونفاذاً عن اجتهاد عمه ، فهو يُصِرُّ على ألا يسأل رسول الله ﷺ عن الأمر ، فهو أمر دنيوى قابل للاجتهاد ، ولو كان أمراً شرعياً لما انتظر رسول الله ﷺ حتى يسأل ليجيب عنه ، وليترك الأمر لاختيار المسلمين واجتهادهم ..

(والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا) .

لكنه أخذ بفقه عمه من حيث معرفته الموت فى وجوه أهله ، فهو يرى أن المرض قد اشتد برسول الله ﷺ إلى درجة أن غدا أبو بكر رضي الله عنه يصلى بالناس،ولم يدر بخلده أن فاطمة زوجة الحبيب قد بثها أبوها ﷺ سره ، وأنه متوف من مرضه هذا ، وما كانت

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٢٩ ، والسيرة النبوية لابن هشام .

لتفشى سر رسول الله ﷺ حتى لزوجها الحبيب على بن أبى طالب .

لقد مر يوم الجمعة والسبت ، والناس فى قلق وبلبلة لا مثيل لهما ، والكثير منهم يتأهبون للخروج مع أسامة رضي الله عنه، ويستعدون للمغادرة إلى مجاهيل الأرض فى الشام ، ومعهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ترى ألا يستحق هذا الأمر مراجعة بعد هذا التطور الكبير من صلاة أبى بكر بالناس ؟

السبت (١٠) ربيع الأول ـ قبل الوفاة بيومين :

بعد صلاة أبى بكر رضي الله عنه بالناس يوم الجمعة ، ازدادت البلبلة فى قضية الجيش ، وتكلم بعض قيادات المهاجرين فى قيادة أسامة الفتى ابن التاسعة عشرة لهذا الجيش الذى اكتتب فيه كبار المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم.

(وكان أشدهم فى ذلك قولاً عياش بن أبى ربيعة : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ، فكثرت القالة فى ذلك ، فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول ،فرده على من تكلم به ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقول من قال ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه [١] . ثم قال :« أما بعد، يا أيها الناس، فما مقالة بلغتنى من بعضكم فى تأميرى أسامة بن زيد ؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة فقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبل ، وايم الله ،إن كان للإمارة خليقا وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى وإن هذا لمن أحب الناس إلى وإنهما لمخيلان لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم ») [٢] .

وبهذا الإعلان النبوى للأمة صمتت الألسنة،وعاد جو الحرب من جديد ، والقلوب كلمى موجوعة مفجوعة لمرض رسول الله ﷺ ، وقد وضع العصابة على رأسه، وبدا الجهد على الحبيب المصطفى ﷺ،وعاد فدخل بيته (ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته،وذلك يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الأول،وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورسول الله ﷺ

---

(١) نرجح أن يكون هذا هو الخروج الأخير لرسول الله ﷺ على المنبر ، وأن يكون قد ذكر فيه أمر أسامة وأمر الوصية بالأنصار بعد الجلوس السابق الذى أوصى فيه بالصديق وودع الناس ، وأن قلقه على الجيش دعاه لهذا الأمر .

(٢) الواقدى ٢/١١١٩ .

يقول : « أنفذوا بعث أسامة ») (١) .

وكانت المحاولة الأخيرة من أم أيمن وهى أم أسامة رضي الله عنها:

ودخلت أم أيمن فقالت :

أى رسول الله،لو تركت أسامة يقيم فى معسكره حتى تتماثل ، فإن أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه، فقال رسول الله ﷺ:« أنفذوا بعث أسامة » (٢) .

إنها تطلب التأجيل فقط ، حتى يبل رسول الله ﷺ من مرضة هذا ، ويتماثل للشفاء ، وأم أيمن لها مكانة عزيزة وغالية عند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن دون جدوى ؛ فالأوامر ماضية للجيش أن يمضى إلى أقصى أرض الشام ويثأر لزيد ابن حارثة وإخوانه شهداء مؤتة ، قبل يومين من وفاة النبى ﷺ ، ورسول الله يدرك ذلك ويصلى بالناس أبو بكر لكن الأمة المجاهدة لا يقعدها عن الجهاد شيء ولو كان وفاة النبى ﷺ ، وهو أعظم مصاب نزل بالبشرية جمعاء فى جميع دهورها وأقطارها ، فماذا بقى للبشرية بعد فقدان ذلك النور العظيم الذى أضاء لها حياتها ووجودها ، ومع هذا كله ، فلا عذر ولا تقاعس ولا قعود عن الجهاد .

إنه ﷺ يربى أمته وهو على فراش الموت ، ويدفعها إلى الجهاد بهذا الدين والمضى فيه والثأر لشهدائه ، ولو بقى رسول الله ﷺ وحده مع نسائه فى المدينة .

وهى تربية من جهة أخرى أعظم من التربية على الجهاد ، إنها التربية على آداب الجهاد ، والتى اقتضت أن يتحامل رسول الله ﷺ على مرض موته ،ويخرج لأمته ، يطلب منها الانصياع للفتى الأسود أسامة قائد جيشها ، وفى جنوده أبو عبيدة وعمر وسعيد بن زيد من القيادات العليا للأمة .

إنها دعوة إلى استجاشة الطاقات المذخورة فى الشباب ودعوة إلى الانضباط الكامل أمام الأوامر الصادرة من قيادة الأمة ونبيها وخليفته من بعده ، ودعوة إلى الخضوع للخبرات والطاقات وليس للوجاهات وقدم السن ، ومع كل الخبرات العليا لهذه الآلاف الكبرى ، فالمؤهل للثأر لأبيه من بينهم جميعاً والذى يملك من المشاعر المتقدة المناسبة لتحقيق الثأر لزيد بن حارثة هو ابنه أسامة بن زيد ، فقد يصلح قائد لمهمة أكثر من غيره لمهمة أخرى ، وهذه الأمور لا تخضع للانتخاب والرأى بمقدار ما تخضع لاستيعاب أبعاد المعركة وجوانبها من القائد الأول الذى يسيرها .

(ومضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد . . .) (٣) .

(١ ـ ٣) المغازى للواقدى ٣ / ١١١٨، ١١١٩ .

الأحد (١١) ربيع الأول قبل الوفاة بيوم :

(ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور ، وهو اليوم الذى لدوه فيه) (١) وقبل أن نتابع نزول أسامة نتابع اليوم الذى لدوه فيه قبل وصوله .

كما روت لنا عائشة رضي الله عنها قالت :

(ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته ، وتتام به وجعه حتى غمر ، واجتمع عنده نساء من نسائه ؛أم سلمة وميمونة ونساء من نساء المؤمنين منهن أسماء بنت عميس ، وعنده عمه العباس بن عبد المطلب وأجمعوا على أن يلدوه . . .) .

(وفى رواية أحمد : فاشتد مرضه حتى أغمى عليه . فتشاور نساؤه فى لده فلدوه) (٢).

أى قرروا أن يسقوه الدواء ، لكنه قبل أن يغمى عليه وهو يرى تشاورهن فى إسقائه الدواء ـ كما تقول عائشة رضوان الله عليها :« فأشار ألا تلدونى »: فقلنا : كراهية المريض للدواء) (٣) لكن لم يكن لهم خيار فى ذلك وقد أغمى عليه ﷺ ، فأسقوه الدواء وهو فى الإغماء ،ولم يجرؤ على ذلك غير عمه العباس (فقال العباس : لألدنه ، قال : فلد ، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال :« من صنع بى هذا ؟» ، قالوا : يا رسول الله ، عمك العباس ، قال :

« هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض » وأشار نحو أرض الحبشة .

قال : «ولم فعلتم ذلك ؟» فقال العباس : خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب، فقال : «إن ذاك لداء ما كان الله ليعذبنى به » .

وأصدر أمره ﷺ أن يسقى الدواء كل من حضر :

« لا يبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى العباس ، فلقد لُدَّت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبة لهم بما صنعوا » (٤) .

غير أن رواية مسلم تشير إلى أن استثناء العباس رضوان الله عليه؛ لأنه لم يشهد إجماعهم :

« لا يبقى منكم أحد إلا لُدَّ ، غير العباس فإنه لم يشهدكم » .

---

(١) المغازى ٣ / ١١١٩ .

(٢) مسند أحمد ٦ /٤٣٨ .

(٣) مسلم (ح ٢٢١٣) .

(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٠ .

لقد كان يوم الأحد أكثر الأيام حسماً من أيام وفاته ﷺ فقد كان يغمى عليه ثم يفيق .

فتحدثنا عائشة رضي الله عنها قائلة ، ما رأيت أحداً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ وتحدثنا عن لحظات وعيه وهو يئن من الألم قائلة :(رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت ، عنده قدح فيه ماء فيدخل يده في القدح ، ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم أعنى على سكرات الموت ») (١) .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بقدح الماء يمسح وجهه بالماء، بل يستعين بالقطيفة على تخفيف وجعه كما روت عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا :

لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢) يحذر ما صنعوا ،إنها لم تعد تلميحات بالموت ، بل غدت تصريحات ، فذكره مع الماء :« اللهم أعنى على سكرات الموت» ، وتذكيره وتخويفه « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وفى إشارة واضحة : « لا تتخذوا قبرى وثنا يعبد » ينهاهم عن ذلك بعد وفاته قالت عائشة : لولا ذلك لأبرز قبره ،خشى أن يتخذ مسجداً .

وحين سألت عائشة رضي الله عنها حبيبها المصطفى الذى يتقطع قلبها ألماً عليه عن سبب شدة ألمه فقال لها عليه الصلاة والسلام :

« إنا معاشر الأنبياء يضاعف لنا العذاب كما يضاعف لنا الأجر » (٣) .

وفى هذا الجو الشديد الذى يغمى فيه على رسول الله ﷺ ويفيق ، وفى الوقت الذى أصدر فيه أوامره بتحرك الجيش كان على قائد الجيش الفتى أسامة رضي الله عنه أن يأتى مع وجوه المهاجرين والأنصار،أمام هذا التطور السريع يحدثنا أسامة رضي الله عنه عن ذلك فيقول:

(لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله ﷺ ،وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها علىَّ ، فعرفت أنه يدعو لى) (٤) .

---

(١) مسند أحمد ٦/ ١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ٦/ ٦٤ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٤٨٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٠ .

وفى رواية الواقدى : (ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور وهو اليوم الذى لدوه فيه ، فدخل على رسول الله ﷺ وعيناه تهملان ، وعنده العباس ونساء حوله ، فطأطأ عليه أسامة فقبله ، ورسول الله ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبهما على أسامة فأعرف أنه كان يدعولى ، قال أسامة : فرجعت إلى معسكرى .

وندرك أن رسول الله ﷺ قد قطع الكلام بعد تلك الشدة التى عاناها من سكرات الموت وندرك أن المعركة لا تزال مستمرة لم يتغير فى قرارها شىء وأن على المسلمين أن يغادروا المدينة خلال الساعات المقبلة .

الاثنين (١٢) ربيع الأول :الساعات الأخيرة :

أ ـ خبر مقتل الأسود :

لقد حملت ليلة الاثنين إلى رسول الله ﷺ نبأ ساراً هو انتصار المسلمين على الأسود العنسى ومقتله وانتهاء ردته ، وبذلك اطمأن عليه الصلاة والسلام إلى حالة الأمة ليلة وفاته،وشهد تأويل رؤياه واقعا حياً « إنى رأيت البارحة ـ فيما يرى النائم ـ أن فى عضدى سوارين من ذهب فكرهتهما، فنفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين صاحب اليمامة وصاحب اليمن ، وبلغنى أن أقواماً يقولون فى إمرة أسامة ، ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه لخليقاً بالإمارة ، وإنه لخليق لها ، فانفذوا بعث أسامة وقال : لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد » (١) .

لقد كانت هذه الخطبة كما ذكرنا قبل يومين،أما هذه الليلة كما فى حديث جشيش: وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ـ وذلك فى حياة النبى ﷺ ـ فأتاه الخبر من ليلته وقدمت رسلنا،وقد مات النبى ﷺ صبيحة تلك الليلة،فأجابنا أبو بكر رحمه الله) (٢) .

ب ـ بعد صلاة الفجر :

قال ابن إسحاق ، وقال الزهرى : حدثنى أنس بن مالك أنه لما كان يوم الاثنين الذى قبض فيه رسول ﷺ خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر ، وفتح الباب ، فخرج رسول الله ﷺ فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتنون فى صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه فرحا به وتفرجوا فأشار إليهم أن اثبتوا على

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٥٠ .

صلاتكم قال : وتبسم رسول الله ﷺ لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم ، وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة من تلك الساعة ، قال : ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه . فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح) (١) .

إنها آخر نظرة ألقها رسول الله ﷺ على أمته وقبل أجله بساعات ، وفى فجر الاثنين الذى توفى فيه (فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم رسول الله ﷺ لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم) إنها نظرة الوداع الأخيرة لأمته التى أثلجت صدره ، فها هى أمته كلها صف واحد وصفوف متراصة وراء قائدها وإمامها أبى بكر الصديق ؛ فابتسم ضاحكاً ، وحيا صحبه وجنده وكانت آخر قرة عين له لأمته من بعده .

وتطالعنا رواية ثانية : هى أن الأمر لم ينته عند النظرة الأخيرة ، بل صلى بأمته وتحدث إليها .(قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مليكة قال :

لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه إلى الصبح ، وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما خرج رسول الله ﷺ تفرج الناس ، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ ،فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله ﷺ فى ظهره وقال : « صل بالناس »،وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فصلى قاعداً عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس : فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول :

« أيها الناس ، سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسّكون على بشىء،إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن،ولم أحرم إلا ما حرم القرآن » (٢).

إنه ﷺ يذكر بالآخرة،ويحذر من النار ، ويحذر من الفتن ،ويشير إلى أنه قد انتهى من مهمته فى هذه الدنيا،فما حرم إلا ما حرم كتاب الله ،ولا حلال إلا ما أحل ، وهذا كتاب الله هادياً بين يدى الأمة ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه قال له أبو بكر : يا نبى الله، إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟ قال : « نعم » (٣) .

وتشير رواية ثالثة إلى قدوم فتانا قائد الجيش فى صباح هذا اليوم ، فقد ودع رسول الله ﷺ بالأمس ، ورسول الله غير قادر على الكلام ، أما صبيحة هذا اليوم ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٦٦/٢،ت: د .سهيل زكار .
(٢ ، ٣) المصدر نفسه ١٠٦٧ .

فرسول الله ﷺ صحيح نشيط .

(فلما أصبح يوم الاثنين غدا (أسامة) من معسكره ، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقا ، فجاءه أسامة فقال :

« اغد على بركة الله » .

فودعه أسامة ، ورسول الله ﷺ مفيق مريح ، وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، أصبحت مفيقاً بحمد الله ، واليوم يوم ابنة خارجة فائذن لى، فأذن له فذهب إلى السنح وركب أسامة إلى معسكره، وصاح فى الناس أصحابه باللحوق بالعسكر ، فانتهى إلى معسكره ونزل ، وأمر الناس بالرحيل وقد متع النهار) (١) .

إنها اللحظات الأخيرة التى أقر الله تعالى بها نبيه ﷺ بوضع أمته من بعده من خلال ثلاثة أحداث هامة :

أولاً : لم يمت ﷺ حتى أقر الله تعالى عينه بنصر المؤمنين المؤذر فى اليمن ، ولم يمض من الدنيا ، إلا والجزيرة العربية كلها تحت رايته وراية هذا الدين .

ثانياً : ها هو جيش أسامة بن زيد وقد انضم تحت رايته ثلاثة آلاف من خيرة صحبه، يودعهم رسول الله ﷺ ماضين بأمره إلى الشام ليثأر لحبيبه الشهيد زيد بن حارثة ، وقد التأموا تحت راية هذا الفتى ، وسمعوا وأطاعوا لهذا الفتى الأسود لكن رأسه غير زبيبة .

ثالثاً : توحدت كلمة أمته كلها ،فها هى تصلى خلف إمامها الصديق رضي الله عنه دون أن ينازعه أحد ، والصديق هو خير من يحمل رايته بعده ، فقد كان أول من حملها بجواره من مخلوقات الله ، واختاره لصحبته فى الهجرة وما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على خير من أبى بكر .

الجهاد قائم ، وأصغر أصحابه قائد لجيشه ، وأكبر أصحابه إمام للمسلمين وخليفته من بعده ، فلا يريد بعدها من الدنيا شيئا ، وترك المهمات القادمة لهذه الأمة ؛ من إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، والنهى عن اتخاذ قبره وثناً يعبد .

إن الزعماء عندما يسقطون تسقط الدولة خلفهم؛لأنهم لم يربوا الجيل القيادى الذى

---

(١) المغازى للواقدى ٣ / ١١١٩، ١١٢٠ .

يخلفهم ، أما هنا فقد خلف رسول الله ﷺ بعده جيلاً قيادياً كاملاً من هذه الأمة ، حمل الراية من بعده إلى الخافقين ، ومضى بهذا الدين إلى أقصى الأرض ، وقوض أكبر مملكتين فى الأرض ، وورثت الأمة المهتدية قيادة البشرية ، ونصر الله هذا الدين على الدين كله .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] وآن الأوان للوداع الأخير ، وأثبتت الأمة جدارتها وكفاءتها ، بعد وداع قائدها الحبيب كما سنرى فيما يلى من أحداث .

جـ ـ اللحظات الأخيرة :

إن كل ما يتعلق بحياة رسول الله ﷺ وجزئياتها ، إنما تطلعنا عليها الصديقة بنت الصديق فى داخل بيت النبوة ، وهى المصدر الوحيد للأخبار ، فقد كان بيتها هو مركز النبوة واستقرار النبى فى الأسبوع الأخير ،عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(رجع رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع فى حجرى . .) (١) .

لكن سرعان ما تبدل الجو وبدت علائم الموت تظهر واضحة على وجه رسول الله ﷺ ، فدخلت فاطمة تعود أباها بعدما ذكر من معافاته ، وإذا بها تراه فى حالات النزع الأخير ، يغيب ويصحو ، فعن أنس رضي الله عنه قال :

لما ثقل النبى ﷺ ، جعل يتغشاه فقالت فاطمة رضي الله عنها :

واكرب أباه ،فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم . . . » (٢) .

كما دخلت زوجه أم سلمة رضي الله عنها وحدثتنا عن ذلك كما روى البيهقى :

(قالت : وضعت يدى على صدر رسول ﷺ يوم مات ، فمرت لى جُمَعٌ آكل وأتوضأ وما يذهب ريح المسك من يدى) (٣) .

وهذا خادمه أنس يدخل عليه فيسمع وصيته كما روى البيهقى عنه :

(كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، حتى جعل يغرغر بها وما يفصح بها لسانه) (٤) .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣١ .
(٢) البخارى (ح ٤٤٦٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢١١ .
(٤) أحمد والنسائى والبيهقى .

وتذكر لنا عائشة هذه الأجواء الصعبة قائلة :

(رأيت رسول الله ﷺ وعنده قدح فيه ماء فيدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول :« اللهم أعنى على سكرات الموت ») (١) .

وها هو يغمى عليه فتدعو له بالشفاء كما قالت :

(أغمى على النبى ﷺ وهو فى حجرى ، فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء ، فأفاق ،فقال : « بل أسأل الله الرفيق الأعلى لأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ») (٢) .

وفى رواية أحمد : (كنت أمسح صدر رسول الله ﷺ بيدى وأقول : (اكشف الباس رب الناس ، أنت الطبيب وأنت المشافى، قالت: وهو يقول :« ألحقنى بالرفيق ، ألحقنى بالرفيق ») (٣) .

وينقل لنا ابن اختها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أن عائشة أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إلى صدرها يقول :

« اللهم اغفرلى وارحمنى وألحقنى بالرفيق » (٤) .

وتكاد تكون هذه النثرات مع خفقات قلب الحبيبة عائشة رضوان الله عليها وقلب رسول الله ﷺ يخفق بحبها ، فقد اختارها على أهل الأرض لتكون منيته فى حجرها وعلى يديها وتقوم هى بتمريضة ، ويحدثنا عليه الصلاة والسلام أن الموت يَهُونُ عليه ، لأنها رفيقته فى الجنة كما أخرج أحمد عنها أنه قال :

« ليهون على أنى رأيت بياض كف عائشة فى الجنة » (٥) .

فهى آخر متعه من الحياة الدنيا .

د ـ الوفاة :

(وجع رسول الله ﷺ ذلك اليوم فاضطجع فى حجرى . . .) (٦) .

ثم تستعيد ذكرياتها قائلة :

---

(١) الترمذى وابن ماجه وأحمد ٦/ ٦٤ .
(٢) النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٩٧) .
(٣) أحمد ٦/١٠٨ .
(٤) البخارى (ح ٤٤٤٠) .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير ٥ / ٢١٠ ، وقال فيه: « تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به » .
(٦) أحمد ٦/ ٢٧٤ .

كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول : « إنه لم يقبض نبى قط حتى يرى مقعده فى الجنة ثم يحيا أو يخير . . . » (١) .

وتقدم لنا الوصف كاملاً لهذا التخيير وآخر لحظاته ﷺ قبل الموت :

(إن من نعم الله على أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى ،وبين سحرى ونحرى) (٢) .

إنـها تقدم لـنا الزمان والمكـان كما فى الرواية الثانية (وفى دولتى لم أظلم فيه أحداً) (٣) .

أى: فى يومها المخصص لها بعد مرور أسبوع على مقامه فى بيتها ﷺ، كما تتحدث عن أمتع نعمة نالتها فى لحظات وفاته (وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته) وفى رواية : (فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة) (٤) .

فكيف كان ذلك ؟

(دخل علىّ عبد الرحمن بن أبى بكر وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته ، وبين يديه ركوة أو علبه (يشك عمر) فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه يقول : «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ») (٥) .

وفى رواية أخرى تحدثنا عن سواك أخيها وريقه وريقها بعدما لينته له .

(فاضطجع فى حجرى فدخل علىّ رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله ﷺ نظراً عرفت أنه يريده ، قلت : يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال: «نعم» ، قالت: فأخذته فألنته ثم أعطيته إياه ، فاستن به كأشد ما رأيته استن بسواك قبل ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى فى الجنة») (٦).

بينما تتحدث عن هذه اللحظة فى رواية أخرى :

---

(١) البخارى (ح ٤٤٣٧) .
(٢) البخارى (ح ٤٤٤٩) .
(٣) مسند أحمد ٦/ ٢٧٤ .
(٤) البخارى (ح ٤٤٥١) .
(٥) البخارى (ح ٤٤٤٩) .
(٦) مسند أحمد ٦/ ٢٧٤ .

(فلما نزل به ورأسه على فخذى غشى عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال : « اللهم الرفيق الأعلى »، قلت : إذن لا يختارنا وعلمت أنه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ، قالت : فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها : « اللهم الرفيق الأعلى » (١). وكانت تقول: (مات ورأسه بين حاقنتى وذاقنتى) (٢) .

وتحدثنا عن آخر لحظة تمس فيها رسول الله ﷺ ، وقد قبض قائلة :

(مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى وفى دولتى ولم أظلم فيه أحداً فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قبض وهو حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء) (٣) ،(وهذا يغاير حديثها الذى قبل هذا أن رأسه كان على فخذها ؛ لأنه محمول أنها رفعته من فخذها إلى صدرها) (٤) .

ووصل إلينا نعى فاطمة رضوان الله عليها له فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه) (٥) .

هـ ـ الزلزلة :

تحدثنا عنها عائشة ﵂ كذلك :

(كان رسول الله ﷺ إذا مر ببابى مما يلقى الكلمة ينفع الله بها عز وجل، فمر ذات يوم فلم يقل شيئاً ثم مر فلم يقل شيئاً ، مرتين أو ثلاثاً ، قلت : يا جارية، ضعى لى وسادة على الباب ، وعصبت رأسى ، فمر بى فقال : « يا عائشة ما شأنك ؟ »، فقلت : أشتكى رأسى، فقال : « أنا وارأساه » ، فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتى جيء به محمولاً فى كساء ، فدخل على وبعث إلى النساء فقال : « إنى قد اشتكيت ، وإنى لا أستطيع أن أدور بينكن فائذن لى فلأكن عند عائشة أو صفية » ، ولم أمرض أحداً قبله، فبينما رأسه ذات يوم على منكبى إذ مال رأسه نحو رأسى، فظننت أنه يريد من رأسى حاجة، فخرجت من فيه نقطة باردة فوقعت على ثغرة نحرى فاقشعر لها جلدى ، فظننت أنه غشى عليه فسجيته ثوباً ، فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما وجذبت إلىَّ الحجاب ، فنظر عمر إليه فقال : واغشياه ، وما أشد غشى رسول الله ﷺ، ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة : يا عمر ، مات رسول الله ﷺ ، قال: كذبت ، بل أنت

---

(١) البخارى (ح ٤٤٦٣) .

(٢) البخارى (ح ٤٤٣٨) والحاقنة : نقرة الترقوة ، والذاقنة : طرف الحلقوم .

(٣) مسند أحمد ٦/ ٢٧٤ .   (٤) فتح البارى ٨ / ٤٨٦ .

(٥) البخارى (ح ٤٤٦٢) .

رجل تحوسك فتنة ، إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفنى الله عز وجل المنافقين ، ثم جاء أبو بكر فرفعت الحجاب، فنظر إليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون مات رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل رأسه فحدر فاه فقبل جبهته ثم قال : وانبياه ، ثم رفع رأسه ، ثم حدر فاه وقبل جبهته ثم قال :واصفياه ، ثم رفع رأسه ، وقبل جبهته وقال : واخليلاه، مات رسول الله ﷺ، فخرج إلى المسجد وعمر يخطب الناس ويتكلم ويقول : إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفنى الله عز وجل المنافقين فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل يقول : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر] حتى فرغ من الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران : ١٤٤] حتى فرغ من الآية .

فمن كان يعبد الله عز وجل فإن الله حى، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.

فقال عمر : وإنها لفى كتاب الله ما شعرت أنها فى كتاب الله ثم قال عمر : يا أيها الناس ،هذا أبو بكر وهو شيبة المسلمين فبايعوه) (١) .

لقد أكرم الله تعالى عائشة أم المؤمنين أن كانت وحدها يوم قبض رسول الله ﷺ، ورفعته عن فخذها إلى صدرها حباً وإشفاقاً له ، فمات وهى مسندته إلى صدرها بين ثغرة نحرها ورئتها ، وفى يومها الذى هو حقها وخالط ريقها ريقه فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وعرفت أنه لن يختار عليها إلا الرفيق الأعلى، شهدته وهو يختار وهو بين يديها ، مال رأسه على رأسها ، ولم تتأكد من وفاته فسجته بثوب كما فى هذه الرواية ، وأستأذن عمر والمغيرة رضوان الله عليهما ، أما عمر ،فاعتبرها غشية من غشيات النبى ﷺ التى نزلت به ، وأنه لن يموت حتى يهلك المنافقين ، والذين يشيعون الوفاة هم الذين فى قلوبهم مرض ،والمغيرة ممن حاشته هذه الفتنة ونزلت به ، أما المغيرة داهية ثقيف وخبير الحياة كما رأينا فى العباس عم النبى ﷺ، فلم يتردد لحظة واحدة حتى حدثهم عند الباب، وعائشة تستمع الحديث بأنه الموت، فقال لعمر : يا عمر، مات رسول الله فقال له : كذبت، بل أنت رجل تحوسك فتنة إن رسول الله لا يموت حتى يفنى الله عز وجل المنافقين (فلما مات واختلفت الصحابة فيما بينهم؛ فمن قائل: يقول مات رسول الله ﷺ ومن قائل: لم يمت ،فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السنح ، فأعلمه بموت رسول الله ﷺ ، فجاء الصديق من منزله حين بلغه الخبر ،

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٢١٩ والدارمى والترمذى وأبو داود .

فدخل على رسول الله ﷺ منزله) (١) .

لكن صوت الموت هو الأخفت والأضعف فليس فى الساحة أعلى عيناً وأعظم قدراً من عمر ، وعمر ينفى الوفاة ،كما عند البيهقى عن عروة : (وقام عمر بن الخطاب يخطب الناس ويتوعد من قال مات بالقتل أو القطع ويقول : إن رسول الله ﷺ فى غشية لو قد قام قتل وقطع وعمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن أم مكتوم فى مؤخرة المسجد يقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران : ١٤٤] والناس فى المسجد يبكون ويموجون ولا يسمعون) (٢) .

إنها لحظة فقدت فيها المدينة وعيها ، وفجعت بأعز ما فى الوجود من أحبابها ، ولهول الصدمة يميل الكثير منهم إلى تكذيب الخبر وعدم تصديقه ويشد موقف عمر من أزرهم ،وهو الوزير الثانى لرسول الله ﷺ ، ثم كانت المرحلة الثانية ، فهذا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من أعظم سادات المسلمين يريد أن يتثبت من الخبر مع أنه فى أعماقه مؤمن بوفاة النبى ﷺ وهو الذى قال لابن أخيه على :والله إنى لأعرف فى وجوه بنى عبد المطلب الموت ، وإنك عبد العصا بعد ثلاث ، والله إنى لأرى رسول الله ﷺ يتوفى من وجعه هذا .

لكن العباس رضوان الله عليه يريد أن يعالج الأمر بحكمة ليخفف وقع المصاب على المسلمين من جهة ، وليخرجهم من أحلامهم وآمالهم بعودة النبى ﷺ إليهم .

(فخرج عباس بن عبد المطلب على الناس فقال :

يا أيها الناس،هل عند أحد منكم من عهد من رسول الله ﷺ فى وفاتة فليحدثنا ؟

قالوا : لا .

قال : هل عندك يا عمر من علم ؟ قال : لا .

فقال العباس : اشهدوا أيها الناس أن أحداً لا يشهد على رسول الله ﷺ بعهد عهده إليه فى وفاته ، والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت) (٣) .

لقد عاد العباس رضي الله عنه فعدل الموقف ، وهيأ النفوس لقبول خبر الوفاة،ويبقى الناس بين مصدق ومكذب ، وما يمنع أن يحيى رسول الله ﷺ ثانية ، ويقطع رؤوس المنافقين الذين فرحوا بوفاته وراحوا ينشرونها فى كل مكان ، لابد لضعاف النفوس هؤلاء من

(١ ـ ٣) البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢١٣ .

كبت وخزى يقع عليهم كما يقول عمر :

إن رسول الله لوقد قام لقتل وقطع رؤوس رجال من المنافقين يزعمون أنه مات .

إنها فتنة كموج البحر ، صاحبها ذهول العقول لوفاة الرسول ﷺ ، وآن أوان أبى بكر رضي الله عنه وأقبل أبو بكر من السنح على دابته حتى نزل بباب المسجد ، وأقبل مكروباً حزينا ، فاستأذن فى بيت ابنته عائشة فأذنت له ودخل ورسول الله ﷺ قد توفى على الفراش والنسوة حوله ، فخمرن وجوههن واستترن من أبى بكر إلا ما كان من عائشة ، فكشف عن رسول الله ﷺ ،فجثى عليه يقبله ويبكى ويقول :

(ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئاً توفى رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده .

رحمة الله عليك يا رسول الله ، ما أطيبك حياً وميتاً ، ثم غشاه بالثوب) (١).

نعود إلى رواية البخارى :

(أخبرنى أبو سلمة أن عائشة أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال :

(بأبى أنت وأمى ، والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التى كتبت عليك فقد مِتَّهَا) (٢) .

وهناك رواية أبى سلمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر :

أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران] وقال - أى ابن عباس : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها الناس كلهم ، فما أسمع

(١) البداية والنهاية لابن كثير عن الحافظ البيهقى ٥/ ٢١٣ .

(٢) البخارى (ح ٤٤٥٢) .

بشراً من الناس إلا يتلوها ، فأخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال :

والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبى ﷺ قد مات) (١) .

وفى رواية عروة بن الزبير عن عائشة رضوان الله عليها :(أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح (قال إسماعيل : يعنى بالعالية) فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ ، قالت (وقال عمر : والله ما يقع فى نفسى إلا ذاك) وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله قال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا ، ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر) (٢) . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال :

(ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت . وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]. وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

قال : فنشج الناس يبكون . . .) (٣) .

ولا تنسى عائشة رضي الله عنها أن تثنى على الموقفين قالت : فما كان من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها؛لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك) (٤) .

و ـ أشد الساعات هولاً على المسلمين :

لا نبالغ إذا قلنا: إنه لم يمر على المسلمين هول ولا مصيبة ولا ساعات عصيبة تعادل هذا الهول ، حتى ولا ساعات أحد ، ولقد عاتب الله المؤمنين على هذا الزلزال أمام هول المصيبة وقال لهم :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] . إنه لولا موقف عمر لما وقع هذا الاضطراب وهذا التردد، فالوضع النفسى للمسلمين مهيأ لتقبل نبأ الوفاة ، بما لَمَّحَ لذلك ﷺ ، ولما توارد من أخبار عن أهوال معاناته ﷺ فى

(١) البخارى (ح ٤٤٥٣) .
(٢) البخارى (ح ٣٦٦٧) .
(٣) البخارى (ح ٣٦٦٨) .
(٤) البخارى (ح ٣٦٦٩) .

هذا المرض ، لقد كانوا عاطفياً مع موقف ابن الخطاب؛ لأنهم لا يحبون موته. ويتأملون استمرار حياته ، ولو كانوا يكذبون على أنفسهم ، فجاء عمر لينفى الوفاة ويهدد من يقول بها ، ويتهمه بالنفاق ، فمالوا إلى هذه الرواية وحنوا إليها ، وجاء العباس ليزلزل هذه القناعة التى كادت ترسخ عندهم بأن رسول الله ﷺ لم يمت ، لكن الحسم الذى أنهى كل هذا التردد هو وصول الصديق ، فعنده الخبر الفصل ، وهو إمامهم الذى اختاره رسول الله ﷺ ، فهم خلفه ووراءه ، يأتمون به فى كل ما يقول ، وانتظروا ما سيحدثهم به - خاصة وأنه مضى إلى بيت ابنته عائشة حيث جثمان رسول الله ﷺ - ونحن نعلم أن الحب الذى يحبه الصديق للمصطفى ﷺ لا يبلغ مرقاه أحدٌ من الخلق ، ومع ذلك نراه يتجلد والدموع تتحدر على وجنتيه(بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتاً ، والذى نفسى بيده لايذيقك الله الموتتين أبداً).

ولا يكتفى الصديق بهذا الموقف الذاتى ، فهو يحس أن الأمة اليوم كلها فى عنقه ، فهو إمام المسلمين ، ولا يمكن أن يقف على الحياد ، ويتلكأ فى الإعلام خاصة وأن أخاه عمر رضي الله عنه قد اتخذ موقفاً خطأ وأعلنه وهدد به ، ومن أجل ذلك كانت المهمة الأولى هى إيقاف اندفاع عمر،والقضية لا تحتمل عنده المجاملة ولا التريث، إن الأمة تنتظر منه الكلمة الفصل،وها هو يدعو عمر إلى الجلوس ، فيأبى عمر الجلوس وها هو يناديه أمام المسلمين : أيها الحالف على رسلك ، لكن دون جدوى ، ولا يريد أن يفتعل بينه وبين عمر أزمة ، فمضى بجوار المسجد ورأى الناس أبا بكر إمامهم فاتجهوا جميعاً صوبه وتركوا عمر وتهديداته . وأحس عمر بالموقف الجديد ، فمضى معهم يستمع لتقرير الصديق. تركوا عمر وكلامه وأصاخوا إلى الصديق. ويالها من كلمة لم يحمل التاريخ لها مثيلاً بعد كلام الأنبياء والمرسلين كلمة خلدت أمة،وصححت خطأ فى حياتها ، واستأنفت بنيانها من جديد بعد فقدان البانى الأعظم ﷺ ، وايم الله ،إنها لكلمة كأنما هى خارجة من مشكاة النبوة ، ومن بلاغة النبوة ، إنها كلمة ترضع من لبان القرآن العظيم لم تحتج إلى تقرير مسهب ولا إلى كتاب مؤلف ، ولا إلى بروتوكولات تقام ولا إلى طقوس تعلن ؛ كلمة خالدة تلخص مسار الأمة كلة وعقيدة الأمة كلها ، وطبيعة الأمة كلها :

ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

وجاء شريان هذه الكلمة وعظمتها وخلودها من الآية الخالدة التى أعطتها الحياة

والقوة والموقف الفصل﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾
[آل عمران]

والله ، لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس فما يسمع بشراً إلا يتلوها .

فليست القصة قصة عمر ﷺ وحده ،إنها قصة الأمة كلها التى لم تكن تريد أن تقتنع أن قائدها وحبيبها ورسولها وحياتها قد غادرها إلى غير رجعة ، وقد عاشت عشر سنين معه فى كل لحظة وفى كل نأمة ، وفى كل موقف ، إنه شريان حياتها ، فكيف تتصور فراقه ، وموته ، والحياة بعده ؟

وإذا عدنا إلى رواية الحافظ البيهقى نجد بياناً جديداً بعد هذه الخطبة البليغة الموجزة لا تزيد هذه الخطبة عظمة ولا بلاغة ولا قوة ، فقد شهدنا أثرها فى تحويل مجرى التاريخ الإسلامى فى قلوب الأمة قبل أن يتحول فى الواقع ، وراح الناس جميعاً يتلون الآية كأنما هى أنزلت بالتو .

لكن مع هذا لا يضير أن نعيش مع زيادات رواية الحافظ البيهقى رحمه الله عن عروة بن الزبير (وقام أبو بكرر إلى جانب المنبر ونادى الناس فجلسوا وأنصتوا ، فتشهد أبو بكر بما علمه من التشهد وقال :

إن الله عز وجل نعى نبيه إلى نفسه وهو حى بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم ، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عز وجل .

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٤] .
(فقال عمر:هذه الآية فى القرآن ؟ والله ما علمت هذه الآية أنزلت قبل هذا اليوم) .

وقال الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن] ،وقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] وقال :

إن الله تعالى عمر محمداً وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد فى سبيل الله ثم توفاه الله على ذلك ، وقد ترككم على الطريقة فلن يهلك هالك إلا جُنّ بعد البنية والشفاء فمن كان الله ربه فإن الله حى لا يموت ،

ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه .

فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وإن كلمة الله تامة،وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه ،وإن كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء وبه هدى الله محمداً ﷺ ، وفيه حلال الله وحرامه ، والله لا نبالى من أجلب علينا من خلق الله .إن سيوف الله لمسلولة ،ما وضعناها بعد ،ولنجاهد من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ ، فلا يبغين أحد إلا على نفسه) (١) .

إنها الساعة الأولى بعد وفاة النبى ﷺ أو الساعتان على أقرب تقدير ، ثم تجاوز أعظم محنة فى تاريخ الأمة ،وانتهت فتنة كان من الممكن أن تودى فيها بين تأليه أو ردة إلى الوثنية أو دخول عقيدة التثليث إليها؛ فأمة النصارى قد دخلها الخلل بعد لحظات رفع نبيها إلى الله تعالى ؛ وانتهت تلك الساعة ببلبلة وانحراف توحيدى انتهى بتأليه عيسى ابن مريم وأمه و إشراكهما مع الله تعالى ،وكان عيد القيامة عند النصارى والتى يزعمون أن عيسى عليه الصلاة والسلام قام من قبره وصعد إلى السماء،وتكون الرسالة النصرانية قد وهنت منذ لحظة تَوَفِّى الله تعالى ورَفْعه لنبيه ، كما يقول تعالى :

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ [النساء] .

لقد ضاعت أمة النصارى بعد لحظة رفع نبيها إلى الله تعالى ، وستبقى فى هذا الضياع إلى أن يبعث قبل يوم القيامة ، ويفند تلك الأكاذيب والظنون التى حيكت ضده .

وضاعت فرقة من الأمة المسلمة (الشيعة) إثر موت الإمام الثانى عشر ، ولا تزال تنتظر خروجه قبل يوم القيامة ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلما .

لقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ، وعصم الله الأمة المسلمة بقيادة ربانيها ؛ وربانها أبو بكر الصديق ليعلن للدنيا لحظة الوفاة:

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات،ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥/٢١٣، ٢١٤ .

وطوى صفحة الشرك والتأليه والتثليث والتثنى من صفحة هذه الأمة ، ولو بقى الرأى على ما كان عليه عمر رضي الله عنه لبقيت البلبلة إلى اليوم فى الأمة وبقى الضياع ،هل أغشى على رسول ﷺ أو هل توفى ،ويتبع ذلك هل سيعود ؟ ومتى سيعود ؟ وتبقى الأمة ضائعة فى التيه إلى يوم القيامة .

ومع ذلك فنجد عظمة عائشة رضي الله عنها وابنة الصديق هى الوحيدة فى الدنيا التى أثنت على موقف عمر وأنه كان له دور إيجابى مؤقت خلال الساعتين الأوليين ، حيث ارتعب المنافقون وخافوا ، وكان يمكن أن يلعبوا دوراً سيئاً فى التاريخ الذى يقرر فى اللحظات الحاسمة ، فقالت رضي الله عنها : (فما كان من خطبتها من خطبة إلا نفع الله بها الناس لقد خوف عمر الناس ، وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك) .

بقى علينا أن نشير إلى نقطة واحدة خالدة خلود التاريخ فى المجال العاطفى لحادثة الوفاة النبوية .

هذه الحادثة هى ذلك الإكرام الذى أكرم الله تعالى به أمته عائشة بنت الصديق من بين نساء ورجال الأرض كلهم أن تكون آخر لحظات المصطفى فى هذه الدنيا على فخذ حبيبته عائشة ، ثم على صدرها حيث رفعته عن فخذها ،وأسلم روحه لله بين يديها وبين سحرها ونحرها ومال رأسه على كتفها ،وتبقى الدنيا كلها برجالها ونسائها وعظمائها خارج هذه الغرفة التى لم يحظ بها مخلوق إلا عائشة بنت الصديق ، كما أكرمها بمخالطة ريقها ريقه ، ولقد افتخرت بهذه المزية على صويحباتها ، ومن حقها أن تفخر بها على المسلمين فى الأرض أجمعين منذ الأزل إلى الأبد ، وزوجها الحبيب ليهون عليه الموت أن رأى بياض كفيها فى الجنة .

هل عند المحبين والعشاق فى الدنيا أعظم من هذا الحب، وأعظم من هذا الوفاء ، وأعظم من هذا العشق ؟

ها هى بنت الصديق حبيبة رسول الله،وها هو الصديق العظيم حبيب رسول الله .

ماذا كتب الله على يديهما من الخير لهذه الأمة حتى قيام الساعة ؟

ولايزال إمام المؤمنين الصديق ، فقد توفى رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس من يوم الاثنين وصلى رضي الله عنه بالناس الظهر،وعادوا إلى بيت رسول الله ﷺ ليعالجوا الموقف وأصبح الآن الامر أمر الرجال ؛ أمر آل محمد ﷺ العباس وبنيه وعلى رضي الله عنه ،وأمر الوزيرين الأولين لمتابعة جهاز رسول الله ﷺ ودفنه .

ز ـ بقية النهار ، والخلافة العظمى لأبي بكر :

يحدثنا عمر رضي الله عنه عن بقية النهار فيقول :

(إنه كان من خبرنا حين توفى رسول الله ﷺ ،فبينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ رجل ينادى من وراء الجدار : اخرج إلى يا بن الخطاب فقلت : إليك عنى فإنا مشاغيل عنك ، فقال : إنه حدث أمر لا بد منك فيه ، إن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً فيكون بينكم وبينهم حرب ، فقلت لأبى بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقنا نؤمهم ، فلقينا أبو عبيدة بن الجراح فأخذ أبو بكر بيده ، فمشى بينى وبينه حتى إذا دنونا منهم لقينا رجلان صالحان فذكرا الذى صُنِعَ فقالا :

أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت :نريد إخواننا من هؤلاء الأنصار .

قالا : لا عليكم ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم.

فقلت : والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى أتيناهم فإذا هم فى سقيفة بنى ساعدة ، فإذا بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة ، قلت : فماله ؟ قالوا : هو وجع) (١) .

عندما تثبت الناس من وفاة رسول الله ﷺ مضى الصديق وعمر وعلى والعباس والزبير إلى بيت رسول الله ﷺ ليجهزوه ، لكن الأنصار اجتمعوا كلهم فى سقيفة بنى ساعدة يبحثون أمر الأمة بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان الاتجاه السائد فى حزب الأنصار أن تكون الخلافة فيهم؛ فهم أهل البلد وهم الجمهرة الكبرى من المسلمين فى المدينة ، ولا يعقل تولية واحد من المهاجرين عليهم ، فالأصل أن يكون أمير القوم منهم ، والأوس والخزرج هم الذين يمثلون أنصار الله وكتيبة الرحمن ، وهم أحق من المهاجرين بالخلافة والإمرة .

صحيح أن سعد بن عبادة هو المرشح الأقوى ، فهو سيد الخزرج بلا منازع ، والخزرج ثلاثة أضعاف الأوس ، والأصل أن يقبل الأوس بإمرته حفاظاً على وحدة كلمتهم أمام المهاجرين ، ولا يريد الأوس فى الوقت نفسه أن يستأثر إخوانهم الخزرج بالأمر كله ، والمناقشات كلها تدور حول هذا الأمر ، ولا ندرى من الصحابى الأنصارى الذى مضى بسرعة إلى بيت النبى ﷺ ليخبر المهاجرين لحضور هذه المداولات قبل أن يبت طرف من المسلمين فى الأمر فتقع فتنة بينهم لا يعلم إلا الله مداها ، يحدثنا

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ١٥٥، ١٥٦ .

عمر رضي الله عنه فيما رواه عنه ابن عباس :(إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت ،ألا وإنها كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر . . .).

(. . . وإنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا ، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فانطلقنا نريدهم ، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا :

لا عليكم ألا تقربوهم ،اقضوا أمركم ، فقلت :

والله لنأتينهم،فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة،فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت من هذا ؟ فقالوا:هو سعد بن عبادة، فقلت:ماله ؟ قالوا:يوعك) (١) .

(وقال الداودي:معنى قوله :كانت فلتة، أنها وقعت من غير مشورة مع جميع من كان ينبغي أن يشاور . . . وقال ابن حبان : معنى قوله : كانت فلتة أن ابتداءها كان عن غير ملأ كثير والشيء إذا كان كذلك يقال له : الفلتة فيتوقع فيه ما لعله يحدث من الشر بمخالفة من يخالف عن ذلك عادة،فكفى الله المسلمين الشر المتوقع في ذلك عادة ، لا أن بيعة أبي بكر كان فيها شر) .

قوله:(وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر) قال الخطابي : يريد أن السابق منكم الذي لا يلحق في الفضل لا يصل إلى منزلة أبي بكر ، فلا يطمع أحد أن يقع له مثل ما وقع لأبي بكر من المبايعة له أولا في الملأ اليسير ثم اجتماع الناس عليه وعدم اختلافهم عليه لما تحققوا من استحقاقه ، فلم يحتاجوا في أمره إلى نظر ولا إلى مشاورة أخرى ، وليس غيره في ذلك مثله . انتهى ملخصاً .

وفيه إشارة إلى التحذير من المسارعة إلى مثل ذلك حيث لا يكون هناك مثل . أبي بكر لما اجتمع فيه من الصفات المحمودة من قيامه في أمر الله ولين جانبه للمسلمين ، وحسن خلقه ومعرفته بالسياسة ، وورعه التام ممن لا يوجد فيه مثل صفاته لا يؤمن من مبايعته عن غير مشورة الاختلاف الذي ينشأ عنه الشر ، وعبر بقوله : « تقطع الأعناق » لكون الناظر إلى السابق تمتد عنقه لينظر؛فإذا لم يحصل مقصوده من سبق من يريد سبقه قيل : انقطعت عنقه ، أو لأن المتسابقين تمتد إلى رؤيتهما الأعناق حتى يغيب السابق عن

---

(١) البخاري (ح ٦٨٣٠) .

النظر ،فعبر عن امتناع عنقه بانقطاع عنقه ، وقال ابن التين : هو مثل يقال للفرس الجواد : تقطعت أعناق الخيل دون لحاقه ووقع فى رواية أبى معشر المذكورة : ومن أين لنا مثل أبى بكر تمد أعناقنا إليه) (١) .

لقد ابتدأ الأمر استجابة سريعة لنداء عاجل ، مضى إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وانضم إليهما أبو عبيدة بن الجراح، وواجه الثلاثة حزب الأنصار ، وأجروا مداولات أولية ، وعرف المهاجرون بذلك ، فتعاطروا ليشهدوا جانباً من هذه المفاوضات ويشاركوا فى الرأى غير أن علياً والعباس والزبير ومن معهم رأو أن الأمر سابق لأوانه ، وتجهيز رسول الله ﷺ لا يتقدم عليه أمر ، وإن كانت جرت بعض المحادثات فلن يبت بهذا الأمر قبل تجهيز المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقبل استشارتهم .

وسنشهد كل ما وصل إلينا من أنباء المداولات بين الحزبين الكبيرين ؛الأنصار والمهاجرين، والتى تتم فى أرقى مستويات الشورى فى الأرض ، وكما نرى فى عرض المرشحين للرئاسة الأمريكية على التليفزيون ، وكيف أن هذا العرض يحدد مستقبل الرئيس بما يملك من حجة وإقناع وكفاءة ، لا بما يملك من قوة وعسكر وجيش فالمهاجرون الثلاثة فى قلب معسكر الأنصار يعلنون المعارضة لاتجاههم فى اختيار الخليفة من الأنصار، ما نعتقد أن البشرية قد وصلت إليه بعد .

أولاً: أهل الشورى المؤهلون لاختيار الخليفة :

عن ابن عباس قال:كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين ؛منهم عبد الرحمن بن عوف ، فبينما أنا فى منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب فى آخر حجة حجها إذ رجع إلى عبد الرحمن فقال :

لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: هل لك فى فلان يقول : لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً فوالله ما كانت بيعة أبى بكر إلا فلتة فتمت،فغضب عمر ثم قال : إنى إن شاء الله لقائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم ، قال عبد الرحمن ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم ، فإنهم الذين يغلبون على قربك حين تقوم فى الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير ، وألا يعوها ، وألا يضعوها على مواضعها ، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٤/١١٧، ١١٨ .

دار الهجرة والسنة ، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنا فيعى أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها ، فقال عمر : أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة . . .) [١] .

فقد استجاب عمر ﷺ وهو الخليفة لعبد الرحمن بن عوف أكبر مستشاريه الذين رافقوه فى عدم بحث هذه الأمور الهامة الحساسة وأهمها قضية الخلافة بين عامة الناس وغوغائهم ، إنما تبحث فى المستويات العليا من الأمة ، حيث أهل الفقه وأشراف الناس، ومكان تداولها المدينة دار الهجرة والسنة .

إن عملية الاختصاص والكفاءة هى أعظم ما يميز طبيعة هذا الدين ، فإن كان ابن عباس الشاب الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره ولتخصصه فى كتاب الله يقوم بتعليم كتاب الله لأحد الستة المرشحين للخلافة ، وأكبر شيوخ المسلمين بعد عثمان ﷺ، هذا الأمر لا يجعل ابن عباس المعلم لعبد الرحمن فوقه فى الاستشارة ، فعند تداول أمور المسلمين فابن عوف سيد الموقف ورئيس مجلس الشورى ، وابن عباس لم يصل ليكون عضو مجلس الشورى بعد ، وحدد عبد الرحمن ﷺ مجلس الشورى بـ :

١ ـ أهل الفقه.

٢ ـ أشراف الناس .

ولابد أن يتوفر فى عضو مجلس الشورى من أهل العلم أو من أهل الرأى والزعامة والقيادة أحدى هاتان الخصيصتان وعند هؤلاء تطرح الأمور ، ولا تنعقد الإمامة بدون شوراهم كما فى رواية معمر من وجه آخر عن عمر : (من دعى إلى إمارة من غير مشورة فلا يحل له أن يقبل) [٢] .

لكن هناك ظروفاً استثنائية قاهرة ، وفى أول تجربة شورية للأمة بعد وفاة نبيها لاختيار خليفتها ؛ حيث كانت المبادئ ثابتة ، والأساليب لم تؤطر بعد ، ولم يقنن طريقة انعقاد مجلس الشورى بعد وتبليغ أعضائه .

ثانياً : الأنصار ورأى الأكثرية :

(. . فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة ، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت : ما له ؟ قالوا : يوعك ، فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله

(١ ، ٢) البخارى (ح ٦٨٣٠) .

وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط ، وقد دفَّت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، وأن يحضنونا من الأمر . . .) (١) .

لقد كانت الشخصية المرشحة للخلافة عن حزب الأنصار سعد بن عبادة ، ولم يرد فى الروايات أى مرشح آخر ، وعندما سأل عمر رضي الله عنه ـ حيث كان مزملا فلم يره ـ وسأل عن سبب تدثره فقيل: يوعك،وبعد أن جلس المهاجرون الثلاثة فى منزل الأنصار، قام خطيب الأنصار ، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ، ومضى يتحدث عن حقهم فى أن يكون الخليفة منهم فهم أكثرية الأمة عدداً وأعظمها بلاء ،وفى أى المقاييس والشروط المرشحة للخلافة ، فهم الأحق بذلك .

(وأنتم معشر المهاجرين رهط : أى عدد قليل . (وقد دفَّت دافة من قومكم) يريد انكم طرآء غرباء أقبلتم من مكة إلينا ثم أنتم تريدون أن تستأثروا علينا .

ثالثاً : أكثرية المسلمين لا أكثرية الأنصار :

وندع الحديث لعمر رضي الله عنه يقول :(فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الحد ، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر : على رسلك ،فكرهت أن أغضبه ، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر ، والله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قال فى بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت ، فقال :

ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل،ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبًا وداراً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، فأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك من إثم أحب إلىَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول إلى نفسى عند الموت شيئاً لا أجده الآن) (٢) .

نحن مع الجيل الذى رباه النبى ﷺ فى ثانى محنة يتعرض لها بعد وفاته ، ولن يشهد هذا الجيل أخطر من هذا الأمر؛ أمر الخلافة العظمى،والذى أمضى العرب عمرهم كله وهم يتصارعون من أجله ، فهو صراع على الزعامة والقيادة ، ومرت القرون تلو القرون ولم يقف صراع القبائل بين بعضها من أجل هذه الزعامة.

(١ ، ٢) البخارى (ح ٦٨٣٠).

فماذا تفعل الأمة اليوم وقد توفى نبيها ﷺ ؟ وهل تنجح فى هذا الامتحان أم ترسب ؟ لقد انعقدت جلسة مجلس الشورى ، وتكلم خطيب الأنصار ، وتحدث عن موجبات استحقاق الخلافة فيهم حيث لخصت بأسبقية البلاء والجهاد (فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام) وأسبقية العدد ، فهم الأكثر والمهاجرون طارئون قلة ، فلا يمكن أن يكون لهم الأمر وأهل العاصمة الأصليون موجودون.

كان عمر رضي الله عنه يريد أن يتكلم فحيث لم يتكلم سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو المرشح للخلافة، إنما تكلم من هو دونه،فالأولى كذلك ألا يتكلم الصديق ، وهو المرشح الأول للخلافة عن حزب المهاجرين، وقد أعد الفاروق رضي الله عنه الكلمة المناسبة التى تدحض حجج الأنصار وأعد خطاباً من أهم الخطابات الحاسمة التى تغير الموقف ووقف ليتكلم، فنهاه الصديق ، ولعظمة تربيته فلن يعيد خطيئته مرتين فقد نهاه الصديق عن الكلام قبل ساعتين ، وهو يهدد بقتل من يقول أن محمداً قد مات فما انتهى،ورأى عاقبة السوء فى مخالفته ، ولن يكرر المأساة مرة ثانية وكما قال فى رواية أخرى قلت :

(فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر : على رسلك ، فكرهت أن أغضبه) [(١)].
وفى الرواية الثالثة : (لا أعصى خليفة النبى: ﷺ فى يوم مرتين) [(٢)] .

لقد كان الموقف السياسى الذى ينطلق منه الصديق أعمق غوراً وأبعد أفقاً وأوسع علماً من موقف الأنصار،فالخليفة ليس للمدينة فقط، إنما الخليفة للعرب قاطبة ، وقريش من العرب غيرالأوس والخزرج منها ، فقد كانت العرب تلقى القيادة لقريش فى الجاهلية فهم جيران بيت الله وسدنة بيته ومطعمو حجيجه ، وعمار المسجد الحرام ؛ تحتكم إليهم العرب فى أمورها ، وجاء رسول البشرية قاطبة محمد رسول الله من قريش فيمكن للعرب بهذه المواصفات أن يذعنوا لخليفة من قريش، أما أن يكون من الأوس والخزرج فاحتمال ضعيف جداً أن يقبلوه ، خاصة وليس هناك وصية لخليفة من قبيلة معينة .

ومن هذا المنطلق كان الصديق رضي الله عنه يتحدث، غير أن حكمته رضي الله عنه فى حسن المدخل للحوار مع حزب الأنصار ، وهنا تكمن العبقرية السياسية للصديق ، وتبدو آثار النبوة المنبثة فيه من خلال صحبته الطويلة لرسول الله ﷺ .

(فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً أنزل فى الأنصار ، ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره) [(٣)] ثم انتقل إلى الحديث عن المهاجرين فلم يتناول شيئاً مما ورد فى

---

(١) صحيح ابن حبان ٢/١٥٦ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٤ .
(٣) فتح البارى ١٢/ ١٥٢

فضلهم ، والأنصار أعرف الناس بفضلهم ، إنما وحد النظرة كلها حول مستقبل الأمة ، وموقع قريش منها .

(وفى رواية ابن إسحاق قال : قد عرفتم أن هذا الحى من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لا تجتمع إلا على رجل منهم ،فاتقوا الله لا تصدعوا الإسلام ولا تكونوا أول من أحدث فى الإسلام) .

رابعاً : أبو بكر يرشح عمر وأبا عبيدة :

لقد تكلم فأفحم ، ونطق فأقنع ، وقدم مبادرته السياسية مباشرة بترشيح عمر وأبى عبيدة للخلافة وهو من هو فضلاً ؟! و يكفى من فضله أن رسول الله ﷺ قد اختاره إماماً للمسلمين بعد وفاته ،فهو أهل لهذا الترشيح .

قال : (وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، فأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا فلم أكره مما قال غيرها) وفى بعض الروايات أنه راح يعدد مآثرهما فى أحقيتهما للخلافة ، وأنه سمع رسول الله ﷺ يصف أبا عبيدة بالقوى الأمين .

إن عمر رضي الله عنه هو المرشح الثانى للخلافة بعد أبى بكر،وها هو الصديق يقدمه عليه، وهى فرصة فى التنافس الانتخابى لعمر أن يقبل ترشيح الصديق له ، ونحن حين نتحدث عن نفسيات هؤلاء الصحب الذين تربوا فى مدرسة النبوة نعلم أن هناك مرقى لا يرقى إليه مخلوق غيرهم ، فعمر رضي الله عنه فى العرف الديمقراطى كان من الواجب عليه أن يقبل وقد انسحب أبو بكر لصالحه ، لكن فى العرف الإسلامى العظيم كما قال عن نفسه: (كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى من ذلك إثم أحب إلىَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر).

لقد كان الموت أهون عليه من التقدم على الصديق ، فهل عند أهل الأرض نماذج مثل هذه النماذج فى موقع هو أعلى موقع فى الأمة ، هو الخلافة العظمى ؟ وتبدو عظمة الفاروق ثانية فيما أعقبه من كلامه (اللهم إلا أن تسول إلى نفسى عند الموت شيئا لا أجده الآن) فهذا هو إحساسه منذ الكلمة التى قالها الصديق إلى الآن ، ولا يدرى ما الله فاعل بهذا الإحساس إلى أن يلقى وجه الله ، هل يبقى أم يتغير ؟ وأبو بكر رضي الله عنه يوم يقدم الأمين والفاروق لا يحابى فى دين الله ، ويعلم أنهما أهل لهذا الموقع ومن أجل هذا كانت سرعة المبادرة فى الترشيح قبل أن يتشعب الأمر ،وتختلف الآراء .

خامساً : ازدواجية الإمرة : منا أمير ومنكم أمير :

لقد فعلت خطبة الصديق فعلها الكبير فى الأنصار، فقد استطاع أن يقنع الرأى العام لحزب الأنصار أن المُسَلَّمة التى انطلقوا منها فى أن الخلافة فى الأنصار قد تداعت أمام الحجج الضخمة التى ساقها الصديق فى طاعة العرب للخليفة ، وبدأت سلسلة التنازلات عند الأنصار ، فكان أشد الناس تحمساً للمواجهة يتراجع أمام المنطق السديد والرأى الرشيد والقول الصائب الذى ذكره أبو بكر ؛ ولذلك وقف يعلن رأيا وسطا يراه الحل النهائى للأمر فى عملية التوفيق بين أكثرية الأنصار وأكثرية العرب ، ورأى أنه قد جاء بمالا يمكن النقاش فيه ، وما دونه يمكن القتال عليه .

(فقال قائل من الأنصار : أنا جُذيلها المحكَّك وعُذيقها المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش) (١).

وقد سماه سفيان فى روايته عند البزار فقال : (حباب بن المنذر . . . وزاد سفيان فى روايته هنا وإلا أعدنا الحرب بيننا وبينكم جذعة) (٢) .

وقد علل الخطابى هذا الموقف المتشدد فقال :

الحامل للقائل : منا أمير ومنكم أمير: أن العرب لم تكن تعرف السيادة على قوم إلا لمن يكون منهم ، وكأنه لم يبلغه حكم الإمارة فى الإسلام ، واختصاص ذلك بقريش ، فلما بلغه أمسك عن قوله : وبايع هو وقومه أبا بكر .

والحباب بن المنذر ليس نكرة عند المهاجرين ولا عند الأنصار؛ فهو المستشار العسكرى للرسول ﷺ ، وقد غير رسول الله ﷺ رأيه مرتين استجابة للحباب وكان ذلك فى بدر وخيبر، والطريف أنه استعمل التعبير نفسه يوم أشار على رسول الله ﷺ ذلك. أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، كناية عن خبرته العظيمة فى الحرب .

قال يوم بدر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال :

يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ،ثم نقاتل القوم ،

(١) البخارى من الحديث (٦٨٣٠) .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٤ / ١٢١ .

فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى » فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه (١) .

وهو صاحب الموقف المشهور كذلك فى خيبر ، حيث اختار الموقع الاستراتيجى للجيش الإسلامى .

وقد أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يحسم الأمر من الجانب السياسى والاختيار الحر قبل أن يلزمهم بالنص فكان مما قاله كما فى مغازى ابن عقبة عن ابن شهاب الزهرى :

(كنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ، ونحن عشيرته وأقاربه وذوو رحمه ، ولن تصلح العرب إلا برجل من قريش ، فالناس لقريش تبع ، وأنتم إخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى دين الله . وأحب الناس إلينا وأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله ، والتسليم لفضيلة إخوانكم وألا تحسدوهم على خير) (٢) .

وعاد الحباب بن المنذر ليؤكد صدق مقولة أبى بكر الصديق رضي الله عنه لكنه ساق الحجة الأقوى فى ازدواجية الإمارة ، كما فى الرواية عند أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه :

(فقام خطيب الأنصار فقال : إن رسول الله كان إذا استعمل رجلاً منكم قرنه برجل منا ، فتبايعوا على ذلك) (٣) وفى رواية (فإن عمل المهاجرين شيئاً فى الأنصار رد عليه الأنصارى ، وإن عمل الأنصارى شيئاً فى المهاجرين رد عليه المهاجرى وأدرك عمر أن الجدل يطول ، فضبط أعصابه قائلاً للحباب :

هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد .

يقول عمر رضي الله عنه : فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف .

فقد كان كلام أبى بكر رضي الله عنه يفعل فعل السحر فى نفوس الأنصار فكان أن وقف زيد بن ثابت رضي الله عنه - سيد شباب الأنصار ، ومن قال فيه رسول الله ﷺ : « وأقضاكم زيد » وفى رواية : « وأفرضكم زيد » :

إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وإنما الإمام من المهاجرين فنحن أنصار الله كما كنا أنصار رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : جزاكم الله خيراً) (٤) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢ / ١٩٨ .   (٢ ، ٣) فتح البارى ٧ / ٣٨٣ .

(٤) فتح البارى ٧/ ٣٨٣ وهى رواية أحمد عن أبى نضرة عن أبى سعيد .

سادساً : ترادف الإمرة : مهاجرى ثم أنصارى :

لقد كان الكلام حتى الآن ينصب فى الجانب السياسى ، فمن حق كل امرىء أن يبدى رأيه ويتقدم بقناعاته ، ورغم أن فريقاً من الأنصار اقتنعوا بكلام الصديق وسلموا بالإمرة للمهاجرين ، لكن لازال فريق منهم يرى أن الأنصار شركاء فى هذا الحق ، ومن أجل ذلك طرحت فكرة جديدة على التداول ؛وهى تتابع الإمرة بين المهاجرين والأنصار عوضاً عن اشتراكهم فيها .

(وقال فيه : إن الأنصار قالوا :

نختار رجلاً من المهاجرين وإذا مات اخترنا رجلاً من الأنصار ، فإذا مات اخترنا رجلاً من المهاجرين كذلك أبدا فيكون أجدر أن يشفق بالقرشى إذا زاغ أن ينقض عليه الأنصارى وكذلك الأنصارى) إنه تداول السلطة كما هو المطروح فى الدول الديمقراطية اليوم .

وكان موقف عمر رضي الله عنه شديداً من هذا الاقتراح فقال :

لا والله ،لا يخالفنا أحد إلا قتلناه .

وتالم أبو بكر رضي الله عنه لحدة عمر ونهاه عن ذلك قائلاً: لا يا عمر ها هنا فالرفق أبلغ.

سابعًا : احتدام الموقف والتهديد بالقوة :

ورغم أن الصديق رضي الله عنه كف عمر عن هذه اللهجة وطالبه بالرفق مع إخوانه من الأنصار فكان أن انبرى الحباب بن المنذر رضي الله عنه ليعلن استعداده للحرب والمواجهة بين الفريقين إن أرادوا استعمال القوة لفرض الرأى قال :

أنا عذيقها المرجب ، وجذيلها المحكك ، إن شئتم رددناها جذعة .

وأدرك عمر رضي الله عنه استعمال التهديد فى هذه المداولات، وعاد إلى منطقه الأول يستعمل المحاجة والمناقشة ورأى أن خير ما ينطلق منه هو الدعوة لمرشح المهاجرين أبى بكر رضي الله عنه ، وأبو بكر أحلم منه وأوقر،وهو شيخ المسلمين جميعاً وإمامهم فى الصلاة .

ثامناً : ترشيح الصديق ومؤهلاته :

(فأتاهم عمر فقال : يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أن رسول ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر بعد ذلك ؟

قالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر) [١] .

وفي فتح الباري :

ووقع في حديث ابن مسعود عند أحمد والنسائي من طريق عاصم عن زر بن حبيش أن عمر قال :

(يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر) وسنده حسن وله شاهد من حديث سالم بن عبيد الله عن عمر أخرجه النسائي أيضاً ، وآخر من طريق رافع بن عمرو الطائي أخرجه الإسماعيلي في مسند عمر بلفظ : (فأيكم يجترئ أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا : لا أينا وأصله عند أحمد وسنده جيد) [٢] .

وتقدم عمر رضي الله عنه خطوة ثالثة .

فبعد حجة الإمامة ، حجة الرفقة في الهجرة :

(ووقع في رواية ابن إسحاق المذكورة فيما أخرجه الذهلي في الزهريات بسند صحيح عنه حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس عن عمر ، قلت :

يا معشر الأنصار ، إن أولى الناس بنبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار ، ثم أخذت بيده) [٣] .

تاسعاً : النص يحسم الموقف :

لقد اتجهت جماهير الأنصار إلى القناعة بخلافة الصديق بعد الاستدلالات والحجج العظيمة التي ساقها الفاروق عمر رضي الله عنه ،لكن سعد بن عبادة رضي الله عنه صامت لا يتكلم ، والذي حمل لواء المعارضة باسم الأنصار الحباب بن المنذر رضي الله عنه ، بينما حمل عمر لواء حزب المهاجرين ، وعندما رأى الصديق رضي الله عنه أن الموقف قد اقترب من الاتفاق وسعد صامت كان لابد أن يأتي بالنص الشرعي الذي يحسم الموقف ، ويزيل كل الشبهات ، ويضطر سعداً ليعلن رأيه وهو المرشح الوحيد للخلافة من حزب الأنصار .

(قال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن داود بن عبد الله الأزدي عن

---

(١) تاريخ أنساب الأشراف للبلاذري ٢/ ٢٦١ ،وفتح الباري ١٤/ ١٢٤ .

(٢، ٣) فتح الباري ١٤ / ١٢٢ .

حميد بن عبد الرحمن قال :

توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ فى صائفة من المدينة ، قال : فجاء فكشف عن وجهه فقبله ، فداك أبى وأمى ما أطيبك حياً وميتاً ، مات محمد ورب الكعبة (فذكر الحديث) .... فانطلق أبو بكر وعمر يتعادان حتى أتوهم (أى الأنصار) فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً أنزل فى الأنصار ولا ذكره رسول الله من شأنهم إلا ذكره وقال :

لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لوسلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادى الأنصار ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال - وأنت قاعد :

« قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبعا لفاجرهم » (١).

فقال له سعد : صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء) .

لقد أنهت كلمة سيد الأنصار الموقف ، واقتنعت قيادات الأنصار أن الخليفة من قريش ، لكن لم يحسم الأمر بعد فى مرشح قريش لها رغم أن الأكثرية ترى فى أبى بكر أفضل المرشحين بلا منازع .

وحاول الحباب بن المنذر محاولته الأخيرة قبل أن تتجه الأنظار إلى حزب المهاجرين أن يلقى آخر سهم فى جعبته فى الدفاع عن رأيه معترفاً بأن الحق للمهاجرين فى ذلك .

(عند ابن سعد بسند صحيح من مرسل القاسم بن محمد قال : اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فقام الحباب بن المنذر وكان بدرياً فقال : منا أمير ، ومنكم أمير ، فإنا والله ما ننفس عليكم هذا الأمر ، ولكنا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم فقال عمر: إن كان ذلك ، فمت إن استطعت) (٢).

أما فى رواية البلاذرى :

(ثم قال أبو بكر : نحن أول الناس إسلاماً ، وأوسطهم داراً ، وأكرمهم أنساباً وأمسهم برسول الله ﷺ رحماً ، وأنتم إخواننا فى الإسلام ، وشركاؤنا فى الدين ، نصرتم ، وآويتم ، وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ولن تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال :

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢١٧/٥ وهى عند أحمد .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٤ / ١٢١ .

«الأئمة من قريش» ، فأنتم أحقاء ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم، فقال الحباب: ما نحسدك ولا أصحابك ، ولكنا نخشى أن يكون هذا الأمر فى أيدى قوم قتلناهم، فحقدوا علينا. فقال أبوبكر: إن تطيعوا أمرى تبايعوا أحد هذين الرجلين، أبا عبيدة وكان عن يمنيه أو عمر بن الخطاب وكان عن يساره . . .) (١) .

عاشراً : أبو بكر خليفة المسلمين :

ولعل الصديق عاد فرشح أبا عبيدة وعمر رضي الله عنهما فلم يكن بد أن يحسم عمر رضي الله عنه الموقف بالنسبة لمرشح المهاجرين ، وهو الفاروق الذى يفرق الله به المواقف فى اللحظات الحاسمة ، والأنصار ينتظرون الحسم من قيادة المهاجرين بعد أن أعلن سعد تنازله عن الترشيح بقوله للصديق : صدقت ، أنتم الأمراء ونحن الوزراء ، ونَدع لابن حجر رحمه الله يحدثنا عما تناهى له من أخبار فى هذا الشأن وهو الذى يمحص المواقف والأخبار .

(قوله : (فأخذ عمر بيده فبايعه) فى رواية ابن عباس عن عمر (قال فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف ، فقلت ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم الأنصار) وفى مغازى موسى بن عقبة عن ابن شهاب (فقام أسيد بن حضير ، وبشير بن سعد وغيرهما من الأنصار فبايعوا أبا بكر ، ثم وثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة ،ووقع فى حديث سالم بن عبيد عند البزار فى قصة الوفاة : فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال عمر وأخذ بيدى أبى بكر :

أسيفان فى غمد واحد ؟ لا يصطلحان، وأخذ بيد أبى بكر فقال :

من له هؤلاء الثلاثة، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ من هما ؟ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ من صاحبه ؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] مع من ؟ ثم بسط يده فبايعه ، فقال : بايعوه فبايعه الناس)(٢) .

لقد حمل عمر رضي الله عنه عبء الترشيح للصديق رضي الله عنه وقدم للناس من كتاب الله ثلاث ميز اختص الله بها أبا بكر ولم يختص فيها أحداً من المسلمين على الإطلاق ، وفيهم صحابة رسول الله جميعاً بلا استثناء من له هذه الثلاثة ؟

« إذ هما فى الغار » من هما ؟ والجواب: محمد رسول الله وأبو بكر الصديق .

---

(١) تاريخ أنساب الأشراف للبلاذرى ١/ ٢٦٣ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٨٣، ٣٨٤ .

« إذ يقول لصاحبه » من صاحبه ؟ والجواب . أبو بكر الصديق الذى ذكرت صحبته فى كتاب الله .

« إن الله معنا » مع من ؟ والجواب :مع محمد رسول الله وصاحبه الصديق .

وكان سبق وذكر من قبل بأنه الذى اختاره رسول الله ﷺ إماماً للمسلمين فى الصلاة، فمن يجرؤ أن يتقدم على أبى بكر ؟

وكان أول من استجاب لعمر رضي الله عنه بعد أن أخذ يد أبى بكر ، وقبل أن يبايعه هو بشير بن سعد رضي الله عنه من الخزرج .

فقد أخرج ابن سعد:من طريق القاسم بن محمد:(أن النبى ﷺ لما توفى اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، قال:فقام حباب ابن المنذر ـ وكان بدرياً ـ فقال : منا أمير ومنكم أمير ، فإنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط ، ولكنا نخاف أن يليها ـ أو قال يليه ـ أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم ، فقال له عمر : إذا كان ذلك فمت إن استطعت ، فتكلم أبو بكر فقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء وهذا الأمر بيننا وبينكم نصفين كَقَدّ الأَبْلُمَة ـ يعنى : الخوصة ـ فبايع أول الناس بشير بن سعد أبو النعمان . . .) (١).

وفى رواية ابن إسحاق عن عمر رضي الله عنه : (ثم أخذت بيده ، وبدرنى رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ، ثم ضربت على يده فتتابع الناس والرجل المذكور بشير بن سعد والد النعمان) (٢) .

وبشير بن سعد من سادات الخزرج ، وبعد أن سمع قول سيد الخزرج مصدقاً للصديق بقوله : صدقت ، أنتم الأمراء ونحن الوزراء ، وما أن أخذ عمر بيد الصديق رضي الله عنه وعدد له هذه المآثر الثلاثة لم يتمالك نفسه أن يكون أول من بايع الصديق فى الأرض ، وبشير رضي الله عنه كما ذكره ابن الأثير (بشير بن سعد . . . بن الحارث بن الخزرج يكنى :أبا النعمان بابنه النعمان بن بشير شهد العقبة الثانية وبدراً وأحداً والمشاهد كلها بعدها يقال : إنه أول من بايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه فى السقيفة من الأنصار ، وقتل يوم عين التمر مع خالد بن الوليد بعد انصرافه من اليمامة سنة اثنتى عشرة) (٣) .

وكان أسيد بن حضير رضي الله عنه سيد الأوس بلا منازع بعد استشهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١٨٢ .
(٢) فتح البارى ١٤ / ١٢٢ .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ١٩٥ .

وحتى لا تحسب عليه نفاسة بين الأوس والخزرج ، فما أن رأى أسيدُ سيداً عظيماً من سادات الخزرج قد سبقه حتى سارع مباشرة ، وبايع أبا بكر ، وتتابع الناس يتزاحمون على بيعه الصديق وأغلبهم من الأنصار حتى كادوا يطؤون سعد بن عبادة فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ، فقلت : قتل الله سعد بن عبادة ، وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من بيعة أبى بكر) (١) .

حادى عشر : البيعة العامة :

لقد انتهت الأزمة العظمى على الخلافة خلال عدة ساعات قد لا تتجاوز الثلاث ، وأثبت هذا الجيل العظيم عمق التربية النبوية له ، وقدرته على مواجهة أعظم الأزمات وأعنفها ، وأظهر ميلاد أمة جديدة مُوَحَدَةً ومُوَحِدَةً ،تجاوزت دولة القبيلة ودولة المدينة إلى الدولة الكبرى القومية المسلمة .

وبرزت آثار هذه التربية الخالدة ، ولا يزال جسد النبى ﷺ الشريف لم يوار التراب بعد وعرفت هذه الأمة تقدير الأولويات ، فوحدة الأمة وإقامة الخلافة مقدم على تجهيز رسول الله ﷺ ، والحديث عن البيعة العامة ندعه لابن كثير ـ رحمه الله ـ الذى جمع النصوص ، ووثق الأحاديث ، وقدم الصورة كاملة بحيث لا تحتاج إلى أى تعليق :

يقول رحمه الله :

(قال محمد بن إسحاق : حدثنى الزهرى حدثنى أنس بن مالك قال :

لما بويع لأبى بكر فى السقيفة،وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر،وقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:أيها الناس،إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهدها إلىَّ رسول الله، ولكنى كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيد بر أمرنا ـ يقول : يكون آخرنا (٢) ـ والله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله

(١) البخارى (ح ٦٨٣٠) .

(٢) ويفسر هذا المعنى ما أخرجه الطبرى بسنده عن عبد الله بن عباس قال : والله إنى لأمشى مع عمر فى خلافته وهو عامد إلى حاجة له ، وفى يده الدرة ، وما معه غيره قال وهو يحدث نفسه ويضرب وحشى قدمه بدرته إذ التفت إلى فقال : يا ابن عباس ،هل تدرى ما حملنى على مقالتى هذه التى قلت حين توفى الله رسوله ؟ قلت : لا أدرى يا أمير المؤمنين وأنت أعلم،قال : والله إن حملنى على ذلك إلا أنى كنت أقرأ هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] فوالله إنى كنت لأظن أن رسول الله سيبقى فى أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه للذى حملنى على أن قلت ما قلت) تاريخ الطبرى/ ٢/ ٢٣٨ .

له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ؛صاحب رسول الله ﷺ وثانى اثنين فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد :

أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوى عندى حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل،ولا يشيع قوم الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء،أطيعونى ما أطعت الله فيكم،فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم،قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) وهذا إسناد صحيح فقوله رضي الله عنه :وليتكم ولست بخيركم ، من باب الهضم والتواضع فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم .

وقال الحافظ البيهقى :(أخبرنا أبو الحسن على بن محمد الحافظ الإسفراييني ... حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس فى دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر ،قال : وقام خطيب الأنصار فقال : تعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وخليفته من المهاجرين ، ونحن كنا أنصار رسول الله ، ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره ، فقام عمر بن الخطاب فقال : صدق قائلكم أما لوقلتم على غير هذا لم نبايعكم ، وأخذ بيد أبى بكر وقال : هذا صاحبكم فبايعوه فبايعه عمر وبايعه المهاجرون والأنصار ، قال: فصعد أبو بكر المنبر فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير ، قال : فدعا بالزبير فجاء،فقال : قلت ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ؟! قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه ، ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً ، فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء فقال : قلت: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته تريد أن تشق عصا المسلمين ؟! قال :لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه) ، هذا أو معناه .

وقال أبو على الحافظ: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : جاءنى مسلم ابن الحجاج فسألنى عن هذا الحديث فكتبته له فى رقعة وقرأته عليه،وهذا حديث يسوى بدنة، بل بدرة (١) . وقد رواه البيهقى عن الحاكم وأبى محمد المقرى ... ولكن ذكر أن الصديق هو القائل لخطيب الأنصار بدل عمر وفيه أن زيد بن ثابت أخذ بيد أبى بكر،

---

(١) البدرة : كيس من الدراهم .

فقال : هذا صاحبكم فبايعوه ، ثم انطلقوا ، فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر فى وجوه القوم ، فلم ير علياً ، فسأل عنه فقام ناس من الأنصار فأتوا به ، فذكر نحو ما تقدم .

ثم ذكر قصة الزبير بعد على ، فالله أعلم ، وقد رواه على بن عاصم عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى فذكر نحو ما تقدم ، وهذا إسناد صحيح محفوظ من حديث أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى ، وفيه فائدة جليلة : وهى مبايعة على بن أبى طالب إما فى أول يوم ، أو فى اليوم الثانى من الوفاة ، وهذا حق ، فإن على بن أبى طالب لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه كما سنذكره ، وخرج معه إلى ذى القصة (١) لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة كما سنبينه قريباً .

ولكن حصل من فاطمة عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ . . . فحصل لها عتب وغضب ولم تكلم الصديق حتى ماتت واحتاج على أن يراعى خاطرها بعض الشيء ، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى على أن يجدد البيعة (٢) مع أبى بكر ، سنذكره من الصحيحين وغيرهما فيما بعد ، ويزيد ذلك صحة قول موسى بن عقبة فى مغازيه عن سعد بن إبراهيم :حدثنى أبى : أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير ثم خطب أبو بكر واعتذر للناس وقال :

(ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة ، ولاسألتها فى سر ولا علانية ، فقبل المهاجرون مقالته ، وقال على والزبير :

ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلى بالناس وهو حى) إسناد جيد ولله الحمد والمنة) (٣).

ونحمد الله عز وجل على غضب على والزبير ، فقد أصَّلا لنا أصولاً فى الفقة السياسى الإسلامى؛أن مجلس الشورى لابد له من انعقاد بكامل أعضائه واستشارتهم ،

---

(١) ذو القصة : مكان أول معركة مع المرتدين .

(٢) وهذا الذى أوهم الزهرى فحسب أنها البيعة الأولى كما فى البخارى .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٥ / ٢١٨ .

وعلى ضوء ذلك يتم اختيار خليفة المسلمين بالأغلبية ، وما جرى لأبى بكر هو حالة استثنائية لا يقاس عليها (فلتة وقى الله شرها) ، كما ذكر عمر أمير المؤمنين ، وهو الذى وضع لنا كذلك أصلاً عظيماً من أصول الفقه السياسى الإسلامى ؛ وهو أن الذى يريد أن يستأثر بالخلافة أو السلطة دون رأى الأمة فقد عرض نفسه وعرض مرشحه للقتل كما يقول عمر رضي الله عنه .

(فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا) (١).

(وفى رواية معمر من وجه آخر عن عمر :(من دعى إلى إمارة من غير مشورة فلا يحل له أن يقبل) (٢) .

وفيه أن العظيم يحتمل فى حقه من الأمور المباحة ما لا يحتمل فى حق غيره لقول عمر : (وليس فيكم من تمد إليه الأعناق مثل أبى بكر) ،(فلا يلزم من احتمال المبادرة إلى بيعته من غير تشاور عام أن يباح ذلك لكل أحد من الناس لا يتصف بمثل صفة أبى بكر) (٣) .

ونقدم ختاما للبحث روايتين عند الطبرى تعطيان الجواب على كل التساؤلات .

روى الطبرى بسنده عن الوليد بن جُميع الزهرى قال:(قال عمرو بن حريث لسعيد ابن زيد :

أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : فمتى بويع أبو بكر ؟ قال :

يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة .

قال : فخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد ، لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار ، قال : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال :

لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم) (٤) .

وفى رواية أخرى عن حبيب بن أبى ثابت قال:(كان علىٌّ فى بيته إذ أُتِىَ فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فتجلله ، ولزم مجلسه) (٥).

(١) البخارى من حديث (٦٨٣٠) .
(٢ ، ٣) فتح البارى ١٤/ ١٢٣ .
(٤ ، ٥) الطبرى ٢/ ٢٣٦ .

ورأى الصحابى سعيد بن زيد مقدم عندنا على رأى التابعى الزهرى فى بيعة على ، وما أعظم تعليل سعيد عاشر العشرة حول إقامة الخلافة: كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة إنها أمة بلغت الرشد على يد نبيها ،وحق لها أن تمسك بمقود التاريخ.

تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه

غَسلُ رسول الله ﷺ :

(قال ابن إسحاق : فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ، فحدثنى عبد الله بن أبى بكر وحسين بن عبد الله وغيره من أصحابنا : أن على بن أبى طالب،والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله ﷺ هم الذين ولوا غَسله ، وأن أوس بن خولى أحد بنى عوف بن الخزرج قال لعلى بن أبى طالب : أنشدك الله يا على وحظنا من رسول الله ﷺ ؟ وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر ، قال : ادخل ، فدخل فجلس ، وحضر غسل رسول الله ﷺ ، فأسنده على بن أبى طالب إلى صدره ،وكان العباس وقثم يقلبونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلى يغسله، قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله ﷺ وعلى يقول :بأبى أنت وأمى ما أطيبك حياً وميتاً) .

اغسلوا النبى وعليه ثيابه :

(قال ابن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة قالت : لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه ، فقالوا :

والله ما ندرى أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ قالت : فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو :أن اغسلوا النبى وعليه ثيابه، قالت : فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم) .

كفنه ﷺ :

(فلما فرغ من غَسلِ رسول الله ﷺ كُفِّنَ فى ثلاثة أثواب ؛ ثوبين صُحَارِيَّين ، وبرد حبرة أدرج فيه إدراجاً ، كما حدثنى جعفر بن محمد بن على بن الحسين عن أبيه

عن جده على بن الحسين) .

حفر قبره :

(قال ابن إسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال :

لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يَضْرَحُ كحفر أهل مكة وكان أبو طلحة زيد بن سهيل هو الذى يحفر لأهل المدينة ، فكان يلحد ، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وللآخر اذهب إلى أبى طلحة : اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ ، فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة ، فجاء به ، فلحد لرسول الله ﷺ) .

الصلاة عليه ﷺ :

(فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ، وضع على سريره فى بيته ، وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه ، فقال قائل : ندفنه فى مسجده وقال قائل : بل ندفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض » ،فرفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه ، فحفر له تحته ، ثم دخل الناس يصلون عليه أرسالاً ؛ الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد) .

ساعة دفنه ﷺ :

(ثم دفن رسول الله ﷺ وسط الليل ، ليلة الأربعاء .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر عن امرأته فاطمة بنت عمارة عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا أصوات المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء ، قال محمد بن إسحاق : وقد حدثتنى فاطمة هذا الحديث) .

النازلون فى قبره ﷺ :

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب :يا على ، أنشدك الله ، وحظنا من رسول الله ﷺ ؟ فقال له : انزل ، فنزل مع القوم ، وكان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته وبنى عليه

قد أخذ قطيفة قد كان رسول الله ﷺ يلبسها فدفنها مع القبر وقال :

والله لا يلبسها أحد بعدك يا رسول الله) [1] .

إنه المصطفى الحبيب ﷺ إن كان يموت كما يموت البشر ، فلابد أن يغسل ويصلى عليه ويدفن كما هو الحال مع البشر ، وإذا كان سيد الخلق ﷺ قد فاضت روحه بين يدى زوجه الحبيب عائشة رضوان الله عليها ، وعلى صدرها شخص بصره ، ومال رأسه على كتفها وهى ابنة التاسعة عشرة . فلا غرو أن يُغَسَّلَ على صدر أخيه فى الدنيا والآخرة وابن عمه وختنه على ابنته فاطمة ؛ على بن أبى طالب ، وهو ابن الحادية والثلاثين من عمره ، وهو الذى يقوم بدلكه فى ثيابه كما سمعوا فى ذلك الصوت العلوى الذى منعهم من تجريده من ثيابه،والأنصار الذين هم عصبة النبى ﷺ وأحبابه وجنوده الذين اختارهم على الخلق كافة « المحيا محياكم والممات مماتكم »، لا غرو أن يطالبوا بحقهم فى المشاركة فى حضور غسل النبى ﷺ ، والذين تكلم ناطقهم أوس بن خولى بهذا الحق ، وأن يدخل ويكون له هذا الشرف باسم أهله الأنصار وإذا كان الإذن لم يعط للمسلمين فى تجريده من ثيابه من أجل الغسل فمن باب أولى ألا يعط الإذن من تجريده منها من أجل التكفين ، ومن أجل هذا تشرفت ثلاثة أثواب بأن ترافقه مع قميصه الذى عليه إلى قبره ﷺ ، ثوبان من صنع صحار ، وثوب حبرة أدرج فيهما رسول الله ﷺ إدراجا ، وذاك شقران المحب الوله الذى يعرف تلك القطيفة التى كان يلبسها رسول الله ﷺ لم يتمالك وقد تجمد الدمع فى مآقيه من أن يقذفها مع جسده الشريف فى القبر ، فلن يلبسها أحد بعدك .

وماذا تستطيع القلوب أن تحتمل فتخفى رسول الله ﷺ عن ظاهر الأرض ، وقد اشتاق باطنها له ، وكان عرسه يوم سيفد إليه رسول الله ﷺ ، فإذا كان ظاهر هذه الأرض قد تشرف به ثلاثة وستين عاماً فسيسعد به باطنها حتى تقوم الساعة ، وتكون أشرف بقعة فى الأرض بلا منازع هى التى حوت جسده الشريف بإجماع العلماء، فإذا كان ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة فكيف بالمكان الطاهر الذى فيه قبره والذى حوى جسده ، لقد أنَّ الجذع وحَنَّ لفراقه ، أفلا تتيه البقعة العظيمة التى نزل بها على كل بقاع الأرض ؟ ويبقى ظاهر الأرض غير محروم منه؛حيث أقام عشر سنوات ينام فيه ﷺ ، ويبقى هو الغطاء للرسول الحبيب صلوات الله عليه .

لقد اختلف المسلمون أين يدفنوه ؛ فى مسجده أم فى البقيع مع أصحابه ؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٧٧/٢ ـ ١٠٧٩ .

ولم يكونوا يدرون أن هذا البيت ؛بيت عائشة رضي الله عنها ، وبيت استضافة الوحى ، وبيت ذكريات المصطفى ﷺ هو الأسعد فى هذا الوجود باستضافته،وجاء الصديق رضي الله عنه ليحل المعضلة الكبرى قائلاً :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض... » .

فرفعوا سريره ﷺ ليحفروا قبره حيث قبض ، وحيث عاش أبرك سنوات الوحى للأمة بجوار مسجده العظيم ، وبجوار روضة الجنة؛ ليكون مكان جسده الشريف أفضل من هذه الروضة .

وذاك العباس العظيم الحكيم الذى بعث لأبى عبيدة رضي الله عنه الذى كان يضرح على طريقة أهل مكة ،وأبى طلحة الذى كان يلحد على طريقة أهل المدينة ، وترك الأمر لخيرة الله عز وجل قائلاً : اللهم خِرْ لرسولك ،واختار الله عز وجل لنبيه أن يلحد على طريقة أهل المدينة الأنصار الذين قال فيهم : « لو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، والله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » . فكان اللحد على الطريقة الأنصارية ، من أبى طلحة الذى حمى رسول الله ﷺ بصدره من سهام العدو يوم أحد .

وكانت السهام تغرز فى صدره لا يصل منها شىء لحبيبه المصطفى ﷺ قائلاً : صدرى دون صدرك ، ونحرى دون نحرك ، وكان رسول الله ﷺ ينادى من كان فى كنانته سهام فلينثرها لأبى طلحة ،هو هو نفسه الذى وقاه من الموت والجرح ومس العدو يوم أحد ، وفداه بروحه ودمه وجسده لم يستطع الآن أن يفديه من الموت وكانت سهام الألم والحب يتجرعها غصصاً على فراقه ، وكانت أشد وأوقع فى نفسه من سهام أحد، أهو هو الذى فداه بروحه ودمه ؟ هو الذى يحفر له قبره ليواريه الثرى مع إخوانه ؟ إنه القدر المحتوم على الصحب أن يدفعوا ضريبة الحب ، وفجيعة القلب لفراق من هو أحب إليهم من سمعهم وأبصارهم وأبكارهم وأولادهم وكل شىء فى حياتهم .

لقد كانت هذه البطولة والرجولة أعظم بكثير من بطولات أحد والخندق وخيبر؛ أن يقوموا بدفنه ﷺ ، بيديهم - حتى لم تطق فاطمة رضي الله عنها أن تتصور هذا المشهد (فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب) (١) .

---

(١) البخارى (ح ٤٤٦٢) .

وماذا يجيب أنس الحبيب المفجوع ابن العشرين عاماً لفاطمة بنت محمد ﷺ إلا الصمت ، فزوج أم أبو طلحة هو الذى ألحد وهو الذى حفر ،وزوج فاطمة رضي الله عنها هو الذى وارى وهو الذى حثا ، ومقام التجلد هذا لا يملكه إلا الرجال العظام .

وها هى اللحظات الأخيرة والوداع الأخير للدنيا من حبيبها المصطفى ﷺ ،فقد نزل فى قبره ﷺ ابن عمه وأخوه الحبيب علىٌ ،ونزل فيه قثم بن العباس شبهه من أهله، ونزل فيه الفضل بن عباس الذى أردفه خلفه فى حجة الوداع ، وشقران الذى أفنى حياته مع النبى ﷺ ؛هم الذين كانوا آخر من ودعه عليه الصلاة والسلام، وهم الذين لحدوه ، وهم الذين واروه ، ولم يفت الأنصار أن يشاركوا فى هذا الشرف فهذا أوس ابن خولى رضي الله عنه الذى حضر ممثلاً للأنصار فى الغسل ، يشهد اللحظات الأخيرة مع على والفضل وقثم ، ممثلاً للأنصار فى المواراة .

ويزعم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ حين ألقى خاتمه فى القبر ، واستأذن فى إحضاره ليقبل المصطفى ﷺ ويلقى عليه نظرة الوداع ، وصعد هؤلاء ؛ ممثلوا البشرية كلها فى الوداع الأخير ، ليوارى عليه الصلاة والسلام ويُغيِّب جسده عن سطح الأرض التى أظلَّمت بفراقه .

وإن كنا نتحدث فما للشعر لا نستمع إليه ؟ والذى تجسد بشاعر النبوة الأعظم ﷺ؛ حسان بن ثابت علنا نحيا تلك اللحظات الخالدة من تاريخ البشرية .

أولا : رثاؤه ﷺ :

وقال حسان بن ثابت يبكى رسول الله ﷺ فيما حدثنا ابن هشام عن أبى زيد الأنصارى نسوق مقتطفات منه .

ماذا يوجد فى طيبة ؟

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحى الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آثار وباقى معالم ... وربع له فيها مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها وراه فى الترب ملحد

وما هو حاله فقدان حبيبه ؟

ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضُمِّن طَيِّباً ... عليه بناء من صفيح منضد

والمسلمونَ ما هو حالهم ؟

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يُبَكُّون من تبكى السموات يومه ... ومن بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد ؟
تقطع فيه منزل الوحى عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
فبينا هم فى ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد

وكيف صارت الدنيا والأرض بعد فراقه ؟

وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحى تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيد يبكيه بلاط وغرقد

وما هو واجبك يا عين ؟

فبكى رسول الله ياعين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
فجودى عليه بالدموع وأعولِى ... لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد

إنه رسول الله .

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة ... وأقرب منه نائلاً لا ينكد
وأبذل منه الطريف وتالد ... إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتاً فى البيوت إذا انتمى ... وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات وأثبت فى العلا ... دعائم عز شاهقات تشيد

أقول :

أقول ولا يلقى لقولى عائب ... من الناس إلا عازب العقل مبعد
وليس هواى نازعاً عن ثنائه ... لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد (١)

هذه هى المرثية الأولى ، وتطالعنا مرثيته الثانية :

جزع على المهدى :

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً ... ياخير من وطئ الحصى لا تبعد
وجهى يقيك الترب لهفى ليتنى ... غيبت قبلك فى بقيع الغرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متبلداً ... متلددا ياليتنى لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... ياليتنى صُبِّحت سم الأسود

من أبكى ؟

يا بكر آمنة المبارك بكرها ... ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها ... من يُهد للنور المبارك يهتدى

وأهلى الأنصار :

يا ويح أنصار النبى ورهطه ... بعد المغيب فى سواء الملحد
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا ... سوداً وجوههم كلون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبره ... وفضول نعمته بنا لم نجحد
والله أكرمنا به وهدى به ... أنصاره فى كل ساعة مشهد
صلى الإله ومن يحف بعرشة ... والطيبون على المبارك أحمد (٢)

وهذه لقطات من المرثية الثالثة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبى الأمة الهادى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٦٨، ٦٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٦٦٩ ـ ٦٧١ .

ولا برا الله خلقاً من بريته أوفى بذمة جار أو بميعاد

ونساؤك يا رسول الله :

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما يضربن فوق قفا ستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المباذل قد أيقن بالبؤس بعد النعمة البادى
يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادى (١)

ويشارك كعب بن مالك رضي الله عنه شاعر النبوة الثانى بقوله: مما وصل إلينا :

يا عين فابكى بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى
وبكى الرسول وحق البكاء عليه لدى الحرب عند اللقا
على خير من حملت ناقة وأتقى البرية عند التقى
على سيد ماجد جحفل وخير الأنام وخير اللها
له حسب فوق كل الأنام من هاشم ذلك المرتجى
نخص بما كان من فضله وكان سراجاً لنا فى الدجى
وكان بشيراً لنا منذراً ونوراً لنا ضوؤه قد أضا
فأنقذنا الله فى نوره ونجى برحمته من لظى (٢)

ويطالعنا أبو سفيان بن الحارث أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة وشاعر مكة الفحل يشارك فى رثاء حبيبه المصطفى ﷺ مما وصل إلينا :

أرقت وبات ليلى لا يزول وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحى والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل
وذلك أحق ما سالت عليه نفوس الناس أو كربت تسيل
نبى كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه وما يقول

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٧١ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

ويهدينا فلا نخشى ضلالاً   علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر   وإن لم تجزعى ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر   وفيه سيد الناس الرسول (١)

وهذا شاعر هزيل أبو ذؤيب يشارك فى هذا الرثاء :

لما رأيت الناس فى علاتهم   من بين ملحود له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم   نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت   جار الهموم يبت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها   وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجبال يثرب كلها   ونخيلها لحلول خطب مفدح
ولقد زجرت الطير قبل وفاته   بمصابه وزجرت سعد الأذبح (٢)

وتلك ذرى اليمن وجبالها ووهادها وجنانها تتجاوب مع وفاة الرسول ﷺ ينقلها لنا شاعر اليمن مران بن أبى مران وكان من ملوك همدان وأسلم فيمن أسلم :

إن حزنى على الرسول طويل   ذاك منى على الرسول قليل
قلت والموت يا أمام كريه   ليتنى مت يوم مات الرسول
ليتنى لم أكن لقيت فراقاً   بعده والفراق منى يطول
بكت الأرض والسماء عليه   وبكاه خليله جبريل
يالها كربة أصيب بها الناس   تولت وحان منها الرحيل (٣)

عبد الله بن سلمة الهمدانى :

لقد هزت وفاة رسول الله ﷺ كل قلب، وهيجت كل نياط فيه، لكن هيهات أن تصلنا تلك النفثات والآهات، فهذه أشعار ضمن إطار القبيلة الواحدة ،فمن مران إلى ابن سلمة:

إن فقد النبى صرّعنا اليوم   فدته والأسماع والأبصار
وفدته النفوس ليس من   الموت فرار وأين الفرار

(١ ، ٢) ذهول العقول لوفاة الرسول ﷺ لأبى تراب الظاهرى .
(٣) منح المدح لابن سيد الناس ص ١٥٩، ١٦٠ .

ما أصيبت به الغداة قريش ولا أفردت به الأنصار
دون من وجه الصلاة إلى الله وقد هنئت به الكفار
ورجال منافقون شمات يوم واروه كفرهم إسرار
من بكته السماء تسعدها الأرض وأيضاً بعد القفار بحار
وسرافيل قد بكاه وجبريل وميكال والملا الأطهار
يالها كلمة يضيق بها الخلق أتانا بثقلها السفار
قيل مات النبى فانصدع القلب وشابت من هولها الأشعار
فلئن جاءت المنون عليه مالنا فى الديار بعد قرار
فعليه السلام ما هبت الريح ومرت جنح الظلام نوار

ثانياً : شعر ربات الخدور عليه :

والمرأة أكثر هماً بالمصيبة من الرجل وإن كانت أقل قدرة من التعبير عنها عنه، لكننا أحوج ما نكون إلى بعض هذه النفثات .

وأعظم مصاب فى هذا الوجود بوفاة الرسول ﷺ هو فاطمة عليها السلام،وإن كان الشعر لا يطاوعها للتعبير عن ذلك ، وقد روى ابن سيد الناس أنه لما دفن عليه السلام .

قالت فاطمة ابنته :

اغبر آفاق السماء وكُوِّرت شمس النهار وأظلم العصران
الأرض من بعد النبى كئيبة أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوه والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه صلى عليك منزل الفرقان (١)

وهذه عمته أروى تناجيه :

ألا يا عين ويحك فاسعدينى بدمعك ما بقيت وطاوعينى
ألا يا عين ويحك فاستهلى على نور البلاد واسعدينى
فإن عذلتك عاذلة فقولى علام ؟ وفيم ؟ ويحك تعذلينى

---

(١) منح المدح لابن سيد الناس ص٣٥٨ .

على نور البلاد معاً جميعاً رسول الله أحمد فاتركينى
فإلا تقصرى بالعذل عنى فلومى ما بدا لك أو دعينى
لأمر هذنى وأذل ركنى وشيب بعد جدتها قرونى (١)

وتلك مناحة عمته عاتكة :

يا عين جودى ما بقيت بعبرة سحاً على خير البرية أحمد
يا عين فاحتفلى وسحى واسجمى وابكى على نور البلاد محمد
أنى ـ لك الويلات ـ مثل محمد فى كل نائبة تنوب ومشهد
فابكى المبارك والموفق ذا التقى حامى الحقيقة ذا الرشاد المرشد
أم من لوحى الله يترك بيننا فى كل ممسى ليلة أو فى غد
فعليك رحمة ربنا وسلامه يا ذا الفواضل والندى والسؤدد (٢)

وهذه مرثية صفية عمته المكلومة المصابة تخاطب بها ابنة حبيبها فاطمة :

أفاطم بكى ولا تسأمى بصبحك ما طلع الكوكب
هو المرء يبكى وحق البكاء هو الماجد السيد الطيب
فأوحشت الأرض من فقده وأى البرية لا ينكب
فما لى بعدك حتى الممات إلا الجوى الداخل المنصب
فبكى الرسول وحقت له شهود المدينة والغيب
لتبكيك شمطاء مضرورة إذا حجب الناس لا تحجب
ليبكيك شيخ أبو ولدة يطوف بعقوته أشهب
ويبكيك ركب إذا أرملوا فلم يلف ما طلب الطلب
وتبكى الأباطح من فقده وتبكيه مكة والأخشب (٣)

أما شاعرة بنى هاشم وابنة عم النبى ﷺ هند بنت الحارث بن عبد المطلب فتطالعنا بقولها :

يا عين جودى بدمع منك وابتدرى كما تنزل ماء الغيث فانثعبا
أو فيض غرب على عادية طويت فى جدول خرق بالماء قد سربا

(١ ـ ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٨ مقتطفات .

لقد أتتنى من الأنباء معضلة | أن ابن آمنة المأمون قد ذهبا
أن المبارك والميمون فى جدث | قد ألحفوه تراب الأرض والحدبا
أليس أوسطكم بيتا وأكرمكم | خالاً وعماً كريما ليس مؤتشبا (١)

أما شاعرة بنى عبد مناف هند بنت أثاثة :

أشـاب ذؤابتـى وأذل ركنـى | بكـاؤك فاطـم الميـت الفقيدا
فأعطيـت العطـاء فلـم تكـدر | وأخـدمت الولائـد والعبيـدا
وإنـك خيـر مـن ركب المطايا | وأكرمهـم إذا نسبـوا جـدودا
رسـول اللـه فارقنـا وكنـا | نرجـى أن يكـون لنـا خلـودا
أفاطـم فاصبرى فلقد أصابت | رزيتـك التهائـم والنجـودا
وأهـل البـر والأبحـار طـراً | فلـم تخطـئ مصيبتـه وحيـدا
وكـان الخيـر يصبـح فـى ذراه | سعيد الجد قد ولد السعودا (٢)

وهذه عاتكة بنت زيد بن نفيل شاعرة قريش تشارك فى النواح عليه:

أمست مراكبه أوحشت | وقـد كـان يركبهـا زينهـا
وأمست تبكى على سيد | تـردد عبرتهـا عينهـا
وأمست نساؤك ما تستفيق | مـن الحـزن يعتادهـا دينهـا
وأمست شواحب مثل النصا | ل قـد عطلـت وكبـا لونهـا
يعالجن حزناً بعيد الذهاب | وفـى الصـدر مكتنـع حينها
هو الفاضل السيد المصطفى | علـى الحـق مجتمـع دينهـا
فكيف حياتى بعد الرسول | وقد حان من ميتة حينها (٣)

أما مربيته أم أيمن التى عاشت معه بمثابة أمه :

عين جـودى فـإن بَذْلَكِ للدمـ | ـع شفـاء فأكثرى مـن البكاء
حين قالوا الرسول أمسى فقيداً | ميتاً كـان ذاك كـل البـلاء
وابكيـا خير من رزئناه فى الدنـ | ـيا ومـن خصـه بوحى السماء
بدمـوع غزيـرة منـك حتـى | يقضى الله فيك خير القضاء
فلقـد كـان مـا علمت وصولاً | ولقـد جـاء رحمـة بالضيـاء

(١ ـ ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٣ .

ولقد كان بعد ذلك نوراً وسراجاً يضىء فى الظلماء
طيب العود والضريبة والمعدن والخيم خاتم الأنبياء (١)

ثالثاً : رثاء لبيد :

ويأتى مسك الختام لشاعر العرب الأكبر لبيد رضي الله عنه .

فهو الباقى من أبطال المعلقات السبع ،وهو الذى يضرب به المثل عند العرب فى الشعر فيقولون : أشعر من لبيد ،وهو الذى ملأت البقرة وآل عمران كيانه ، وهجر الشعر ، ومع ذلك عجز دون أن يطلق دمعه حرى فى بكاء الحبيب المصطفى ﷺ .

(روينا عن طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : قال لبيد يبكى رسول الله ﷺ ويذكر الأنبياء والملوك :

إن المنية رأس كل منية شدت على ملك أغر نبيل
والحارث اشتملت عليه وإنه فى ملك ذى عز له وحلول
ورمت على الحبشى فى أشياعه لماعتوا بحجارة السجيل
وتناولت أصحاب تبع عنوة من بعد أفراس له وخيول

هذا عن الملوك الطغاة ، فهل هى كذلك مع الهداة الأنبياء من الصالحين ؟ نعم :

وهى التى فجعت مدينة راهط والقريتين بصاحب الإنجيل
وبحامل التوراة فى ألواحها فجعت عساكر آل إسرائيل

وماذا بعد عيسى ابن مريم غير محمد عليه الصلاة والسلام :

وهى التى فجعت بيثرب أهلها بالسيد المتواضع البهلول
بالمصطفى بالوحى والعدل الرضى لله فى التحريم والتحليل
خير النبيين الذين تخيروا للوحى واتمنوا على التأويل
لو كانت التقوى تؤجل من ردى أحداً لكان أحق بالتأجيل

فهو خير البرية نسباً :

آباؤه فى الجاهلية خيرة من قومهم وكذلك كل رسول

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٣ .

ومن هو القادر على أن يوفيه حقه فى الثناء والتبجيل :

عظمت خلائقة فقصر دونها ... شرف الثناء ووجدة التبجيل
من كان قد جمع التقى فى شيمة ... جمعت من الأخلاق كل جميل
والمنزل الغيث الهنىء دعـــاؤه ... والمنشر الأمـــــوات بالتــنزيل

أما حياته فهى الأمن والغبطة والأمان لنا :

ولن يستطيع أحد من الخلق أن يوفيه حقه من الرثاء والتبجيل ، إنما يوفيه ربه عز

لو عاش عشنا آمنين بغبطة ... ما عاش فى كنف له وفضول [1]

وجل يوم القيامة ويوم يقوم على رؤوس الأشهاد وعلى رؤوس الخلق كافة فيقال له :

سل تعط ، واشفع تشفع ، واقرع باب الجنة وافتحه بيدك .

والحمد لله رب العالمين .

(١) منح المدح أو شعراء الصحابة لابن سيد الناس ص ٢٨ .

خطوط ومعالم

فى التربية السياسية

خطوط ومعالم فى التربية السياسية

١ ـ المرونة مع الزعيم حتى يفتضح وينفض الناس عنه :

ويكاد يكون هذا المعلم خاصا بالزعيم داخل الصف الإسلامى والذى يستغل نفوذه للتآمر على دولة الإسلام ، وقد شهدنا خطواتها التفصيلية فى أكثر من جزء من خلال التعامل مع عبد الله بن أُبى زعيم المنافقين ، حيث لخصت الخطة بثلاث نقاط :

النقطة الأولى : إحسان صحبته : حيث عرض عبد الله بن عبد الله بن أبى قتل أبيه : فإن كنت لابد فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه . . .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته مادام معنا » .

النقطة الثانية : كشف مواقفه السيئة : (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه الذين يعاتبونه ويعنفونه ،فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب :

« كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

النقطة الثالثة : الحفاظ على السمعة السياسية : وذلك حين عرض على رسول الله ﷺ قتل الذين حاولوا قتله فى تبوك :قال رسول الله ﷺ لأسيد : « إنى أكره أن يقول الناس : إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه» ، فقال : يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب ، قال رسول الله ﷺ : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟ » قال : بلى ، ولا شهادة لهم ، قال : « أليس يظهرون أنى رسول الله ؟ »قال : بلى .

قال:« فقد نهيت عن قتل أولئك » .

٢ ـ الاعتراف بالزعامة دون تسليمه سلطة معينة :

قال العباس : يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له منه شيئاً، فقال :

«من أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ».

وهو الموقف نفسه مع عامر بن الطفيل حين جاء يساوم على السلطة ورفض رسول الله ﷺ أن يعطيه شيئاً ، قال عامر : أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت ؟

فقال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل »، قال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد .

٣ ـ إكرام القائد العدو والمحافظة على زعامته ليسخرها فى حرب المشركين إن أسلم:

وهنا نماذج عدة توضح هذا المعلم :

فمالك بن عوف ـ قائد هوازن فى معركة حنين ـ حافظ رسول الله على أهله وماله وقال: «أخبروا مالكاً أنه إن أتانى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل»، فأتى مالك بذلك فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله ،وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه .

وذاك عيينة بن حصن زعيم غطفان أعدى العدو يسلم ، فيجعله رسول الله ﷺ على رأس سرية ليس فيها مهاجرى ولا أنصارى واحد ، كلهم من الأعراب ليغزوا قوماً من تميم اعتدوا على حليف إسلامى .

وذاك صرد بن عبد الله الأزدى قدم على رسول الله ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه فى وفد من الأزد ، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبل اليمن .

٤ ـ الحصار المادى والمعنوى لفرض الاستسلام وحقن الدماء :

فرسول الله ﷺ يحرص على كسب القلوب قبل كسب المعارك ؛ لأن الدماء تؤجج الثارات ، وتضغن على الإسلام ، ويمثل هذا الخط والمعلم بعض النماذج منها :

المسير إلى فتح مكة ؛حيث دعا رسول الله ﷺ ربه :« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها »،وحين قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة،اليوم أذل الله قريشاً ، قال رسول الله ﷺ :« اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة ، اليوم أعز الله قريشاً» وهذا الموقف مما حدا أن تشارك قريش فى الجيش الإسلامى إلى حنين بألفين من شبابها،فكانت أكبر تجمع فى الجيش بعد الأنصار، وما قولك فى معركة يعد لها منذ عشر سنين يقتل فيها اثنا عشر جندياً فقط .

وذاك نموذج معاوية بن حيدة يتحدث عن ذلك كما روى البيهقى والإمام أحمد عنه :

أتيت رسول الله ﷺ فلما دفعت إليه قال :«أما إنى سألت الله عز وجل أن يعيننى عليكم بالسنة فتحفيكم وبالرعب أن يجعله فى قلوبكم » فقال معاوية بيديه جميعاً : أما إنى خلقت هكذا وهكذا ـ أى لا أومن بك ولا أتبعك فما زالت السنة تحفينى ومازال الرعب يرعب فى قلبى حتى وقفت بين يديك .

وذاك ثمامة بن آثال حليف محمد فى اليمامة يقول لأهل مكة : والله لا تصل إليكم من اليمامة حفنة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا شيئا منها إلى مكة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وفى رواية قال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال :« بلى » ، قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وقد قطعت أرحامنا فكتب رسول الله ﷺ إليه (أى ثمامة) أن يخلى بينهم وبين الحمل .

٥ ـ عدم المساومة على الدين :

وبمقدار الليونة والحكمة الكبرى فى التعامل مع قيادات العدو ؛ أملاً فى كسبها لصفة بمقدار صلابته ﷺ فى عدم قبول المساومة على الدين ، كما برز ذلك من مباحثات رسول الله ﷺ فى هذه النماذج .

(وكان فيما سألوا أن يدع لهم الطاغية ـ وهى اللات ـ ولا يهدمها ثلاث سنين حتى سالوه شهراً فأبى عليهم .

وقد كانوا سألوه أن يعفيهم من الصلاة وألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ: « أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه ») .

وذلك مسيلمة الكذاب يساوم رسول الله ﷺ على السلطة (. . أن بنى حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثياب ، ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه معه عسيب من سعف النخل ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه وسأله، فقال له رسول الله ﷺ : « لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ما أعطيتكه »)، وفى رواية (فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته . . . وفى يد النبى ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها » ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، و إنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت») .

٦ـ الاعتماد على الحرب المعنوية وسيلة لاستسلام العدو ، وحقنًا للدماء ، وحرصاً على الإسلام :

فعروة بن مسعود الثقفى أدهى العرب عندما جاء وافدا إلى رسول الله ﷺ يخوفه من قريش ثم عاد إليها وقد رأى ما يصنع به أصحابه ؛لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه و قيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم .

وهذا ما فعله ﷺ مع أبى سفيان يوم الفتح حين قال للعباس :« يا عباس احبسه فى مضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها» ، قال : فخرجت حتى حبسته فى مضيق الوادى ومرت القبائل على راياتها . . . حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء - قال ابن هشام: وإنما قيل لها : الخضراء لكثرة الحديد فيها ـ فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ، من هؤلاء يا عباس ؟ قلت: هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد من هؤلاء قبل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة قال : فنعم إذن .

وفى لقائه ﷺ مع وفد بنى الحارث بن كعب حيث يسألهم رسول الله ﷺ :« أنتم الذين إذا زجروا استقدموا» . يسأل ثلاثاً ، فلا يجيبون ويعود سيدهم ، فيجيب أربعاً : نعم نحن الذين إذا زجروا استقدموا . فكان جواب رسول الله ﷺ .

٧ ـ سلاح الشعر وسلاح المال للدعوة فى سبيل الله :

فرسول الله ﷺ اتخذ شعراء له منذ قدم المدينة فى مجتمع يجعل للشعر المقام الأعلى ؛ ولهذا عندما جاء وفد تميم يفاخر بشعره وبخطبه هُزِمَ بالسلاح نفسه الذى جاء يفاخر فيه . وقال سيدهم : شاعره أشعر من شاعرنا ، وخطيبه أخطب من خطيبنا . ودفع هذا تميما إلى الدخول فى الإسلام .

واستعمل ﷺ سلاح المال مع زعماء العرب جميعاً والذين شهدوا معه هوازن،حيث أعطى كلاً منهم مائة ناقة أو خمسين ناقة يتألفه على إسلامه ، وتأتى شهادة صفوان بن أمية ؛ إذ يقول : والله ما كان على ظهر الأرض أحد أبغض إلىَّ من محمد ،فما يزال يعطينى من غنائم حنين حتى لم يعد على ظهر الأرض أحد أحب إلىَّ من محمد .

وفى رواية: أنه مر ورسول الله ﷺ بواد فى حنين ، كله إبل وشاء فقال له :« هو لك» ، فقال : والله ما طابت بهذا إلا نفس نبى ، فأسلم .

٨ ـ تزكيته للزعماء الذين لا يخشى غرورهم وبغيهم :

فهذا وائل بن حجر يخطب رسول الله ﷺ مثنيا عليه : هذا وائل بن حجر قد أتاكم من أرض بعيدة من حضر موت طائعا غير مكره ، راغباً فى الله وفى رسوله ، وفى دين بيته ، بقية أبناء الملوك ».

وذاك جرير بن عبد الله البجلى يقول فيه رسول الله ﷺ وقد وفد إليه :

«إنه سيدخل عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن،وإن على وجهه لمسحة ملك».

وذاك أشج عبد القيس ، يقول له رسول الله ﷺ :« إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله؛ الحلم والأناة » .

ويقول عن قيس بن عاصم رضي الله عنه :« هذا سيد أهل الوبر» .

وكان هذا الثناء دافعاً لهم للخير والاستمرار عليه دون أن يستغلوا هذا الثناء لأنانيتهم واستعبادهم قومهم أو التعالى عليهم، وذلك انطلاقاً من فهمه ﷺ لنفسيات هؤلاء الزعماء .

٩ ـ الثقة بالمعدن البشرى النفيس أساس التعامل :

ويبرز ذلك أكثر ما يكون مع الزعماء قبل أن يسلموا أو الذين لم يسلموا ، فهذا ثمامة بن أثال رضي الله عنه يصر على عدم الإسلام وهو فى الأسر ثلاث مرات أو تزيد ، ومع هذا فقال ﷺ :

« أطلقوا إسار ثمامة »، وحين عامله رسول الله ﷺ بهذا النبل لم يكن منه إلا أن تطهر وأعلن إسلامه وانضم إلى الجيش النبوى .

ومثل ذلك تعامله مع أبى البراء عامر بن مالك سيد بنى عامر ، حيث بعث سبعين من أصحابه دعاة فى نجد بعد أن أجارهم أبو البراء ، وكيف كان يستشفى من رسول الله ﷺ ، ومن المدرسة نفسها تعامله مع صفوان وسهيل ابنى عمرو يوم تركهما فى مكة دون أن يفرض عليهما الإسلام قائلاً :

« من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف

وما مثل سهيل جهل الإسلام » .

١٠ ـ تذليل نفسيات الطغاة المعتدين بقوتهم وزعامتهم :

لأن هذا النفسيات سوف تتعالى على قومها ورعيتها باسم الإسلام بعد أن كانت تتعالى باسم الجاهلية .

فهؤلاء الكنديون الذين جاؤوا بجبابهم الحبرة المكفوفة بالحرير كان أول ما واجهه بهم رسول الله ﷺ وقد رجلوا جممهم واكتحلوا ولبسوا جباب الحبرات مكثفة بالحرير.

(فلما دخلوا قال رسول الله ﷺ :« أو لم تسلموا ؟» قالوا : بلى . قال : « فما هذا الحرير فى أعناقكم ؟ » فشقوه ونزعوه وألقوه) .

وكم هو منظر مؤلم أن تهتك جببهم البديعة التى جاؤوا يباهون بها .

أما وفد نجران فقد زادوا على ذلك تختمهم بالذهب .

(فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ يصلون نحو المشرق ، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» ، ثم أتوا رسول الله ﷺ ، فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام ،وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب ، فقال لهم على ﷺ : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم، ففعلوا ذلك فرد عليهم السلام ثم قال :

« والذى بعثنى بالحق لقد أتونى المرة الأولى ، وإن إبليس لمعهم » .

فقد قبل منهم رسول الله ﷺ عبادتهم وصلاتهم نحو المشرق بالصيغة النصرانية داخل مسجده ، ولم يقبل تعاليهم عليه بحللهم وخواتيمهم حتى كسر كبرياءهم تلك ، وأمضى شطر النهار واليوم الثانى بالحوار معهم .

ومن ذلك جوابه لمسيلمة بن حبيب الكذاب يوم طلب منه المشاركة فى الملك فقال له:

« لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها،ولن تعدو أمر الله فيك،ولئن أدبرت ليعقرنك الله ،وإنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت.وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى» .

ومن ذلك جوابه لأبى صفرة الذى جاء معتدا بنسبه قائلاً: أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمر بن شهاب من مرة بن الهقام بن الجلند بن المستكبر الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ، أنا ملك بن ملك ، فقال له :«أنت أبو صفرة (حيث كنَّاه بابنته) دع عنك سارقاً وظالماً » .

١١ ـ حيازته ﷺ على ثقة الناس جميعاً وخاصة المستضعفين :

فقد غدا لدى العرب جميعاً أن رسول الله ﷺ ملك العرب لا يقبل ظلم ظالم، ولا يتركه حتى يقتص منه فأعشى بنى مازن جاء يشكو له نفور امرأته منه قائلاً :

يا مالك الناس وديار العرب إنى لقيت ذربة من الذرب
غدوت أبغيها الطعام فى رجب فخلفتنى فى نزاع وهرب
أخلفت العهد ولظت بالذنب وهن شر غالب لمن غلب

وبعث رسول الله ﷺ يأمر بإعادة زوجته إليه ، ولم تقبل المرأة العودة إلا بقولها : خذ لى العهد والميثاق وذمة النبى ﷺ ألا يعاقبنى فيما صنعت ، فأخذ لها ذلك ودفعها إليه .

وتتكرر الصورة مع المرأة التميمية التى جاءت مرافقة للحارث بن حسان ، وذلك حين أراد الحارث أن يستأثر بالدهناء له ولقومه (فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله ، أين يضطر مضرك ،يا رسول الله ،إنه لم يسألك السوية فى الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ، ومرعى الغنم ، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك).

فقال عليه الصلاة والسلام : « أمسك يا غلام ، صدقت المسكنية ، المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر » .

١٢ ـ تنوع التعامل مع زعماء القبيلة الواحدة :

فبنو عامر بن صعصعة برز منهم ثلاثة قادة كبار ؛ هم : عامر بن مالك (أبو براء) وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة .

واختلف الموقف منهم باختلاف مواقفهم من هذا الدين والتعامل معه ، دون أن يعمم الحكم على الزعماء جميعاً ،فعامر بن مالك ـ وإن لم يسلم ابتداء ، واختلف فى إسلامه فيما بعد ـ تعامل مع رسول الله ﷺ بالمنطق الجاهلى وقيم الجاهلية ، ودعا رسول الله ﷺ إلى بعث شباب المسلمين لينشروا الإسلام فى ربوع نجد ، وكان لهم جار من بنى عامر بن صعصعة أن يمسوهم بسوء ،ورغم مقتل السبعين شهيداً فى بئر معونة لم يشك رسول الله ﷺ فى صدق أبى براء أو يتهمه بالتآمر مع ابن أخيه عامر بن الطفيل

وحافظ على صداقته وحلفه حتى موته ، وبمنطق وقيم الجاهلية بعث أبو براء ابنه لقتال ابن أخيه عامر بن الطفيل ؛ لأنه أخفر جوار أبيه ، لكن عامر بن الطفيل جرح ولم يقتل وعاد فاستعاد مركزه .

أما عامر بن الطفيل ، فقد تعامل بغدر الأعراب ولؤمهم وخستهم لا بقيمهم ومبادئهم ، فقتل جيش الدعاة الذى بعثه رسول الله ﷺ بالاتفاق مع سليم حين رفضت بنو عامر الاستجابة له ، وإخفار زعيمها الأكبر أبى براء ملاعب الأسنة ، وجاء عامر مهدداً بغزو المدينة حين رفض رسول الله ﷺ كل عروضه فى الاشتراك فى الحكم أو وراثته ، ومضى ليعبئ الجيش ، فلم يكن الغضب النبوى ليقع على بنى عامر وزعيمهم إنما اختص بالزعيم الغادر ، فقال : « اللهم اكفنى عامراً واهد قومه » .

وعندما تحرك علقمة بن علاثة الزعيم الثالث لبنى عامر ومضى ليهادن الإسلام احتفى به رسول الله ﷺ وأجلسه بينه وبين عمر بن الخطاب ، وفرح بإسلامه ، وبشر حلفاءه من خزاعة بإسلام علقمة واثنين من سادة بنى عامر معه ، وحضر فتح مكة وحنين ، وأعطاه مائة من الإبل ، ومع هذا كله فارتد علقمة كما يروى بعد حنين ، ومضى إلى قيصر، لكنه لم ينل رسول الله ﷺ بسوء فبقى مقدماً على عامر بن الطفيل العدو الألد ؛ ولذلك آذاه ﷺ أن يفضل عامر على علقمة فى المنافرة المشهورة بينهما فى كتب الأدب والتاريخ ، لكنه ﷺ ما اختار لقيادة عامر إلا أحد المؤمنين السابقين الأولين من بنى عامر وهو الضحاك بن سفيان الكلابى الذى كان سياف رسول الله ﷺ ، وكان عند رسول الله ﷺ بمائة فارس ، وهذا ما قاله وفدهم عام تسع للهجرة :

إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التى أمرت بها ، وإنه دعانا إلى الله عز وجل فاستجبنا لله ولرسوله ، وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا .

١٣ ـ تعامله ﷺ مع جفاة البدو :

فكان يصبر على جفائهم وغلظتهم حرصاً منه ﷺ على هدايتهم ،ويميز بين معادنهم الثمينة والخسيسة .

فذاك ضمام بن ثعلبة الذى قال لرسول الله ﷺ :

إنى سائلك فمغلظ عليك بالمسألة ، فلا تجد على .

وكانت الأسئلة أقرب إلى صيغة التحقيق ، ومع ذلك فبقى ﷺ يجيب بـ «نعم» أو : « اللهم نعم » أو «لا»، حتى مضى يجيبه بعد أن أعطاه الأمان قائلاً : « لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدالك » وفى وصفه عند مالك فى الموطأ :جاء أعرابى من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ، ولا يفقه ما يقول حتى دنا فسأل عن الإسلام ، وعندما مضى قال رسول الله ﷺ :

« إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

وذاك نموذج آخر فظ لأبى حرب بن خويلد من بنى عامر بن صعصعة (فقرأ عليه رسول الله ﷺ القرآن وعرض عليه الإسلام فقال:

أما وايم الله ، لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه ، وإنك لتقول قولا لا نحسن مثله ولكن سوف أضرب بقداحى هذه على ما تدعونى إليه وعلى دينى الذى أنا عليه .

وضرب بالقداح ، فخرج عليه سهم الكفر ثم أعاده فخرج عليه ثلاث مرات . فقال لرسول الله ﷺ : أبى هذا إلا ما ترى ، ثم رجع إلى أخيه عقال بن خويلد يدعوه إلى الإسلام ، أما هو فقد أبت قداحه الإسلام ، لقد ألغى عقله أمام قداحه.

ولم يكن أخوه عقال ، أقل جفوة وأعرابية منه فقد وفد إلى رسول الله ، فعرض عليه الإسلام وجعل يقول له :« أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ » فيقول : أشهد أن هبيرة بن النفاضة نعم الفارس ثم قال :« أتشهد أنى رسول الله ؟» قال : أشهد أن الصريح تحت الرغوة . ثم قال له الثالثة :« أتشهد ؟ » قال : فشهد وأسلم .

ولا ننسى ذلك الحوار بين رسول الله ﷺ وسيد بنى تميم «الأقرع بن حابس ، وقد رأى رسول الله ﷺ يقبل الحسن أو الحسين فقال: أتقبلون الأولاد ؟ قال : « نعم » . قال: فإن لى عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام: « وما أفعل إن نزع الله من قلبك الرحمة » .

١٤ ـ فتح صدره ﷺ لكل السائلين مهما غلظت مسألتهم ، والإجابة عليها :

ولعل الحوار الذى جرى بين لقيط بن عامر ـ وهو من بنى عامر كذلك ـ وبين رسول الله ﷺ ـ حين قال للناس : إنى خبأت لكم صوتى منذ أربعة أيام ـ بل يستحث الناس على السؤال قائلاً :

ألا فهل من امرئ قد بعثه قومه ؟ فقالوا له : اعلم لنا ما يقوله رسول الله ، ألا

ثمَّ رجل لعله يلهه حديث نفسه أو حديث صاحبه ، ألا وإنى مسؤول ألا قد بلغت» .

وبالإمكان العودة إلى ذلك الحوار الذى لم نسمع بطوله وبمتعته قط ؛ ليدلنا على مدى حرص رسول الله ﷺ إلى مجاهل البيد وأقاصى الصحراء ،كما قال لقيط نفسه :

يا رسول الله،علمنا مما لا يعلم الناس ، فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحد ؛ من مذحج التى تدنو إلينا وخثعم التى توالينا،وعشيرتنا التى نحن منها .

وذاك لقاؤه مع عضو وفد محارب سنة عشر للهجرة ، والذى كان وفد محارب سنة عشر للبعثة ، قال المحاربى : إى والله ، لقد رأيتنى وكلمتنى وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددت عليك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف بين الناس، فاستغفر لى يا رسول الله مراجعتى إياك ، فقال:« إن الإسلام يجب ما قبله » ، وذاك نقاشه مع ثقيف ووفدها .

فإذا كانت الرواية السابقة أشارت إلى طلب ترك الصلاة والعفو عنها ، وإبقاء ربتهم اللات فهذه الرواية تستفيض أكثر فى المناقشة والأخذ والرد .

(فقال كنانة بن عبد ياليل :هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا ؟

قال :« نعم ، إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم » .

قالوا : أفرأيت الزنا ؟ فإنا قوم نغترب لا بد لنا منه ؟

قال : «هو عليكم حرام ، إن الله عز وجل يقول : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)﴾ [الإسراء] .

ـ قالوا : أفرأيت الربا ؟ فإنه أموالنا كلها ؟

ـ قال : «لكم رؤوس أموالكم إن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

ـ قالوا : أفرأيت الخمر ؟ فإنه لابد لنا منها ؟

ـ قال : إن الله تعالى حرمها وقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

فارتفع القوم وكلموه ألا يهدم الربة فأبى ، فقال ابن عبد ياليل : إنا لا نتولى هدمها .

ـ قال : « سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها » .

ونماذج أخرى لا تحصى مبثوثة فى هذا الكتاب .

١٥ ـ ذاكرته ﷺ العظيمة فى التعرف على من لقى من الناس للثناء أو النصح :

ولهذا الموقف أثر كبير فى حب الإسلام ورسول الإسلام .

فذاك وافد محارب الذى لقيه بعد عشر سنين ، فنظر إليه من بين عشرات الألوف الذين لقيهم من البشر فى هذه السنين العشر .

(وكان فى الوفد رجل منهم فعرفه رسول الله ﷺ فأمده النظر ، فلما رآه المحاربى يديم النظر إليه ، قال : كأنك يا رسول الله توهمنى ،وقال : «لقد رأيتك» ، قال المحاربى :

إى والله، قد رأيتنى وكلمتنى وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددت عليك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف بين الناس،فقال ﷺ:« نعم»، فقال المحاربى: يا رسول الله ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ منى ولا أبعد عن الإسلام منى ، فأحمد الله الذى أبقانى حتى صدقت بك ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم ، فقال ﷺ : «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل »، فقال : يا رسول الله ، استغفر لى من مراجعتى إياك فقال ﷺ : « إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر ».

وتلك ذكرى ثانية لسيد بنى قشير،وقد رآه رسول الله ﷺ مع وفدهم ، ثم ها هو يراه فى حجة الوداع من بين مائة وثلاثين ألفا كلهم بثياب الإحرام فيقول له باسمه :

« يا قرة » ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : « كيف قلت حين أتيتنى » ، قال : قلت :يا رسول الله ، كانت لنا أرباب وربات من دون الله تعالى ندعوهم فلم يجيبونا ونسألهم فلم يعطونا ، فلما بعثك الله بالحق أتيناك وتركناهم ،وأجبناك ، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ :« أفلح من رُزِقَ لباً » .

١٦ ـ استماعه ﷺ لشعر العرب :

فكان يعلم عليه الصلاة والسلام أن الشعر ديوان العرب ، وبه مفاخرهم ومآثرهم

وتاريخهم ، فلم يكن يضيره ﷺ حين يأتيه فحول الشعراء أن يستمع لهم أشعارهم ،بل يحثهم على روايتها .

فهذا النابغة الجعدى رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه مع رسول الله :

أنشدت رسول الله ﷺ :

بلغنا السماء مجدنا جُدُودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال: « أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » قلت : الجنة .قال : « أجل إن شاء الله » ، ثم قلت :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال ﷺ : « أجدت ، لا يفضض الله فاك ».

وفى الرواية الثانية: أنه أنشده قصيدته كلها كما يقول الأخفش : (وفد على النبى ﷺ فأسلم وأنشد قصيدته الرائية وفيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

وهى قصيدة طويلة وهى من أحسن ما قيل من الشعر .

وتلك الخنساء تقرأ عليه شعرها وهو يقول :« هيه يا خناس» يستحثها على رواية شعرها .

وما قصيدة البردة بسر والتى تجاوزت الخمسين بيتا . وفيها وصف الحبيبة ،ووصف الناقة ،وإسلامه ، وكان الإنشاد فى المسجد .

١٧ ـ عظمة التربية النبوية فى التغيير الإنسانى :

فبنو سليم أول من غدر بالمسلمين وعلى أيديهم تم مقتل السبعين من القراء ؛منهم أنفسهم جاء ذلك الرجل الذى حدثنا عنه أحد بنى سليم قال :

وفد رجل منا يقال له: قدد بن عمار على النبى ﷺ بالمدينة فأسلم ،وعاهده على

أن يأتيه بألف من قومه على الخيل وأنشد يقول :

شددت يمينى إذ أتيت محمداً ... بخير يد شدت بمحجز مئزر
وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه ... وأعطيته ألف امرئ غير أعسر

ثم أتى قومه فأخبرهم الخبر ،فخرج معه تسعمائة ، وخلف فى الحى مائة ، فأقبل بهم يريد رسول الله ﷺ ، فنزل به الموت فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه إلى عباس ابن مرداس وأمَّره على ثلاثمائة ،وإلى جبار بن الحكم وأمره على ثلاثمائة ،وإلى الأخنس ابن يزيد وأمره على ثلاثمائة ،وقال : ائتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى ، ثم مات فمضوا حتى قدموا على النبى ﷺ فقال: « أين الرجل الحسن الوجه ، الطويل اللسان ، الصادق الإيمان ؟ » قالوا : يا رسول الله ، دعاه الله فأجابه وأخبروه خبره ، فقال :« أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟» ، قالوا : قد خلف مائة بالحى مخافة حرب كانت بيننا وبين كنانة. قال :« ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شىء تكرهونه » ،فبعثوا إليها ، فأتته بالهدة وهى مائة عليها المنقع بن أمية).

وفى سليم نفسها نشهد الشاعرة العظيمة : الخنساء التى ملأت الدنيا بكاء على أخويها صخر ومعاوية .

وقالت ديوانها كله فيهم ، ينعى لها أولادها الأربعة فتكتفى بقولها .

الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم،وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته.

وذلك قول ثمامة بن أثال رضي الله عنه بعد أن خلى رسول الله ﷺ سبيله دون أن يسلم يقول بعد أن مضى فاغتسل وعاد :

يا محمد ، لقد كنت وما وجه أبغض إلىَّ من وجهك ، ولا دين أبغض إلىَّ من دينك،ولا بلد أبغض إلى من بلدك،ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إلىَّ من وجهك ، ولا دين أحب إلىَّ من دينك ،ولا بلد أحب إلىَّ من بلدك،وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقال لقريش بعد إسلامه :

والله ما صبوت ولكنى أسلمت وصدقت محمداً وآمنت به،والذى نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ،حتى إن طعامه تغير فلم تكن تكفيه اللقحة الواحدة من ناقته ـ كما فى رواية مسلم ـ (فلما أمسى جاؤوه بما كانوا

يأتونه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلاً، وباللقحة فلم يصب من حلابها إلا يسيراً ، فعجب المسلمون من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

« مما تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار فى معى كافر وأكل آخر النهار فى معى مسلم ؛ إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى معى واحد » .

١٨ ـ صحبة النبى ﷺ ولقاؤه أضحت هى مثار الفخر :

فقد كان العرب يتباهون أنهم وفدوا على كسرى أو على قيصر أو على النجاشى، وسعيد الحظ فيهم من يحظى بلقاء أو حديث مع ملوك الأرض ، أو يكلف بمهمة للملك . أما وقد جاء الإسلام ، وصار رسول الله ﷺ سيد الجزيرة فغدا التسابق والتهافت نحو المدينة والفخر بلقاء رسول الله ﷺ أو صحبته أو حتى مسح رسول الله ﷺ له بيديه الشريفتين ، أو حتى رؤيته ، واستوى فى ذلك قادة العرب وزعماؤهم، ورعايا العرب وأفرادهم ، فقبل أن تنقطع الهجرة كان التسابق على المدينة للفوز بشرف الهجرة ، وشرف النصرة لرسول الله ﷺ والمكوث فى المدينة أشهراً وسنينا يتلقى أعظم معالم التربية البشرية ، أما بعد العام التاسع فقد كانت الوفود ترد لتتشرف باللقاء مع رسول الله ﷺ ونيل بركته .

فذاك فارس العرب : ضرار بن الأزور يفخر بهجرته :

فيارب لا أغبنن صفقتى　　فقد بعت أهلى ومالى بدالا

وذاك العدو الألد أسيد بن زنيم يسلم ويقول لرسول الله ﷺ :

أأنت الفتى تهدى معداً لربها　　بل الله يهديها وقال لك اشهد
فما حملت من ناقة فوق كورها　　أبر وأوفى ذمة من محمد

وذاك محمد بن بشر البكائى يفخر بقوله:

وأبى الذى مسح الرسول برأسه　　ودعا له بالخير والبركات

وذاك رجل من ولد حسان بن حوط من بكر بن وائل يفخر بقوله :

أنا ابن حسان بن حوط وأبى　　رسول بكر كلها إلى النبى

وذاك الجارود بن معلى العبدى من عبد القيس يفخر بربط مصيره ومصير قبيلته

برسول الله ﷺ :

فإن لم تكن داري بيثرب فيكم ... فإني لكم عند الإقامة والخفض
أصالح من صالحت من ذي عداوة ... وأبغض من أمسى على بعضكم يفضي
وأدني الذي واليته وأحبه ... وإن كان في فيه العلاقم من بغضي

وسباق الخيل والإبل من أقاصي الجزيرة للمثول بين يدي رسول الله ﷺ :

يا نبي الهدى أتتك رجال ... قطعت فدفداً وآلاً فآلا
وطوت نحوك الصحاصح طراً ... لا تخال الكلال فيك كلالا
كل دهناء يقصر الطرف عنها ... أرقلتها قلاصنا إرقالا
وطوتها الجياد تجمح فيها ... بكماة كأنجم تتلالا

وذلك تهناة بنت كليب الحضرمية تشرف ببعث كسوة لرسول الله ﷺ حين فاتها رؤيته :

من وشز برهوت يهوى به عذافره ... إليك يا خير من يحفى وينتعل
شهرين أعملها نصاً على وجل ... أرجو بذاك ثواب الله يا رجل
أنت النبي الذي كنا نخبره ... وبشرتنا به التوراة والرسل

١٩ ـ المعجزات الحسية ، وبركة رسول الله ﷺ :

فقد كانت هذا المعجزات تزيد المؤمن إيماناً ، وتطمئن قلبه :

أعطاه أحمد إذ أتاه أعنزاً ... عفراً نواجل لسن باللجبات
يملأن رفد الحيِ كل عشية ... ويعود ذاك الملء بالغدوات
بوركن من منح وبورك مانحاً ... وعليه مني ما حييت صلاتي

وتلك قصعة المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، يأكل منها الضيف ثلاثة أيام دون أن تنقص (حتى جعل الضيف يقولون : يا أبا معبد ، إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا ، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين . . . فأخبرهم أبو معبد بخبرها ، وأنه أكل منها وردها ، وهذه بركة أصابعه ﷺ فجعل القوم يقولون : نشهد أنه رسول الله وازدادوا يقيناً) .

وتلك قصعة زياد بن الحارث الصدائي ؛ حين طلب منه رسول الله ﷺ الماء

« وهل من ماء يا أخا صداء ؟»، فقلت: لا إلا شيء قليل لا يكفيك، فقال رسول الله : « اجعله فى إناء ثم ائتنى به » ، ففعلت فوضع كفه فى الماء ، قال زياد : فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفور ، ثم قال لى رسول الله ﷺ : « لو لا أن استحى من ربى لسقينا واستقينا ، ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء ؟»، فناديت فأخذ من أراد شيئاً .

وأما مع وفد عبد القيس الذين أحبهم وأثنى عليهم : (فعن أنس أن وفد عبد القيس من هجر قدموا على رسول الله ﷺ فبينما هم عنده إذ أقبل إليهم فقال : « لكم تمرة تدعونها كذا وتمرة تدعونها كذا»،حتى عدَّ ألوان تمرهم جميعاً ، فقال له رجل من القوم : بأبى أنت وأمى يا رسول الله،لو كنت ولدت فى هجر ما كنت بأعلم منك الساعة ، أشهد أنك رسول الله ، فقال : « إن أرضكم رفعت لى منذ قعدتم فنظرت من أدناها إلى أقصاها فخير تمركم البرنى الذى يذهب بالداء ولا داء معه» .

وما جرى مع وفد غامد (قال لهم : « من خلفتم فى رحالكم ؟ » ، فقالوا : أحدثنا سناً يا رسول الله ، قال : «فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت أخذ عيبة أحدكم» . فقال أحدهم : يا رسول الله ، ما لأحد من القوم عيبة غيرى فقال رسول الله ﷺ : « قد أخذت وردت إلى موضعها »، فخرج القوم سراعاً حتى وجدوا ما قاله ﷺ ، فقالوا : نشهد أنه رسول الله فإنه قد أخبرنا بردها وأخبرنا أنها قد ردت .

أما غطفان ومرة وفزارة الموغلون فى البداوة فكانت المعجزة فى الدعاء لهم بالمطر، فهذا أهم من الذهب عندهم . « اللهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت »، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ،فلا والله ما رأينا الشمس ستاً ، فجاء ذلك الرجل أو غيره ، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب والأودية » ، فانجابت السحابة عن المدينة انجياب الثوب .

وقصة زرارة بن عمرو النخعى ورؤياه (رأيت أتاناً تركتها فى الحى كأنها ولدت جدياً أسعف أحوى ،قال له: « هل لك من أمة تركتها مصرة حملاً » ، قال: نعم قال : « قد ولدت غلاماً وهو ابنك » ، قال : يا رسول الله ما باله أسعف أحوى ، قال :

«ادن منى» ، فدنا ، قال : « هل بك من برص تكتمه »، قال : والذى بعثك بالحق ما علم به أحد ، قال :« فهو ذلك» .

٢٠ ـ الدورات التربوية فى المدينة :

فلم يكن رسول الله ﷺ فى معظم الأحيان يكتفى من الوفود بإعلان الإسلام ، والعودة إلى ديارهم ، لقد كان يعد لهم داراً خاصة للضيافة ؛ يقيمون فيها وغالباً ما تكون هى دار رملة بنت الحارث رضي الله عنها ، يصل إليهم طعامهم وشروبهم ، ويتردد عليهم الدعاة يفقهونهم فى دينهم . وقد يزورهم رسول الله ﷺ فى دار الضيافة إكراماً لهم ، كما أنهم يحضرون الصلوات الخمس فى مسجد رسول الله ﷺ ، يعظ جاهلهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة فهم الرسل إلى أقوامهم ، بل من حدٍ أدنى من الزاد الإسلامى ينتقلون به إلى أهليهم وذويهم ونسائهم يعلمونهم ما علمهم رسول الله .

٢١ ـ إجازة الوفود وإكرامها وحسن استقبالها :

وحيث إن معظم قيادات العرب وكرامها تلتقى مع الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن إسحاق : (لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ـ قال ابن هشام رحمه الله تعالى: وكان ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى عام الوفود ـ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ،وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، عرفت العرب ألا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا فى دين الله أفواجا يضربون إليه من كل وجه) (١) .

ويصف جندب بن مكيث رضي الله عنه استقبال رسول الله للوفود قال :

(كان رسول الله ﷺ إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر أصحابه بذلك ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٣٨٦ .

فرأيته وقد قدم عليه وفد كندة وعليه حلة يمانية وعلى أبى بكر وعمر مثله) (١) .

وكان رسول الله ﷺ يجيز الوفد ويعطى سيده زيادة على أعضائه ، ابتداء من خمس أواق وحتى اثنتا عشرة أوقية ، فإذا كانت الأوقية أربعين درهماً ، فهذا يعنى أن عطاء الوفود كان بين مئتى درهم وخمسمائة درهم وهو مهر عروس كبير فى تلك الأيام، وكان حرص الوفود ورؤسائهم على هذا العطاء المادى ليس قيمته المادية بمقدار ما كانت مقدمة من رسول رب العالمين . وكما قال عباس بن مرداس رضي الله عنه :

وما كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنت دون امرئ منهما   ومن تضع اليوم لا يُرفع

٢٢ ـ تحديد الملكية وتوزيع الأراضى :

وكانت هذه الخطوة من أهم الخطوات فى بناء الدولة الحديثة ، والانتقال من البداوة إلى المجتمع المتحضر . فبعد أن كانت شريعة الغزو ، أو شريعة الغاب هى التى تحكم العلاقات فى الجزيرة العربية . فالهجرة لانتجاع الكلأ والسيطرة للأقوى بين القبائل. حلت محلها شريعة الله تعالى التى تحدد الحقوق وتحافظ عليها . وفى العودة إلى الطبقات الكبرى لابن سعد ، التى هى أجمع وثائق العهد النبوى الكتابية فى الجزء الأول تحت عنوان :

ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام . وما كتب به رسول الله ﷺ لناس من العرب وغيرهم .

نلاحظ أن معظم هذه الكتب قد حددت للقبائل وحتى للأشخاص الأراضى التى لهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لنعيم بن أوس أخى تميم الدارى أن له جبرى وعينون بالشام كلها سهلها وجبلها .

ـ وكتب رسول الله ﷺ للحصين بن أوس الأسلمى أنه أعطاه « ذو الفرغين ، وذات أغشاش ».

ـ وكتب رسول الله ﷺ لبنى الضباب ـ بنى الحارث بن كعب أن لهم سارية

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٣٩٥ .

ورافعها .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لبنى زياد بن الحارث الحارثيين أن لهم جماء وأذنبة .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لبنى قنان بن يزيد الحارثيين أن لهم مذوداً وسواقيه .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لبنى شنخ من جهينة . . . أعطاهم ما خطوا من صُفينة وما حرثوا .

والملاحظ فى المثال الأخير معنى جديد هو إحياء الأرض الموات ، فلهم ما خطوا وما حرثوا ، أما ما لم يخطوه ويحرثوه فليس لهم ذلك ، كى يحث الناس على الحرث والزرع .

٢٣ ـ ويبرز من عمليات تنظيم الدولة كذلك : تحديد حق الله فى الحرث والزرع والمال :

فقد رافق هذه الكتابات السابقة النص على حق الله تعالى فى الزكاة والصدقات . وتحديد هذا الحق فى كثير من الكتب بل رافق الكتابات السابقة أن هذه الحقوق رهينة بالإقامة على الإسلام .

وهذه نماذج سريعة من هذه الكتابات كذلك :

ـ وكتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال . فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لعبد يغوث بن وعلة الحارثى أن له ما أسلم عليه من أرضها وأشيائها ـ يعنى نخلها ـ ما أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وأعطى خمس الغنائم فى الغزو ـ لا عُشر ولا حشر ومن تبعه من قومه .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لبنى جوين الطائيين لمن آمن منهم بالله وأقام الصلاة وآتى الزكاة . . . أن لهم أرضهم ومياههم ، وما أسلموا عليه ، وغدوة الغنم من ورائها مبيتة يعنى : ما خلفت من الأرض وراءها فهو لهم .

٢٤ ـ المواثيق الشاملة والدستور الحاكم :

وحين تنتقل الكتابة من مستوى القبيلة إلى الدولة نجد : المواثيق الشاملة والدستور الحاكم . ونلحظ ذلك على سبيل المثال فى كتابته لنجران ، وكتابته لحمير ، وكتابته

للمنذر . فكتابة نجران وميثاق أهلها هو دستور دولة رعاياها غير مسلمين جاء فيه :

وكتب رسول الله ﷺ لأهل نجران : « هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لأهل نجران أنه كان له عليهم حكمه فى كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو سوداء أو رقيق فأفضل عليهم . وترك ذلك كله على ألفى حلة من حلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة . وفى كل صفر ألف حلة ، كل حلة أوقية فما زادت حلل الخراج أو نقصت عن الأواقى فبالحساب . وما قبضوا من ودروع أو خيل أو ركاب أو عرض إخذ منهم بالحساب كذلك. وعلى نجران مثواة رسلى عشرين يوماً فدون ذلك . ولا تحبس رسلى فوق شهر. وعليهم عارية ثلاثين ودرعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيرا إذا كان باليمن كيد . وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلى أن يؤدوهم».

هذه هى الواجبات ، فماذا لهم من الحقوق ؟

« ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ، ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً على وقفانيته . وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . وليس رباً ولا دم جاهلية . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين لنجران . ومن أكل رباً من ذى قبل فذمتى منه بريئة . ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة النبى أبداً حتى يأتى الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ». شهد أبو سفيان بن حرب ـ وغيلان بن عمرو. ومالك بن عوف النصرى والأقرع بن حابس . وهذا نموذج دستور دولة إسلامية رعاياها مسلمون وغير مسلمين .

ـ وكتب رسول الله ﷺ إلى بنى عبد القيس :

« من محمد رسوله الله إلى الأكبر بن عبد القيس أنهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله على ما أحدثوا فى الجاهلية من القُحمَ وعليهم الوفاء بما عاهدوا ، ولهم الا يحبسوا عن طريق الميرة ، ولا يمنعوا صوب القطر . ولا يحرم حريم الثمار عند بلوغه . والعلاء بن الحضرمى أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها . وأهل البحرين خفراؤه من الضيم ، وأعوانه على الظالم . وأنصاره فى

الملاحم. عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوا قولاً ، ولا يريدوا فرقة . ولهم على جند المسلمين الشركة فى الفيء والعدل فى الحكم ، والقصد فى السيرة . حكم لا تبديل له فى الفريقين كليهما ، والله ورسوله يشهد عليهم » .

٢٥ ـ الزعامات الدينية التى استجابت للفطرة :

وإذا كانت معظم القبائل والزعامات العربية وثنية . فإن هناك العديد منها قد دخل فى اليهودية أو النصرانية .

وأبرز زعيمين استجابا لفطرتهما وتخليا عن عقدهما الدنية هما سيد طيئ عدى بن حاتم ، وسيد بنى عبد القيس الجارود بن معلى العبدى . وعظمة التعامل النبوى هى التى قادتهما إلى الدخول فى هذا الدين .

فمع سيد طيئ حين جاء باحثاً ولم يأت مسلماً . فقد دخل على رسول الله ﷺ والصليب فى عنقه (. . ثم قال: « يا عدى أسلم تسلم ». فقلت : إنى على دينى . فقال :« أنا أعلم بدنيك منك ». فقلت : أنت أعلم منى بدينى ؟ قال : « نعم »، يقولها ثلاثاً . « ألست ركوسياً ؟ » فقلت: بلى . قال:« ألست ترأس قومك ؟ » قلت : بلى . قال: « أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟» قلت : بلى والله . إنه نبى مرسل يعلم ما يجهل . قال :« فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » . ثم قال :« يا عدى لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين أن رأيت خصاصة من عندنا . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ،فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم،والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ». وفى رواية :« لتفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز ». قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : كنوز كسرى بن هرمز ،قال عدى : فأسلمت . فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد استبشر .

وأما الجارود بن معلى العبدى رضي الله عنه : فقد أضمر ابتداءً أموراً سأل عنها رسول الله ﷺ .

(قال الجارود: إن كنت يا محمد نبياً فأخبرنا عما أضمرنا عليه. فخفق رسول الله ﷺ

خفقة كأنها سنة ثم رفع رأسه ، وتحدر العرق عنه فقال : « أما أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألنى عن دماء الجاهلية، وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة. ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مشدود. ولم يزدها الإسلام إلا شدة ولا حلف فى الإسلام. ألا وإن الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغدو برفد وتروح بمثله » . . . وعند ابن إسحاق : أن الجارود لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، ورغبه فيه . فقال : يا محمد ، إنى كنت على دين وإنى تارك دينى لدينك أفتضمن لى دينى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه » . فأسلم وأسلم أصحابه) .

وتبدو تلك الفطرة الصادقة كذلك عند أخى أسقف نجران لأمه (وهما يسيران إذ كبت يبشر ناقته - أخى الأسقف) . فتعس بشر غير أنه لا يكنى عن رسول الله ﷺ . فقال له الأسقف : قد والله تعست نبياً مرسلا. فقال بشر : لا جرم والله لا أحل عقداً حتى آتى رسول الله ﷺ . فصرف وجه ناقته نحو المدينة)

٢٦ - موقفه ﷺ تجاه الزعامات الذين جاءهم ما عرفوا كفروا به :

وأبرز هؤلاء يهود المدينة ونصارى نجران . وإن كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه حبر يهود الوحيد الذى أسلم . بينما بقى الآخرون على دينهم كما مثل هذا الموقف حيى بن أخطب . وقد عرُضِ للموت بقول : لا بأس ، ملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل . والله ما لمت نفسى فى عدواتك ولكنه من يخذل الله يخذل .

وأولاء نصارى نجران . كشف أمرهم عندما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الملاعنة أو المباهلة ودعا وفد نجران إلى الإسلام . فقال العاقب السيد وأبو حارثة بن علقمة : قد أسلمنا يا محمد . فقال : « إنكما لم تسلما » . قالا : بلى، قد أسلمنا قبلك . قال : « كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما : عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولداً » . ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول فى عيسى ابن مريم ، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى ، يسرنا إن كنت نبياً أن نعلم قولك فيه . وذكر لهم قول الله تعالى فيه . فحاجوا بالباطل (فقال لهم : إن الله تعالى أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم . . . فقالوا : أخرنا ثلاثة أيام . . . فخلا بعضهم إلى بعض وتصادقوا . فقال السيد العاقب : والله يا معشر النصارى، لقد

عرفتم أن محمداً لنبى مرسل . ولئن لاعنتموه ليخسفن بأحد الفريقين . إنه للاستئصال لكم . وما لاعن قوم نبياً فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم . قالوا : فما العمل ؟ فقال السيد : فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم) .

وتمت الموادعة . وتم الميثاق الذى تحدثنا عنه حيث قبلوا أن يحكم فيهم كما قال شرحبيل سيدهم :

إنى قد رأيت خيراً من ملاعنتك . فقال : « وما هو ؟» فقال : حكمك اليوم إلى الليل ، وليلتك إلى الصباح . فما حكمت فينا فهو جائز . وأبوا أن يلاعنوه .

كما قامت دولة الإسلام فى خيبر . (وكانت خيبر مما أفاء الله عز وجل على رسول الله ﷺ خمسها رسول الله ﷺ وقسمها بين المسلمين ـ ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال . فدعاهم رسول الله ﷺ فقال :« إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها. وتكون ثمارها بيننا وبينكم وأقركم ما أقركم الله ؟»، فقبلوا . فكانوا على ذلك يعملونها . وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم الثمر ،ويعدل عليهم فى الخرص) .

٢٧ ـ الكتابة إلى الزعماء العرب :

لقد كانت مراكز فى الجزيرة العربية تمثل ثقلاً حضاريًا . وقوة ضاربة للعرب بحيث يمثل كل مركز نواة دولة مستقلة . وكان هؤلاء الملوك والقادة فى المدن العربية الكبرى؛ مكة ، المدينة ، عمان ، البحرين ، صنعاء ، حمير ،غسان ، اليمامة ،الطائف .

وقد أدرك رسول الله ﷺ أهمية هذه الدول،وأهمية قادتها . فأعطاه اهتمامًا خاصًا بمراسلة قادتها . ودعوتهم إلى الإسلام .

أما مكة والمدينة والطائف فقد سبق أن تحدثنا عنها وعن دخولها فى الإسلام فى الأجزاء السابقة ونعود إلى الحديث عن بقية المدن العربية .

ـ فاليمامة عاصمة نجد كان فيها هوذة بن على الحنفى . قالوا : وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوذة بن على الحنفى يدعوه إلى الإسلام . وكتب معه كتابًا .

ـ والبحرين عاصمة هجر : بعث رسول ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن

الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام . وكتب إليه كتابًا .

ـ وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ملكى عمان وهما من الأزد . والملك منها جيفر يدعوهما إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتابًا ، وختم الكتاب .

ـ وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى . وهو أحد الستة . إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا .

ـ وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى إلى ذى القلاع (الحميرى) بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع وإلى ذى عمرو يدعوهما إلى الإسلام .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بنى الحارث بن كعب .وأساقفة نجران وكهنتهم . ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير .

ـ وكتب رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ يدعوه إلى الإسلام . وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرى . فكتب إليه مسيلمة جواب كتابه . ويذكر فيه أنه نبى مثله .

ـ وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير : سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله ،وأن الله وحده لا شريك له . . . وبعث بالكتاب مع عياش بن أبى ربيعة المخزومى .

ـ وكتب رسول الله ﷺ لوائل بن حجُر لما أراد الشخوص إلى بلاده . قال : يا رسول الله، اكتب لى إلى قومى كتاباً . فقال رسول الله ﷺ :« يا معاوية اكتب له إلى الأقيال العباهلة » .

ـ وأما صنعاء ، فقد دخلت مبكرة فى الإسلام حين قال رسول الله ﷺ لرسولىِ الملك باذان : « قولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ كسرى . وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له ، إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك .وملكتك على قومك من الأبناء » فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه . وقال له شيرويه فى كتابه . انظر الرجل الذى كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى . وكان ذلك سبباً فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن . وكان

رسول الله ﷺ جمع لباذام حين أسلم وأسلمت اليمن عمل اليمن كلها وأمره على جميع مخاليفها .

٢٨ ـ الاعتماد على جيل الشباب لحمل لواء الدعوة ، وحمل لواء السلطان والحكم:

لقد كان رسول الله ﷺ نافذ البصر فى فقه نفوس العرب وقياداتهم . فقد كان يعتمد دائماً على عنصر الشباب المؤمن كى يبث الدعوة إلى الله فى صفوف القبيلة . وإما أن يكون الشاب أميراً وداعية .

وإما أن يكون داعية فقط. فعندما فتحت مكة وفيها الملأ من قريش. اختار رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد ابن العشرين من عمره ليكون والى مكة. وحين أسلمت ثقيف . اختار رسول الله ﷺ عثمان بن أبى العاص أصغر من فى الوفد ليكون واليه على الطائف . وبنظرة سريعة إلى الدعاة والولاة يلاحظ أنهم هم السند الرئيسى للدعوة . والمعتمد الأساسى . وليس قادة القبائل وزعاماتها التقليدية . وهذه صورة الأرض العربية حين توفى رسول الله ﷺ .

فعن القاسم بن محمد قال : توفى رسول الله ﷺ وعلى مكة وأرضها عتاب بن أسيد والطاهر بن (١) أبى هالة عتاب على بنى كنانة ، والطاهر على عك ،وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبى العاص ومالك بن عوف النصرى ، عثمان على أهل المدر ومالك على أهل الوبر وأعجاز هوازن ، وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزم وأبو سفيان بن حرب عمرو بن حزم على الصلاة ،وأبو سفيان بن حرب على الصدقات ، وعلى ما بين رمع وزبيد إلى حد نجران خالد بن سعيد بن العاص ،وعلى همدان كلها عامر بن شهر . وعلى صنعاء فيروز الديلمى يسانده داذويه وقيس بن مكشوح وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مارب أبو موسى الأشعرى. وعلى الأشعريين مع عك الطاهر بن أبى هالة. ومعاذ بن جبل يعلم القوم .

وعلى هذه القيادات تم الاعتماد فى إنهاء ردة اليمن الكبرى ، وإعادة الإسلام من جديد .

٢٩ ـ المعرفة بالتاريخ العربى :

فقد كان تاريخ العرب وأيامهم وأمجادهم صفحة وضيئة أمام ناظرى رسول الله ﷺ.

---

(١) هو ابن خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ .

يتعرف من خلاله على أمجاد كل قبيلة وثاراتها .وأهدافها .وعقد زعمائها . ومن النماذج التى تبرز هذه الظاهرة ما يلى :

ـ قال رسول الله ﷺ لوفد بنى الحارث بن كعب :« بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ » قالوا : لم نكن نغلب أحداً .قال :« بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ». قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق . ولا نبدأ أحداً بظلم . قال :« صدقتم » . وأمر عليهم قيس بن الحصين .

ـ حديثه ﷺ عن زيد الخيل الطائى . قال : ما ذكر رجل من العرب إلا رأتيه دون ما ذكر إلا ما كان من زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه .

ـ وفى ثنائه ﷺ على أشج عبد القيس وهو المقيم فى البحرين قال له :« إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله : الحلم والأناة » .

ـ حديثه ﷺ وقد التقى مع منقذ بن حبان من أهل هجر . قال : أمنقذ بن حبان. كيف جميع هيأتك وقومك . ثم سأله عن أشرافهم رجل رجلٍ يسميهم بأسمائهم . فأسلم منقذ بن حبان .

ـ لما انتهى فروة بن مسيك المرادى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله :« يا فروة ، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟ » قال : يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوءه ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ :« أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا » .

ـ وحين افتخرت بكر بقس بن ساعدة قال : ليس هو منكم . هذا رجل من إياد وتحنف فى الجاهلية . فوافى عكاظاً . والناس مجتمعون فكلمهم بكلامه الذى حفظ عنه .

٣٠ ـ ومن خلال هذه المعرفة ، كان ﷺ يوظفها للثناء على القبائل :

ـ ففى الأنصار : «خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث ابن الخزرج ثم بنو ساعدة . وفى كل دور الأنصار خير » .

ـ وفى ثنائه على الأحمسيين : « اللهم بارك فى أحمس وخيلها ورجالها » سبع مرات .

ـ وفى ثنائه على الأزد :« نعم الوفد الأزد ، طيبة أفواههم ، برة أيمانهم ، تقية قلوبهم ».وفى رواية :« الأزد منى وأنا منهم أغضب إذا غضبوا ويغضبون إذا غضبت وأرضى لهم إذا رضوا ويرضون إذا رضيت » .

ـ وفى ثنائه على أسلم وغفار : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها » .

ـ وفى ثنائه على الأشعريين : « الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك » .

ـ وفى ثنائه على أهل اليمن عامة : « أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً الإيمان يمان والحكمة يمانية » .

ـ وفى ثنائه على وفد عبد القيس قال :« سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق » .

ومثل هذا الثناء : « كان يربط القبيلة كلها بالإسلام وبحب الإسلام » .

٣١ ـ ومن أجل الدعوة إلى الله عز وجل لم يكن هناك من حرج فى الاستفادة من كل عوامل القرابة والصلة :

ـ ففى حنين ، وحيث كانت سليم بفوارسها الألف على رأس الجيش الإسلامى ، وعندما احتدمت المعركة بين المشركين والمسلمين . قال ﷺ مفتخراً : « أنا ابن عبد المطلب أنا ابن العواتك من سليم » .

ـ وحين جاءه وفد بنى عذرة ، قال : « من القوم ؟» فقال متكلمهم : من لا تنكر نحن بنو عذرة إخوة قصى لأمه نحن الذين عضدوا قصياً . فقال ﷺ :« مرحباً بكم وأهلاً ما أعرفنى بكم ».

ـ وقال ﷺ لوفد هوازن حين قالوا له : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك . إضافة إلى الشعر الذى قالوه : « أموالكم أحب اليكم أم نساؤكم ؟ قالوا : نساءنا . فشفع رسول الله ﷺ لهم عند قومه وشفع أصحابه عند أقوامهم حتى أعادوا نساء هوازن لرجالها .

ـ وعك المقيمة فى اليمن قال فيها رسول الله ﷺ :« اجعلوا عمالة عك فى بنى أبيها معد بن عدنان » . وجعل عليها الطاهر بن أبى هالة رضي الله عنه ، وكذلك إكرام الشيماء وقومها أخته من الرضاعة .

٣٢ـ تنوع وسائل الدعوة إلى الله، وحسن الدخول إلى القلوب بمفاتيحها المتعددة :

ـ فضمام بن ثعلبة . لا تعدو دعوته قوله ﷺ : اللهم نعم ، نعم ». وقاد هذا قوم ضمام كلهم إلى الإسلام .

بينما نجد وافد بنى عقيل بن كعب لقيط . لا يدع سؤالاً إلا ويجيب عليه رسول الله ﷺ حتى يصف له أحوال الآخرة كلها كأنها رأى عين .

ـ أما وفد صداء فقد وجه جيشاً لحربهم فيأتيه رجل واحد يقول له : يا رسول الله، قد جئتك وافداً على من ورائى . فاردد الجيش . وأنا لك بإسلام قومى وطاعتهم فيوقف ﷺ تحرك الجيش كله ؛ لتعهد أخى صداء بذلك ونقد تعهده وجاء وفد منهم من خمسة عشر رجلاً فأسلموا وبايعوا فقال له رسول الله ﷺ : « يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك » . فيقول : بل الله هداهم للإسلام .

ـ وهذا وفد رابع لم يدعهم إلى الإسلام ، إنما اشترى منهم . قال :« أتبيعونى جملكم هذا ؟ » قالوا : نعم بكذا وكذا صاعاً من تمر . قال طارق : فما استوفينا مما قال شيئاً حتى أخذ بخطام الجمل وانطلق به . فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها .

قلنا : ما صنعنا ، والله ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمناً . فقالت المرأة التى معنا :

« لا تلاوموا . فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم ، والله لقد رأيت رجلاً كأن وجهه شقة القمر ليلة البدر . أنا ضامنة لثمن جملكم ؛ إذ أقبل رجل فقال : « أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ : هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا واستوفينا ثم دخلنا المدينة فلما دخلنا المسجد فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته :

« تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ؛ أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك » . فأقبل رجل فى نفر من بنى يربوع ، وأقام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ،إن لنا فى هؤلاء دماً فى الجاهلية . فقال :« لا تجنى أم على ولد » ثلاث مرات .

ـ وهذا عبد الرحمن بن أبى عقيل الثقفى يقول : انطلقت فى وفد ثقيف وما فى الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه . فلما خرجنا بعد دخولنا عليه فخرجنا وما

فى الناس رجل أحب الينا من رجل دخلنا عليه .

٣٣ ـ الاستفادة من الطاقات العالمية :

فباذان والى اليمن وصاحب الخبرة العريقة الإدارية فيها وعده رسول الله ﷺ إن أسلم أن يبقيه على ملكه . وأسلم . وكان هو والطبقة السياسية التى معه منطلق الإسلام في اليمن . ولا أدل على مدى قدرته الإدارية ، وعبقريته السياسية . من أن رسول الله ﷺ بعث عشرة ولاة إلى اليمن بعد وفاته . ولم يجرؤ الأسود العنسى على الخروج بردته إلا بعد وفاة باذان ومع أنه فارسى فإذا حكم بالعدل وبنور الإسلام فلا حرج من استمراره فى ذلك . ولا داعى لفتح جبهة فارس على المسلمين بخلعه .

٣٤ ـ اعتماد الولاة من أبناء القبائل التى تحكمها ما أمكن من سبيل إلى ذلك :

فطبيعة العرب تألف أن يكون عليهم واليهم من غيرهم . وكذلك طبيعة العجم ، ومن أجل هذا حرص رسول الله ﷺ استعمال الزعماء المحليين عندما يطمئن إلى دينهم، وإلى حكمهم بشريعة الله لا بشريعة الجاهلية التى كانوا يحكمون بها . ومن فقهه لنفسياتهم كان يتم ذلك . فقد أبقى ﷺ على النجاشى ، والمنذر بن ساوى العبدى وبنى الجلندى ملكى عمان . وأقر زعامة عدى بن حاتم وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال على عشائرهم .

٣٥ ـ إقامة الدولة العربية القومية :

وهذه الدولة التى ضمت شمل العرب جميعاً فى الجزيرة العربية . ولأول مرة فى تاريخ العرب على الأرض . ولم تقم هذه الدولة من منطلق قومى إنما قامت من منطلق إسلامى عقدى. لكن الشعوب التى تحكمها هى العرب من أقصى الشمال فى تبوك ودومة الجندل إلى أقصى الجنوب فى عدن . ومن أقصى الشرق فى عمان والبحرين إلى أقصى الغرب حيث الساحل الغربى للبحر الأحمر كله . وكان يعهد فى تنفيذ الأحكام الشرعية إلى مبعوثين يبعثهم ﷺ على الصدقات ، وتطبيق الزكاة . وتحقيق العدالة فى توزيع الأرض. ومنع ظلم القوى للضعيف. (فقد بعث المهاجر بن أبى أمية بن المغيرة إلى صنعاء وزياد بن لبيد الأنصارى إلى حضرموت وعدى بن حاتم إلى طيئ وأسد فى الشمال ومالك بن نويرة على صدقات بنى تميم والعلاء بن الحضرمى على البحرين وعلى بن أبى طالب إلى نجران، وهكذا كانت الدولة منضبطة سياسياً واقتصادياً وتربوياً إسلامياً. واجتماعياً من خلال المسلمين الأوائل الذين دخلوا فى هذا الدين من أبناء القبائل.

٣٦ ـ الدورات الدعوية لجميع القادة والمسؤولين :

فالقائد العسكرى خالد بن الوليد ﷺ خاض أعنف دورتين دعويتين فى اليمن نجح فى إحداها وأخفق فى الأخرى . حيث بقى ستة أشهر فى الجولة الأولى لم يستجب له أحد من القوم . وكان عليه أن يكف سلاحه ، ويضبط أعصابه ويتعامل بلسانه لا بسيفه مع الناس ولا يحمل السلاح عليهم . وهو المرشح للقيادة العليا للجيش الإسلامى بعد ذلك ، وعلى بن أبى طالب ﷺ وعمر بن الخطاب الذين بعثوا أكثر من مرة فى مهمات دعوية وليست مهمات قتالية . وبالمقابل فالعلماء لابد أن يساهموا فى إدارة الدولة . والاستفادة من طاقاتهم فى ذلك كما فعل ﷺ مع أبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل اللذين حملا أولاً مسؤولية دعوية . تحولت فيما بعد الى مسؤولية سياسية إضافة إلى مسؤولية الدعوة.

٣٧ ـ تربية الأمة :

فليس الأمر تسلطاً سياسياً ، وحكماً عسكرياً استبدادياً كما كان الحال فى كل محاولات الدول العربية السابقة وليس الأمر هو البناء من رأس الهرم .والاكتفاء بإصلاح القيادات والولاة والأمراء. إنما الأمر هو تربية أبناء الأمة كلها فى التجربة الرائدة الخالدة فى حجة الوداع . حيث تحرك مائة ألف من المسلمين من كل أنحاء الجزيرة العربية بأمرة الرسول ﷺ نحو حجة الوداع . وهى أوسع قاعدة عريضة أمكن لقاؤها مع رسول رب العالمين ، ومع رأس الدولة وقائد الأمة من جهة أخرى . وقد درسناها تفصيلاً فى مظانها ، وكيف أصبح هؤلاء المائة ألف بعد حضور هذا المعسكر الشهرى الكامل لا لتدريبات عسكرية ومواجهات حربية . إنما لتأدية نسك الحج الفرض الخامس للإسلام الذى يمثل الخضوع التام لله فى كل شىء من حياة المسلم بدون واسطة بين رسول الله وأبناء الأمة ، وكانت الأوقات كلها مفتوحة للسؤال والاستفسار والمشاركة والتوجيه والخطب الدعوية التامة وإقامة الشعائر فى كل واحد منسجم بحيث لا يطغى جانب على جانب .

٣٨ ـ توحيد الأمة وصهرها من خلال حجة الوداع :

فهذه الأمة بكل قبائلها وبطونها مشاركة فى هذه الرحلة العظيمة ، تصهر الفوارق، وتذيب الطبقية بين رئيس القبيلة وأبناء قبيلته وبين رؤساء القبائل المتنافسين المتصارعين.

إنه بناء الأمة خلفا لبناء العشيرة . فإذا كان بناء الدولة يتم من خلال الولاة والمصدقين . فبناء الأمة يتم من خلال المشاركة الكاملة دون أى تمييز بين قبيلة وقبيلة وبين أمير وأمير وبين أمير وسوقة . فالكل لهم موقعهم المباشر المتصل برب العالمين. إننا أمام أعظم حدث فى تاريخ هذه الأمة . هو تحولها من العشيرة إلى الأمة . فى عبودية خالصة لله. وتفهم عميق لدين الله ، وتنفيذ عملى لشريعة الله . وتوحد كامل وأخوة فى الله تجاوزت كل الفروقات والميزات التى كانت تحكم العرب من قبل . إن مركز الإشعاع النبوى واحد لكل عشرات الألوف هؤلاء . بإمكان كل فرد منهم إقامة الصلة المباشرة مع رسول الله ﷺ .

٣٩ ـ النساء والرجال سواء فى عملية البناء :

فهؤلاء المائة ألف لا ميزة فيهم للرجال على النساء . فالمرأة تأتى لتسأل . والطفل يأتى ليسلم . ومن حق كل امرأة أن تتصل برسول رب العالمين وأمير المؤمنين بدون حاجز ولا قيد . فلم يشهد مؤتمر فى الأرض العربية مثل هذه المساواة منذ أن وجد العرب . وكل امرئ فى هذه الحجة أو امرأة عليها التكاليف نفسها دون تميز . فشعائر الحج لا تميز فيها بين النساء والرجال ، والتعلم ، وحضور الخطب . والتفقه فى دين الله ، والاتصال برسول الله . حقوق ثانية دون تمييز أو تفضيل بين الفريقين . لقد تم بناء الأمة من الرجال والنساء معاً فى كل واحد . وهم عند الله سواء . أقربهم إلى الله تعالى . أتقاهم له . ويأخذون عن رسول الله ﷺ بمستو واحد . قد يفوق فيه الكثير من النساء على الرجال فى التلقى والتربية والطاعة والفهم . وشهدوا جميعاً حفل حقوق الإنسان وحقوق المرأة ، التى أعلنها سيد الخلق ﷺ فى عرفات ، وفى مِنى فى أكثر من مرة وأكثر من خطبة . إنه مجتمع جديد يقوم على الاضطلاع الكامل بالمسؤولية بين الرجال والنساء ، ولم تكن المرأة مبعدة عنه . فهذا رسول الله ﷺ قد حضر معه نساؤه التسع ، وذاك الصديق لا يمنع زوجته من المشاركة فى هذا البناء ، وقد ولدت ابنها فى ذى الحليفة ، وكم من امرأة وفتاة وطفل جاؤوا يسألون رسول الله ﷺ عن أحكام دينهم إنه لفخر لهذه الأمة ودرس لها فى مستقبلها أن تعطى المرأة دورها الفاعل فى المجتمع . ومهمتها العامة فيه . وليس دورها للبيت فقط وإلا لم تجشمت وحضرت هذا اللقاء . أو ليس جهاد المرأة الحج . أو لم تتكبد أعظم المتاعب والمشاق والصعوبات للمشاركة فى هذا المؤتمر الخالد العظيم ؟ حتى الأعياد والاحتفالات المشتركة بين الفريقين لم يحرم منها أحد فأيام منى كلها ، أيام أكل وشرب وذكر وبعال : أيام فرحة بتأدية هذه

الشعائر العظيمة فى الحج ، لم تكن خاصة بالرجال وحدهم ؛بل كانت عشرات الآلاف من الأسر مشاركة فيها تأكل اللحم ، وتشرب ، وتستمتع ، وتنام ، وتسمع وتتفقه ، وتؤدى الشعائر وتتحدث وتفرح دون قيد على أحد . إن هذا الحدث الجلل الضخم كان هو أساس انبثاق الأمة فى كل موحد ، وتخط لعهود العشيرة والقبيلة والفرد لبناء الأمة المؤقتة الخالدة . والتى انطلقت بهذا الدين فى الأرض . بعد شرف المشاركة العظيمة بهذا المجد .

٤٠ ـ السهر على بناء الدولة وضبط حدودها :

فلا نجد فى هذا الدين أبداً طغيان جانب على جانب فالكل السياسى والاجتماعى والعسكرى والدينى والثقافى فى إطار واحد . ورسول الله ﷺ الذى عاد إلى المدينة وقد أكرمه الله تعالى بأعظم تشريف وشهاده له بأداء الأمانة .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]
﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر] .

وكان القائد الأعظم ﷺ فى الثمانين يوماً المتبقية من حياته . يتابع عملية البناء . للدولة وتثبيت أركانها .وبناء مؤسساتها . وكانت اليمن تؤرقه كثيراً بعد وفاة باذان فبعث الولاة فيها فى كل فج . وعندما وقعت ردة الأسود العنسى ، تابعها رسول الله ﷺ بأدق تفاصيلها ، ووضع الخطط الكاملة لإنهائها . وبعث لكل الطاقات داخل اليمن وخارجها للمشاركة فى إنهائها . واختار الشخصيات الفدائية العظمى لتنفيذ مهمة إنهائه حرباً أو غيلة . وبقى يتابع أخبارها من على فراش مرضه . وجاءته أخبار الانتصارات ومقتل الأسود ليلة وفاته ﷺ . كما بقى عليه الصلاة والسلام تؤرقه الحدود الشمالية للدولة . بعد الخطط التى شهدناها فى الحدود الجنوبية . وكان أن أصدر أمره ﷺ ببعث جيش إلى خارج حدود جزيرة العرب ،جيش مغير دون صدام مباشر مع دولة الروم القائمة .ليبث الرعب فى صفوف العدو ، ولا تحدثه نفسه أن يمد بصره لأرض الإسلام.

٤١ ـ تنمية روح الثأر ضمن الإطار الإسلامى :

ففى الوقت الذى حارب فيه رسول الله ﷺ ثارت الجاهلية . ودماءها ، ووضعها كلها تحت قدميه وكان أول دم وثأر وضعه هو دم ابن عمه ربيعة بن الحارث الذى قتلته

هذيل . فى الثأر لأبيه الذى قتل فى أرض الشام . ولم يكتف ﷺ بذلك ،بل أوكل له قيادة الجيش . ووضع تحت تصرفه كل رؤساء الأركان الذين حضروا الحروب خلال التاريخ الأسلامى كله . وليكونوا جنوداً تحت إمرته يستشيرهم فى كل نازلة . فالثأر هنا ليس ثأراً جاهلياً إنما هو ثأر من الكفار الذين قتلوا المسلمين .

٤٢ ـ تنميته ﷺ روح الانضباط والطاعة فى الصف الإسلامى :

فحين يستجيش رسول الله ﷺ كل الطاقات الإسلامية والخبرات القتالية للقتال فى الشام ضد الروم . لم يكن قد أعلن بعد من هو قائد الجيش . وعندما أعلن تكليف أسامة بذلك . قام بعد التردد فى صفوف المقاتلين . وفكر بعضهم فى الانسحاب من الجيش زمن أبى بكر أو فى أيام النبى ﷺ ، وخرجت الاحتجاجات إلى العلن . مما اضطر رسول الله ﷺ أن يخطب قائلاً : « أيها الناس فما مقالة بلغتنى عنكم فى تأميرى أسامة بن زيد . ولئن طعنتم فى إمارتى أسامة . لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله . وايم الله إن كان للإمارة خليقاً وإن ابنه بعده لخليق بالإمارة . وإن كان من أحب الناس إلى . وإن هذا أى أسامة من أحب الناس إلى» .

٤٣ ـ دور المرأة فى العمل الفدائى :

وليس اختيار أسامة لقيادة الجيش بمختلف عن مشاركة أزاد فى قتل زوجها الأسود العنسى فهى الموتورة الثائرة من مقتل زوجها الشهيد شهر بن باذن . ومن أخذها سبية إلى الأسود . فهى تنز حقداً عليه . وقد شاركت فى العمل الفدائى فى كل مراحله ، فى التخطيط والتنفيذ والتمويه . وفى رفع المعنويات للمقاتلين . وكان الشباب الذين شاركوا فى هذا العمل طاقات عظيمة من القوة والفتوة . فهم جشيش وداذويه وفيروز إضافة إلى القائد المحنك قيس بن مكشوح رضي الله عنه ، وكان ذكاؤهم فى فهم الساحة ، ومعرفة العدد ، وثغراته ، ومواطن القوة فيه هو الذى ساعدهم فى نجاح هذه المهمة الضخمة ، فقد كانت العملية اغتيالاً مع ثورة شعبية بقيت مخفية حتى تم إلقاء رأس الأسود لجنوده ،فتحركت القوات الإسلامية للمواجهة فى اللحظة الحاسمة . واشتبكت فى معركة مع قوات المرتدين .

٤٤ ـ عظمة التربية فى تجاوز محنة الوفاة :

فقد وقعت الزلزلة ابتداء فى تقبل خبر الوفاة بين تكذيب وتردد وقبول . ومثل عمر رضي الله عنه معسكر الرافضين لفكرة الوفاة ، والتهديد بالموت أو القتل لمن يثيرها ، بينما قاد

أبو بكر رضي الله عنه بعد تمهيد العباس لذلك إلى مواجهة المحنة بعظمة الإيمان، الذى فى قلبه، فلم يفق الصديق المؤمنين بصلاته وعباداته إنما فاقهم بإيمانه ، الذى استوعب الوفاة ووظفها فى طريقها الصحيح .

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. وتلا قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران] ويا لها من كلمة لم يحمل التاريخ لها مثيلاً بعد كلام الأنبياء والمرسلين . كلمة خلدت أمة . وصاغت خطاً فى حياتها واستأنفت بنيانها من جديد بعد فقدان بانيها الأعظم ﷺ . ولم تكن القصة قصة عمر رضي الله عنه . إنها قصة الأمة كلها التى لم تكن تريد أن تقتنع بإن قائدها وحبيبها ورسولها وحياتها قد غادرها إلى غير رجعة وقد عاشت عشر سنين كوامل معه فى كل لحظة ، وكل نأمة ، وفى كل موقف. إنها شريان حياتها ، فكيف تتصور فراقه وموته، والحياة بعده ؟ لقد تحول مجرى التاريخ في القلوب قبل أن يتحول فى الواقع ، وراحت الأمة كلها تتلو الآية الكريمة كأنها أنزلت فى التو، وحالت الخطبة البكرية دون وقوع الأمة فى ظلمات التأليه النبوى، إنها الساعة الأولى بعد وفاة النبى ﷺ أو الساعتان على أقرب تقدير تم تجاوز أعظم محنة فى تاريخ الأمة وانتهت فتنة كان من الممكن أن تودى بها بين تأليه أو ردة إلى الوثنية أو الشرك . فهل هناك أعظم من هذه التربية .

٤٥ ـ قمة التربية السياسية فى اختيار الصديق للخلافة :

وأعظم من عبر عن هذا الوعى سعيد بن زيد رضي الله عنه حين سأله عمرو بن حريث : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : فمتى بويع لأبى بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله ﷺ ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة .

فلا يزال جسده الشريف ﷺ مسجى . وخلال أقل من خمس ساعات . اتفق أهل الحل والعقد فى المدينة والمتمثلون بحزبى الأنصار والمهاجرين على اختيار الخليفة . وقد تمت الترشيحات ، والدعايات السياسية . وتم تقليب كل وجهات النظر المختلفة بين الفريقين . بحريه تامة . وفى دور الأنصار . أمكن نقل الخلافة منهم إلى المهاجرين .. وكانت قيادات الأنصار تتسابق بعد استعراض وجهات النظر كلها على بيعة الصديق رضي الله عنه ،حتى أنها سبقت الخليفة عمر رضي الله عنه وقائد الحملة الدعائية له ، وبلغت الصراحة

والوضوح حدهما الكامل حين أعلن على رضي الله عنه والزبير انتقادهما للمسارعة فى البيعة دون اشتراكهما فى المشورة . وحرمانهما من هذا الحق . كما قال على رضي الله عنه :

ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة . وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها . وإنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلى بالناس وهو حى ،ونحمد الله عز وجل على غضب على والزبير . فقد أصلا لنا أصولاً فى الفقه السياسى الإسلامى . من أهمها : أن مجلس الشورى لا بد له من الانعقاد بكامل أعضائه واستشارتهم . وعلى ضوء ذلك يتم اختيار خليفة المسلمين بالأغلبية . وما جرى لأبى بكر رضي الله عنه هو حالة استثنائية لا يقاس عليها كما قال عمر أمير المؤمنين عنها . (فلتة وقى الله شرها) . وعمر رضي الله عنه هو الذى وضع لنا كذلك أصلاً عظيماً من أصول الفقه السياسى الإسلامى وهو أن الذى يريد أن يستأثر بالخلافة أو السلطة دون رأى الأمة ودون رأى أهل الحل والعقد فيها . فقد عرَّض نفسه ، وعرَّض مرشحه للقتل. كما يقول عمر رضي الله عنه : (فمن بايع رجلاً على غير مشُورة من المسلمين فلا يتابع هو والذى بايعه تغرة أن يقتلا .

إنها أمة بلغت الرشد على يد نبيها وحق لها أن تمسك بمقود التاريخ.

وبعد :

فقد استعرضنا جوانب التربية السياسية منذ قدوم أول وفد إلى المدينة . خلال عامين كاملين . وكيف كان هدف رسول الله ﷺ هو الوصول إلى قلوب هذه القيادات والتأثير السلمى الإيمانى على هؤلاء الزعماء . وبفقهه لهذه النفوس ، وهذه المعادن كان يستعمل المفتاح المناسب لكل قلب ، والمخصص لكل معدن واستطاع عليه الصلاة والسلام فى أقل من سنتين أن يضم ثلاثة أرباع العرب وقياداتهم . وثلاثة أرباع الجزيرة العربية ودون أن يهريق قطعة دم . هذا من جانب ومن جانب أخر شهدنا تربية الأمة المسلمة بكل أشخاصها ورجالاتها وتنوع قبائلها من خلال حجة الوداع . وكيف كان هؤلاء المائة ألف . هم نواة الأمة العربية فى الأرض وتلقوا مباشرة من رسول الله ﷺ الصياغة المناسبة والتى تؤهلهم لأن يمضوا بهذا الدين فى الأرض . وكيف تم بنيان الدولة ووضع الأصول السياسية والعسكرية والإدارية لدولة الإسلام وكيف ساهم عنصر الشباب المتفتح ،الذى يمثل الجيل الجديد فى أن يكون هو القائد لعملية التغيير هذه فى القبائل العربية . فهل فى الدنيا كلها تربية تفوق هذه التربية ؟

الخاتمة

الخاتمة

لقد كان كما وصفه ربه عز وجل فى كتب النبين (يفتح الله به أعيناً عمياً ، وآذانا صماً وكما قال فيه عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وكما وصفه ربه عز وجل مع أمته : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة]. وهو الرحمة المهداة للبشرية الأمية كلها: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة] .

وكان سلاحه ﷺ هذا الكتاب المبين : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم] والبشرية بدونه شقاء ونكد . وهو الرحمة المنقذة لها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

لقد دانت جزيرة العرب كلها لهذا الدين ، ولهذا القائد . ولأول مرة فى تاريخ العرب كلهم يصبحون أمة واحدة فى جزيرة العرب على رأسها قائد واحد . وهو رسول رب العالمين .

ولم تشهد البشرية رسولاً على الإطلاق . مكن الله تعالى له الدين . كما مكنه لرسوله . فالرسل الآخرون إما أهلك الله تعالى أقوامهم حين عصوا رسلهم . وإما قتلتهم أممهم ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المائدة] .

أما هذه الرسالة . وهذا الرسول . فبعد أن تكونت القيادات الكبرى خلال عشرين عاماً من تاريخ الدعوة إلى الله بقيت هذه الأعوام الثلاثة . هى أعوام العمل الدعوى والتربوى والسياسى، ومن خلال عظمة سيد ولد آدم ، وعظمة الجيل الذى رباه ؛ أمكن أن تنقاد لهذه الدعوة ولهذا الدين أعتى الطغاة ، وأدهى العرب ، وأعظمهم سلطاناً ، وأشدهم بأساً، وأعظمهم فضلاً. انضم العرب لهذا الدين بكل مستوياتهم العليا والوسطى

والدنيا وبكل أنواع معادنهم ، دون حرب ودون قتال . إنما بالحكمة العظمى التى أوتيها سيد الخلق ؛ بل هو الحكمة كلها عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣] فالكتاب هو القرآن. والحكمة هو القرآن الذى يمشى على الأرض، وهو الذى مثل القرآن حياً فى هذه البشرية. هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فى عرض هذه المدرسة التربوية السياسية النبوية، التى أعادت صياغة القيادات العربية الجاهلية ، التى تنطلق من الهوى وتأليه الذات ، لتنطلق من الإيمان بهذا الدين رسالة للبشرية كافة . ويحملها مسؤولية إقامته واقعا على الأرض: وتمضى به فى ربوع العالمين حاملة هذه الرسالة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف] .

مكة المكرمة : غرة ربيع الثانى ١٤٢٢هـ .

د . منير الغضبان

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ولاة رسول الله ﷺ	٥
الوالى الأول : باذان الفارسى	٧
الوالى الثانى : النجاشى ملك الحبشة	١٦
الوالى الثالث : عتاب بن أسيد	٢٥
الوالى الرابع : مالك بن عوف	٣٥
مالك القائد الشاب المسلم	٤٥
الوالى الخامس : عثمان بن أبى العاص	٤٩
الفاتح	٥٨
فتح إصطخر	٥٨
نقض جديد وملحمة جديدة	٦٠
فتح إصطخر ثانية	٦١
عثمان فى التاريخ	٦٢
الواليان السادس والسابع: ابنا الجلندى	٦٣
ردة مريعة وخطر داهم ثم نصر حاسم	٦٩
الوالى الثامن: المنذر بن ساوى	٧٣
الوالى التاسع : أبو موسى الأشعرى	٧٧
الفتى القرآنى	٧٨
الفتى المجاهد	٨٠

الأمير الشاب ———— ٨٧
الوالى العاشر : معاذ بن جبل ———— ٩١
صنم عمرو بن الجموح ———— ٩٥
الشهادات العليا التى نالها فى دراسته ———— ٩٦
الوالى الشاب ———— ٩٨
وفاة باذام والتغيرات فى اليمن ———— ١٠٢
الزلزال الأول ———— ١٠٣
الزلزال الثانى ———— ١٠٤
لعل الله أن يجبرك ———— ١٠٥
معاذ الداعية من اليمن إلى الشام ———— ١٠٨
الأمير الشاب الشهيد ———— ١١٠
اللحظات الأخيرة والوداع ———— ١١٢
أبو موسى أمير البصرة ———— ١٢٠
أبو بكر ﷺ أمير الحج فى العام التاسع للهجرة ———— ١٣٣
المفاصلة والتميز الإسلامى ———— ١٣٤
منهج قتال المشركين ———— ١٤٤
دعوة إلى الجهاد ———— ١٦٤
دعوة عامة للقتال ———— ١٦٦
دولة الإسلام ———— ١٧٧
أمر الدعوة ———— ١٧٧
أ ـ بعثه ﷺ أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ———— ١٧٨
ب ـ بعث خالد إلى بنى عبد المدان من بنى الحارث بن كعب ———— ١٨١

جـ ـ بعث خالد إلى همذان ثم علىّ رضي الله عنه ———— ١٨٣
د ـ فى سرية على بن أبى طالب إلى اليمن مرة ثانية ———— ١٨٣
هـ ـ بعث خالد بن سعيد بن العاص ———— ١٨٥
و ـ لقاء مع حبر الأحبار ———— ١٨٦
حجة الوداع ———— ١٩١
أولاً : الإعلام العام بالحجة ———— ١٩١
ثانيًا : ذكر خروجه ﷺ من المدينة ———— ١٩٥
ثالثًا : ذكر نزوله فى ذى الحليفة وبياته بها ———— ١٩٩
ذكر إحرامه ﷺ ———— ١٩٩
ولادة أسماء بنت عميس ———— ٢٠٠
صلاة ركعتين ———— ٢٠٠
ذكر إهلاله ﷺ وفى أى مكان أهل ———— ٢٠٠
ذكر الاختلاف فيما أهل به ———— ٢٠١
ذكر لفظ تلبيته ———— ٢٠١
حق نسائه رضوان الله عليهن ———— ٢٠٣
الحديث عن الهدى ———— ٢٠٧
رابعًا : مسيره ﷺ ثم نزوله بالعرج ———— ٢١٦
ذكر نزوله بالعرج ———— ٢١٦
ذكر مروره بالأبواء ———— ٢١٧
ذكر مروره بوادى عسفان ———— ٢١٧
ذكر مروره بسرف ———— ٢١٧
أسبوع جديد من المسيرة ———— ٢٢٦

خامسًا : دخول مكة والعمرة النبوية ——— ٢٣١
أولاً : الطواف ——— ٢٣١
ثانيًا : السعى ——— ٢٣٢
سادسًا : حجة النبى ﷺ ——— ٢٥٣
١ـ يوم التروية ——— ٢٥٣
٢ـ مسيره إلى عرفة ——— ٢٥٣
٣ـ خطبته ﷺ ——— ٢٥٣
٤ـ الوقوف بعرفة ——— ٢٥٤
٥ـ النفرة والمبيت بمزدلفة ——— ٢٥٤
٦ـ من المزدلفة إلى الرمى ——— ٢٥٤
٧ـ إلى المنحر ——— ٢٥٥
٨ ـ إلى البيت ——— ٢٥٥
سابعًا : أيام منى ——— ٢٩٣
أ ـ اليوم الثانى من أيام التشريق ——— ٢٩٣
ب ـ الخطبة الثالثة ——— ٢٩٤
ثامنًا : العودة إلى المدينة ——— ٣٠٩
الأيام الأخيرة من حياة النبى ﷺ ——— ٣٢١
وفاة باذان والولاة العشرة على اليمن ——— ٣٢١
خروج الأسود العنسى ——— ٣٢٢
خطة المواجهة النبوية ——— ٣٢٣
تنفيذ الخطة النبوية ——— ٣٢٧
الشيطان يكشف التحرك الإسلامى ——— ٣٢٨

تحرك القيادات الإسلامية ———— ٣٢٩
آزاد المرأة البطلة ———— ٣٣٠
خطر الموت يكشر عن نابه من جديد ———— ٣٣١
آزاد تضع الخطة ———— ٣٣٢
الأسود يقبض على جشيش فى الجرم المشهود داخل بيته ———— ٣٣٣
المرأة العظيمة تنقذ الموقف ثانية ———— ٣٣٤
المرأة العظيمة تنقذ الموقف ثالثة ———— ٣٣٥
المرأة البطلة تنقذ الموقف مرة رابعة ———— ٣٣٦
إلقاء رأس المتنبئ والأذان وكلمة السر ———— ٣٣٦
رسول الله ﷺ يتحدث عن المعركة ليلة وفاته ———— ٣٣٧
الفتى الثائر : أسامة بن زيد قائد لجيش الإسلام ———— ٣٣٩
التربية على الثأر ———— ٣٤٠
أسامة بن زيد أمير الجيش ———— ٣٤٢
تعليمات القتال ———— ٣٤٣
الجرف مكان التجمع ———— ٣٤٤
الأيام العشرة ———— ٣٤٤
كبار المحاربين والقادة العظام جنود فى الجيش ———— ٣٤٤
تذمر فى الجيش ———— ٣٤٥
رسول الله ﷺ يلقى درسه العظيم ———— ٣٤٥
محاولة أم أسامة تأجيل تحرك الجيش ———— ٣٤٦
الناس يمضون إلى المعسكر استعداداً للخروج ———— ٣٤٦
يوم الاثنين صباح الوفاة ———— ٣٤٦

لحظة الوفاة ———— ٣٤٧
بعث أسامة بعد خلافة الصديق ———— ٣٤٧
كبار المهاجرين والأنصار يعارضون بعث أسامة ———— ٣٤٧
أبو بكر رضي الله عنه مصمم على إنفاذ الجيش ———— ٣٤٨
استثناء وتغيير واحد ———— ٣٤٨
الأمر بتحرك الجيش بكل من كان اكتتب فيه ———— ٣٤٨
أبو بكر يشيع الجيش ———— ٣٤٨
القائد أسامة ماض فى غزوته ———— ٣٤٩
وصايا الرسول ﷺ أسامة بإرساله العيون وإسراع السير وسبق الأخبار وشن
الغارة والحرق والخراب ———— ٣٤٩
أوامر القائد أسامة قبيل المعركة ———— ٣٥٠
تنفيذ الخطة كاملة ———— ٣٥٠
أسامة يقتل قاتل أبيه على فرس أبيه ———— ٣٥٠
هرقل يجن جنونه لهذه الغارة ———— ٣٥١
معركة ـ كثكث ـ جانبية مفروضة ———— ٣٥١
عرس المدينة بعودة القائد الفتى أسامة ———— ٣٥١
القائد المظفر ابن التاسعة عشرة ———— ٣٥٢
ابتداء مرض رسول الله ﷺ ووفاته ———— ٣٥٣
الاثنين ٢٦ صفر ———— ٣٥٣
نهار الاثنين ٢٧ صفر ———— ٣٥٥
الثلاثاء ٢٨ صفر ———— ٣٥٦
الخميس (١) ربيع الأول ———— ٣٥٦

من الخميس (١) ربيع الأول إلى الأحد (٤) ربيع الأول ———— ٣٥٦
الأحد (٤) ربيع الأول ———— ٣٥٧
الاثنين (٥) ربيع الأول ———— ٣٥٧
الثلاثاء (٦) ربيع الأول ———— ٣٥٨
الخميس (٨) ربيع الأول ———— ٣٦٨
الجمعه (٩) ربيع الأول ———— ٣٧١
السبت (١٠) ربيع الأول قبل الوفاة بيومين ———— ٣٧٥
الأحد (١١) ربيع الأول قبل الوفاة بيوم ———— ٣٧٧
الاثنين (١٢) ربيع الأول ـ الساعات الأخيرة ———— ٣٧٩
أ ـ خبر مقتل الأسود ———— ٣٧٩
ب ـ بعد صلاة الفجر ———— ٣٧٩
جـ ـ اللحظات الأخيرة ———— ٣٨٢
د ـ الوفاة ———— ٣٨٣
هـ ـ الزلزلة ———— ٣٨٥
و ـ أشد الساعات هولاً على المسلمين ———— ٣٨٩
ز ـ بقية النهار والخلافة العظمى لأبى بكر ———— ٣٩٤
أهل الشورى المؤهلون لاختيار الخليفة ———— ٣٩٦
الأنصار ورأى الأكثرية ———— ٣٩٧
أكثرية المسلمين لا أكثرية الأنصار ———— ٣٩٨
أبو بكر يرشح عمر وأبا عبيدة ———— ٤٠٠
ازدواجية الإمرة : منا أمير ومنكم أمير ———— ٤٠١
ترادف الإمرة : مهاجرى : أنصارى ———— ٤٠٣

احتدام الموقف والتهديد بالقوة ———— ٤٠٣
ترشيح الصديق ومؤهلاته ———— ٤٠٣
النص يحسم الموقف ———— ٤٠٤
البيعة العامة ———— ٤٠٨
تجهيز رسول الله ﷺ ———— ٤١٣
غَسْلُ رسول الله ﷺ ———— ٤١٣
حفر قبره ———— ٤١٤
الصلاة عليه ﷺ ———— ٤١٤
ساعة دفنه ﷺ ———— ٤١٤
النازلون فى قبره ﷺ ———— ٤١٤
رثاؤه ﷺ ———— ٤١٧
خطوط ومعالم فى التربية السياسية ———— ٤٢٩
١ـ المرونة مع الزعيم حتى يفتضح وينفض الناس عنه ———— ٤٢٩
٢ ـ الاعتراف بالزعامة دون تسليمه سلطة معينة ———— ٤٢٩
٣ـ إكرام القائد . . . إلخ ———— ٤٣٠
٤ـ الحصار المادى والمعنوى لفرض الاستسلام وحقن الدماء ———— ٤٣٠
٥ـ عدم المساومة على الدين ———— ٤٣١
٦ـ الاعتماد على الحرب المعنوية . . . إلخ ———— ٤٣٢
٧ـ سلاح الشعر وسلاح المال للدعوة فى سبيل الله ———— ٤٣٢
٨ـ تزكيته للزعماء الذين لا يخشى غرورهم وبغيهم ———— ٤٣٣
٩ ـ الثقة بالمعدن البشرى النفيس أساس العمل ———— ٤٣٣
١٠ ـ تذليل نفسيات الطغاة المعتدين بقوتهم وزعامتهم ———— ٤٣٤

١١ ـ حيازته ﷺ على ثقة الناس جميعًا وخاصة المستضعفين ـــــ ٤٣٥

١٢ـ تنوع التعامل مع زعماء القبيلة الواحدة ـــــ ٤٣٥

١٣ـ تعامله ﷺ مع جفاة البدو ـــــ ٤٣٦

١٤ـ فتح صدره ﷺ لكل السائلين . . . إلخ ـــــ ٤٣٧

١٥ ـ ذاكرته ﷺ العظيمة . . . إلخ ـــــ ٤٣٩

١٦ـ استماعه ﷺ لشعر العرب ـــــ ٤٣٩

١٧ـ عظمة التربية النبوية فى التغيير الإنسانى ـــــ ٤٤٠

١٨ـ صحبة النبى ﷺ ولقاؤه أضحت هى مثار الفخر ـــــ ٤٤٢

١٩ـ المعجزات الحسية وبركة رسول الله ﷺ ـــــ ٤٤٣

٢٠ـ الدورات التربوية فى المدينة ـــــ ٤٤٥

٢١ـ إجازة الوفود وإكرامها وحسن استقبالها ـــــ ٤٤٥

٢٢ـ تحديد الملكية وتوزيع الأراضى ـــــ ٤٤٦

٢٣ـ تحديد حق الله فى الحرث والزرع والمال ـــــ ٤٤٧

٢٤ـ المواثيق الشاملة والدستور الحاكم ـــــ ٤٤٨

٢٥ـ الزعامات الدينية التى استجابت للفطرة ـــــ ٤٤٩

٢٦ـ موقفه ﷺ تجاه الزعامات . . . إلخ ـــــ ٤٥٠

٢٧ـ الكتابة إلى الزعماء العرب ـــــ ٤٥١

٢٨ـ الاعتماد على جيل الشباب لحمل لواء الدعوة . . . إلخ ـــــ ٤٥٣

٢٩ـ المعرفة بالتاريخ العربى ـــــ ٤٥٣

٣٠ـ معرفة الرسول ﷺ يوظفها للثناء على القبائل ـــــ ٤٥٤

٣١ـ الاستفادة من كل عوامل القرابة والصلة ـــــ ٤٥٥

٣٢ـ تنوع وسائل الدعوة إلى الله . . . إلخ ـــــ ٤٥٦

٣٣ـ الاستفادة من الطاقات العالمية ———— ٤٥٧
٣٤ـ اعتماد الولاة من أبناء القبائل . . . إلخ ———— ٤٥٧
٣٥ـ إقامة الدولة العربية القومية ———— ٤٥٧
٣٦ـ الدورات الدعوية لجميع القادة والمسؤولين ———— ٤٥٨
٣٧ـ تربية الأمة ———— ٤٥٨
٣٨ـ توحيد الأمة وصهرها من خلال حجة الوداع ———— ٤٥٨
٣٩ـ النساء والرجال سواء فى عملية البناء ———— ٤٥٩
٤٠ـ السهر على بناء الدولة وضبط حدودها ———— ٤٦٠
٤١ـ تنمية روح الثأر ضمن الإطار الإسلامى ———— ٤٦٠
٤٢ـ تنميته ﷺ روح الانضباط والطاعة فى الصف الإسلامى ———— ٤٦١
٤٣ـ دور المرأة فى العمل الفدائى ———— ٤٦١
٤٤ـ عظمة التربية فى تجاوز محنة الوفاة ———— ٤٦١
٤٥ـ قمة التربية السياسية فى اختيار الصديق للخلافة ———— ٤٦٢
الخاتمة ———— ٤٦٧
فهرس الموضوعات ———— ٤٦٩

هذا الكتاب

★ لقد بقى العرب ما ينوف عن ألف عام - قبل البعثة - وهم يتصارعون فيما بينهم، وعجزوا أن يؤسسوا دولة يتجاوزون فيها عالم القبيلة، ولا يخضعون إلا لقيمها فى الثأر وسفك الدماء حيث يرون فى ذلك أمجادهم وآثارهم !!

★ وما إن ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، وصدع النبى ﷺ بالحق فى أهلها حتى دانت الجزيرة كلها لهذا الدين وللنبى القائد ﷺ، ولأول مرة فى تاريخ العرب كلهم يصبحون أمة واحدة على رأسها قائد واحد وهو رسول رب العالمين.

★ والمؤلف - جزاه الله خيرا - إنما أراد أن يبين فى هذا الكتاب كيف استطاع سيد الخلق محمد ﷺ أن يسوس هذه الأمة سياسة نرى فيها عظمة المصطفى ﷺ فى فن سياسة الأمم وترويض القادة والعظماء، مما كان له أعظم الأثر فى تكوين جيل تربى على يد النبى ﷺ تربية سياسية استطاع بها أن يسوس الدنيا ويخضع الناس لله رب العالمين - بكل ثقة ورضا - تحت راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

★ كما لم يفت المؤلف أن يختم الكتاب بخطوط ومعالم فى التربية السياسية لتكون زادا ونبراسا لكل قائد يريد أن يأخذ القدوة والأسوة من النبى محمد ﷺ.

★ **ودار الوفاء** يسرها أن تقدم هذا الكتاب لقرائها الكرام راجية أن يعم به النفع والله من وراء القصد.

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب : ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس : ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
الوفاء للطباعة والنشر